لورنس
في بلاد العرب

مشاهدات تاريخية وسياسية

ترجمة: صالح عثمان

مراجعة: عيسى الحسن

لورنس
في بلاد العرب

لويل ثوماس

لورنس في بلاد العرب

مشاهدات تاريخية وسياسية

ترجمة: صالح علمان
مراجعة: عيسى الحسن

1
فارس عربي حديث

في يوم لم يكن ببعيد عن استيلاء الجنرال اللبني على مدينة القدس، كنت أقف بالصدفة أمام سوق خيري أقيم في الشارع المسيحي، محتجاً على صاحب دكان تركي بدين كبير السن يحاول أن يسلب مني اثني عشر قرشاً مقابل حفنة من التمر. وتحول انتباهي فجأة إلى مجموعة من العرب يمشون باتجاه بوابة دمشق. وحقيقة أن كونهم عربا لم يكن هو السبب في تحويل انتباهي من احتجاجي وتقريعي المطول ضد الكلفة العالية للتمر، إذ أن فلسطين، وكما يعرف جميع الناس، كان يسكنها من العرب عدد يفوق بكثير عدد اليهود. وإنما انصب اهتمامي وفضولي على رجل بدوي، وقف بعيداً عن رفاقه. كان يرتدي الكوفية والعقال والعباءة كتلك التي كانت ترتدى من قبل الحكام والملوك الشرقيين. وقد ثبّت على حزامه خنجراً قصير معقوفا يشبه خنجر أمير مكة، ذلك الخنجر الذي غالباً ما كان يوضع من قبل الأشراف المنحدرين من سلالة النبي (ﷺ).

كان الشارع المسيحي واحداً من الشوارع العامة الذي يحتوي على مشاهد وصور رائعة مختلفة الألوان والأشكال، مثله مثل تلك الشوارع العامة في الشرق الأدنى. وكان الشارع مكتظاً باليهود الروس، بلفائف شعورهم اللولبية المتدلية من رؤوسهم، والقساوسة اليونان الذين يضعون القبعات السوداء الطويلة على رؤوسهم ويرتدون العباءات الطويلة المتدلية، والبدو الصحراويين الذين يرتدون السترات المصنوعة من جلد الماعز التي تذكر بأيام النبي إبراهيم ﷺ، والأتراك الذين يرتدون السراويل الواسعة

الشبيهة بالبالونات، والتجار العرب الذين يرتدون العباءات المقصبة والطرابيش الزاهية، وجميعهم كانوا يتدافعون بمرافقهم في ذلك الممر الضيق للأسواق الخيرية والحوانيت والمقاهي والذي يؤدي إلى كنيسة القيامة.

لم تكن القدس وعاء صهر وإذابة. بل كانت مكاناً لالتقاء مختلف الناس من الشرق والغرب. ما جعل المميزات والأمور الغريبة والسمات الخاصة لكل فئة تمتاز وتتأكد، كما لو أنها ملخصة بحدة من قبل شمس الصحراء في لونين: أسود وأبيض، كالخصوصيات والميزات العرقية للمسلمين والمسيحيين واليهود. لذلك فالشخص الغريب لا بد أن يكون هناك شيء غير عادي بشأنه يجذب الانتباه إليه في شوارع هذه المدينة المقدسة. بيد أنه عندما مر هذا الشاب البدوي في ثيابه الملوكية المميزة، تحولت نظرات الحشود من الناس الواقفة أمام البازارات نحوه.

ولم يكن لباسه فحسب، ولا سموه وقامته الممشوقة التي تبلغ خمسة أقدام وتجعل كل بوصة فيه ملكاً أو خليفة متخفياً خارجاً أو قافزاً من صفحات رواية «ألف ليلة وليلة» وإنما كان وجهه اللافت للنظر. ذلك أن هذا الأمير لم يكن ليشبه أحد أبناء إسماعيل أو عبدا حبشيا بدويا، يبدو مثل واحد من أبناء ستيفانسون ذي الشعر الأحمر، ومع أنهم من سلالة قوقازية، إلاّ أن جلودهم قد لسعت بشمس الصحراء القاسية إلى أن أصبحت بشرتهم بلون حجارة اللافا البركانية. بيد أن هذا الشاب كان من دم وأصل اسكندنافي، تتدفق في شرايينه دماء الفايكنغ وتقاليد وعادات برودة البلدان البحرية والقصص الزاخرة بالأعمال البطولية.

إن أبناء إسماعيل البدو جميعهم يطلقون لحاهم كما كان أسلافهم يفعلون في الماضي. أما هذا الشاب الذي يضع خنجراً معقوفاً على خصره، فقد كان حليق الوجه. وكان يمشي بسرعة ويداه مطويتان وعيناه الزرقاوان غفلتا، بل ونسيتا بيئته الأصلية، وبدا وكأنه غارق في تأمل وتفكير داخلي.

كان انطباعي الأول عنه عندما نظرت إلى وجهه أنه ربما كان واحداً من الحواريين الشبان عاد إلى الحياة. فقد كانت تعابيره صافية وهادئة.

«من هو؟» سألت ملتفتا بتشوق نحو التركي الجشع، الذي أمكنه فقط اعتباره سائحاً انجليزياً صغيراً.

ورغم أنني كنت متأكداً أن بإمكاني الحصول على بعض المعلومات عنه من الجنرال ستورز، حاكم المدينة المقدسة إلا أنني قلت في نفسي: «من يمكن أن يكون؟» ولذلك فقد تحولت باتجاه قصر الحاكم الذي يقع خلف الجدار القديم بجانب حائط سليمان.

كان الحاكم هو الجنرال رونالد ستورز، الخليفة البريطاني لبونتيوس بيلات، وكان السكرتير الشرقي للمعتمد البريطاني في مصر قبل سقوط القدس بيد الانجليز، وحافظ لسنوات على علاقات حميمة مع سكان فلسطين. وكان يتكلم العبرية، واليونانية، واللاتينية، والعربية بنفس الطلاقة التي يتحدث بها اللغة الانجليزية. لقد كنت متأكدا أن بإمكانه أن يحدثني بشيء ما عن ذلك البدوي الأشقر الغامض.

قلت: «من هو هذا الشخص أزرق العينين، ذو الشعر الأشقر الذي يتجول في الأسواق وهو يضع حول خصره خنجرا معقوفا، الأمير.....؟».

ولم يدعني الجنرال حتى أن أنهي سؤالي بل إنه فتح بهدوء باب غرفة مجاورة. حيث كان يجلس هناك على نفس الطاولة فون فالكنهاين (الجنرال الألماني) ليعد خطته الفاشلة لهزيمة اللنبي، وكان الأمير البدوي يجلس هناك حينئذ، منشغلاً بعمق، ومتأملاً في كتاب كبير عن علم الآثار.

وعند تقديمه لي قال الحاكم: «أريدك أن تتعرف على الكولونيل لورنس، الملك غير المتوج».

وصافحني بخجل وبمزاج منعزل، كما لو أن فكره كان منشغلاً بكنز مدفون وليس بالأمور الحالية للعالم وقتذاك، والذي كان مليئا بالحملات العسكرية والحرب. وكانت تلك أول مرة تعرفت فيها على واحد من أكثر الشخصيات الخلابة للعصر الحديث، رجل يمكن أن يوصف على صفحات الكتب الرومانسية التاريخية جنباً إلى جنب مع كل من راليبح، دراك، كليف وجوردون[1].

---

(1) كتاب وشعراء في العصر الرومانسي.

كانت سنوات الحرب العالمية متخمة بالأحداث الملحمية، وخلال تلك الأحداث كان هناك شخصان بارزان جداً، مغامران ومندفعان، وظهرت حكايات نادرة عن أعمالهما يمكن أن تزود كُتّاب المستقبل بمواضيع ذهبية، كروايات حياة كل من يوليوس، والملك آرثر، وريتشارد قلب الأسد وما قدمته تلك الروايات للشعراء، والمؤرخين فيما بعد. وأول هذين الشخصين رجل طويل القامة جداً، يبلغ طوله ستة أقدام، وذو فك مربع، إنه قائد الفرسان البريطاني الباهر، الفيلد مارشال فيكاونت اللنبي، قائد الصليبيين للقرن العشرين، الذي اكتسب شهرة عالمية بسبب إخراجه الأتراك من الأرض المقدسة وتحقيق حلم الأجيال. والشخص الآخر هو ذلك الشاب حليق الوجه والذي رأيته مستغرقاً في بحثه الفني الأثري عن النقوش المسمارية التي اكتشفت على حجارة الآجر للعصر البابلي القديم، والذي كانت اهتماماته الرئيسية في الحياة: الشعر وعلم الآثار.

لم تكن الإنجازات المذهلة لتوماس ادوارد لورانس، ذلك الشاب خريج جامعة أكسفورد، معروفة للناس عند انتهاء الحرب العالمية الأولى. ومع ذلك، وبهدوء، ومن دون أية إعلانات وعناوين صحف مسرحية أو جعجعة وتطبيل، فقد ساهم في توحيد القبائل البدوية المتفرقة في حملة موحدة ضد مضطهديها الأتراك، الأمر الذي لم يتحقق منذ قرون من قبل خلفاء وسلاطين ورجال دولة.

لقد وضع لورانس نفسه في قيادة جيش شريف مكة، الذي أعلن فيما بعد ملكاً على الحجاز. وساهم في توحيد قبائل الصحراء الرحل، وفي إعادة الأماكن المقدسة الإسلامية لأبنائها وإخراج الأتراك من البلاد العربية إلى الأبد. ولقد حرر اللنبي فلسطين، الأرض المقدسة لكل من المسلمين والمسيحيين واليهود، كما ساهم لورنس في تحرير الجزيرة العربية، الأرض المقدسة لملايين المسلمين.

لقد سمعت عن هذا الرجل الغامض عدة مرات خلال أشهر من وجودي في فلسطين مع المارشال اللنبي. ووصلت الشائعة الأولى إلي عن لورانس عندما كنت في طريقي من إيطاليا إلى مصر. فقد أفضى إلي ضابط بحري استرالي بأن هناك رجلا انجليزيا يفترض بأنه كان يشارك في قيادة جيشٍ مقدامٍ من البدو في مكان ما من الصحراء الشاسعة

في الجزيرة العربية. وعندما نزلت في مصر سمعت حكايات مثيرة عن أعماله البطولية. كان اسمه يُذكر دائماً في نبرات ساكنة، لأن جميع الحقائق فيما يتعلق بالحرب في أرض ألف ليلة وليلة كانت في ذلك الوقت تحفظ بسرية.

وحتى ذلك اليوم الذي قابلته فيه في قصر الحاكم الانجليزي في القدس كنت غير قادر على تصوره كشخص حقيقي. لقد كان بالنسبة لي أسطورة شرقية فحسب، فكل من القاهرة والقدس ودمشق وبغداد، هي جميعها في الحقيقة مدن تقع في الشرق الأدنى، وهي مليئة بالرومانسية والمظاهر المختلفة الملونة. ومجرد ذكرها يكون كافياً لتحفيز خيال الغربيين، الذين يتخيلون عند ذكرها فجأة البساط السحري، وحكايات «ألف ليلة وليلة» المخزنة في ذاكرتهم منذ أيام الطفولة. لذلك فقد توصلت إلى استنتاج من أن لورنس كان نتاجاً لخيال غربي بولغ فيه أكثر مما ينبغي بسبب الاتصال الغزير مع الشرق. إلاّ أن تلك الأسطورة تحولت لتكون أقرب كثيراً إلى الحقيقة.

وقف هذا الرجل الانجليزي ذو الخمسة أقدام طولاً أمامي وهو يرتدي كوفية من الحرير الأبيض مزخرفة بالذهب ويضع عليها عقَالاً منسوجاً من الصوف الأسود وملفوفاً بأربطة وخيوط فضية وذهبية. وعباءته السوداء الثقيلة المصنوعة من شعر الجمل تغطي ثوبه ناصع البياض ويضع حول خصره حزاماً ثبّت عليه خنجراً معقوفاً خاصا بأمير مكة. لقد أصبح هذا الشاب حاكماً فعلياً وقائداً لعدة آلاف من الرجال البدو الذين يمتطون الجمال السريعة والجياد العربية الأصيلة. لقد كان مرهباً للأتراك.

ومن خلال اكتشافه بأن علم الآثار كان يستهويني، فقد أصبحنا متعارفين بشكل أفضل خلال الأيام التالية من لقائنا في القدس قبل أن يعود إلى جيشه العربي. وأمضينا ساعات عديدة سوياً، مع أنني لم أكن أشك في أنه من الممكن أن يكون لي حظ جيد فأنضم إليه فيما بعد في الصحراء.

وكان، عندما نكون برفقة ضباط أو مجتمعين معهم، غالباً ما يجلس في إحدى الزوايا، منصتاً بانتباه لكل ما كان يقال، إلاّ أنه لم يكن يساهم أو يشترك في الحديث إلا نادرا. وعندما نكون لوحدنا كان ينهض من على كرسيه ويجلس القرفصاء على الأرض في

زيه البدوي، غير أنه خجل عندما فعل ذلك أمامي أول مرة، وبرر تلك الطريقة الغريبة في الجلوس قائلاً إنه قد مكث لفترة طويلة في الصحراء بحيث أصبح يجد نفسه غير مرتاح في الجلوس على كرسي. ولقد قمت بمحاولات عديدة لحثه على أن يحدثني بشيء ما عن حياته ومغامراته في الصحراء، إذ أن بضعة أوروبيين فقط، باستثناء السير ريتشارد بورتون وشارلز دوفتي، قد تجرأوا على القيام بمثل هذه المغامرة من قبله. غير أنه كان دائماً يغير هذا الموضوع ببراعة متحولا إلى موضوع علم الآثار أو الدين المقارن، أو الأدب الإغريقي، أو إلى السياسات الشرقية. وحتى فيما يتعلق بارتباطه بالجيش العربي فإنه لم يكن يقول شيئاً بهذا الشأن، ما عدا أنه كان يعطي الفضل في كل شيء يحدث في حرب الصحراء للزعماء والقادة العرب، أو إلى كل من نيوكمب، جويس، كورنواليس، داوناي، مارشال، ستيرلينج، هورنبي، وغيرهم من زملائه البريطانيين الآخرين.

وبالتأكيد فإن القدر قد لعب مع لورنس دورا أكثر مما اختار، إذ أن هذا الرجل خريج جامعة أكسفورد الذي كان يلعب دوراً رئيساً في تحرير البلاد العربية، كان طموحه في الحياة أن يحفر في خرائب الآثار وأن يكتشف ويدرس تاريخ المدن المنسية منذ زمن طويل.

* * *

2
بحثاً عن حضارة مفقودة

عندما التقينا لأول مرة في القدس، وفي الصحراء المقفرة فيما بعد، كنت غير قادر على دفع لورنس للتحدث عن حياته المبكرة. لذلك، فبعد انتهاء الحرب، وأثناء عودتي إلى أمريكا، زرت انجلترا على أمل أن أتوصل لمعرفة شيء ما يتعلق بسيرته الذاتية قبل عام 1914، يمكن أن يلقي الضوء على فترة تكوينه ونشأته عندما كان القدر يُهيئه للعب دوره الهام. إلاّ أن الحرب قد شتتت أسرته وزملاءه الأوائل بحيث لم أستطع الحصول سوى على معلومات ضئيلة وهزيلة جداً عن طفولته وشبابه المبكر.

كانت مقاطعته غالوي، الواقعة على الساحل الغربي لايرلندا هي الموطن الأصلي لأسرة لورنس. ويمكن أن يكون هذا سببا ولو جزئيا لقوته الجسدية غير العادية وقدرته البدنية على التحمل، إذ أن سكان غالوي هم من بين أقوى السلالات شدة. ولكن دماء اسكتلندية وويلزية، وانجليزية، وإسبانية تجري في شرايينه أيضاً. فقد كان من بين أسلافه وأجداده المشهورين السير روبرت لورنس، الذي رافق ريتشارد قلب الأسد إلى الأرض المقدسة، قبل أكثر من سبعمائة وثلاثين سنة وبرز في حصار عكا، تماماً كما فعل الشاب لورنس عندما رافق اللنبي إلى الأرض المقدسة وبرز في تحريرها النهائي. كما كان كل من الأخوين، السير هنري والسير جون لورنس، وهما من الرواد الأوائل للإمبراطورية البريطانية في الهند، من أجداده القريبين.

وكان والده، ثوماس لورنس، من أصحاب الأملاك في ايرلندا ورياضيا كبيرا. إلاّ أنه فقد معظم أملاكه خلال فترة جلادستون، عندما انخفضت أسعار الأراضي في ايرلنده إلى أدنى مستوى، فسافر بأسرته عبر البحر الايرلندي إلى ويلز. وولد ثوماس ادوارد لورنس في مقاطعة كارنافون، التي لا تبعد كثيراً عن الموطن المبكر للسيد لويد جورج[1] الذي كان يوماً ما من أصدقائه الحميمين والمعجبين به، والذي أبلغني ذات يوم، أنه يعتبر لورنس أيضاً واحدا من أروع الأشخاص في العصور الحديثة.

لقد أمضى خمس سنوات من طفولته في جزيرة قناة جيرسي. وعندما بلغ العاشرة من عمره هاجرت أسرته إلى شمال اسكتلندا، وبقيت هناك لمدة ثلاث سنوات. ومن ثم انتقلت إلى فرنسا، حيث سجل لورنس الابن في كلية الجزويت، مع أن جميع أفراد الأسرة ينتمون إلى الكنيسة الأرثوذوكسية الانجليزية. ومن هناك انتقلت العائلة إلى أكسفورد، وقد ترك ذلك المركز الثقافي الانجليزي، الذي أصبح موطنهم منذ ذلك الحين، أثره الذي لا يُمحى على لورانس. وهناك أطلق عليه أصدقاء صباه اسم نيد، وسجل بمدرسة أكسفورد العليا ودرس بإشراف معلم تحضيري تمهيداً لدخول الجامعة. ويروي أحد أصدقائه الحميمين أن لورنس على الرغم من أنه لم يكن نجماً رياضياً إلاّ أنه كانت لديه روح جريئة وكان مليئا بحب المغامرة.

وروى لي هذا الرفيق للورنس «أن نيد لورنس وصبيا آخر كانا يسبحان تحت طاحونة في جدول مائي يقع أسفل أكسفورد وهما يحملان المصابيح وغالباً ما كانا يشقان طريقهما بصعوبة وهما يمران من خلال المسارب المائية الضيقة، ويجتازان ذلك المجرى المائي تحت الأرض».

وتعتبر أكسفورد مركزاً كبيراً لركوب الزوارق. وأي جدول مائي يرتبط بنهر التايمز يمكن أن يعوم فيه أي مركب صغير أو هزيل. بيد أن الملاحة في نهر شيرويل كانت أصعب كثيرا، إلاّ أن الصبيان الذين يملكون روح التحدي مثل نيد لورنس برهنوا على أن

---

(1) رئيس وزراء بريطانيا 1916 - 1922.

ذلك غير صحيح. وهذا ما كان يفعله هو ورفيقه. فقد دربا قاربهما الصغير على اجتيازه حتى بانبري ومن ثم يمضيان مباشرة إلى جزء الجدول الذي كان غير قابل للملاحة.

وكان لورنس مغرماً بتسلق الأشجار والقفز فوق سطوح الأبنية، وهو الأمر الذي لم يكن أحد من أصدقائه يجرؤ عليه. وقد ابلغني أحد أشقائه «أنه في حادثة ما وقع وكسرت ساقه جرّاء ذلك». ويعزو أحد أقاربه صغر قامته إلى تلك الحادثة. حيث بدا أنه لم ينمُ منذ ذلك الحين.

إن حياته كلها كانت غير منتظمة بل وشاذة، فقد قضى معظمها كرجل قبيلة شرس يعيش في الصحراء العربية، إلا أنه من جانب آخر أتم إنجاز ما هو مطلوب منه من فروض السنوات الأربع لنيل درجة البكالوريوس في ثلاث سنوات فقط، ومع ذلك فهو لم يحضر أبداً محاضرة واحدة في جامعة أكسفورد. وكان يعمل مع معلميه من فترة لأخرى وبشكل متقطع، إلاّ انه أمضى معظم وقته متجولاً حول انجلترا ماشياً على الأقدام، أو كان يقرأ أدب القرون الوسطى. وعندما يكون لوحده فغالباً ما كان ينام في النهار ومن ثم يقرأ طيلة الليل.

ولقد كان معارضاً تماماً لأي نظام تعليمي موضوع. وقد عاتب البروفيسور مس بغضب صموئيل جونسون، أحد أساتذته، عندما كان طالباً في جامعة أكسفورد، بقوله: «ذلك الشاب، يطوي الآن كتبك بإتقان ويمتلك مخزونا من المعرفة»، فقد كان غير مسرور من الشاب لورنس. ففكرة الحصول على تعليم جامعي من أجل الحصول على مهنة تقليدية لم تكن لتسره تماماً. فمبدؤه اللاواعي منذ طفولته المبكرة جداً، مثلما قال روبرت لويس ستيفنسون[1]، كان يبدو عبارة عن مسرات مفيدة أكثر من الواجبات، لأنها كمثل خاصية الرحمة، فهي ليست متكلفة، ولها مسرة مزدوجة.

---

(1) أديب انجليزي (1850 - 1894) له روايات مغامرات منها «جزيرة الكنز» / المنجد / الأعلام / ص 297.

وكجزء من قراءاته المبكرة فقد قام بدراسة شاملة للكتب العسكرية، ابتداء من حروب سينا شيرب، ثوتميس ورامسيس إلى حروب نابليون، ويلدينغتون، ستونويل جاكسون، ومولتكه. إلاّ أنه قام بذلك بشكل طوعي وليس كجزء من أي عمل مطلوب منه. وكان من بين كتبه المفضلة كتاب مبادئ الحرب للمارشال فوش[1]، إلاّ أنه أفضى إلي في مناسبة ما ونحن في الجزيرة العربية، بأن دراسته لاستراتيجيات كل من قيصر وكسينوفون[2] كانت أكثر قيمة بالنسبة له في حربه الصحراوية، لأنه في الحرب غير النظامية التي كان يقوم بها ضد الأتراك فقد وجد من الضروري تبني تكتيكات جديدة ومباشرة تخالف تلك التكتيكات التي وضعها كبار الاستراتيجيين الفرنسيين.

وكموضوع لأطروحته في جامعة أكسفورد فقد اختار لورنس موضوع فن الأسلوب العسكري للصليبيين، واستوعبه تماماً واستخدمه في مهمته أو في عمله هذا، ولهذا الغرض فقد حث والديه من أجل السماح له بزيارة الشرق الأدنى، بحيث يمكنه الحصول على معرفة أولى للجهود الهندسية الحربية لفرسان المسيحية الأوائل. وقد شُجع في هذا المجال من قبل عالم جامعة أكسفورد المتميز والمختص بالشؤون العربية، الدكتور ديفيد جورج هوغارث، أمين متحف اشمولين، وهو رجل كان له تأثير هام على مجمل حياته بدءاً من تلك الأيام، حتى أنه ذهب إلى مصر خلال الحرب وعمل معه كمستشار خاص خلال الحرب في الجزيرة العربية.

كانت والدة لورانس تعارض ذهابه إلى الشرق، إلاّ انه بعد عدة أسابيع من التوسل منحته موافقتها لزيارة سورية كسائح طباخ، وأعطته مائتي جنيه من أجل الرحلة. وكانت أسرته متأكدة بأنه سيعود للوطن بعد بضعة أسابيع مقتنعاً بالاستقرار فيه بقية حياته ومستعداً لنسيان الموقد، وروائح الطهي، ومعيقات الحياة في الشرق.

---

(1) فردينان فوش (1851- 1979) مارشال فرنسي قاد جيوش الحلفاء إلى النصر النهائي في الحرب العالمية الأولى، المنجد، الأعلام، ص 420.

(2) كسينوفون (427- 355 ق.م) مؤرخ وفيلسوف وقائد أثيني، المنجد، الأعلام، ص 297

إلاّ انه حينما وصل إلى الشرق الأدنى (الشرق الأوسط) سخر من ذلك وترك رفاهيات السياح والطرق والممرات المألوفة. ودخل إلى سورية عن طريق بيروت، وبعد وقت قصير من نزوله من البحر، اتبع العادة البدائية ومشى على أقدامه العارية إلى الداخل. وبدلا من السفر كسائح، فقد تجول لوحده حتى وصل إلى تخوم الصحراء العربية الكبرى، ومتع نفسه بدراسة أساليب وعادات الشعوب المختلفة والمتنوعة التي تستوطن تلك المنطقة الضيقة الممتدة من بلاد ما بين النهرين إلى وادي النيل. وبعد سنتين، عندما رجع أخيراً إلى أكسفورد ليسلم أطروحته ويستلم شهادته أو درجته الجامعية، كان لا يزال معه مائة جنيه من المائتي جنيه التي أعطتها له والدته.

كان يوجد في عائلة لورنس خمسة أولاد، حيث كان ثوماس ادوارد لورنس الابن الثاني في الترتيب. وكان الابن الأكبر وهو الرائد (الميجور) مونتاغيو لورنس يعمل في السلاح الطبي والخدمات الطبية؛ أما الثالث فهو وليام، وكان يعمل مدير مدرسة في دلهي في الهند؛ والرابع أنهى دراسته من جامعة أكسفورد وسافر إلى الشرق الأدنى مع شقيقه ثوماس؛ والخامس وهو أرنولد نجم رياضي بجامعة أكسفورد، وكان أيضاً باحثا مهما في علم الآثار، وأخذ مكان شقيقه لفترة في بلاد ما بين النهرين (العراق). وقد قتل كل من ويليام وفرانك في ميادين المعارك التي جرت في فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى.

ومنذ الحرب عمل الميجور مونتاغيو لورنس ضمن بعثة طبية في الصين على جبهة التيبت البعيدة جداً؛ كما أن والدتهم قد ذهبت إلى هذه الزاوية المعزولة الواقعة في آسيا الوسطى، بينما كان ابنها الأصغر يجوب متاحف العالم في بعثة سفر من جامعة أكسفورد لدراسة فن النحت في عهد انحطاط الفن الإغريقي.

وقبل عدة سنوات من الحرب ذهبت حملة من جامعة أكسفورد برئاسة صديق لورانس، هوغارت، وكان عالم آثار كبيرا، وبدأ القيام بحفريات في حوض الفرات، على أمل اكتشاف آثار للحثيين، وهم عرق قديم لا يعرف عنه سوى القليل. وبسبب معرفته الأساسية بلغتهم وتعاطفه وفهمه لعاداتهم وتقاليدهم، فقد وضع لورنس بمسؤولية إدارة مجموعات الحضر من الأكراد، والتركمان، والأرمن، والعرب. ونجحت هذه الحملة في

نهاية الأمر في اكتشاف كرشيمس، وهي العاصمة القديمة للإمبراطورية الحثية، وهناك بين أنقاض وآثار تلك المدينة المنسية منذ زمن طويل، متع لورنس نفسه بدراسة النقوش الموجودة على الفخاريات وربط المراحل المختلفة للحضارة الحثية.

وبالفعل فقد اكتشف هو وزميله ليونارد وولي، مدير حملة التنقيب عن الآثار، الرابط المفقود بين حضارة البابليين وبداية الحضارة الإغريقية في جزر البحر الأبيض المتوسط، والتي تمتد إلى خمسة آلاف سنة مضت. ويحتوي متحف اشمولين بجامعة أكسفورد على العديد من المعروضات الأثرية «مقدمة من قبل ثوماس ادوارد لورنس» قبل أن يبلغ العشرين من عمره.

وصدف وأن زار مدير البعثات والحملات الأمريكية في الشرق الأدنى المعسكر الذي جرت فيه هذه الحفريات بشكل مفرد. وقدم لنا صورة حية عن زيارته وتبيانه للكيفية تلقّى بها لورنس تدريباً مكنه من اكتساب مثل هذه الخبرة المدهشة في معرفة قبائل الصحراء والإبقاء على صلة معها عندما انخرط في الحرب العظمى.

ويقول السيد لوثر فاول «إنه كان في عام 1913، خلال عطلة عيد الفصح في الكلية الأمريكية في عينتاب وتسنت لنا الفرصة للقيام برحلة مدتها ثلاثة أيام بعربة إلى عورفا، وهي أديسا القديمة. وبعد زيارة عورفا، زرنا حران التي تبعد بضعة أميال إلى الجنوب، حيث هاجر النبي إبراهيم من أور الكلدانية.

وكانت عودتنا من الرحلة إلى عينتاب عبر طريق بعيدة نحو الجنوب، مما أوصلنا إلى نهر الفرات عند طرابلس، حيث كان الألمان هناك ينشئون جسرا ضخما للسكة الحديد ليكون رابطاً أساسياً بين برلين وبغداد. وعلى الضفة الغربية للفرات وعلى بعد بضعة مئات من الياردات من الجسر كان يقع موقع كرشيمش، حيث وجدنا هناك دارسا بريطانيا هادئا، سرعان ما تحول تحت ظروف الحرب القاسية من الحفر بين الآثار والخرائب القديمة الواقعة بجانب نهر الفرات ليصبح شريفاً وقائداً لمجموعة كبيرة من البدو في حرب ناجحة لإزالة الاحتلال والظلم العثماني.

«وجاء السيد وولي، عالم الآثار المسؤول عن حفريات كرشيمش من عمليات الحفر وهو يرتدي ثياب عمله المكونة من قميص فانيلة رمادي اللون وبنطال غولف. وكان لورنس زميله الشاب، منتعشاً أيضا من أعماله، يخطو بشكل خفيف عبر أكوام التراب وهو ما ندعوه نحن الأمريكيين بلباس العمل، ويضع في وسط حزامه ندبة مزخرفة عربية لتدل على أنه رجل غير متزوج. بيد أنه اختفى عن الأنظار في لحظة، وعندما اجتمعنا من أجل تناول طعام العشاء، بدا لورنس الشاب الصغير في بدلة تنس لجامعة أكسفورد من الفانيلا البيضاء وعليها وشاح أحمر، إلاّ أنه كان لا يزال يرتدي حزامه العربي، واستهل حديثه بقصة مثيرة عن أشغال الحفريات؛ وعلاقاته مع الأكراد والعرب والتحدث عنهم؛ وعن رحلاته وحيداً بين قراهم بحثاً عن قطع سجاد وآثار نادرة، مما منحه الفرصة لإقامة علاقات وثيقة معهم كانت بالتالي أساساً لخدمته الكبيرة في وقت كانت فيه بلاده بحاجة لذلك.

كانت وجبة العشاء شهية وقدمت من قبل رجل عربي قوي داكن البشرة يرتدي ملابس أصيلة أنيقة، ويضع على حزامه خناجر ومسدسات كثيرة يمكن تزويد متحف بها. وسرعان ما دخل وهو يحمل دلة القهوة التركية الشهية، فأشار أصدقاؤنا الانجليز، الذين كانوا قادرين بصعوبة على إيجاد اهتمام بأطباق المكسرات الرومانية التي تعود إلى ألفي عام وجزء من النفايات والأنقاض لتزاح وتنقل قبل الوصول إلى آثار وأنقاض الجيش، أشاروا بفخر إلى أن أكواب القهوة البنية الصغيرة المزخرفة كانت حثية من غير ريب، ومن المحتمل أنها تعود إلى أربعة آلاف سنة مضت.

«ولا يجب أن أقول بأنها أبنية» أو حتى «بناء» وإنما عبارة عن «غرفة» حيث علمنا بأن الحكومة البريطانية، بسبب تفاهمها مع السلطات التركية، قد حصلت على إذن لبناء غرفة واحدة فقط. ووفقاً لذلك، فقد بنى كل من وولي ولورنس غرفة من جدران متساوية منعزلة على بعد حوالي عشرة أقدام، وتمتد إلى خمسين قدماً جنوباً، ثم إلى خمسة وثلاثين قدماً غرباً. وثم خمسين قدماً شمالاً. وهي مغلقة من جانبيها، وهي على شكل حرف U ضخم وقد كانت غرفة في الحقيقة؛ ومع أنها كانت مدهشة إلى حد ما، إلاّ أنه

كان على الحكومة التركية أن تسلم بالحقيقة. وبالطبع فإن سعادة المفتش لم يكن بإمكانه الاعتراض إذا ما أجريت فيها تقسيمات صغيرة بحيث تفصل أجزاء النوم عن غرفة الجلوس والمكتب، وإن تفتح من أجزاء مختلفة من البناء لتطل على الساحة.

«هكذا كان ذلك البناء، عندما رأيناه لأول مرة، ففي الجانب الأيمن منه كانت توجد سلسلة من الغرف لخزن الآثار وإنجاز العمل التصويري أيضاً؛ وعلى اليسار كانت توجد غرف نوم المنقبين عن الآثار وضيوفهم؛ وفي الوسط كانت تتواجد غرفة الجلوس البهيجة وفيها المستوقد، وخزانة كتب مليئة بالمجلدات الجلدية ذات المواضيع الكلاسيكية التي يمكن أن يعتمد عليها العالم والدارس معا، وطاولة طويلة مغطاة بالصحف البريطانية الحديثة وبالمجلات المتخصصة بالآثار من جميع أنحاء العالم.

وعلمنا ونحن حول المستوقد الكثير الكثير عن حسن النية والصداقة المعقودة بين هذين الانجليزيين الوحيدين والسكان الأصليين المحيطين بهم. فقد أصرّا على أنهما كانا أكثر سلامة وأمناً وهما على ضفاف الفرات مما لو كانا في بيكادلي. ولكن أكثر ما كان الاثنان يخافانه هم قطاع الطرق في المنطقة، لذلك كان هناك رجلان يتمتعان بثقة منقبي الآثار يقومان بالحراسة على مدار الساعة، أحدهما كردي والآخر عربي. وهكذا لم تكن هناك سرقة ولا خطر. علاوة على ذلك، فقد كان هذان الانجليزيان معروفين ومحترمين من قبل السكان إلى أن وصلا لأن يحكما بمختلف المسائل بين القرويين المختلفين، أو حتى في النزاعات الشخصية. ولم يضايقا أو يظلما ممثليها، ولم ترفض أو تراجع قراراتهما أبداً.

وكان لورنس قد عاد مؤخراً من إحدى القرى إذ كان في مهمة لتسوية صعوبات نشأت جرّاء اختطاف فتاة شابة من قبل رجل رغب بالزواج منها، غير أنه لم يكن قادراً على التغلب على اعتراضات والدها.

فهل كان يمكن للورنس أن يحصل على تدريب عملي أفضل من هذا الذي كان يمارسه بين السكان الأصليين تمهيدا للعب دوره الكبير في إنقاذ العرب؟

في غرفة الجلوس كان هناك صندوق خشبي قديم سبق وأن استخدم لتجهيز عروس صحراوية إلاّ أنه يستخدم الآن كصندوق لخزن المال وهو يمثل خزانة آمنة لذلك.

وكان حجمه أكبر من صندوق خزانة ثياب وكان مليئاً بالنقود الفضية التي كانت معدة لدفع أجور مائتي رجل يعملون في حفريات التنقيب. إلاّ أنه كان هناك قانون غير مكتوب للمجتمع هناك، فهذا الحب من العمال لزعيمهم، والعقوبة التي يمكن أن ينزلوها هم أنفسهم بأي عدد من أفرادهم إذا ما استغلوا وخانوا هذه الثقة وسرقوا نقوداً من الصندوق، جعل هذه النقود في وضع أكثر أمنا مما لو كانت في بنك انجلترا نفسه.

وكان ذلك يتناقض بحدة مع أساليب وتجارب المهندسين الألمان الذين يبعدون نصف ميل فقط عن الموقع، والذين كانوا يبنون جسر خط حديد بغداد عبر نهر الفرات. فقد كان لديهم عمالهم الذين بدوا مليئين بالازدراء والبغض. ولم يستطع المهندسون الألمان أن يفهموا لماذا كان العمال العرب لا يقبلون نظامهم التأديبي وعقابهم. وكان الألمان يحتاجون دائماً إلى عمال جدد، في حين أن الانجليز، الذين كانوا يبعدون عنهم بضعة مئات من الياردات، كانوا على وفاق تام مع عمالهم، ومسيطرين عليهم. وعندما حدث مرة أن أجبروا - أي الإنكليز - على تقليص عدد عمالهم والاستغناء عن خمسين عاملاً منهم، فإن العمال العرب والأكراد ابتسموا واستمروا في عملهم. وعندما أبلغوا بأنهم لن يحصلوا على أجورهم، ابتسموا أيضاً واستمروا بعملهم، لأن حب عملهم وحب معلميهم كان هو الدافع للعمل أكثر من المال.

ولم يكن أولئك العمال البسطاء يمارسون عملهم في الحفريات والتنقيب من دون اهتمام، فهم قد فهموا حماس معلميهم الذين علموهم مشاركتهم في متعة العمل؛ فلم تكن حفرياتهم عبارة عن كدح من دون معنى من أجل المال فحسب، وإنما كانت بدلاً من ذلك مشاركة في متعة علم الآثار.

«وكنا نرتاح في الليل، وكانت أفكارنا وعقولنا مليئة بقصص الشرق، حيث اختلطت فيها قصص المسيحية والوثنية، والحثية، والإغريقية، والرومان، قصص الماضي العريق مع القصص الحالية القذرة والخسيسة، ممزوجة بخلفية الجهد الألماني النشط والإنجاز الهادئ من قبل هذين الانجليزيين وممثليهم من الرجال ذوي النشأة البريطانية. وكنا ننام طويلاً وبشكل جيد على أغطية مطوية في غرفتنا النظيفة ذات الجدران الطينية، ولم يكن نومنا

الخفيف ليتأثر بأغطية سرائرنا المصنوعة من القماش الذهبي اللون الدمشقي ذي الزخرفة العربية النادرة وبخلفيتها الحمراء الغامقة والباهتة مما تدعو العين إلى رحلات خيالية لا تنتهي. فهذه الأغطية القديمة كانت تشكل بعض كنوز لورنس، جُلبت من رحلاته المتعددة للقرى العربية، والتي كانت أمكنة وجوده فيها لا تعرف لعدة أسابيع.

وكان لورنس خلال تلك الرحلات، وهو يرتدي الملابس العربية الأصلية، يخوض في محادثات مع شيوخ القرى وهم يجلسون في ركن مظلل من الخيمة، أو يأتي ليفهم ومن ثم يعجب بالعرب في محادثة هادئة أمام نار مشتعلة حيث يجلسون على الأرض، فيما تعد القهوة وتشرب بهدوء، ويتحدث الواحد تلو الآخر. بينما كان أربعون مهندساً ألمانياً يبنون جسرهم، ويحاولون إخضاع هؤلاء السكان في حالة عدم إطاعتهم لهم، فرجل إنجليزي، واسع الفكر، لطيف الشخصية كان يعد بطريقة لا واعية ليصبح قائدا لهؤلاء الناس في الأزمات العظيمة، ليس فقط لتدمير أحلام الألمان بالغزو، وإنما أيضاً لكسر العبودية السياسية للأتراك التي دامت قروناً.

«كنا بعد تناول الإفطار نقوم بفحص الأرضية الموزاييك (الفسيفساء) لغرفة الطعام، وهي جزء من آثار رومانية أحضرها هؤلاء الرجال بدلاً من إتلافها وهم يبحثون عن الآثار الحثية المدفونة في الأرض. ولكن حينئذ جاء من يبلغنا بخبر مثير نحن في الأشغال. فأسرعنا لنستطلع الأمر فوجدنا كلا من العمال العرب والكرد متجمعين بشكل محكم حول حفرة كبيرة. وكان كبير العمال اليوناني يزيل التراب عن حجر أسود حجمه بضعة أقدام مكعبة، وفي الوقت الذي وصل فيه السيد وولي إلى جانبه عرف من يكون الوجه الموجود على الحجر. وبيد بارعة ممارسة بدأ السيد وولي بإزالة آخر طبقة من التراب من على الوجه الذي احتوى على كنز تحت الأرض. ولم يكن باستطاعة أي واحد أن يأمر هؤلاء القرويين ليعودوا إلى عملهم، إذ أن الثمار الطبيعية لهذا الاكتشاف تعود للجميع، ابتداء من الرجل الانجليزي إلى الصبي السقا الذي يجلب الماء والذي ترك حماره ليخوض في نهر الفرات لوحده بينما انضم إلى المجموعة المحبوسة أنفاسها وعيونها مثبتة على مطواة وولي الكبيرة وهي تقوم بعملها بطريقة رشيقة.

وانطلقت عاصفة أولى من التصفيق لتحيي الملامح الأولى لظهور شيء على الصخرة القاسية. فقد كانت يد، لا إنها زاوية من بناء! أسد! جمل! وانطلق عدة تخمينات حول ذلك، في حين كانت المطواة الكبيرة تقوم بعملها. وسرعان ما كشفت عينا وولي المدربة له أنه كان عبارة عن تمثال حيوان ضخم يقف بحالة سليمة، وكان يزيل التراب عن رأس التمثال. كما أن تظاهره بالبدء بالعمل في الناحية الأخرى من التمثال قوبل بثرثرة من الاحتجاج من قبل عماله الذين لم يكونوا متأكدين ماذا كان ذلك الشكل للتمثال. واعترفت ابتسامة وولي السريعة باستقبال وتلقي نكتته الصغيرة، ومن ثم عاد ثانية إلى البقعة غير المكتشفة من التمثال.

وسرعان ما بدا كل من رأس وصدر وقدمي التمثال تحت الضوء، وبدت معها الأفكار والآراء المختلفة بالظهور، من قائل إنه شكل بقرة أو حصان، أو خروف أو غير ذلك. وما زال الأمر كذلك إلى أن رجعت يد وولي إلى رأس التمثال الحيوان وببضع حركات سريعة أزال التراب الذي يغطي الزخرفة الكاملة ليظهر زوج من القرون ظلت حية جرّاء فن لا يموت لمدة أربعين قرناً، ووقف التمثال هناك مكشوفاً أمامنا، إنه تمثال رائع لأيل (نوع من الغزلان). وكان مثل هذا الاكتشاف جديراً بالاحتفال، وكان قانون الاحتفال غير مكتوب إلا أنه كان واضحا. فبالنسبة للمنقبين فقد أومأوا برؤوسهم موافقين على ما توصل إليه كبير العمال اليوناني من أن هذا اكتشاف رائع، وما إن أعطى الإشارة المنتظرة، حتى قام مائتا شاب ورجل تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة إلى الخامسة والستين بإفراغ جميع محتويات بنادقهم ومسدساتهم في الهواء.

وتساءلت بماذا فكر الألمان المتواجدين على ضفة الفرات عندما سمعوا أصوات الرصاص وهم عند جسرهم الذين يقومون ببنائه؟ وعرفت بعد بضعة أسابيع عندما كنت أعدو زيارة ثانية مع الرجل الانجليزي، بأن إطلاق النار على مكان ألماني كان يعني شيئا ما مختلفا. واليوم، أصبحوا يتصببون عرقاً بسبب هيجانهم الكثيف بعد اكتشاف تماثل الأيل الحثي من خلال عمالهم، وجلس العمال العرب وهم يضحكون ليدخنوا السجائر في ختام هذه الاحتفالات، في حين بدأ الصبي السقا في البحث بشراسة عن حماره، متبوعاً بنعوت

مختلفة من أصدقائه العطشى، الذين كانوا يعرفون بأن النكهة التامة للسيجارة تأتي فقط من شربة ماء بارد.

وسرعان ما حل الظهر، وكان يوم خميس، يوم دفع الأجور. فيوم الجمعة هو يوم العطلة الأسبوعية عند المسلمين، وهؤلاء الانجليز كانوا متسامحين إلى أبعد حد في علاقاتهم مع عمالهم المسلمين فلم يكونوا يطلبون منهم العمل في يوم عطلتهم. وكان ذهابي بالسيارة إلى «عنتياب» قصيراً، لذلك فقد تأخرنا لنسلم الأجور للعمال، حيث كان تأكيد لورنس على أن ذلك ضروري.

ووضعت طاولة في الساحة المفتوحة أمام الغرفة الضخمة للبعثة، وبدأ وولي بتسليم القروش المعدنية للعمال المصطفين في طابور. وكان ذلك بسيطاً، ذلك أن الرجال كانوا يقومون بجلب اكتشافاتهم في يوم دفع الأجور، ويتلقون مكافآتهم النقدية عن كل ما يقدمونه. وبالطبع، فقد كانت العناية بأي جزء يتم العثور عليه من الآثار أبرز ما في عملهم؛ وفي الحقيقة فإن الاكتشافات التي تمت قد أرسلت أخبارها وانتشرت في جميع أنحاء الريف من خلال يوم تسليم الأجور هذا. فهؤلاء الرجال المنقبون عن الآثار سيكافأون على ما قدموه. وسيتلقى بعض العمال عشرة قروش لكل منهم مكافأة لما قاموا به، وربما أكثر من ذلك لتشجيعهم على عملهم؛ بينما سيتلقى آخرون قطعة من آنية فخارية مع ابتسامة من قبل (وولي) فيما زملاؤهم يضحكون عليهم لمحاولتهم تقديم شيء زائف من الآثار ليس حقيقياً، وهم يستمعون إلى تنبيه وولي لهم بأن ذلك هو جزء من جرة ماء حديثة، مع قوله «لا يمكنني أن أدفع لكم شيئاً لقاء ذلك، وإنما سأحتفظ بذلك الشيء كما هو». وبذلك فإنه لن يدفع لهم ولن تعاد إليهم أيضاً تلك الأجزاء. وبين فترة وأخرى كانت قطعة ذهبية تلمع مثل عيون شخص عربي وهو يتسلمها كجائزة لقاء عمل باهر، ولكن سواء تلقى قطعة ذهبية أو ضحكة، فلم يكن قرار سيده وصديقه خاضعاً للنقاش.

وعندما كنا ندب بخيولنا عبر التسهل على نغمة الأجراس المعلقة في رقاب الخيول، فقد كنا نفكر ملياً بما كنا نراه. فلقد كانت بريطانيا تحكم الكثير من أجزاء العالم، وكان ذلك بالإضافة إلى الاستحقاق والقدرة، بسبب الشعور الطيب الذي يتركه أبناؤها في جميع الأراضي والبلدان.

ولقد تعمق هذا الانطباع عند زيارتنا لكرشيمش وكذا عند استقرارنا في القسطنطينية (اسطنبول) ورؤيتنا لجميع نواحي الحرب العالمية؛ حيث شاهدنا اللعبة أو المسرحية الألمانية من أجل تحقيق النصر الكبير، إذ لم يكن الجسر الذي كانوا يقيمونه على نهر الفرات ليشكل أكثر من تمهيد ما لحدث عظيم. إلاّ أنّ الألمان خسروا بسبب الطريقة التي اتبعوها.

أما لورنس فقد عمل بطريقة مختلفة. وقد كان إنجازه غير العادي رائعاً وفوق مستوى القياس. غير أنه لم يكن معجزة. بل كان عملاً متفوقاً من الذكاء، والخيال، والقدرات الشخصية.

ورغم أن الكاتب روبرت لويس ستيغنسون يستهجن في كتابه «دفاعاً عن الكسولين والعاطلين» كيف أن «العديد من الأشخاص قد استخدموا كتابه بإتقان ويعلمون تماماً بطريقة أو بأخرى ما هي المعرفة المكتسبة المقبولة، ويقرون ويعترفون بهذه الدراسة على أنها كمثل بومة قديمة أو كالديناصور، وتبرهن على جفاف، وحمق، وكآبة في نواح مختلفة من الحياة». ولكنه أي ستيغنسون يجد في لورنس روح شقية، وأن العالِم والدارس يجد فيه ضالته، سواء كان مولعا بالكتب أو شبيها بالبوم.

وخلال الأيام المبكرة للثورة العربية، كان النقيب (الكابتن) لويد، وهو الآن السير جورج لويد، الحاكم الحالي لمدينة بومباي، مع لورنس في الصحراء لفترة قصيرة. وقد قال لي مرة: «من الصعب وصف بهجة الزمالة الحميمة مع مثل هذا الرجل. فقد وجدته شاعراً وفيلسوفاً على حد سواء، بل إنه بروفيسور بإحساس قوي من الدعابة».

إن وصف السيد لوثر فاول لتلك الغرفة التي على شكل حرف يو «U» بالإنجليزية في كرشيمش ما هو إلاّ توضيح لنفس هذا الإحساس من الدعابة مما يجعل لورنس إنساناً بكل ما في الكلمة من معنى. وأيضاً الرائد (الميجور) يونغ، الذي كان في الفيلق السري للشرق الأوسط، والذي كان قد تعرف بلورنس قبل أيام الحرب في بلاد ما بين النهرين (العراق)، يروي حادثة أخرى بهذا الصدد. فيقول إنه عندما اجتمع ممثلون عن كل من انجلترا، ألمانيا، فرنسا، روسيا، وتركيا في عام 1912 ووافقوا على ترتيب يمنح الألمان

السيطرة على ميناء بحري استراتيجي مهم وهو ميناء الإسكندرونة كما منحوا الألمان الموافقة على مواصلة بناء خط سكة الحديد والتي أرادوا بناءها منذ وقت طويل للوصول من برلين إلى بغداد لكي يتم فتح طريق مباشر إلى أراضي ثروات هندستان (الهند) والشرق الأقصى. فإن لورنس بمعرفته الوثيقة بالتاريخ رأى في ذلك تهديدا بروسيا (ألمانيا) جريئا ضد القوة والسلطة البريطانية في آسيا. وعندما علم بذلك الاتفاق أسرع على الفور إلى القاهرة وطلب فوراً مقابلة اللورد كيتشنر، وسأله لماذا سمح لألمانيا بالحصول على السيطرة على ميناء الإسكندرونة، وهو ميناء حيوي أشار إليه ديسرائيلي عندما قال بأن سلام العالم سيعتمد في يوم ما على السيطرة على تلك البقعة الواقعة على ساحل آسيا الصغرى حيث توجد قبالتها جزيرة قبرص مباشرة. فأجاب كيتشنر «لقد حذرت لندن بشكل متكرر من ذلك، إلاّ أن وزارة الخارجية لم تعر اهتماماً للأمر. فخلال سنتين ستكون هناك حرب عالمية. ولسوء الحظ، أيها الشاب، فإنه لا يمكنك ولا يمكنني أيضاً وقف ذلك».

ومع أن هذا الأمر كان مكدراً بشكل عميق، لأن بريطانيا استغرقت في سبات، وجعلت ألمانيا توسع مجال نفوذها ليشمل الطريق كله من بحر البلطيق إلى الخليج (الفارسي) العربي، إلاّ أن لورنس قرر أن يسلي نفسه «بسحب قدم» المهندسين الألمان الذين كانوا يعملون بسرعة محمومة لإنجاز خط سكة حديد برلين - بغداد. فقام بتحميل أجزاء كبيرة من أنابيب مياه الصرف الصحي الفارغة على ظهور البغال، ونقلها من كرشيمش إلى التلال المشرفة على طريق خط السكة الحديد الجديدة. وهناك قام بوضعها بشكل دقيق على أكوام من الرمال. ولاحظ المهندسون الألمان ذلك من خلال مناظيرهم الميدانية، وكما توقع لورنس، فقد أخطأوا في تمييز هذه الأنابيب التي لا تؤذي وظنوها مدافع بريطانية. فقاموا بشكل مذعور وأرسلوا برقيات لكل من اسطنبول وبرلين لإعلامها بأن البريطانيين يقومون بتعزيز وتحصين جميع مواقعهم العسكرية هناك. وفي غضون ذلك، كان كل من لورنس و وولي مستغرقين في ضحك متواصل.

وفي طرابلس، الواقعة إلى الشمال الشرقي من حلب، كان الألمان يعملون لبناء جسر ضخم على نهر الفرات. وبطريقتهم الألمانية المعتادة فقد رسموا على معاطف عمالهم من

أهل وسكان المنطقة أرقاماً كوسيلة لتحديدهم ومعرفتهم. حتى أنهم لم يحاولوا أبداً معرفة أسمائهم. بل إنهم كانوا يرتكبون حماقة بأن جعلوا أناساً معادين لهم يقومون بأعمال الحفريات. وبالطبع، فبدلاً من حفر الحفر من أجل وضع دعامات وأنابيب الجسر، فقد حفروا متتابعة. واستمروا هكذا لبعض الوقت، ومن ثم قام سبعمائة عامل كردي بالتمرد على معلميهم الألمان وهاجموهم. وانضم إليهم ثلاثمائة عامل من مجموعة الحفريات في كرشيمش وكانوا من أقاربهم وبدأوا بهجوم متزامن من المؤخرة. ولحسن حظ أتباع القيصر أولئك، فقد وصل كل من لورنس و وولي إلى المنطقة المضطربة في الوقت المناسب لمنع حدوث مجزرة، وكنتيجة لعملهما البطولي فقد تم تكريم كل منهما بوسام تركي مجيدي من قبل السلطان العثماني. وكان ذلك قد حدث في وقت مبكر من عام 1914، قبل أن ينخرط لورنس في الحرب العظمى.

وكانت إحدى بعثات التنقيب الأولى في الشرق الأدنى تعمل لصالح صندوق استكشاف فلسطين. وقد حاول كل من لورنس و وولي إتباع خطوات وآثار الإسرائيليين القدماء عبر البرية. وإلى جانب غيرها من المكتشفات، فقد وجدا ما يعتقد أنه «قاديش بارني» كما ورد في الإنجيل، وهي البقعة المقدسة حيث جلب النبي موسى الماء المتدفق من بين الصخور. وعيّنا أولاً مكاناً في شبه جزيرة سيناء وهو ما يدعوه البدو هناك بعين كاديس حيث كان يتواجد هناك واحد من الآبار غير المهمة، وربما كان هو الموقع الذي بدأ منه الإسرائيليون القدماء يشكون لموسى نقص المياه.

وأبدى لورنس ملاحظة بقوله: «إذا ما كان ذلك هو المكان حقيقة، فالمرء لا يمكنه لوم الإسرائيليين على تذمرهم وشكواهم». وعلى بعد حوالي خمسة أميال وصل عالما الآثار إلى مكان يوجد فيه عدد من الينابيع العذبة يقع في وادي يدعى نموندورات، وكانا متفقان على رأي واحد من أن هذا المكان كان حيث نجح النبي موسى في استرجاع ثقة أبناء إسرائيل بإطفاء عطشهم من مياه هذه الينابيع العذبة. وفيما بعد ألف كل من لورنس و وولي كتيباً يتعلق بهذه البعثة الاستطلاعية بعنوان «برية الإثم». سردا فيه اكتشاف آثار مدينة يعود تاريخها إلى (2500) قبل الميلاد، وتعتبر أقدم آثار سكن واستيطان للإنسان اكتشفت وقتذاك في شبه جزيرة سيناء.

وألف وولي كتاباً مشوقاً، نشر من قبل مطبعة جامعة أكسفورد بعنوان «مدن ميتة ورجال أحياء» يصف فيه التجارب والخبرات الأثرية لكل من لورنس وله قبل الحرب العالمية (الأولى).

وتلقي إحدى القصص ضوءً بارزاً على الاختلافات والفروقات بين أساليب ونهج هذين الرجلين في التعامل مع السكان الأصليين وتكتيكات وطرق الألمان خلال العمل على خط حديد برلين - بغداد.

ويقول وولي في كتابه: «عاد صبي (خادم) السكن أحمد في أحد الأيام من جولة تسوق في القرية، ومر بمنطقة تتواجد فيها مجموعة من السكان المحليين يعملون على خط السكة الحديد، وكان لأحمد قرض مالي عند رئيس عمالها، وطلب أحمد منه أن يسدد له المال أو الدين، فرفض رئيس العمال ذلك وأتبع ذلك بشتائم له. ورأى مهندس ألماني خلال جولته بأن العمل كان معاقاً بسبب وجود رجل غريب، ولكن بدلاً من أن يأمره بمغادرة المكان، فقد استدعى اثنين من حراسه، ليلقيا القبض على سيء الحظ أحمد، ومن دون أن يستطلعا ويحققا في الأمر أو في سبب النزاع، فقد قاما بجلده بالسياط بقسوة. ورجع أحمد إلى السكن وهو يتألم ويعاني تماماً جراء ذلك، وحيث أنني لم أكن موجوداً في الموقع آنذاك فقد تولى لورنس الأمر وذهب إلى المعسكر الألماني يسعى للثأر، فوجد رئيس المهندسين الألمان كونتزن، وأبلغه بأن أحد مهندسيه قد اعتدى على خادم مسكننا ويجب عليه أن يعتذر جراء ذلك. وأنكر كونتزن بازدراء مجمل المسألة. وعندما أراه لورنس علامات ودليلا ذلك وافق على إجراء تحقيق في الأمر وأرسل بطلب المهندس ليسأله عن ذلك. وبعد أن تحدث معه استدار بغضب نحو لورنس وقال له: «لقد قلت لك بأن مجمل الشيء كان كذبة؛ فهذا السيد لم يعتد على الخادم بتاتاً؛ وإنما جعله يجلد فحسب». فسأله لورنس، «حسناً ألا تدعو ذلك اعتداءً؟» فأجاب الألماني، «بالتأكيد لا. فلا يمكنك أن تستخدم هؤلاء السكان من دون جلدهم. فنحن لدينا رجال يجلدون في كل يوم؛ فهو الأسلوب الوحيد هنا». فردّ لورنس قائلاً: «نحن موجودون هنا قبلكم بكثير، ولم نضرب أو نجلد أي واحد قط من رجالنا، ولن ندعكم تبدأون بذلك معهم. فيجب على مهندسك ذلك أن يأتي معي إلى القرية ويعتذر لأحمد أمام الجميع».

فضحك كونتزن، قائلاً: «هذا هراء» ومن ثم أدار ظهره للورنس، وقال، «لقد انتهت الحادثة». فأجاب لورنس «على العكس، فإذا لم تقم بما طلبت منك فسأتولى المسألة بنفسي». فاستدار كونتزن ثانية وقال متسائلاً: «ماذا تعني بذلك؟» فأجاب لورنس «ذلك أنني سآخذ مهندسك إلى القرية وسأجلده هناك». فصاح كونتزن «لا يمكنك ذلك ولا تجرؤ على القيام بمثل هذا الشيء». بيد أن لورنس بين بأن هناك سببا وجيها لافتراض أنه يجرؤ ويمكنه ذلك؛ وفي النهاية فقد كان على المهندس الألماني أن يقدم اعتذاره أمام جمع غفير من القرويين المسرورين بذلك.

وظل لورنس يجوب الصحراء جيئة وذهاباً لمدة سبع سنوات وغالباً ما كان يرافقه وولي إلا أنه على الأغلب كان يقوم بذلك بمفرده في لباس عربي أصيل. وفي وقت ما أرسله المتحف البريطاني في حملة قصيرة إلى داخل جزيرة سومطرة، حيث نجا هناك من ملاحقة كبير الصيادين، كما كان ينجو في مغامراته في بلاد العرب. ولكننا لم نستطع حثه أبداً على التحدث عن ذلك. فربما، يحدثنا عن ذلك يوماً ما في مذكراته.

وغالباً ما تساءلت لماذا اختار كل من العراق وسورية ميداناً لعمله الأثري بدلاً من مصر، والتي تعتبر كعبة بالنسبة لمعظم الرجال الذين يحبون الحفر والتنقيب بين خرائب الآثار. فكان جوابه كالعادة: «لم تكن مصر لتستهويني. فمعظم العمل المهم قد أنجز هناك؛ وأن معظم علماء الآثار المصريين اليوم يبددون الكثير جداً من وقتهم وهم يحاولون اكتشاف فقط متى رسمت الشعرة الثالثة على الخنفسة السوداء».

* * *

3

عالم آثار تحول إلى جندي

أدت نصيحة اللورد كيتشنر وملاحظاته الشخصية للورنس للاعتقاد بأن الصدام وشيك الحدوث. وحاول عندما ذهب إلى القاهرة التجند والانضمام كعنصر خاص في صفوف قوات كيتشنر. إلاّ أن المجلس الطبي الحربي نظر إلى بنيته الضئيلة، وطوله الذي يبلغ خمسة أقدام، وقطر رأسه اليافع، فتغامزوا مع بعضهم البعض، وقالوا له أن يسرع إلى وطنه ويذهب لوالدته وينتظر إلى أن تندلع الحرب القادمة. ولكن بعد أربع سنوات تماماً من رفضه لكونه غير ملائم جسدياً للانضمام للقوات المسلحة، فإن هذا الشاب خريج جامعة أكسفورد، ذا البنية الصغيرة، والمثقف الخجول، دخل دمشق مع قوات الجيش العربي الظافر. تصوروا ماذا كان سيقول أعضاء المجلس الطبي الحربي إذا ما أبلغهم واقترح عليهم أحد ما في عام 1914 بأنه بعد ثلاث أو أربع سنوات فإن نفس هذا الشاب سيتجنب رتبة الفروسية ورتبة جنرال وحتى أنه سيتجنب الحصول على وسام صليب فيكتوريا وغيرها من الألقاب والمقامات الرفيعة المختلفة.

ورجع لورنس بعد رفضه إلى خرائبه وآثاره القديمة واشتغل وكدح بشغف على النقوش التي تكشف عن أسرار حضارات ازدهرت ودفنت في التراب والغبار آلاف السنين. إلاّ أنه استدعي إلى القيادة العامة للجيش البريطاني في القاهرة مع غيره من العديد من العلماء والمثقفين، وبضعة شبان من ذوي المقدرة الاستثنائية، مثل مارك سايكس، واوبري هيربرت، وكورنواليس، ونيوكمب وغيرهم، استدعوا جميعهم من قبل السير

جيلبرت كلاثيون. ومع أن لورنس كان وقتئذ يبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً، إلاّ أنه كان على معرفة واطلاع بكل من تركيا، وسورية، وفلسطين، والجزيرة العربية، والعراق، وبلاد فارس (إيران). وقد عاش مع رجال القبائل في داخل الصحراء، وعاش أيضاً مع سكان مدن رئيسية مثل حلب، والموصل، وبغداد، وبيروت، والقدس، ودمشق. وفي الحقيقة، فإن معرفته ببعض أجزاء الشرق الأدنى (الشرق الأوسط) كانت فريدة. فهو لم يكن يتكلم العديد من اللغات فحسب، وإنما أيضاً كان يعرف جميع عادات وتقاليد أمم وشعوب هذه المناطق المختلفة وتطورها التاريخي.

وكبداية، فقد عين لورنس في إدارة الخرائط، حيث يمضي جنرالات الجيش (البريطاني) ساعات طوالا وهم في رسومات الخرائط غير الدقيقة، ويناقشون الخطط ليعرفوا المواقع والبقع القابلة للسقوط في التحصينات التركية. وبعد أن يعملوا على خطة معينة فإنهم يمكن أن يتحولوا، وبشكل متكرر، ويسألوا الملازم لورنس وبنظرات لا مبالية، إذا ما كان، من وجهة نظره ومعرفته الشخصية بذلك البلد أو ذاك، لديه أية مقترحات معينة يمكن أن يقدمها. وغالباً ما كان يكرر إجابته وتكون على النحو التالي: «في حين توجد هنالك العديد من النقاط الممتازة في خارطتكم، بيد أنها غير ملائمة ناهيك أنها تبنى على خسائر ضخمة وتستنزف الوقت في إقامة الطرق من أجل نقل الإمدادات وقطع المدفعية، وهي أيضاً تكلف أرواحاً كثيرة لا ضرورة لها للحفاظ على خطوط المواصلات التي تمر من خلال أراض لقبائل سكانية محلية معادية». ومن ثم، وكبديل لذلك، فإنه كان يشير إلى طريق أسلم وأقصر، لأنه كان على معرفة واطلاع بذلك، وكان يعرف كل بوصة في تلك البلاد، إذ أنه كان يتجول فيها ويجوبها مشياً على الأقدام بينما كان ينقب عن آثار الجيوش الغازية للأشوريين، والإغريق، والرومان، والصليبيين. لذلك فقد وضع كبار ضباط الجيش البريطاني في هيئة الأركان ثقتهم في هذا الضابط الملازم الشاب ذي الصوت الهادئ، وأصبحت له في وقت قصير سمعة جيدة في القيادة العامة البريطانية. وفيما بعد وهو في الجزيرة العربية، فقد كان لورنس يفوق الترك غالباً في الحيلة والدهاء بسبب معرفته العالية بجغرافية وطبيعة البلاد. فقد كان على اطلاع ومعرفة أدق بالأجزاء البعيدة العديدة للإمبراطورية العثمانية التركية من الأتراك أنفسهم.

ونقل لورنس من إدارة أو قسم الخرائط إلى قسم آخر وهو الاستخبارات العسكرية والذي كان يتعامل بشكل رئيس بالشؤون والأمور الداخلية لخطوط العدو. وكان من واجبه، كواحد من رجال الاستخبارات الحربية الإبقاء على اطلاع القائد العام البريطاني بالتحركات المختلفة للوحدات العسكرية التركية. وقد أبلغني السير أرشيبالد موراي، الذي كان حينذاك القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الأدنى، كم كان ذلك الشاب (لورنس) على معرفة عالية وقيمة، حيث كان العملاء السريون من السكان المحليين يجيئون ويذهبون عبر الخطوط التركية بواسطته.

وفي صيف عام 1915 قام عرب الحجاز بثورة ضد أسيادهم الترك في ذلك الجزء من شبه الجزيرة العربية، والذي يقع بشكل رئيس ما بين مكة ونهاية البحر الميت، والتي تعرف بالأراضي المقدسة.

ولكي نفهم الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة، ولكي نقدر أيضاً المشكلات الدقيقة والمعقدة التي واجهها لورنس عند وصوله ونزوله في الجزيرة العربية بعد أن حقق العرب بضعة انتصارات أولية ووجهوا باحتمالية انهيار ثورتهم فيما بعد، دعونا نتحول قليلاً ونلقي نظرة على التاريخ الماضي من خلال صفحات التاريخ العربي وإنعاش الذاكرة فيما يتعلق بتلك القصة الرومانسية العربية التاريخية لشبه الجزيرة العربية وشعوبها الرائعة.

فالأسطورة تبلغنا بأن الجزيرة العربية كانت موطناً لجدينا الأولين آدم وحواء، وأرض ملكة سبأ، وموطن أبطال رواية «ألف ليلة وليلة»، وهي البلاد التي استوطنت من قبل عرق بشري عاش وأمل وتأمل وأحب حتى قبل أن يستقر ويسكن بناؤوا الاستحكامات والمتاريس ما قبل التاريخ على سهول أمريكا الشمالية، وقبل أن يبني الكهنة الإنجليز القدماء معابدهم الصخرية في بريطانيا. ويقول لنا التاريخ إنها الأرض التي أسست فيها الإمبراطوريات على مر القرون قبل أن يقود النبي موسى أبناء إسرائيل ويخرجهم من مصر، وربما حتى قبل أن يبني خوفو الهرم العظيم، ويبلغنا علماء الآثار الذين عرضوا حياتهم للخطر من أجل أن يكتشفوا أسرار بلاد العرب، بأنه كانت هناك مدن عظيمة سادت وازدهرت وبادت قبل وقت طويل من أيام أو زمن توت غنخ آمون،

وأنه في زاوية أو جزء بعيد من الجزيرة العربية صاغ وأصدر الملك العظيم حمورابي قانونه العادل قبل وقت طويل من مجيء بوذا وإلقائه وتعليمه لتعاليمه على ضفاف نهر الغابخ وقبل أن يعلن كونفوشيوس مبدأ القاعدة الذهبية.

إن الجزيرة العربية، أو شبه جزيرة العرب، تعتبر أكبر مساحة من كل من انجلترا، ويلز، اسكتلندا، ايرلندا، هولنده، بلجيكا، فرنسا، واسبانيا، مجتمعة معا. وقد تعلم وتاجر وقاتل هناك كل من الإغريق والرومان، وقسموها إلى ثلاثة أجزاء جغرافية هي: في الشمال الأرض العربية بترا؛ الأرض العربية الصحراوية في الشرق؛ الأرض العربية المباركة في الغرب.

ومع أن بعض العلماء والدارسين يعتقدون بأن الجزيرة العربية كانت المكان الأول لولادة الجنس البشري، إلاّ أنه توجد لدينا خرائط أفضل للقطب الشمالي؛ وفي الحقيقة فلدينا أيضاً خرائط أفضل لكوكب المريخ مما لدينا عن بعض أجزاء داخل الجزيرة العربية من حيث أتى معظم الرجال المقاتلين في الجيش الذي قاتل فيه لورنس.

إن المسافة من مدينة حلب، التي تقع في أقصى الشمال إلى مدينة مكة، ونصف الطريق نزولاً إلى الساحل الغربي للجزيرة العربية، تعتبر مسافة شاسعة وطويلة جداً كما هي المسافة من لندن إلى روما. ومع ذلك فإن لورنس ورجاله كانوا يرتحلون ويشقون طريقهم ببطء قاطعين تلك المسافة من مكة إلى حلب وهم على ظهور الجمال، عبر الصحراء والبلاد الجرداء التي تشبه جبال القمر.

ولكي لا نتشوش بالأسماء العربية فسيكون من الأفضل بالنسبة للقارئ أن يتذكر أو يحفظ في ذاكرته بأن (الثورة العربية) قد بدأت من مكة ومن ثم انتقلت بثبات شمالاً إلى العقبة، ومن ثم انتقلت إلى دمشق وحلب في سورية. وأن كل حدث يجيء ذكره في هذا الصدد يعتبر جزءاً صغيراً مما هو في الواقع. إن بعض المراجع تقدر عدد سكان البلاد العربية ككل بحوالي عشرين مليونا، ونسبة كبيرة منهم كان يجمعهم حلف أو تحالف مهلهل أو غير ثابت على مر العصور، كمثل تلك التحالفات التي كانت بين قبائل الهنود الحمر في أمريكا قبل مائة عام مضت.

لقد قسمت الشعوب العربية منذ زمن بعيد إلى فئتين بارزتين: أولئك الذين يسكنون المدن والقرى، وأولئك الذين ينتقلون من مكان لآخر وينقلون معهم جميع ما يملكون على ظهور جمالهم. وكلا الفئتين يطلق عليهما العرب، بيد أن البدو الرحل يطلق عليهم البدو أينما كانوا للتفريق بينهم وبين بني جنسهم الذين يسكنون المناطق الخصبة المزروعة. والبدوي الحقيقي لا يعرف شيئاً عن استصلاح وزرع الأرض، وحيواناته الوحيدة هي جماله وخيوله. فالبدو تستهويهم الجمال والخيول. وهم العرب الذين يحافظون ويبقون على حب الحرية والمناقب القديمة للجنس الذكوري.

إن أول الرحالة الأجانب إلى البلاد العربية كان رجلاً إنجليزياً اسمه شارلز دوفتي، وكان شاعراً، وفيلسوفاً، ومؤلف ذلك الكتاب الكلاسيكي العظيم «الصحراء العربية» الذي كتب بأسلوب اليصاباتي (عائد إلى إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا وعصرها) الطريف والجذاب. وباستثناء الكولونيل لورنس، فقد كان دوفتي الأوروبي الوحيد الذي أمضى أطول مدة من الوقت يسافر ويتجول حول وداخل المنطقة المقدسة ومن دون إخفاء نفسه على أنه مسلم. وقد وجد دوفتي ما لا يعرفه الجميع واكتشف بأن البدو يكونون لطفاء مع ضيوفهم إذا ما زاروهم في خيامهم.

غير أن الشخص الغريب الذي يقع بين أيديهم في الصحراء، وفي ظروف لا يمكن اعتباره فيها ضيفاً، فإنه يجدهم قساة. حتى أنه بالنسبة لعرب شمر قد يجزون رقبته. ويوجد هناك مثل في الصحراء يقول إن الرجل يمكن أن يذبح ابن أمه من أجل حذاء جلدي قديم؛ ولكن وبالرغم من هذا، فإن ضيافتهم تكون غامرة بحيث أنها أصبحت مضرب المثل في جميع أنحاء العالم. ويقول البدوي: «ألا نكون جميعاً ضيوف الله؟» ومن ثم يضيف دوفتي قائلاً: «بعد أن يتناول الضيوف الخبز والملح معهم فسيكون هنالك سلام قائم معهم لوقت ما (ذلك ما يحسب على أنه ليلتان ويوم، بينما في معظم الأحوال طالما أن طعامهم يقدم لضيوفهم).

لقد جاءت كلمة «عرب» من «عرابا» وهو اسم لمنطقة صغيرة أو أرض صغيرة تقع في إقليم قديم جنوب الحجاز، ويقال إنهم سموا كذلك، بعد أن كان «ياراب»، ابن

قحطان، ابن أبيس، ابن شالاه، ابن ارفاخشاد، ابن مشيم، ابن نوح، أول واحد يتكلم العربية، «وهو لسان أو لغة الملائكة». إنهم شعب أو شعوب سامية، من نفس عرق اليهود.

ويدين العالم بالكثير للعرب. ليس لأنهم ابتكروا العديد من ألعابنا الصبيانية، وإنما لكونهم أحرزوا تقدماً ضخماً في مجال الطب، وفي الأجهزة والأدوات الطبية والتي لا تختلف سوى قليل عن الأجهزة والأدوات الحديثة. وكانت مهاراتهم عالية في العمليات الجراحية ويؤدون عمليات رئيسية صعبة باستخدام وسائل التخدير في زمن كانت أوروبا تعتمد فيه كلية على المعالجة بمعجزات الكهنة ورجال الدين. وفي مجال الكيمياء فنحن نشكرهم على اكتشاف الكحول، البوتاسيوم، نترات الفضة، المواد المؤكسدة، حامض الكبريتيك، وحامض النتريك. حتى أن لديهم خبرات في الزراعة العلمية، والري، واستخدام الأسمدة وتطعيم أشجار الفاكهة والأزهار أو الورد. وكانوا مشهورين عالمياً بدباغة الجلود، وبصباغة الملابس، وصناعاتهم الزجاجية والفخارية، وبصناعة الأقمشة والورق، وبصناعة وصياغة الذهب، والفضة، والنحاس، والبرونز، والحديد والفولاذ.

والجزء الأغنى من الجزيرة العربية، باستثناء بلاد ما بين النهرين (العراق)، كانت دائماً ولا تزال، هي اليمن التي تقع في زاوية غربية في أقصى الجنوب، وهي منطقة جبلية، تقع إلى الشمال من عدن تماماً، وهي مشهورة منذ آلاف السنين بغناها، ومناخها الجميل اللطيف، وخصوبة وديانها، وهي موطن بن المخاوي الممتاز. ويبلغنا الجغرافي الإغريقي سترابو بأن الإسكندر الكبير (المقدوني) قبل موته بوقت قصير، كان خطط للرجوع من الهند لينشئ هناك عاصمته الإمبراطورية. ويعتقد العديد من العلماء بأن هذه المنطقة الغنية كانت الموطن الأصلي للإنسان وهي البلاد التي جاء منها قدماء المصريين. وأسست ووجدت هناك قبل أكثر من 1000 سنة قبل الميلاد ممالك مشهورة مثل دولة مملكة سبأ والحميريين.

وبعد تدمير القدس على يد (الإمبراطور الروماني) تيطس، فر اليهود إلى هناك ولا زال المنحدرون من سلالتهم يعيشون في اليمن. ولكن عندما اكتشف بطليموس طريقا

بحريا إلى الهند، أصبحت اليمن أقل أهمية، ولعدة قرون فإن الجزء المشهور والمعروف من الجزيرة العربية كان إقليم أو منطقة الحجاز الواقعة على البحر الأحمر، شمال اليمن، ومحاطة من الشرق بمنطقة الجزيرة العربية الوسطى المعروفة بنجد، وتقع على شمالها وشمالها الشرقي سورية، والبحر الميت، وفلسطين وشبه جزيرة سيناء.

وكلمة الحجاز تعني «الحاجز أو العائق». وتعود شهرة هذه البلاد الشحيحة بالمياه بشكل خاص إلى وجود مدينتين رئيسيتين فيها؛ هما: مكة، وهي المكان الذي ولد فيه النبي محمد (ﷺ)، وكانت في الأزمنة القديمة تدعى «مكورابا»؛ والمدينة المنورة، وكانت تدعى قديماً يثرب، وقد عاش فيها الرسول (ﷺ) آخر عشر سنوات من عمره ودفن فيها. ويحج المسلمون سنوياً إلى هاتين المدينتين المقدستين، كما كان الناس يذهبون مرتحلين إلى هناك في العصور الوثنية ما قبل الإسلام.

قبل حوالي ألف سنة من اكتشاف كريستوفر كولومبس لأمريكا، ولد طفل في مدينة مكة. وقدر لهذا الطفل بأن يغير ويصيغ تاريخ العالم من الناحية المادية والروحية. وكان في صباه يرعى الغنم والماعز على التلال والجبال المحيطة بمكة، ومن ثم عندما أصبح شاباً عمل بالتجارة بواسطة قوافل الجمال إلى الشام لحساب أرملة غنية في مكة (السيدة خديجة).

وفي سورية (الشام) تعرف بشكل أفضل على الديانتين المسيحية واليهودية، وأصبح مقتنعاً بأن قومه العرب، الذين كانوا يعبدون الأصنام، لم يكونوا يتبعون ديانة صحيحة. كما أمر اتباعه أن يعتبروا من كل من آدم، إبراهيم، موسى والمسيح كأنبياء الله والإسلام. وكان النبي محمد (ﷺ) يستلهم تعاليمه من الوحي المنزل بإرادة الله ومشيئته ويستمد منها تعليم ونشر الدين الإسلامي. وتقريباً فإن كل أسرة في الجزيرة العربية لديها ولد على الأقل يدعى محمدا. كما يوجد هناك العديد والمزيد من الرجال يحملون اسم «محمد» أكثر مما يوجد هناك من رجال يحملون أسماء مثل جون ووليام.

أليس من الغريب، بعد كل ذلك، بأن الصحراء يجب أن تكون الموطن الأصلي القديم للديانات الثلاث الأكبر في العالم، اليهودية، المسيحية، والإسلام؟ فالعرب

يطلقون على الصحراء اسم «حديقة الله»؟ ويقولون بأنه لا يوجد أحد هناك في الصحراء سوى الله. وخارجاً عن صحارى الجزيرة العربية، وحتى في أكثر الأجزاء الأخرى من العالم، فإن السماوات تمجد الله وتمجد من خلقها. وتردد ذلك يوماً بعد يوم، وليلة بعد ليلة. ولا يوجد هناك في الصحراء كفاح ونضال لجمع الثروة من أجل الثروة؛ ولا يوجد هناك تدافع مجنون للحصول على تفوق على شخص ما. فمن إحدى لعنات مدينتنا هو أنه لا يوجد لدينا وقت للتفكير أو التأمل. وتعتبر الصحراء مكاناً ملائماً للشخص لأن يفكر ويتأمل في قدر الإنسان وللتأمل في الأشياء التي لا يفسدها العث والصدأ وأن اللصوص لا يخترقونها ويسرقون.

لقد كان النبي محمد (ﷺ) أول من وحد قبائل الجزيرة العربية. وقد جاء في الوقت المناسب عندما كانت هنالك حاجة لمجيء قائد عظيم لإخراج الهيمنة الأجنبية من البلاد. وكان برسالته المدهشة أن نجح في توحيد العرب، حتى إلى درجة أكبر من أن يحققها أكبر الزعماء والقادة.

وفي أعقاب موت الرسول محمد (ﷺ) جاءت تلك الموجة العظيمة من الفتوحات الإسلامية المتحمسة بشدة عندما اندفعت الشعوب العربية الإسلامية، وهي مليئة بالحماس والمعتقد الديني، من الجزيرة العربية وفتحت واستولت على جزء ضخم من العالم وأقاموا تلك الإمبراطورية الإسلامية الشاسعة والتي أصبحت حتى أكبر من إمبراطورية الرومان. وفي تلك الأيام الظافرة للإسلام، فقد زود ونشر العرب البلدان التي فتحوها بالقادة والزعماء الدينيين، والسياسيين والعسكريين. وبدوا وكأنهم لا يمكن مقاومتهم.

وعندها تذوق العرب، الذين تغذوا على الجراد والعسل البري حينذاك ترف ورفاهية المدينة في سورية ووجدوا متعة في القصور الفخمة. يقول الطبري، وهو مؤرخ مسلم، لقد قالوا، حتى لو لم نكن مبالين للقتال من أجل قضية الله، إلا أنه لا يمكننا سوى أن نرغب بالنضال والكفاح ونتمتع بترك الحزن والأسى والجوع للآخرين من الآن فصاعداً. وخلال قرن من وفاة الرسول (ﷺ) بنى عرب الحجاز إمبراطورية أوسع من كل من إمبراطورية الإسكندر المقدوني أو الإمبراطورية الرومانية، ولقد انتشر الإسلام

حول وعبر العالم كمثل ريح الزوبعة بيد أن هذه الإمبراطورية الشاسعة الضخمة التي وصلت أوجها في القرن السابع للميلاد قد بدأ انحطاطها منذ تاريخ معركة تورز عام 732 ميلادية، حينما هزم العرب في فرنسا من قبل المسيحيين بقيادة شارلز مارتيل.

وظل العديد من العرب في الأراضي التي احتلوها، كتجار ومبشرين. فقد نقلوا معهم عقيدة الإسلام الواضحة والبينة من الجزيرة العربية إلى جبل طارق، وإفريقيا الوسطى، ووسط الصين، والجزر التي تقع في البحار الجنوبية (مثل اندونيسيا وماليزيا). وبعكس اتباع الديانات والعقائد الأخرى، فإنهم ينادون إلى الصلاة من على مآذن المساجد ومن سطوح البيوت العالية في أية أرض يتواجدون فيها وهم ينادون: «الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلاّ الله».

وإلى يومنا هذا نجد آلاف العرب يشغلون مواقع مؤثرة أو متنفذة في كل من هونج كونج، سنغافورة، وشرق الأنديز، وإسبانيا. وآخرون منهم أجبروا على العودة إلى حياتهم القديمة في صحراء الجزيرة العربية. وأصبحت الجزيرة العربية منعزلة عن العالم مرة أخرى محاطة بنطاقات جبالها الجرداء التي تحيط بسواحلها وحوافها الرملية المتنقلة والتي لا تخلف أثراً. وفي القرن الثاني عشر استولى أحفاد صلاح الدين (الأيوبي)، الذين كانوا نصف أو شبه أكراد على حواف الجزيرة العربية.

ومن ثم وبعد ثلاثة قرون نزحت قبيلة جديدة من نجد (سهل واسع مرتفع) مجهول يقع في آسيا الوسطى. كانوا ينتمون لقبيلة عثمان، وهم يعتبرون أسلاف وأجداد الأتراك الجدد، وحاولوا حكم العرب حيث ظنوا أنفسهم بأنهم كانوا أعلى أو أسمى عرقاً من العرب.

واستولى الأتراك على الجزيرة العربية (والعالم العربي) وحكموها لمدة أربعمائة عام، تماماً لأنهم كانوا قادرين على الإبقاء على بضعة حاميات عسكرية على طول الساحل. ولقد نجحت بضعة من هذه الحاميات في الصمود حتى انتهاء الحرب العظمى تماماً، إلاّ أنها استسلمت في النهاية، مغادرة الجزيرة العربية مرة ثانية بدون نزاع تاركة إياها لسكانها المحبين للحرية.

إن قبائل الحجاز لم تعترف أبداً بسيادة أي حاكم أجنبي عليها. ولقد حافظت على حريتها ولكن باستثناء بسيط في أوقات وأزمنة تعود إلى ما قبل التاريخ، وبالتالي فإنهم يعتبرون حريتهم الشخصية فوق كل شيء. وقد أرسلت جيوش عظيمة لتقاتلهم وتخضعهم، إلاّ أنه حتى الآشوريون، والفرس، والإغريق، والرومان لم يكونوا قادرين على غزوهم واحتلالهم.

ومنذ انحطاط (الإمبراطورية) الخلافة العربية الإسلامية، منذ أكثر من ألف سنة تقريباً، حاول الجنرالات، والسلاطين، والحلفاء توحيد قبائل الجزيرة العربية، وخصوصاً في منطقة الحجاز، لأنها تحتوي على مدينتين مقدستين إلا أن أحدا لم ينجح في ذلك، باستثناء توماس ادوارد لورانس، ذلك الشخص غير الديني والمجهول، فقد نجح بذلك.

لقد ذهب ذلك الشاب عالم الآثار البريطاني إلى الجزيرة العربية وانضم إلى العرب للاشتراك في الحملة الظافرة المدهشة التي ساعدت المارشال اللنبي على كسر العمود الفقري للإمبراطورية العثمانية/ التركية وتدمير الحلم الألماني بالهيمنة على العالم. والطريقة التي سحق وأخرج فيها الترك من الأراضي المقدسة وبنى ووحد بشكل دائم هذا الموزاييك الملون المختلف للقبائل والشعوب في أمة واحدة متجانسة تعرف الآن (آنذاك) بمملكة الحجاز؛ ما هي إلا قصة لم يكن بمقدوري أن أصدقها، إلى أن زرت الجزيرة العربية واتصلت بشكل شخصي ومباشر مع لورنس وزملائه خلال حملتهم وحربهم. وربما لم يلعب عامل في تبسيط مهمة لورنس في الجزيرة أكثر من «أخوة الصحراء القديمة» والتي تدعى «بطائفة أو سلالة المنحدرين من دم النبي محمد (ﷺ)». وينبغي علينا معرفة شيء ما عن هذه السلالة وزعمائها الحاليين، وذلك كي نفهم دبلوماسية واستراتيجية الكولونيل لورنس التي اتبعها خلال حرب الصحراء.

* * *

4

المنحدرون من سلالة الرسول (ﷺ)

خلال كل تلك السنين من الحكم التركي الشائك، كان يوجد هناك على الدوام في المدينتين المقدستين للحجاز أبناء تلك السلالة المنحدرة من دم الرسول محمد (ﷺ). وقد أطلق على هؤلاء الأشخاص لقب الأشراف أو النبلاء من قبل العرب الآخرين، كما أنهم لم يفقدوا أبداً بغضهم للأتراك، والذين اعتبروهم متطفلين. وكانت هذه الجماعة أو الطائفة قوية جداً بحيث لم تستطع الحكومة العثمانية تدميرها أو القضاء عليها. ومع ذلك، فعندما كان الأشراف يعيشون ضمن نطاق المواقع التركية المحصنة المنتشرة على طول طرف الصحراء يحتجون علناً على الطغيان والاستبداد العثماني، غالباً ما كان السلطان العثماني «يدعوهم» ليأتوا ويسكنوا بالقرب منه في القسطنطينية (اسطنبول). وهناك سيكونون أو سيبقون مسجونين من الناحية العملية أو يخرجون بهدوء عن الطريق.

وكان السلطان عبد الحميد، وهو آخر سلطان عثماني كبير، خبيراً في إتباع هذه السياسة التي ورثها عن أسلافه، ومن بين الشخصيات البارزة التي وجد عبد الحميد أن من الأفضل إبقاءها إلى جانبه في الباب العالي من باب الحذر كان الشريف حسين شريف مكة. فقد كان الشريف حسين من أكبر الأحياء الذين ينحدرون من سلالة النبي محمد (ﷺ) ولذلك فقد كان يعتقد من قبل الكثيرين بأنه الرجل الحقيقي المخول لأن يصبح الخليفة، ويعتبر الرئيس الروحي والدنيوي في الإسلام. ولقب الخليفة جاء أصلاً للذين خلفوا الرسول بعد وفاته، إلا أنه حرّف فيما بعد واستغل، خاصة من قبل الترك.

ولا يوجد شعب في العالم أكثر فخراً في نسبه من العرب. وتسجل جميع مواليد الأسر الأميرية الحاكمة في مكة في المسجد الذي بني حول الحجر الأسود (الكعبة) والذي يعتبره ملايين المسلمين البقعة الأعظم تقديساً في العالم (المسجد الحرام). حيث نقش على لفافة مخطوط اسم الحسين بن علي، السليل المباشر للنبي محمد (ﷺ) من خلال ابنته فاطمة وابنها الأكبر الحسن.

عندما كان الملك حسين (الشريف حسين سابقاً) شاباً، كان لديه الكثير جداً من الأسباب ليعيش حياة وديعة مع أسرته في مكة؛ ولكن بدلاً من ذلك كان يجول ويطوف الصحراء مع البدو، ويشارك في جميع غزواتهم وحروبهم القبلية. كانت والدته شركسية فورث عنها الكثير من القوة والنشاط. وتلقى عبد الحميد، السلطان الأحمر، العديد من التقارير المزعجة فيما يتعلق بالحياة البرية الخشنة التي كان يعيشها هذا الشريف المستقل. وكان على السلطان عبد الحميد أن يتبع إحدى طريقتين للتعامل مع هذا الرجل الذي كان يخشاه ويزعجه. فقد كان عليه إما أن يقيده ويقذف به في مضيق البوسفور أو يحتفظ به في اسطنبول تحت مراقبته الشخصية المحكمة. ومع أنه كان يخشى من أن يطيح به الشريف حسين، إلا أن حقيقة الأمر كانت أن الشريف كان السليل المباشر للرسول محمد (ﷺ) لذلك فقد كان من الصعب جداً عليه أن يقذف به في مضيق البوسفور. لذلك فقد منحه راتبا تقاعديا ومنزلاً صغيراً يقع في منطقة القرن الذهبي، حيث عاش الشريف وأسرته هناك لمدة ثمانية عشر عاما، وكان عبد الحميد يستخدم في وصف الشريف حسين كلمة «ضيف» وهو يبتسم ابتسامته الخبيثة التي اشتهر بها.

وخلال هذه السنوات الطويلة في المنفى، كان ذلك السلطان الكبير الماكر يتبع ديبلوماسية المكر والخداع التي كان بارعاً فيها ليبقى الشريف حسين راضياً. وكان من بين الهدايا التي قدمها له سيارة صالون من نوع رولزرايس ليتنقل بها، وشكره الشريف على ذلك؛ إلا أنه جعل الأمر معروفاً، وبطريقة حذرة، على أنه كان يفضل على تلك السيارة استخدام بغاله في التنقل.

وعندما قامت ثورة حزب تركيا الفتاة (حركة الاتحاد والترقي التركية) في عام 1912 وأطاحت بالسلطان عبد الحميد، تم الإفراج عن جميع السجناء السياسيين من

اسطنبول، وبالتالي فقد شهد الشريف حسين وغيره من الزعماء القوميين العرب فجر حقبة جديدة من الحرية والاستقلالية. وفي الحقيقة، فهم قد ساعدوا أيضاً حزب تركيا الفتاة في الإطاحة بالعهد البائد. بيد أن آمالهم سرعان ما تبددت، حيث أن اللجنة الجديدة للإتحاد والترقي قررت بشكل قهري تتريك جميع الشعوب التي تتكون منها الإمبراطورية العثمانية والتي تضم أعراقا وأجناسا مختلفة ومعقدة. حتى أنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك عندما أصروا على أنه يجب على العرب أن يتخلوا عن لغتهم الجميلة «لغة الملائكة» وأن يستبدلوها باللغة واللهجة العثمانية المحرفة.

ولم يمض وقت طويل حتى اكتشف الشريف حسين أن حركة الاتحاد والترقي التي كان على رأسها كل من أنفير، وطلعت، وجمال، كانت أكثر طغياناً واستبداداً من عبد الحميد حتى في أقصى لحظاته الدموية. وأصبحوا ينظرون الآن إلى السلطان السابق الرديء على أنه رجل كبير السن رحيم ونبيل مقارنة بخلفائه. حتى أن جماعة الإتحاد والترقي قد أوحوا أنه في القرآن التركي المترجم فإن الأبطال يجب أن يكونوا بدلاء للأولياء والشيوخ الأجلاء. كما تم إلغاء المفردات والكلمات العربية من المفردات التركية.

وفي مكة كانت هناك قصة مبالغ فيها تروي أن الأتراك كانوا يرجعون إلى وثنيتهم القديمة، وأن الجنود في اسطنبول كان يطلب منهم بأن يصلوا للذئب الأبيض، وهي عبادة وثنية تعود إلى الأيام البربرية قبل أن تغادر قبيلة عثمان موطنها الأصلي في براري آسيا الوسطى.

ومع أن الزعماء العرب يئسوا من رؤية يوم سعيد لبلادهم، إلا أن الشريف حسين وأبناءه أخفوا بغضهم للحكومة الاستبدادية الثلاثية التركية (المؤلفة من ثلاثة أعضاء) وحزب تركيا الفتاة. وبسبب المساعدة التي قدمها الشريف حسين للجنة أو الحكومة الثلاثية قبل أن يجدوا أنه لا يحقق أهدافهم، فقد منحوه لقب حافظ الأماكن المقدسة للإسلام، أو الأمير السادس والستين لمكة للعهد العثماني.

وأعلنت الآنسة جيرترود بيل، وكانت المرأة الوحيدة برتبة رائد ركن في الجيش البريطاني، وواحدة من السلطات الرئيسية في الشؤون الشرق أوسطية، في رسالة بعثت بها

لصحيفة التايمز اللندنية، بأن الحركة القومية العربية قد منحت قوة ونشاطاً من قبل حزب تركيا الفتاة، الذي ما إن استولى على السلطة حتى غير موقفه كلياً.

وكتبت الآنسة بيل تقول «إن الحرية والمساواة كلمتان يعتبر اللعب بهما خطيرا في إمبراطورية تتألف من قوميات مختلفة ومتنوعة. وبالنسبة لهؤلاء العرب، المتهيئين والحادي الذكاء، الذين يفتخرون بتقاليدهم ومجدهم الماضي كمؤسسين للإسلام ورافعي راياته لسبعمائة عام من السلطة الخلافية، كانوا أول من طالب بترجمة وتحويل الوعد إلى حقيقة وأداء وفي فجر الحقبة الدستورية المتألقة، وتوقع المفكرون العرب أن مطلبهم سيتحقق. فإذا ما استجاب الترك وسمحوا للعرب بالتطور والنمو من خلال وتحت رعايتهم الذاتية، فمن الممكن أن تحرز وتتخذ الإمبراطورية العثمانية منهجاً لحياة جديدة، بيد أن عناد الترك وإعاقتهم الفكرية لذلك منعتهم من قبول هذه الفرصة الذهبية.

علاوة على ذلك، فإن العسكرية الألمانية قد صنعت لهم قوة مميزة، وإذا ما أخذ الوضع السياسي لإمبراطوريتهم بالاعتبار فسيكون ذلك خطيراً بشكل خاص. وقررت لجنة الاتحاد والترقي بأن تشق طريقها عنوة متجاوزة حساسيات موضوع الأعراق والأجناس ولم تكتف بهذه المهمة الضخمة بإهمالها للأساليب الديبلوماسية الحذرة والمحترسة التي كان يتبعها السلطان عبد الحميد، فوجدت نفسها منخرطة في نزاع كارثي وداهم مع الدول المجاورة في أوروبا. وقبل أن تندلع حرب عام 1914، كانت جميع الأقطار العربية مليئة بالكره والبغض والرغبة بالانتقام من الترك».

نشأ أبناء الشريف حسين في الحاضرة العثمانية اسطنبول في محيط ترف كمثل الشباب الترك. وكانوا يقضون معظم أوقاتهم في رياضة التجذيف في مضيق البوسفور ويحضرون مباريات التنس وكرة السلة. وعمل الأمير فيصل كسكرتير خاص للسلطان عبد الحميد لمدة ست سنوات. وعندما عاد الشريف حسين إلى مكة استدعى أبناءه الأربعة على الفور وأبلغهم بأنهم قد اعتادوا على حياة الترف والنعومة في اسطنبول وهذا شيء لا يلائمه. وقال لهم «لقد أصبحت اسطنبول وحياتها الترفة البغيضة خلفكم الآن. ولكن من الآن فصاعداً عليكم أن توفروا الحماية لبلدكم مع إخوانكم أولئك الذين يسكنون الخيام

السوداء لكي نحفظ المجد لبيتنا ونبعد الخزي عنه، الله أكبر»، فهذا ما قاله الأمير (الشريف) الكبير وكان عند كلمته وأمرهم بأن يخرجوا لحماية طرق الحج.

وكانت تلك الطرق عبارة عن ممرات لجمال عبر رمال الصحراء الحارقة والتي تربط ساحل البحر الأحمر مع مكة، المدينة المقدسة، والعاصمة الصيفية الطائف، التي تقع ما بين المدينة ومكة. وأرسل مع كل واحد من أبنائه كتيبة تضم أفضل الرجال المقاتلين. ولم يسمح لهم حتى باستخدام الخيام، وإنما أجبروا على النوم في عباءاتهم تحت السماء. وقد أمضوا أياماً طويلة وهم يطاردون اللصوص. وكان اللصوص الأسوأ في الصحراء هم رجال قبيلة الحارث، فمنهم حوالي مائة رجل خارجين على القانون، وجميعهم تقريباً مطرودون أو منفيون.

وهؤلاء الرجال الحارثيون قد حصنوا أنفسهم في قرية منيعة محصنة تبعد خمسين ميلاً إلى الشمال الشرقي من مكة. وجعلت الحملات العسكرية ضدهم وضد غيرهم من العصابات أبناء الشريف قادة أكفاء واثقين من أنفسهم. وأصبح الأمير فيصل شخصية بارزة في الشرق الأدنى اليوم ليس بسبب نسبه الملوكي فحسب، وإنما أيضاً بسبب تفوقه في طرق ووسائل أهلته للزعامة في الجزيرة العربية.

وكان الأمير علي، الابن الأكبر للشريف حسين، نحيل البنية، أيضاً. وكانت لديه طرق وأساليب مبهجة، وكان ذا شخصية مشرقة عظيمة، ودبلوماسيا كاملاً. وكان ديناً بعمق، وذا جوهر كريم وسخي، ومنضبط في جميع المسائل الأخلاقية. ومثله مثل أعضاء أسرته الآخرين فقد كانت لديه وجهات نظر بعيدة الوصول وتطلعات من أجل بلاده. إلا أنه لم تكن لديه طموحات وتطلعات شخصية تخرج من نطاق مكة، حيث ورث الحكم عن والده عندما تنازل عن العرش. أما الأمير عبد الله، الإبن الثاني للشريف حسين، فقد كان طموحاً ونشطاً. وأصبح بعد انتهاء الحرب أميراً على شرق الأردن، وجعل الرحالة الإنجليزي الشهير جون فيلبي مستشاراً له.

والابن الأصغر للشريف، الأمير زيد كان نصف تركي، كانت والدته تركية. ولم يكن هنالك الكثير من السمات الشرقية لديه، وعندما كانت الثورة في أوجها كان لا يزال

تنقصه الجدية التي كانت لدى أشقائه الأكبر سناً. ومع ذلك كان غنياً في شعوره العام، وكان يحب الصيد، والسباق، والرقص. وبعد أن استولى العرب والجنود الأستراليون على دمشق احتفل في كافة أرجاء المدينة إلى أن أقنعه الأمير فيصل بأنه يجب عليه التصرف بوقار أكبر. كما أنه كان رجلاً ذا ذكاء بارز، ولو أنه حقق طموحه بالدراسة في جامعة أكسفورد لأثبت نفسه على أنه الأكثر مهارة لأسرة شهيرة.

كان الأمير فيصل، الابن الثالث للشريف حسين والأكثر شهرة بين أبنائه مثالياً. ومع أنه كان متواضعاً ومتحفظاً، إلا أنه كلن ذا شخصية عظيمة. ويعتبر كل عربي دبلوماسي المولد، إلا أن فيصل كان فوق المعدل.

إن أبناء الصحراء ليس لديهم سوى بضعة ألعاب. فهم لا يعرفون كيف يلعبون كما هو الحال بالنسبة لأطفالنا الغربيين. فالحياة عندهم جادة ورزينة منذ اللحظة التي يفتح الطفل العربي عينيه في بيت الشعر. وحينما يصبح قادراً على الزحف، يأتي إلى مجلس القبيلة. ومدرسته الوحيدة هي موقد القهوة، ويتألف تعليمه الوحيد من خدمة الرجال والجمال.

بدأ الأمير فيصل حياته في الرعي عندما كان صبياً. كانت والدته عربية الأصل من مكة وابنة عم والده. وعندما كان فتى صغيراً أرسله والده الشريف حسين إلى الصحراء ليعيش هناك مع قبيلة بدوية، لأنه كان يعتبر أن ذلك أكثر فائدة بالنسبة لصبي لينشأ هناك في جو صحراوي مفتوح وطليق أفضل من أن ينشأ في مدينة أو قرية. وفيما بعد، في اسطنبول، أصيب فيصل بالسل، بيد أن الصحراء أو العيش في الصحراء عالجته وشفي منه. ومع ذلك، فهو لا يزال، وقتذاك، نحيلاً جداً. وكان يدخن السجائر نهاراً وليلاً، ويأكل قليلاً جداً. وكان يعتبر بين القبائل على أنه دقيق التصويب بالبندقية بشكل غير عادي وفارس جيد وراكب أو ممتطي جمل ممتاز.

كان الأمير فيصل متنوراً وذا آراء ووجهات نظر عصرية، ويقول الكولونيل لورنس، الذي كان يعرفه أفضل من أي واحد آخر، إنه صادق وشريف كوضح النهار. وكان رجاله موالين له، ليس خوفاً منه، وإنما لأنهم كانوا معجبين به ويحبونه. وكان لطيفاً

جداً ذا فكر ليبرالي حر ولا يحكم كسلطان مستبد من المدرسة القديمة، فقد يبذل أقصى جهده ليواكب نظاماً جديداً بشكل شامل من أجل شعبه.

يختار رجال الدولة المعينون في العالم قصص الجاسوسية ليرفهوا عن أنفسهم خلال لحظات الاسترخاء؛ أما الأمير فيصل فهو يختار قراءة الشعر العربي الكلاسيكي خلال الهدوء المؤقت ما بين الحملات العسكرية لينعش نفسه استعداداً لمعركة متجددة وتبديدا لهمومه الرسمية. وكان شاعره المفضل هو امرؤ القيس، وهو شاعر أكثر شهرة من بين جميع الشعراء العرب الملحميين، عاش في الجاهلية قبل الإسلام، وكتيب شعراً عن الجمال، والصحراء، والحب. وكان من بين الكتاب والشعراء المحببين لدى فيصل ابن هشام، ابن العلي، زهير بن أبي سلمى، والمتنبي، وهم من كبار الأدباء في القرون الوسطى، عندما تغلغل التعليم والثقافة العربية إلى أقصى أطراف أوروبا. كان فيصل معجباً إلى حد بعيد ببيت شعر المتنبي الذي يقول:

الخيـــل والليـــل والبيـــداء تعرفنـــي والـسيف والـرمح والقرطـاس والقلـم

ولقد رايته غالباً يقرأ أشعار عنترة بن شداد، وهو شاعر مشهور ألف ملحمة ضخمة تحدث فيها عن حياته وكانت مليئة بحكايات وقصص غزواته وشعره الغزلي الغنائي. وقد ألهمت حرب التحرير آنذاك العديد من الشعراء الجدد ليثيروا الناس بأساليب ووسائل الأناشيد الحماسية. حتى أن سائق الجمل أكثر الناس وضاعة كان يرتجل الأناشيد والأغاني المتعلقة بفيصل ولورنس، وبذلك المحارب المقدام، عودة أبو تايه.

ومجد الشعر، والأناشيد، والأمثال فضيلة الضيافة بين العرب. فالعربي، ابتداءً من الشريف حسين نزولاً إلى أوضع أتباعه، سيخاطر بحياته مقابل عدم السماح بإلحاق أي أذى بضيفه، وحتى لو كان من ألد أعدائه. ولعدة أشهر قبل اندلاع الثورة العربية، كان الشريف حسين وأبناؤه يعدون بصورة سرية لها، في حين كانوا يوهمون الترك بأنهم يحشدون ويعبئون ضد الحلفاء.

وصدف أن كان الأمير فيصل موجوداً في دمشق خلال هذه الفترة وكان يحل ضيفاً على جمال باشا، الحاكم التركي لسوريا وفلسطين. فأرسل له والده يبلغه بأنه قد نجح في

تجميع عدد من القبائل من أجل شن هجوم على الحامية التركية في المدينة، لذلك فقد تذرع فيصل ببعض الذرائع وقال لجمال بأنه ينبغي عليه العودة للجنوب. إلا أن جمال حثه على إرجاء مغادرته لبضعة أيام، قائلاً له إنه هو وأنور باشا يرغبان بمرافقته إلى المدينة، وعندما وصل فيصل إلى المدينة مع كل من جمال وأنور، حضروا استعراضاً قام به أكثر من خمسة آلاف قبلي عربي استعرضوا قوتهم فوق الجمال والخيول وهم يطلقون العيارات النارية من بنادقهم في الهواء. وسر الرجلان العضوان في اللجنة الثلاثية التركية بالاستعراض الحربي الذي قدم، وأبلغا فيصل بأن رجاله سيشكلون مساعدة ضخمة للسلطان العثماني ولحاكمه الإسلامي الشهير، وللقيصر ويليام باشا، في حربهم ضد الكفار.

في تلك الليلة، وخلال مأدبة عشاء عادية، تسلل كل من علي بن الحسين، من قبيلة الحارث، وعدد من الأشراف والشيوخ الآخرين وهمسوا في أذن فيصل قائلين: «لقد حاصرنا القصر ونحن بصدد قتل هذين التركيين».

وتحقق بأن أتباعه كانوا جادين بذلك، فأشار لهم فيصل بأن يتنحوا جانباً للحظة، ومن ثم استدار نحو كل من جمال وأنور وقال: «والآن أيها السادة، وحسب عادتنا، بعد مأدبة من هذا النوع، يجب أن تقضيا هذه الليلة في منزلي».

ومن ثم أودع فيصل ضيفيه في غرفته الخاصة ونام في الخارج بالقرب من باب الغرفة طيلة الليل. ومن دون أن يتركهما للحظة واحدة، رافقهما في صبيحة اليوم التالي إلى محطة القطار وذهب معهما في رحلة استغرقت ثلاثة أيام إلى دمشق. ولم يثر هذا التصرف أدنى شك لديهما، فلو أن كلا من جمال وأنور قد شكا بأن أي شيء كان خطأ في المدينة، وأن العرب لم يكونوا ينوون التعاون مع تركيا وألمانيا في الحرب، فإنهما كانا إما سيقتلان فيصل أو يعتقلانه كرهينة لضمان حسن تصرف والده.

فالمأدبة العربية، التي أقامها الأمير فيصل لكل من جمال وأنور، تعتبر مناسبة ليجري تذكرها. فبعد انتهاء الحرب، أقام الملك حسين مأدبة في بلدية جدة على شرف الأمير المصري جرجس لطف الله. فوضعت صفوف وصفوف من الطاولات الصغيرة بجانب بعضها البعض، ومن ثم ملئت جميعها بالأطعمة وبدأ الجميع بالتهام الطعام. وكان هناك

ثمانون ضيفاً يقدم لهم الطعام باستمرار، بينما الخدم يروحون ويجيئون حول الطاولات ليقدموا الطعام. وإذا ما فرغ طبق ما أو نقص من طعام فإنهم يقومون بملئه بقطع جديدة من لحوم الضأن والماعز. وبعد أن تناول الثمانون ضيفاً الطعام، قدم الطعام لضيوف آخرين على نفس النمط.

* * *

5

سقوط جدة ومكة

عندما جرفت الحرب العالمية الأولى تركيا إلى صدام عنيف مع كل من بريطانيا العظمى، فرنسا، روسيا، وإيطاليا، كانت تلك فرصة سانحة للجزيرة العربية، إلا أنها كانت غير قادرة على الحصول على التمويلات اللازمة والذخيرة والأسلحة الكافية للقيام بالثورة، فاضطر الشريف حسين للانتظار لعدة أشهر من دون إعلان الثورة. ومن ثم جاءت أخبار سقوط كوت العمارة في العراق بواسطة الجنرال تاوند. فكان ذلك تراجعا خطيرا للحلفاء وانتصارا مهما للأتراك. ولم يعد الشريف حسين قادراً على لجم أتباعه، فأرسل إلى الحكومة البريطانية يبلغها بأنه لا يمكنه الوقوف جانباً والسماح لشعبه بأن يظل خاضعاً للأتراك، وطلب المساعدة. بيد أنه قبل أن يتلقى رداً على ذلك، هب عرب الحجاز بكل ما لديهم من غضب وبغض خلفته خمسمائة سنة من الاضطهاد والاستبداد وانقضوا على الأتراك. وقام الرجال السمر النحيلون الرائعون من أبناء إسماعيل من جميع أجزاء الصحراء أخيراً ليثأروا ويحرروا أنفسهم.

لقد عمل الشريف حسين وأبناؤه بكل تفاصيل خطتهم من أجل القيام بالثورة، إلا أنهم أبقوا ذلك سرياً لبضعة شهور، حتى أنهم لم يجرؤوا على الوثوق بأقرب الناس إليهم ليسروا لهم بذلك، لأن المؤامرات على الأراضي التركية كانت غالباً ما تكتشف قبل أن تنضج، ولم يكن أحد يعرف عبدا يمكنه الوثوق به. فلم يكن هنالك جواسيس فحسب وإنما أيضاً عدد لا يحصى من الجواسيس على الجواسيس أنفسهم.

وفي وقت مبكر من عام 1916، عندما كان الملازم لورنس يصنع الشهرة لنفسه من خلال عمله مع إدارة الاستخبارات البريطانية في القاهرة، أرسل الشريف الكبير إلى جميع القبائل في الأراضي المقدسة يبلغهم لكي يكونوا مستعدين في اللحظة المناسبة ومن ثم، في التاسع من حزيران (1916) أطلق رصاصته الأولى للبدء بالثورة. وبنفس الوقت فقد شجب بنفسه علناً كلا من أنور، وطلعت، وجمال ولجنتهم سيئة السمعة للإتحاد والترقي. وتم القيام بهجمات متزامنة في وقت واحد على كل من الحاميات التركية في مكة، جدة، والمدينة، وهي المدن الأقل شهرة والأكثر إثارة في العالم. وقبل متابعة أحداث وتفاصيل الثورة العربية حيث انضم لورنس إلى صفوفها، دعونا نتوقف ونرى ونستطلع هذه المراكز للحياة والحيوية في الحجاز والتي جاء منها العديد من زملاء ورفقاء لورنس.

عندما ينزل المرء في جدة يفرك عينيه ويقرص نفسه ليتأكد من أنه مستيقظ وليس في منام. لقد حرم القرآن تناول المسكرات، ولكن أيا من المهندسين الذين صمموا هذه المدينة لم يكن مسلماً أو إن معظم أبنيتها بنيت قبل البعثة النبوية. وتعتبر شوارع جدة مربكة ومذهلة من الممرات المتعرجة الضيقة التي تقع بين بيوت طويلة متداعية، تبدو كما لو أنها مالت بفعل زلازل متواصلة. وتتكون العديد من المنازل من خمسة أو ستة طوابق وتستخدم فقط لإيواء الحجاج الذين يمرون عبرها في طريقهم إلى مكة خلال شهر رمضان، وهو الشهر الذي يزداد فيه عدد سكان المدينة من اثني عشر ألفاً إلى ربما مائة ألف نسمة. والطريقة الأكثر ملاءمة التي يمكن أن أفكر بها لوصف هذا الميناء العربي العجيب هو القول بأنه يبدو مثله مثل أي مدينة شرقية عادية يمكن أن تبدو للمرء على أنها تعاني من احتجاجات وانفعالات ضخمة.

وسيكون من الملائم جداً لو أن برج بيزا المائل ينقل إلى جدة. ليبدو التناسق أو التماثل مكونا تشكيلة غريبة في هذه المدينة. ويقال بأن نجارا عربيا لا يمكنه أن يصنع زاوية (خشبية) صحيحة، كما لا يمكن لنادل (جرسون) أن يضع غطاء الطاولة بشكل متساو أو متناسق فيها. كما أن الكعبة المشرفة في مكة وهي مكان مقدس، تعني «مكعب» في حجمها لم تكن جوانبها أو زواياها متساوية. ونادراً ما تكون الشوارع العربية متساوية أو مستقيمة،

وحتى أن الشارع الذي يدعى «مستقيما» في دمشق لا يكون مستقيماً مباشراً. فجدة، بأبنيتها العجيبة المذهلة، وشرفاتها الهشة الواهنة، ومآذنها المائلة، وتجارها العرب الكسولين الذين يجلسون القرفصاء على دفات عالية أمام دكاكينهم وحوانيتهم المشوشة وأسواقها المقنطرة المدهشة المغطاة بخليط من رقع وقطع القماش المربوطة ببعضها البعض كمثل أشرعة سفن صينية بالية، تعتبر الطريق الأقرب إلى جنة مستقبلية من أية مدينة في العالم.

إن الجزيرة العربية هي أرض مقلوبة رأساً على عقب. وحيث يمكننا أن نقيس سوائلنا ونزن معظم موادنا الصلبة، إلا أنهم يزنون سوائلهم ويقيسون موادهم الصلبة. وحيث أننا نستخدم الملاعق والسكاكين والشوك في كل طعامنا، فهم يستخدمون أيديهم في أكل الطعام. وحيث أننا نجلس على موائد وكراسي للأكل، فهم يجلسون على الأرض لتناول الطعام. وحيث أننا نمتطي الجياد من جهة اليسار، إلا أنهم يمتطون الجياد والجمال من جهة اليمين. ونحن نقرأ من اليسار إلى اليمين، في حين أنهم يقرأون من اليمين إلى اليسار. وساكن الصحراء يغطي رأسه في الصيف والشتاء على حد سواء، وغالباً ما تكون قدماه عاريتين غير محميتين. وحيث أننا نخلع قبعاتنا عند دخولنا لمنزل صديق، فإنهم يخلعون أحذيتهم.

وإضافة لسكانها العرب، فإن جدة يسكنها بقايا حجاج من الذين كانوا غير قادرين مادياً على مغادرة الجزيرة العربية بعد أدائهم مناسك الحج. ومعظمهم يكونون فقراء معدمين وبالكاد يمكنهم العيش من دخولات الأعمال الغريبة التي حصلوا عليها خلال موسم الحج القصير في كل عام. ويكون بينهم من هم من الجاويين (الذين جاؤوا من جزيرة جاوا)، والفليبين، والماليزيين، وعشرات من أعراق هندية مختلفة، والأكراد، والأتراك، والمصريين، والسودانيين، والأحباش، والسنغاليين، ورجال قبائل من الصحراء، وزنجباريين، ويمنيين، وصوماليين والعديد غيرهم.

في عصر أحد الأيام، رافقني الميجور جولدي، وكان ضابطاً ملحقاً بالبعثة العسكرية البريطانية التي كان مقرها هناك خلال الحملة العسكرية، وذهبنا من خلال بوابة مكة إلى حي الأحباش في جدة. وكانت مساكن هؤلاء الناس البدائيين تتكون من الأكواخ

المستديرة ذات الأسقف القشية مخروطية الشكل والمحاطة بسياجات صدئة وتنك اللحوم المحفوظة. وأوقفنا جيادنا أمام كوخ حيث كانت هناك امرأة زنجية مشغولة بدباغة جلد حيوان. وما إن رأتنا حتى بدأت بالصراخ قائلة: «أوه، لماذا جئتم لتدمير منزلي؟ آه لماذا جئتم لتأخذوا طفلي؟ أوه! أوه! أوه! فماذا فعلت حتى تريدون إطلاق النار علي؟ ومع أن الضابط غولدي بذل أقصى جهده ليطمئنها، إلا أنها استمرت بذلك العويل لغاية ما ذهبنا راجعين وتوارينا عن الأنظار.

كانت تتواجد على كل جانب من جدة، وتبعد عنها بضعة أميال، موانئ قرى صغيرة يتجنب الأجانب زيارتها. ولا يرحب هناك أبداً بالسياح لأن هذه القرى كانت تعتبر ولعدة سنوات مراكز لتجارة العبيد. فإلى هناك يهرّب الزنوج عبر السواحل الإفريقية، حيث يباعون إلى الأثرياء العرب. وتغاضت الحكومة التركية عن هذه التجارة الفاسدة، بيد أن الشريف حسين وأبناءه حاولوا إيقافها وإلغاءها. وكنتيجة لموقفهم من مسألة النخاسة، فقد ارتفع سعر العبد الشاب قوي البنية في فترة ما قبل الحرب من 50 جنيها إسترلينيا إلى (300) جنيه أو حتى إلى (500) جنيه.

ومع أن تلك التجارة كان يمكن أن تستمر بشكل سري لوقت قصير، إلا أن الملك الجديد آنذاك علي بن الحسين، قد عارض ذلك بشدة وبذل أقصى جهده لإلغائها.

وأخذني الميجور غودي إلى خلف بوابة جدة الشمالية لنرى ما يعتقد به آلاف المسلمين على أنه قبر سلفنا المشترك جميعاً. ويوجد هناك عُرف مأثور قديم من أنه هناك كانت قد حطت سفينة نوح بعد الفيضان العظيم. ووفقاً لسرد القصة، فعندما كان نوح في عمرة الستمائة وواحد سنة، وبعد أن وقف فيضان الماء، فإن نوحا وأبناءه الثلاثة، سام، وهام، ويافث كانوا يمشون على الشاطئ عندما وصلوا إلى مكان منخفض في الرمل. وبدا هذا المنخفض مشابها لشكل إنسان. كان طوله يبلغ حوالي ثلاثمائة قدم. وسأل حام والده ما يعتقد أنه يمكن أن يكون، فأجاب ذلك الشيخ الجليل قائلاً: «يا بني إنه المكان الأخير الذي ترقد فيه أمنا حواء».

بالطبع يوجد هنالك العديد من المسلمين المتعلمين يضحكون عند ذكر هذه الأسطورة، ولكن، مع ذلك، فقد تم بناء جدار يبلغ طوله ثلاثمائة قدم حول ذلك

المنخفض المفترض أنه قبر «حواء»، وضمن مسجد أبيض البناء، حيث تصلي فيه سنوياً آلاف النساء. وهم يعتقدون بأن أمنا حواء كان طولها يبلغ ثلاثمائة قدم، ويعتقدون كيف أننا جميعنا لا بد أن تتحلل أجسادنا بعد المات. بيد أن المدينة أخذت اسمها من هذا القبر «جدة»، وهي تعني جدتنا أو سلفتنا الأولى.

ومنذ البعثة النبوية المحمدية، فإن كلا من المسيحيين، واليهود، وأتباع زرادشت، أو غيرهم من غير المؤمنين، كان يمكنهم دخول أرض الحجاز باستثناء المنطقة الساحلية والأماكن المقدسة. ولا أحد كان يسمح له بالذهاب إلى ما وراء سور جدة عبر البوابة الشرقية للمدينة، والتي تؤدي إلى أو في اتجاه مكة. وقد التزم الضباط الإنجليز الذين كانوا يتركزون في جدة منذ قيام الثورة ولغاية نهاية الحرب العظمى بهذا القانون غير المدون وخلال تلك الحرب لم يزر أحد من ممثلي الحلفاء أبداً المدينة المحرمة عليهم وعاصمة الشريف حسين (الملك حسين فيما بعد) مكة، بأي حال من الأحوال سواء كان ذلك رسمياً أو غير رسمي. حتى أن الملك حسين ذهب إلى أبعد من ذلك بأن طلب من السلطات البريطانية بأن تأمر جميع ضباطها من الطيارين البحريين الذين يقودون الطائرات الحربية البحرية المرافقة للسفن البحرية في البحر الأحمر أن لا يجتازوا المجال الجوي ويحلقوا فوق كل من مكة والمدينة تحت أي ظرف كان.

وفي كل يوم يتوجه ملايين المسلمين نحو الكعبة الشريفة عند أداء صلواتهم الخمس ويرددون مرة تلو الأخرى «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

تعتبر كل من مكة وأختها المدينة (المنورة) حاضرتا الصحراء وهما المدينتان الأكثر غموضاً في العالم. وأي إنسان يتواجد بالقرب من إحداهما ويعلن بأن «المسيح كان ابن الله» فإنه يمزق إلى أجزاء أو يقطع إرباً.

ومنذ عهد الرسول (ﷺ)، فقد اقتصرت كل من مكة والمدينة على المسلمين. وفي الحقيقة، فإن اتباع الرسول محمد (ﷺ) المخلصين يمكن أن يقضوا على أي متطفل أو متسلل يشكون حتى بكونه غير مؤمن. ولهذا السبب فإن جميع الاجتماعات واللقاءات

التي تمت بين الملك حسين (الشريف حسين سابقاً) وممثلي الحكومتين البريطانية والفرنسية عقدت في جدة.

ولدينا سجل لعشرة أشخاص فقط أو نحو ذلك من المسيحيين الذين زاروا مكة خلال الألف سنة الماضية، وعاشوا ليروا القصص حول ذلك. ومن أكثرهم شهرة، كان بالطبع، السير ريتشارد بورتون. ولا زال هناك عدد قليل جداً زار المدينة. وفي نهاية القرن الثامن عشر ظهرت طائفة متشددة ومتزمتة من وسط الجزيرة العربية تدعى بالوهابيين وسيطرت على كل من مكة والمدينة. إلا أنهم أخرجوا بالقوة من قبل الجيش المصري بقيادة محمد علي باشا. وكان له لفترة ما شرف القيام كحاكم للمدينة وحارس قبر الرسول محمد (ﷺ).

ولا يقتصر الأمر على توجه المسلمين إلى مكة (الكعبة) عند أداء الصلاة، بل إن معظمهم يبنون بيوتهم باتجاه الكعبة أو مكة؛ وحتى بعدما يموتون فإنهم يوضعون باتجاه مكة.

ويعتبر الحج ركناً من أركان الدين الإسلامي، ويتم في مكة. وعلى الرغم من أن هذه المدينة ليس لها أهمية اقتصادية، إلا أن الحجاج الذين يذهبون إلى هناك كل عام خلال شهر ذي الحجة يعتبرون مصدراً مهماً لدخل سكانها البالغ عددهم وقتذاك مائة وخمسين ألف نسمة.

ويزور مكة للحج سنوياً عشرات الآلاف من المسلمين، مع أن العديد منهم يأتون من بلدان بعيدة جداً يمكن أن تستغرق رحلتهم عامين ليصلوا لأداء فريضة الحج. وبعضهم يقطعون المسافات الشاسعة ويأتون من إفريقيا الوسطى، من وادي السنغال وثغر الكونغو، وآخرون يأتون من قلب آسيا؛ وكنت في وقت ما في سنغافورة عندما مرت سفن حجاج من خلال مضائق ملق وهي تحمل آلاف الحجاج الجالسين على ظهرها المكشوف. وبعد أدائهم مناسك الحج الدينية في مكة يعود الحجاج إلى بلدانهم، ويعرف كل واحد منهم بعد ذلك بلقب الحاج. وحينما يكونون في مكة فإنه تغفر جميع ذنوبهم، ويصبحون مؤهلين لدخول الجنة.

وأولئك الذين يقدمون إلى الأماكن المقدسة بالبحر يكون مطلوبا منهم أن يستبدلوا ثيابهم قبل مغادرة السفينة بملابس الإحرام، وهو لباس يتكون من قطعتين من القماش الأبيض، واحدة يلف بها الحاج وسطه والأخرى يلفها حول كتفيه. وغالباً ما يستخدم لهذا الغرض منشفتين تركيتين. أما الذين يأتون بواسطة البر للحج فإنهم يقفون على بعد 35 ميلاً من مكة، ويحرمون من هناك ويكملون رحلتهم إلى مكة كاشفي الرؤوس وعاريي الأقدام بعد أن يستحموا ويحلقوا ويقلموا أظافرهم ويلبسوا لباس الإحرام. ولا يسمح لهم وهم يؤدون مناسك الحج بالاستحمام أو الحلاقة أو تقليم أظافرهم إلى أن يؤدوا شعائر الحج في مكة، وإلى أن يقفوا على جبل عرفات إلى الغرب من مكة ويكملوا الشعيرة المعروفة برمي الجمرات (على الشياطين الثلاثة).

يا له من مشهد ملائم للسينما عندما يتدفق ذلك النهر الضخم من البشر، معظمهم يمتطي الجمال، والكثيرون يمشون على الأقدام العارية مكشوفي الرؤوس، يقطعون الطريق الصحراوي من جدة إلى مكة لا يرتدون سوى مناشف الإحرام التركية. وبالطبع فإن النساء اللواتي يؤدين مناسك الحج يلبسن ثيابا مختلفة. ويتألف زيهن من ثوب طويل من الكتان لا يغطي الجسد تماماً فحسب وإنما أيضاً يغطي الرأس. ويضعن على وجوههن خمارا به ثقوب أو شقوق ضئيلة ليستطعن النظر من خلالها. ويجلس كثير من النساء والرجال كبار السن في الشكدف وهي عبارة عن صناديق أو ملاوي خشبية توضع على ظهور الجمال.

وتعتبر المنطقة المحيطة بمكة جميعها مقدسة. ولا يسمح للحجيج حسب شعائر الحج بصيد الحيوانات ولا حتى بقطع الشجيرات والأعشاب.

وتقع مكة المكرمة بين جيب ضيق من الجبال حيث يلتقي واديان مع بعضهما. وتوجد هناك ثلاث قلاع تشرف على مكة من المرتفعات احتلت من قبل القوات التركية إلى أن أخرجها منها أتباع الملك حسين (الشريف حسين).

وفي وسط مكة يوجد الحرم المكي العظيم، الذي وضعت فيه الأصنام للعبادة قبل قرون عديدة قبل البعثة النبوية. ويعرف بمسجد الكعبة أو المسجد الحرام، الذي يعني «المكان المقدس». ويوجد ضمن الساحة أو الفناء في وسطه بناء «مكعب الشكل»، وهي

الكعبة المشرفة وهي مغطاة برداء سميك بهي ورائع من الحرير الأسود مع وجود نقوش ذهبية تحتوي على آيات قرآنية. ويدعم سقف الكعبة بأعمدة خشبية. وحول حافتها يوجد مزراب من الذهب لتصب من خلاله مياه الأمطار.

ويوجد في أحد جدرانها أكبر شيء مقدس غاية التقديس في العالم لأكثر من مائتي مليون مسلم (وقتذاك). إنه الحجر الأسود وهو شهابي أو نيزكي الأصل يعتقد المسلمون أنه نقل من الجنة بواسطة الملاك جبريل إلى النبي إبراهيم. ويقولون إنه كان أبيض من الحليب إلا أنه تحول إلى أسود بسبب خطايا الناس الذين قبلوه. ويقول آخرون إنه اشتق لونه من دموع آدم. وقد كسر إلى سبع قطع، وقد جمعت أجزاؤه سوية الآن بواسطة إسمنت أحيط به وطلي ورصع بمسامير فضة.

ويعتقد المسلمون أتباع محمد بأن هذا البناء المكعب الشكل يتواجد مباشرة تحت عرش الله. ويقولون بأنه أنزل من الجنة بناء على طلب آدم وأنه نسخة مطابقة لواحد شاهده في الجنة قبل طرده منها ويدعى «البيت المعمور» وهو محاط بالملائكة دوماً. وقليل جداً من المسلمين يدخلون إلى داخل الكعبة، إلا أن الذين يدخلون إليها يخفضون عيونهم إلى أسفل في موقف ووضع من الإجلال والتواضع لمركزها الإلهي. فإذا ما دخل، مثلاً، حاج من سوريا فيها، فإنه لن يمشي حافي القدمين طيلة حياته، لأنه يعتقد بأن جلد قدميه قد لامس أرض الكعبة المقدسة ولذلك لا يجب أن توضعا أبداً بعد ذلك على الأرض الدنيوية ثانية.

ويستبدل الغطاء الذي يغطي الكعبة في كل عام بواحد جديد. ويرسل رسمياً في كل عام غطاءان، واحد يأتي من دمشق من السلطان التركي هناك، بينما يرسل الآخر من القاهرة، ويقدم للمسجد أو الحرم المكي بواسطة سلطان مصر. وعندما يوضع الغطاء الجديد على الكعبة، يقطع الغطاء القديم إلى قطع صغيرة من قبل الحجاج، الذين يأخذونها معهم إلى بلادهم كتذكارات.

ووفقاً للتقليد، فإنه منذ بدء الخليقة إلى يوم الحساب (يوم القيامة) فإنه لا بد أن يطوف حول الكعبة في كل لحظة ودائماً حاج أو شخص واحد سبع مرات. بل إنه كل

حوالي عشرين سنة تحدث فيضانات وتملأ كافة شوارع مكة، بما فيها الحرم المكي، وعندما تحدث هذه الفيضانات يُستأجر رجال ليسبحوا حولها ليلاً ونهاراً لكي لا ينقطع هذا الاحتفال أبداً.

ويقبل الحجاج الحجر الأسود، ثم يطوفون حول الكعبة سبع مرات، ثم يشربون من بئر زمزم المقدسة ويقبلون الحجر الأسود ثانية، ويقول السير ريتشارد بورتون إنه عندما حاول تقبيل الحجر الأسود وجد نفسه في حشد متراص من المؤمنين كان كل واحد منهم يحاول أن يشق طريقه من خلال الجمع الغفير لكي يمكنه أن يقبل ذلك الشيء الأكثر تقديساً في العالم. وقال أيضاً بأن هؤلاء المتدينون المتحمسون كانوا يرددون صلواتهم ودعاءهم بأصوات عالية، وما بين جمل دعواتهم فإنهم كانوا يتوقفون ليلعنوا رجلا ما كان يدفعهم بمرفقه ليبعدهم عن الحجر الأسود.

إن البئر الأكثر أهمية في مكة هو بئر زمزم الموجود في فناء الحرم. ويحتوي هذا الماء على بعض الملوحة بيد أنه قيل إنه يكون مبهجاً لذيذاً عندما يصبح المرء معتاداً على شربه. ويبلغ عرض البئر ثمانية أقدام وهو عميق تماماً. ووفقاً لاعتقاد إسلامي فإنه يعتبر واحداً من الطرق المباشرة للجنة من خلال قاع هذا البئر.

وبعض الحجاج الهنود الذين يؤمنون بهذه الخرافات حرفياً، غالباً ما يرمون أنفسهم في هذا البئر، ويجعلون ماء البئر غير صالح للشرب لعدة أيام. وفي الحقيقة، فإن العديد من الأشخاص حاولوا ذلك حتى يختصروا الذهاب إلى الجنة مما أصبح ضرورياً وضع شباك حول أو فوق البئر لمنع وقوعهم فيه. ويوجد هنالك اعتقاد قديم بين المسلمين بأن اقتراب يوم القيامة سيعرف ويحدد من خلال شروق الشمس من الغرب، أو بمعنى آخر، إذا ما أشرقت الشمس من الغرب، وأيضاً بظهور حيوان مميز يخرج من أرض فناء المسجد الحرام. فهذا الحيوان يكون طوله ستون ذراعاً، تماماً كما كان طول سفينة نوح التي أمره الله ببنائها. وسيكون شكله أو تركيبته معقدة ومكونة من أحد عشر حيواناً مختلفاً، له رأس الثور، وعينا الحمل، وأذنا الفيل، وقرنا الأيل، ورقبة الزرافة، وصدر الأسد، وقدما الجمل، وظهر القطة، وذنب الكبش أو الخروف، ولون النمر، وصوت الحمار. وسيجلب

معه عصا موسى وخاتم سليمان. وسيكون هذا الحيوان سريعاً جداً في حركته بحيث لن ينجو أحد منه. وسيصفع هذا الحيوان بعصا موسى جميع المؤمنين الصادقين على خدودهم، ويدمغهم بعلامة ستحدد وتشير إلى أنهم مؤمنون صادقون، وسيدمغ الكفار بخاتم سليمان.

ويعتقد أيضاً بأن هذا الحيوان الغريب سيتحدث باللغة العربية. ويعد ظهور هذا المخلوق الضخم فإن جميع الأموات المدفونين تحت التراب منذ بدء الخليقة سيكون عليهم المشي على شعرة فوق واد سحيق حيث سيقع عنها المذنبون والكافرون ويسقطون في النار، في حين أن أنقياء القلوب سيجتازون ذلك بسلام ويدخلون الجنة. وتوجد هناك رؤى مختلفة عديدة لهذا الاعتقاد بالنسبة للذين كانوا يتبعون أديانا أخرى قبل نبوة محمد (ﷺ).

ومن بين العلامات أو الإشارات الأخرى التي يعتقد بها لاقتراب يوم القيامة هي الحرب مع الأتراك؛ ازدياد الفسق والفجور ليحل محل الوقار والرزانة؛ وظهور المسيح الدجال قادماً من خرسان وهو يركب على حمار ويتبعه سبعون ألفاً من اليهود؛ وعودة عيسى، الذي يعتقد المسلمون بأنه سيعتنق الإسلام، ويتزوج، ويقتل المسيح الدجال، ويحكم الأرض بسلام وأمن؛ ويمنح قوة أو قدرة التحدث مع الحيوانات، والطيور، والأسماك، والزواحف، والجماد.

إلا أنه لغاية اليوم توجد هناك شوائب تحيط بمكة، فقد كان هناك وعلى بعد أمتار من الكعبة سوق لبيع العبيد، وقد أغلق قبل وقت قصير من قبل الشريف حسين. كما كان يوجد فيها العديد من النساء اللواتي يتزوجن ويطلقن شرعياً شهرياً أو خلال شهر، وأحياناً في نصف شهر. وكان بإمكان الحاج الذي يصل إلى مكة، قبل حكم الملك حسين الطاهر النقي، أن يتزوج قانونياً أو شرعياً خلال الوقت الذي يقيم فيه ويؤدي شعائر الحج. ومن ثم يمكنه حل هذا الزواج (الطلاق) بصورة قانونية عندما يغادر المدينة.

ولا يشارك أهل مكة أو يتصفوا بتلك الصفات والمناقب الأصلية والبساطة التي يتصف بها البدو. ومنذ العهود القديمة جداً فإن أولئك الذين يولدون يميزون عن غيرهم

من العرب في الجزيرة العربية بثلاث ندب توضع على الخد كعلامة كما يقول الذين زاروا مكة. ولغة أهل مكة فاجرة أو خليعة. والمدينة كانت مليئة بالأمراض والممارسات الرديئة.

ونعود الآن إلى قصة الاستيلاء على هاتين المدينتين، مكة والمدينة.

لقد أشرف الشريف حسين على الهجوم على مكة، في حين أن الأميرين فيصل وعلي كانا يقودان القتال ضد حامية المدينة التركية وكان هجوم الشريف الكبير ناجحاً على مكة. وكانت قلاع الحاميات التركية الثلاث تشرف على المدينة المقدسة ويتواجد بها جنود مخلصون جداً للسلطان التركي. ويا له من يوم لهجوم العرب على مكة من خلال بواباتها وثم الاستيلاء على السوق الرئيسي فيها، والحي السكني، والأبنية الحكومية، والمسجد الحرام للكعبة الشريفة. واستمرت المعركة لمدة أسبوعين حول الحصنين الصغيرين للأتراك، ومن ثم سقطا وتم الاستيلاء عليهما. وخلال كل هذا القتال ظل الشريف حسين متواجداً في قصره يدير العمليات بالرغم من انهيار عشرات القذائف التركية على مقر إقامته.

ومن الممكن أن الترك كانوا قادرين على الصمود لعدة أشهر إلا أن غباءهم في القتال كان واضحاً. فالعثماني يبدو ليكون مسلماً من الناحية النظرية فحسب، ويلتزم بواجباته الدينية أحياناً، وحتى أنه أقل التزاماً. بروح القرآن. وقاموا بشكل طائش بالمس بالشعور الديني لعدوهم أو خصمهم، عندما بدأوا بقصف المسجد الحرام والكعبة، وهو المكان الأكثر تقديساً في الإسلام. وأصابت إحدى القذائف فعلاً الحجر الأسود، وأحدثت حريقاً في غطاء الكعبة وقتلت تسعة من العرب كانوا يصلون هناك. وأثار هذا الفعل العاق حنق أتباع الشريف حسين فتسلقوا أسوار الحصن الكبير واستولوا عليه بعد قتال يائس للجنود الأتراك بالسلاح الأبيض.

وتم الاستيلاء على مكة ومرفأ جدة المجاور لها خلال الشهر الأول من القتال (الثورة). وتم الاستيلاء على جدة في خمسة أيام نتيجة للتعاون مع خمسة تجار بريطانيين صغار بقيادة الكابتن (النقيب) بويل، وهو رجل إيرلندي جريء ذو شعر أحمر، وكان المساعد الثاني للسير روسلين ويمس، الذي كان ادميرالاً في الأسطول البريطاني في الشرق الأدنى.

وتم أسر ألف جندي تركي وألماني في جدة. وكان قصف هذا الميناء الذي يقع في ثغر المدينة المقدسة مكة المكرمة بداية لحدوث ثورة في الهند تقريباً. ويعتبر الثمانون مليون مسلم في الهند أكثر المسلمين تعصباً في عدة نواح. فقد اتهموا بشكل خاطئ البريطانيين بقصف واحد من أماكنهم المقدسة. وفي الحقيقة، فإن جدة ليست إلا ميناءً فحسب، ولم تعتبر كمدينة مقدسة من قبل العرب أنفسهم، وهي المدينة الوحيدة في الحجاز التي يسمح فيها لغير المسلمين بزيارتها. أما المدينة (المنورة)، فإن قوات البدو، بقيادة الشريفين فيصل وعلي كانت أقل نجاحاً في مهمتها. فرجال القبائل في شمال الحجاز الذين تجمعوا حول العلم الشريفي، اجتازوا الصحراء المغطاة بالسديم (ضباب خفيف) في وقت مبكر من نفس الصباح في شهر حزيران الذي تم فيه شن الهجوم على مكة. واحتلوا جميع بساتين النخيل التي تمتد أميالاً حول أحياء المدينة، وأخرجوا الأتراك من مواقعهم من حدائق قصور المدينة، ذات النوافير المتلألئة، وبساتين المشمش، والموز والرمان. وانسحبت قوات الحامية إلى داخل جدران المدينة. وهناك عرفت بأنها ستكون لها حماية إضافية بسبب وجود قبر الرسول (ﷺ) فيها ذلك أن المدينة تعتبر ثاني أقدس مدينة في الإسلام. ومع أن كلا من فيصل وعلي كان يمكنهما إحضار مدفع من جدة وربما الاستيلاء على المدينة بعد قصفها، إلا أن الشريف حسين رفض السماح بذلك خوفاً من تدمير قبر الرسول، مما كان سيسبب كارثة وغضباً لملايين المسلمين في العالم.

والمدينة هي التي هاجر إليها الرسول (ﷺ) من مكة عام 622 ميلادية، ليحمي نفسه من سيوف واضطهاد الكفار. ويؤرخ المسلمون تواريخهم حسب تاريخ هجرة الرسول من مكة إلى المدينة وليس حسب ميلاد المسيح. ودفن النبي محمد (ﷺ) في المدينة، كما دفنت بجانبه ابنته المحبة فاطمة، وفي الجانب الآخر دفن صاحباه، وخليفتا المسلمين من بعده، كل من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب. ولكن تركت مسافة بين قبر الرسول وقبر عمر بن الخطاب، فكما يقول المسلمون، بأنه عندما يأتي المسيح للمرة الثانية ويموت فإنه سيدفن بجانب الرسول (ﷺ). وهكذا فإن المدينة إضافة لكونها ذات أهمية اقتصادية كبيرة، فإنها تعتبر أيضاً مركزاً للحج.

وبعد وقت قصير من بداية الحرب، بنى الأتراك خط مسار واحد لسكة حديد يمتد من دمشق إلى المدينة المنورة، وذلك لكي يسهلوا وصول قواتهم من أجل قمع الثورات والانتفاضات في الجزيرة العربية. لذلك فقد كان من أول الأعمال التي قام بها رجال القبائل عندما اقتربوا من المدينة هو تدمير عدة أميال من خط سكة الحديد بأيديهم لكي يعزلوا حامية المدينة التركية.

وبعد حصار المدينة انتظرت القوات العربية سقوطها واستسلامها، إلا أن القوات التركية استغلت سكون الوضع، وانسلت إلى خارج أسوار المدينة عند الفجر، وفاجأت بعض العرب الذين كانوا يخيمون في ضاحية العوالي، وأشعلت النار في جميع الخيام. وأطلقت الرصاص على النساء والأطفال من مدافعها الرشاشة، وحرقت عشرات آخرين أحياء وهم في خيمهم.

وأثار هذا العمل حنق القبائل وآلافا من العرب المدنيين الذين قدموا إلى المدينة للانضمام لقوات فيصل وعلي، فشنوا هجوماً على الفور على الحصن التركي الكبير الذي يقع خارج أسوار المدينة إلا أن الترك فتحوا النار من مدفعيتهم الثقيلة فحصدت أرواحا كثيرة من العرب المحتشدين. وتفرق العرب مذعورين لأنهم لم يواجهوا هجوما بنيران المدفعية من قبل وفروا للاختباء والاحتماء بجانب التلال. وعندما رأى الأتراك ذلك، أرسل قائد الحامية التركي قوة من الجنود للانقضاض على العرب.

ورأى فيصل تلك المحنة التي حلت برجاله فاندفع بجواده، غير مبالٍ بصليات المدافع الرشاشة التي كانت تصب طلقاتها من الحصن على الأرض المنبسطة. بيد أن رجال القبائل الذين أحضرهم ليساعدوه، انسحبوا من الهجوم على الحصن التركي ورفضوا مواجهة نيران العدو التي شكلت هذا العائق المميت بينهم وبين رفاقهم. إلا أن فيصل ضحك وجال بجواده لوحده، ليمنح أتباعه الثقة حتى أنه تجول بجواده عبر الأرض المفتوحة أمام العدو.

وأثار هذا العمل رجال القبائل المقاتلين وشعروا بالخجل جرّاء ما قام به قائدهم الشجاع، فصرخوا صرخة واحدة «الله أكبر» وعادوا ليشتبكوا مع القوة التركية ويقوموا

بمحاولة اقتحام الحصن التركي. إلا أن ذخيرتهم كانت على وشك النفاذ. ومن ثم حل الليل بسرعة وكأنه إطفاء كهربائي لضوء الشمس، وأسدل بحلوله ستارة سوداء حيث جاء في وقت لينقذهم من هلاك.

وفي صباح اليوم التالي، دعا كل من فيصل وعلي جميع زعماء القبائل إلى اجتماع وتم الاتفاق على أنه في الوقت الحاضر لا جدوى من مواصلة الهجوم؛ لذلك فقد انسحبوا إلى التلال التي تبعد خمسين ميلاً إلى جنوب المدينة وعسكروا هناك مسيطرين على طريق الحج ليمنعوا أية محاولة تركية لاستعادة مكة. وأصلح الترك على الفور خط السكة الحديد المُخرب الذي يربطهم مع دمشق، وطردوا ثلاثين ألفاً من السكان العرب الذين كانوا يقطنون في المدينة إلى الصحراء، وأحضروا تعزيزات من سوريا، وقاموا بتحصين المدينة لمقاومة أي هجوم مستقبلي. ووجد بعد انتهاء الحرب لاجئون من المدينة يقيمون في أنحاء متفرقة من الإمبراطورية العثمانية، في القدس، دمشق، حلب واسطنبول.

ومع ذلك، فقد بقي العرب يسيطرون على مكة، مع احتمالية الاستيلاء على القدس، وفيما بعد على كل دمشق، بيروت وحلب بالاشتراك مع جيش اللنبي، فسقوط مكة بأيدي القوات العربية أكد من الناحية التاريخية على أنه واحد من أكبر الكوارث التي حلت بالعثمانيين الأتراك حينذاك.

فتركيا تدين بشكل كبير لسيطرتها على المسلمين في جميع أنحاء العالم وزعامتها عليهم بسيطرتها على مكة المكرمة.

ومن ثم كان هناك توقف لبعض الوقت. فقد كان العرب غير قادرين على المضي بثورتهم لأن جميع ذخيرتهم قد نفذت. وناشد الشريف حسين الحلفاء مرة ثانية، واستجاب البريطانيون لذلك. وفي تلك اللحظة الحاسمة ظهر الشاب لورنس على مسرح الجزيرة العربية.

* * *

6

توحيد القبائل العربية

لقد كانت هنالك خلافات معينة نشأت بين قادة القيادة العامة البريطانية في الشرق الأوسط، التي كان مقرها في القاهرة، وبين الضابط الشاب المستقل. ورأى لورنس في الثورة العربية وسيلة للخروج من عمله الروتيني في القاهرة. ومن ثم أمر رونالد ستورز، السكرتير الشرقي للمندوب السامي في القاهرة آنذاك، أن يقوم بجولة إلى جدة عبر البحر الأحمر، وهو يحمل معه رسائل للشريف حسين. ومع أنه لم يلعب أي دور في بداية ثورة الحجاز، إلا أن لورنس قد أدرك منذ وقت أنه قادر على أن يُساعد العرب في إحداث ثغرة في الإمبريالية الألمانية، لذلك فقد طلب السماح له بأخذ إجازة، حيث أنه لم يفعل ذلك من قبل.

كانت أولى أولويات هذا الضابط الملازم الذي كان يقيم بفندق سافوي في القاهرة أن يحقق هدفا كامنا في نفسه، فبعد أن تم منحه الإجازة، لم يذهب كما كان يفعل غيره من الضباط المخضرمين إلى النيل ويبحر فيه بقارب شراعي إلى الإسكندرية، أو إلى الأقصر ليقضي عطلته هناك، بل إنه بدلاً من ذلك، رافق رونالد ستورز في رحلته، وعند وصوله إلى جدة، نجح لورنس في الحصول على موافقة من الشريف حسين للقيام بزيارة قصيرة على الجمل إلى معسكر الأمير فيصل، الابن الثالث للشريف الكبير، الذي كان يحاول الإبقاء على نيران الثورة. فقد بدت القضية العربية آنذاك في وضع حرج إذ لم تكن هناك كميات كافية الذخيرة لتبقي الجيش في جاهزيته وتم تقليص أعداد الجنود إلى أقصى حد.

بعد أن تبادلا التحيات على الطريقة الشرقية، وقدمت العديد من أكواب القهوة المحلاة، كان أول سؤال وجهه لورنس إلى الأمير فيصل هو: «متى ستدخل قواتكم دمشق؟»

لقد أربك هذا السؤال الأمير بشكل واضح، الذي حدق في باب الخيمة ونظر إلى بقايا جيش والده، وأجاب قائلاً: «إن شاء الله» وفرك لحيته ثم قال «لا يوجد هنالك مستحيل أمام مشيئة الله، فقد ينصر الله قضيتنا. إلا أنني أخشى من أن يكون الوصول إلى أبواب دمشق اليوم أبعد أمامنا من الوصول إلى أبواب الجنة. وإن شاء الله فإن خطوتنا التالية ستكون بالهجوم على الحامية التركية في المدينة، حيث نأمل بتخليص قبر الرسول من أيدي أعدائنا».

وبعد أن أمضى بضعة أيام مع الأمير فيصل اقتنع لورنس أنه من الممكن إعادة تنظيم هذا الحشد من الرجال لتكوين قوة غير نظامية يمكنها أن تساعد الجيش البريطاني في مصر وسيناء. لذلك فقد عمل على هذا الأساس، ووصل إلى نتيجة مفادها أنه يجب أن يبقى في الجزيرة العربية من دون حتى أن يرسل إلى قيادته في القاهرة رسالة اعتذار عن عدم عودته. ومنذ ذلك الحين أصبح لورنس روحاً متحركة في الثورة العربية.

عندما وصل لورنس إلى جدة كان الوضع حرجاً. فقد أرسل الأتراك إمدادات على عجل ودفعوا بفيالق من الجيش من سورية لتقوية حامية المدينة، وأرسلوا البغال والجمال والعربات المدرعة والطائرات، والفرسان، والمزيد من قطع المدفعية لسحق الثورة في الحجاز. وجرى أعداد حملة تركية لتتوجه من المدينة إلى مكة لاستعادتها ولإعدام قادة الثورة. وكان على هذه الحملة العسكرية التركية أن تقطع مائتين وخمسين ميلاً في الصحراء لتصل إلى هدفها المنشود في مكة.

لم يكن لدى لورنس خطة محددة، ولكن كانت لديه فكرة في مخيلته لابتكار طريقة لمضايقة الأتراك وجذب اهتمام وانتباه جزء من القوات التركية التي تواجه القوات البريطانية في سيناء. وقد أذهل فيصل بإشارته إلى أنه يعتقد بأن قواته ستدخل دمشق في غضون سنتين. فأجاب فيصل بابتسامة شك: «إن شاء الله» وهو يفرك لحيته ويحدق

بجيشه المبعثر بين أشجار النخيل. غير أنه كان هنالك شيء ما لفت انتباهه في لورنس وطريقته في منح الثقة، فقبل عرض التعاون الذي تقدم به.

وبالنسبة لعالم الآثار، ذلك الشاب الذي تحول إلى جندي، فإن المشاركة في حرب صحراء كانت أمراً عظيماً. فهنا كان يرى فرصة ليس فقط لهزيمة الألمان وإنما أيضاً لتذوق واختبار نظريات الخبراء العسكريين العظام الذين أعجب بكتبهم ومؤلفاتهم إعجاباً عظيماً.

فحالما قرر لورنس مساعدة العرب والانضمام لقواتهم، فقد تحول على الفور من دارس وعالم للجانب الميتافيزيقي والفلسفي للحرب، إلى طالب لحقائق الحرب الصارمة والقاسية. وقدر أن الحملة العسكرية التركية لكي تتمكن للوصول إلى مكة فإنها ستحاول أولاً إزاحة قوات الأمير فيصل عن التلال التي تحتلها لكي تتمكن من الاستيلاء على رابغ، وهو ميناء صغير إلا أنه مهم من الناحية الاستراتيجية ويقع على البحر الأحمر ويبعد مائة وخمسين ميلاً إلى الشمال من جدة. وتقع هناك الصخور المرجانية، وتوجد الآبار الممتازة تحت بساتين أشجار النخيل رائعة المشهد.

كانت خطة لورنس الأولى هي تزويد قوات البدو غير النظامية المتواجدة في الجبال الواقعة ما بين المدينة وميناء رابغ ببنادق حديثة وكميات وافرة من الذخيرة، على أمل أنها ستكون قادرة على وقف تقدم القوات التركية وحشرها في ممرات ضيقة إلى أن تحضر قوات عربية نظامية لتعالج الموقف. ومن ثم خطط ثانياً، لكي يجعل هذه القوات تتمركز خارج رابغ، حيث يمكنها التعاون مع الأسطول البريطاني في البحر الأحمر قبالة رابغ، وبعدها تشتبك مع قوات العدو عندما تخرج من خلال الجبال.

إلا أن الأتراك، مع ذلك، أفسدوا هذه الخطة بسرعة مذهلة. فقد اندفعوا بسرعة كبيرة أكثر مما هو متوقع ومن دون سابق إنذار، واندفعوا مباشرة عبر الجبال كما لو كانت القوات البدوية غير موجودة هناك. وأصبح الوضع آنذاك خطيراً أكثر حتى من قبل وصول لورنس لأول مرة. وبدا الأمر بالنسبة للعرب كما لو أن «خالق الشمس والقمر والنجوم كان يرشد ويوجه قدر العدو».

وتوصل لورنس إلى استنتاج مفاده أنه لكسب الحرب ضد الأتراك، أو أية قوات أخرى جيدة التدريب في الصحراء، فسيكون من الأفضل اقتباس واتباع تكتيكات حنيبعل (هانيبال) وتكتيكات العسكريين الآخرين في عصر الحروب ما قبل النابوليونية. وأدرك بأنه في قتال مواجهي ضد القوات التركية جيدة الانضباط والتدريب فإن العرب سيهزمون. ومن أخرى، فقد حسب أنه إذا ما حصر أتباع الشريف حسين أنفسهم بشكل خاص بنوع من أنواع حرب العصابات وهو «اضرب واهرب» وهي الطريقة التي اعتادوا عليها تماماً فسيكون الأتراك عاجزين عن الانتقام أو الرد. لقد فتح فشل الخطة الأولى للورنس عينيه، وأصبح الوضع الذي يراه الآن محصورا فيما يلي: لقد استولى أتباع الشريف حسين على مكة، وهي المدينة الأكثر أهمية في الحجاز. كما أنهم استولوا على الطائف وجدة، وأخرجوا الأتراك المكروهين من بلدهم كله، باستثناء المدينة والمراكز والحاميات الحصينة التي تحمي خط الحجاز الحديدي، الذي يربط المدينة مع دمشق. بمعنى آخر، فقد كانت القوات العربية آنذاك تسيطر على معظم أجزاء بلادها باستثناء جزء صغير جداً. علاوة على ذلك، فإن الحاميات التركية في المدينة والحاميات الواقعة على طول الخط الحديدي لم تكن لتستطيع التحرك بسهولة من قواعدها من دون موافقة العرب، حيث أنها محاطة بذلك العنصر الغامض الذي لم يكونوا معتادين عليه، وهي الصحراء المجهولة والمتعذر معرفة تضاريسها. ففيالق مشاة الجيش التركي ستكون عاجزة في الصحراء كما لو أنها ستكون في بحر غامر.

من ناحية أخرى، فإن العرب كانوا يحاربون على أرضهم بين كثبان الرمال المتحركة. فعندما تبدأ قبيلة بدوية في شن غارة ما، فإن كل رجل منها وجمله أو ناقته يكون عبارة عن وحدة منفصلة، فكل مقاتل صحراوي يكون مستقلاً كما لو كان سفينة حربية في بحر، فلا توجد هنالك خطوط اتصالات. وعندما يكون البدوي ممتطياً جمله السريع فبإمكانه أن يخترق رمال الصحراء لأسابيع من دون الرجوع إلى قاعدة إمداداته وتموينه. فمبدأ البدوي الاستراتيجي مناقض تماماً لمبدأ الماريشال فوش. فنظريته لا تكمن في اصطياد عدوه ومقاتلته حتى النهاية، وإنما بمطاردة وملاعبة فريسته كصائد مطارد وملاحق. حيث

ينقض على عدوه في اللحظة المناسبة، وينجز مهمته، ويختفي ويتلاشى في رمال الصحراء التي لا تبقي عليها أية آثار.

كانت هذه لعبة لورنس التي قرر أن يلعبها بكل دقة ومهارة. وعندما وصل إلى هذا القرار، كان قد أصبح ممدداً في خيمته تعصف به الحمى، وكانت الحملة العسكرية التركية تسرع باتجاه رابغ. وبدلاً من تقوية وتحصين البلدة وإقامة الخنادق حولها وانتظار القوة التركية. فقد بدأ كل من فيصل ولورنس بالتوجه شمالاً، تاركين الابن الأصغر للشريف حسين الأمير زيد مع قوة صغيرة من البدو لمواجهة وإعاقة العدو. وترك هذا الوضع كلا من جدة ومكة غير محميتين من الناحية العملية ومنح الجيش التركي طريقاً واضحاً مباشراً. فماذا كانت خطة لورنس فعلاً؟

كان يقع في الشمال ميناءان صغيران، هما ينبع والوجه. وكانا لا يزالان بأيدي القوات التركية كحماية لخط حديد الحجاز، الذي كان يشكل عصب الحياة لكل من حامية المدينة التركية وللقوات التركية الزاحفة جنوباً نحو مكة. وكانت خطته تكمن في الاستيلاء على هذين الموقعين المهمين، وتهديد خط السكة الحديد، وإجبار القوة العسكرية التركية على الرجوع إلى المدينة أو أن تخاطر بنفسها بعزلها في الصحراء من دون إمدادات.

وكان كلما فكر بذلك كلما أصبح مقتنعاً أنه إذا ما أمكن سحب وإجبار القوة التركية على الرجوع إلى المدينة فإن العرب سيكسبون الحرب؛ وبأية حال، فإنهم سيفوزون بشكل أكبر كما لو تم تحرير الحجاز برمته. وقدر بأنه كان يوجد هناك نحو مائة وخمسين ألف ميل مربع من الأراضي في البلاد، وأنه إذا ما أراد الأتراك أن يسيطروا عليها تماماً وأن يقضوا على الثورة فإنهم سيحتاجون على الأقل إلى نصف مليون جندي. وبما أنهم لم يكن لديهم سوى مائة ألف جندي على الأغلب من أجل تحقيق هذا الغرض، فقد خلص لورنس إلى أنه إذا ما تمكن ونجح في لم شمل السكان المبعثرين من الرجال في الصحراء وجمعهم بجيش واحد فمن الممكن أن يكون قادراً ليس على طرد الأتراك من الأراضي المقدسة وإنما أيضاً على الزحف نحو سورية.

ولتحقيق ذلك يجب أن يقنعهم بوجوب التخلي عن دق أعناق بعضهم البعض وعن النزاعات القبلية التي دامت قرناً من الزمان. كما ينبغي أن يقنعهم أنه بدلاً من ذلك عليهم أن يقبلوا بالتضحية بأنفسهم من اجل حريتهم وحرية بلادهم، وأنهم يجب عليهم أن يموتوا بتشوق من أجل تحرير العالم العربي كله من الاضطهاد العثماني.

لم تعترض هيئة الأركان العامة في القيادة العامة البريطانية في القاهرة على بقاء لورنس في الجزيرة العربية عندما عزف عن العودة إلى هناك بعد انتهاء إجازته. وكان الجنرال السير جيلبرت كلاتيون، رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية، يعرف أنه كان بإمكان لورنس التحدث بالعربية، وأنه كان يفهم الشعوب العربية. وفي الحقيقة، فقد كان لورنس نوعا ما بدوياً بقلبه. وقد كان لدى القيادة العامة البريطانية أمل بأن لورنس يمكنه تشجيع العرب قليلاً ومساعدتهم على الإبقاء على ثورتهم قائمة. ولذلك فقد منحته القيادة حرية تامة للعمل والتصرف لكي يمكنه استغلال أية فرصة يمكن أن تنشأ فيما بعد.

كان ذلك في تشرين الأول 1916، وبنهاية تشرين الأول 1918، فإن هذا الشاب، الذي لم يتجاوز الثلاثين من عمره، كان قد ساعد وساهم في إنشاء جيش ضخم غير نظامي وشارك في قيادته حتى أبواب دمشق.

وهكذا تمكن الأمير فيصل ولورنس من بناء جيشهما. وجال لورنس مع اثنين فقط من المرافقين عبر الصحراء، وتوقف عند كل تجمع بدوي، ليصلح الأمور بين زعمائه، ويشرح لهم مهمته بلغة عربية فصحى. والحقيقة أن لورنس كان يزورهم باسم فيصل، الابن المحبب أكثر للشريف حسين، الذي كان يكفل ويضمن للورنس حمايته من كل ضرر شخصي، بالرغم من حقيقة أنه كان مسيحياً يتجول على أرض مقدسة.

وعندما يرخي الليل سدوله، بعد صلاة العشاء، كان لورنس يجلس بجانب نيران المعسكر الموقدة أمام بيوت الشعر، يبحث ويناقش مع مضيفيه البدو في الماضي العريق للجزيرة العربية ووضعها الحالي تحت الاحتلال، إلى أن يتم الاستماع لرأي ووجهة نظر كل عضو من العشيرة. وبعد أن يتم تناول لحم الماعز المشوي، الذي ذبح على شرفه، وشرب أكواب الشاي المحلى، يبحث مع رجال القبائل بأسلوب وكلمات فصيحة وبليغة

تفوق كلام الحكماء القبليين إمكانية طرد الأتراك، ويقنعهم بأنهم سيندمون إذا ما ترددوا لوقت أكثر من ذلك، حيث أن عدوهم مشغول في هذه اللحظة بمحاربة البريطانيين والفرنسيين والإيطاليين والروس ولا يمكنه إبداء مقاومة قد تشكل خطورة على الثورة العربية.

وبذلك فقد نجح في حث القبائل على نبذ خلافاتهم ونزاعاتهم الدموية ووحدهم ضد عدوهم المشترك وتجلى ذلك بحقيقة انه خلال ستة أشهر فقط استطاع توحيد جميع قبائل الحجاز تقريباً في معاهدة غير مكتوبة.

كانت أول ثلاث قبائل تم كسبها هي: قبيلة حرب، التي كانت تسكن الصحراء الواقعة ما بين المدينة ومكة، وقبيلة جهينة، التي كانت تسكن المنطقة الواقعة ما بين ساحل البحر الأحمر والمدينة، وأفراد قبيلة بيلي، التي كانت تتنقل في المنطقة الواقعة شرق الوجه. وكانت القبيلة الأولى تضم مائتي ألف شخص وتعتبر من أكبر القبائل في كل الجزيرة العربية.

وطوال المرحلة الأولى من الحملة الصحراوية لم يتلق العرب أية مساعدة فعالة ذات قيمة من الأسطول البريطاني في البحر الأحمر. وبينما ذهب لورنس شمالاً متعمقا في الصحراء الداخلية، للإشراف على تجميع وتوحيد القبائل، ترك الأمير فيصل طريق مكة دون حماية واتجه نحو الساحل يرافقه جميع رجاله باستثناء بعض القناصة الذين ظلوا مع الشريف زيد. وفي الوقت الذي تقدم فيه فيصل إلى مسافة قريبة جداً من ينبع، وهو الميناء الأول الذي يقع شمال رابغ، أرسل لورنس إليه عدة آلاف إضافية من رجال القبائل ليدعموه. وأخليت الحامية التركية قبل وصول العرب إليها، فقد قصفتها مدافع السفن الحربية البريطانية بشدة حتى أنهكتها.

لقد كان الدخول إلى ينبع رائعاً وملفتاً. كان الأمير فيصل، القائد العام للجيش العربي، يمتطي جواده في المقدمة وهو يرتدي ثوباً أبيضاً ناصعا. وكان عن يمينه شريف آخر يرتدي ملابس حمراء داكنة وصبغت كوفيته وعباءته بالحناء. وعلى يسار فيصل، كان «الشريف» لورنس يبدو بثيابه ناصعة البياض كشيخ جليل قديم. وكان رجال القبائل يسيرون وراءهم وهم يحملون ثلاث رايات كبيرة من الحرير الأرجواني عليها رسومات

سنابل مذهبة، وتتبع بأصوات موسيقية تُعزف على عود وثلاثة طبول تقرع مارشاً عسكرياً غريباً. وكان يتبعهم حشد مكون من الآلاف من أبناء إسماعيل الشرسين وهم يثبون على جمالهم كالأمواج المتلاطمة، ومعهم كافة أفراد الحرس الشخصي لكل من الأمير فيصل ولورنس. كانوا يسيرون سوية بكثافة وهم يجتازون طريقاً ضيقاً منخفضاً يقع بين أشجار النخيل وتحت مآذن المسجد. كان ممتطو الجمال يرتدون أثواب مختلفة الألوان، وتتدلى من سروجهم الأقمشة والأغطية المزخرفة والمطرزة. لقد كان في الحقيقة موكباً متألقاً. وكان الجميع ينشدون ويغنون بأصوات عالية وهم يرتجلون أشعاراً تصف مناقب الأمير فيصل وتمتدحه.

ومن ينبع اندفعوا مباشرة نحو الشمال على طول الساحل للمسير مسافة مائتي ميل أخرى باتجاه الوجه، الميناء الذي كانت تسيطر عليه قوات تركية تعد بالآلاف. ويعيد اسم هذا الميناء إلى الذاكرة حملة أخرى جرت عام 24 قبل الميلاد، حيث أرسل القيصر أوغسطس القائد أليوس غاليوس إلى الجزيرة العربية على رأس أحد عشر ألفاً من الجنود الصفوة لروما. وبعد أن تجولوا لمدة ستة أشهر عبر الأرض الصحراوية العطشى فإنهم في آخر الأمر تخلوا عن محاولتهم للوصول إلى بلاد البخور، وعندما أبحروا راجعين إلى مصر من نفس ميناء الوجه، وكانت هنالك بقايا خلفوها بعدهم، كانوا يعلمون ما علمه لورنس بأسى وقتذاك من أن أي جيش في الجزيرة العربية يجب أن يكون قادراً على تحمل الكثير ليعيش على القليل.

في ذلك الحين استطاع الأمير فيصل ولورنس جمع عشرة آلاف رجل، وقسمت هذه القوة إلى تسعة أقسام، تم تجميعها في قرية أم ليبح التي تقع في منتصف الطريق. وهناك تلقوا مؤنا وإمدادات جديدة من السفن الحربية البريطانية التي ظلوا على اتصال تام معها طوال عملياتهم الساحلية جميعها. ومن أم ليبح في الشمال، كان أمام الجيش العربي مائة وعشرون ميلاً من الصحراء الجافة التي لا يوجد فيها ماء، وكانت تلك المنطقة جرداء تماماً حتى أنه لم تكن توجد شجيرات شوكية يمكن للجمال أن ترعى عليها.

بيد أن تاجرا مسلحا من التجار البحريين الهنود اتبع خط الساحل الأعلى، وانطلق بخط متعرج على غطاء واسع ولكن مخفي من الصخور المرجانية، وجلب كمية صغيرة

من المياه من أجل البغال، وليس من أجل الجمال. ولهذا فقد نفقت المئات من الجمال وفقدت، إلا أن الجيش وصل إلى التلال المشرفة على الوجه في كانون الثاني 1917 من دون أن يفقد رجلا واحدا جراء الجوع أو العطش.

تقع الوجه على الزاوية الجنوبية الغربية لنجد، وهي سهل مرجاني صغير مرتفع، ومحاطة بالبحر من الغرب، ومن الجنوب بواد جاف، ومن الشرق بسهل داخلي. وقد قصفت السفن الحربية البريطانية القوات التركية التي كانت خارج حصنها الرئيسي بإطلاق قذائفها من على بعد أربعة عشر ألف ياردة، مما جعلها بعيدة عن مدى المدفعية التركية. وبعد قصفها لبضعة ساعات، نزلت مجموعة من أفراد القوات العربية، الذين كانوا على متنها، على الشاطئ وهاجمت الحامية التركية المرتبكة. وفي نفس الوقت اندفع لورنس ورجاله إليها من الصحراء وجرى قتال في الشوارع ونهب وسلب. وحسب التقليد المتبع، فقد امتطى رجال لورنس البدو كل شيء قابل للتحرك.

كان الأدميرال السير روزلين ويميس يدير الهجوم البحري شخصياً. وباستخدام التعبير العربي، فقد كان الأدميرال ويميس هو «أب وأم» الثورة العربية في مراحلها المبكرة. ويعود إليه الكثير من الفضل للنجاحات الأولى المبكرة للعرب في ثورتهم.

ولقد أراد لورنس أن يبدو الأمر كعرض سينمائي، عندما وصف المظاهر التي أثرت في العرب الضجرين، والذين كانوا يميلون جداً لأن يرتدّوا ويعودوا إلى عاداتهم القديمة للقتال فيما بينهم، فقد كان عليه أن يشعر تماماً الأدميرال ويميس، الذي أبحر نزولاً من قناة السويس في بارجته الحربية الضخمة «يوريالوس»، ويقوم بقصف مدفعي من عيار تسعة إنش على طول الساحل وتحت رؤية الجيش العربي الشريفي.

وقد رسا الأدميرال ويميس ببارجته «يوريالوس» في ميناء جدة في لحظات النصر الحاسمة، ليقدم تحياته للشريف الكبير. ولم يكن هناك شك في أن ضخامة حجم بارجة الأدميرال كانت مسؤولة بشكل كبير عن الانطباع الذي تكون لدى الملك حسين بشأن قوة بريطانيا. الذي قال معبراً عن ذلك في إحدى المناسبات «أن بريطانيا تعتبر بحراً ضخماً من القوة، وكلما كانت قوتها أكبر، كلما كنا نحن أقدر».

7
معركة عند آبار أبي اللسن

في وقت متزامن مع هجوم فيصل على كل من ينبع والوجه، كان شقيقه عبد الله يتوجه عدة أميال إلى الشرق في الصحراء، بالقرب من المدينة. وكانت ترافقه مجموعة من الخيالة المتطية نوق سباق. واستطاعت مجموعة المغيرين من القضاء على بضع دوريات للعدو، ونسف عدة أجزاء من الطرق، تاركة رسالة رسمية تحذر وتخاطب القائد العام التركي، وتصف بتفصيل وافر ورهيب ما سيؤول إليه مصيره إذا ما بقي لوقت أطول في الجزيرة العربية.

وتلقت القوات التركية التي كانت تتقدم باتجاه مكة أنباء سقوط كل من ينبع والوجه، التي تبعد أكثر من مائة ميل إلى الشمال الغربي منهم، والغارات التي كان يقوم بها الشريف عبد الله مع قواته على بعد مائة ميل إلى الشمال الشرقي في نفس الوقت تقريباً. لقد أصابهم الذهول والإرباك لبضعة أيام قبل أن يفاجئهم الجيش العربي في رابغ.

ويعود الفضل أيضاً للأمير زيد ومجموعته الصغيرة من القناصة لنشاطهم في النهار وغاراتهم الليلة الصغيرة، فقد انخدع الأتراك وظنوا بأن جيش الحجاز العربي الرئيسي كان لا يزال هناك، بل لقد بدا لهم بأن هنالك جيوشا عربية في جميع الاتجاهات. وكانت أشعة الشمس القاسية التي لا ترحم حيث كان الأتراك يخيمون، لا تزيد من ظمئهم فحسب وإنما تثير خيالهم أيضاً. وبسبب انفعالهم المحموم، وعيونهم الغائرة، فكل سراب بدا لهم وكأنه مجموعة كبيرة من الفرسان البدو.

كانت كل ساعة تجلب أخباراً عن غارات عربية على العلا ومدائن صالح، وغيرها من المحطات الواقعة شمال المدينة، وعن الاستيلاء على المزيد من حصونهم القوية، على الحاميتين الواقعتين على البحر الأحمر في «دهبا» و «المويله». وقد ذعروا تماماً جراء أخبار هذه التراجعات غير المتوقعة، وأيضاً جراء الإشاعات حول الانتصارات الوهمية التي كانت تنشر عمدا بينهم من قبل عملاء لورنس السريين، ولهذا فقد أصبح الأتراك مذعورين ومنكمشين، وتراجعوا ليدافعوا عن قاعدتهم في المدينة وعن خط السكة الحديد، الذي كان خط اتصالهم الوحيد مع سورية وتركيا.

وفي شمال الجزيرة العربية، وبالقرب من خليج العقبة، كان للأتراك حامية أخرى أكثر أهمية من أي من الحاميات التي تم الاستيلاء عليها، باستثناء الحاميات في مكة وجدة. وقبل أن تتمكن قوات فيصل من سحق عدوها وإخراجه من جميع مناطق الحجاز، ما عدا المدينة المنورة، كان يجب أن يتم الاستيلاء على هذا المعقل المهم الواقع على ثغر الخليج (خليج العقبة). ولتحقيق ذلك، فقد كان لدى لورنس خطة جريئة وشاملة عمل على تنفيذها.

وبالنسبة لجميع الأماكن الاستراتيجية الواقعة على طول الساحل الغربي للجزيرة العربية شمال عدن، فقد كان هناك موقع مهم جدا من وجهة النظر العسكرية وهو ميناء العقبة التاريخي القديم، والذي كان قديما قاعدة بحرية رئيسة لأسطول الملك سليمان، وهو يعتبر أيضاً واحداً من الأماكن الأولى التي وعظ فيها النبي محمد (ﷺ) وجعله مقراً لقيادة جيشه، في إحدى غزواته.

فبالنسبة لأي جيش كان يحاول غزو مصر أو ضرب قناة السويس من الشرق، فيجب أن تكون العقبة الخاصرة اليسارية، كما أنها لا بد أن تكون الخاصرة اليمينية لأي جيش يخرج من مصر ليغزو فلسطين وسوريا. ومنذ بداية الحرب فقد أبقى الأتراك هناك حامية كبيرة، سواء لأنهم أرادوا أخذ مصر من البريطانيين، أو لكونه ميناء ضروريا لضمان أمن خط الحجاز الحديدي.

لقد كان هدف لورنس الاستيلاء على العقبة وجعلها قاعدة للغزو العربي لسوريا، وقد كانت تلك خطة طموحه ودفاعه.

في 18 حزيران، 1917، توجه لورنس نحو العقبة ومعه ثمانمائة رجل فقط من قبيلة التويهة، ومائتا رجل من الشرارات، وتسعون رجلاً من قبيلة الكواشيبا، من الوجه التي تبعد ثلاثمائة ميل عن خليج العقبة شمالاً. وكانت هذه القوة بقيادة الشريف ناصر، الذي كان واحداً من مساعدي الأمير فيصل الأكفاء. وكالعادة فقد كان لورنس يعمل دائماً من خلال واحد من القادة المحليين ويعود الكثير من نجاحه إلى تكتيكه في جعل العرب يعتقدون بأنهم كانوا يديرون الحملة بأنفسهم. وأظهر التقدم نحو العقبة مدى براعة ومقدرة لورنس في إبداء المشورة والنصيحة لجيش الأمير فيصل، بالرغم من كونه لم يتم تدريبه العسكري وليست لديه خبرة في هذا المجال.

ولكي يتم خداع الأتراك وخاصة القائد التركي في المدينة فقد قاد لورنس دورية طائرة أو متنقلة اشتملت على حوالي ألف ميل إلى الشمال من الوجهة؛ ولكن بدلاً من الذهاب مباشرة إلى الساحل باتجاه العقبة، فقد قادهم إلى التوغل داخل الصحراء وعبر الخط الحديدي والذي لا يبعد كثيراً عن المدينة، حيث قاموا بنسف عدة أميال من الخط، ومن ثم من خلال وادي رحان المعروف بزواحفه السامة، حيث مات عدد من الرجال جراء لدغات الأفاعي، ومن ثم عبروا إلى أراضي قبيلة الحويطات شرق البحر الميت، ومن هناك اتجهوا إلى أرض مؤاب. حتى أن لورنس قاد مجموعة من خيرة الرجال من خلال الخطوط التركية في الليل، ونسفوا قطاراً بالديناميت بالقرب من عمان (وهي مدينة إغريقية قديمة كانت تدعى فيلادلفيا) كما نسفوا جسراً بالقرب من درعا، وهي محطة ربط مهمة للسكة الحديد تقع جنوب دمشق مباشرة، كما لغموا عدة أميال أخرى تقع وراء خط الاستحكامات والدفاعات التركية الواقعة بجانب المدينة الصناعية السورية، حمص.

لقد كان ممكنا بالنسبة للورنس القيام بمثل ذلك العدد الكبير من الغارات فقط بسبب القدرة غير العادية لقواته على الحركة والتنقل، وكان بإمكانه أن يسير بفيلق هجانته عبر الصحراء لمدة ستة أشهر من دون الرجوع إلى قاعدة تموينه وإمداداته. ما دام بعض

رجال مجموعته يحفظون تضاريس الصحراء ويستطيعون البقاء بعيدين عن أنظار المواقع التركية الحصينة على طول حدود فلسطين وسوريا بشكل آمن كما لو أنهم كانوا على كوكب آخر.

وعندما كانوا يرون فرصة متاحة للانقضاض والقيام بهجوم مباغت، كانوا يقومون بذلك، ومن ثم يتراجعون إلى الصحراء حيث لا يجرؤ الأتراك على تعقبهم إما لعدم وجود جمال لديهم، أو لعدم معرفتهم التامة بطبيعة الصحراء، كما أنه لم تكن لديهم قوى ظاهرية استثنائية غير عادية كما هو بالنسبة للبدو. وخلال تلك الحملة التي استغرقت ستة أسابيع، كان لورنس ورجاله يعيشون فقط على الخبز غير المخمر؛ فكل رجل كان يحمل معه نصف كيس من الطحين يزن خمسة وأربعين باونداً (رطلا إنجليزيا) تكفيه لكي يقطع ألفي ميل من دون الحصول على مؤونة جديدة. وكانوا يستطيعون التحمل دون عناء بعد شرب مقدار ضئيل من الماء في اليوم عندما كانوا يسيرون؛ فلقد كانت الآبار نادرة إلا أنه كان يمكن الوصول إليها بعد يومين أو ثلاثة من المسير، وبذلك فإنهم نادراً ما كانوا يعانون من الظمأ.

بالنسبة لهذه الحملات، التي كانت تتوغل إلى أقصى الشمال من الجزيرة وتجري ضمن الأراضي المحتلة من قبل الأتراك، فقد قسم لورنس رجاله إلى عدة مجموعات إغارة مختلفة، لكي يتم تشويش وإرباك العدو. وبعد إزعاجهم في جبال مؤاب وحتى شرق أريحا، ومن ثم فبعد يوم أو يومين يسيرون شمالاً حول دمشق، ومن ثم ينسحبون جنوباً ثانية. لقد كان خط حديد الحجاز يمر على بعد ستين ميلاً عن العقبة، ولكي يتم منع الأتراك من اكتشاف أن العقبة هي الهدف الحقيقي للعرب، فقد قاموا بعملية خداع باتجاه معان، وهي بلدة مهمة وحصينة تقع على الخط الحديدي ما بين المدينة والبحر الميت. وفي نفس الوقت، وعلى بعد سبعة عشر ميلاً إلى جنوب غرب معان، قاموا بنسف محطة الغويلة وأبادوا حاميتها. وعندما وصلت أخبار ذلك إلى الأتراك المتواجدين في معان، أرسلوا فوجا من الهجانة لملاحقة لورنس ورجاله، إلا أنهم عندما وصلوا إلى المحطة لم يجدوا هناك سوى العقبان والنسور المفترسة، فقد اختفى لورنس ورجاله ثانية، وكأن

الصحراء ابتلعتهم. ولكن خشية أن ينسى الأتراك ما كان، فقد قام لورنس ورجاله في مساء اليوم الثاني بالظهور مرة أخرى وعلى بعد عدة أميال. وقاموا بزرع المزيد من الألغام ونسفوا ميلاً من السكة الحديد ودمروا قطاراً.

كانت درجة الحرارة في تلك الأيام من شهر تموز مرتفعة جداً. وفي وصفه لذلك، فقد استذكر لورنس بأن الأرض الحارقة كانت تلسع الجلد كمثل لسع سواعد القناصة، وكانت الجمال تسير واهنة مثلها مثل الرجال الواهنين، من ألم لسعات الشمس الحارقة.

في ذلك الوقت التقى كل من لورنس والشريف ناصر عند قبيلة بني عطية، التي زودتهم بأربعة آلاف من الرجال المقاتلين الجدد، كما أن عشيرة أبو تايه وهي فرع من قبيلة الحويطات قدمت أفضل مجموعة من مقاتليها في الجزيرة العربية بقيادة عودة أبو تايه، النمر البشري الحقيقي الذي أصبح رفيقاً حمياً للورنس منذ ذلك الحين.

وقد قرر الفوج التركي المتعقب للورنس ورجاله قضاء الليل في قرية صغيرة تقع بالقرب من بعض الآبار في منطقة أبي اللسن، التي تبعد أربعة عشرة ميلاً عن معان، حيث عسكرت هناك مع كل من الأمير فيصل ولورنس بعد ذلك الوقت ببضعة أشهر. في غضون ذلك، ترك لورنس مجموعته المقاتلة واتجه نحو الصحراء ليرى فيما إذا كان بإمكانه تحديد موقع الفوج التركي. وما إن وجده حتى أسرع عائداً إلى رجاله، وأحضرهم إلى المرتفعات المحيطة بأبي اللسن، وعند الفجر تم تطويق القوة التركية تماماً.

ولمدة اثنتي عشرة ساعة قام المقاتلون العرب بقنص القوات التركية من مواقعهم على الجبال المحيطة بالآبار، وقتلوا وأصابوا العديد منهم. وكانت القوة التركية محشورة في زاوية محكمة في الحقيقة، بيد أن لورنس كان يعرف تماماً أنهم إذا ما كانوا تحت قيادة كفوءة وجريئة فإنهم سيشقون طريقهم بسهولة من خلال الخط الضئيل من المقاتلين البدو. إلا أن قائد القوة التركي كانت تنقصه الشجاعة الضرورية لذلك. وعند الغروب قام عودة أبو تايه ومعه خمسون رجلاً من رجال القبيلة بالزحف إلى مسافة ثلاثمائة ياردة نحو معسكر العدو وانقضوا عليه. وفوجئ الأتراك بهذه الجرأة المتناهية، وحتى عندما اخترق ذلك القائد البدوي عودة أبو تايه صفوفهم وأصبح وسط قواتهم وأصابت الرصاصات

منظار الميدان الذي كان يحمله وسحقته، واخترقت جراب مسدسه، وكسرت السيف الذي كان يحمله في يده، وقتلت جوادين تحته، إلا أن ذلك الزعيم الكبير كان مبتهجاً وقال فيها بعد إن تلك كانت أفضل معركة خاضها منذ شهر رمضان.

واندفع لورنس، الذي كان يشاهد ذلك من على التلة في الجهة المقابلة للسهل، نزولا إلى المنحدر بأسرع ما يمكن على جمله وحيد السنام الذي كان يركبه وأصبح وسط الأتراك يتبعه أربعمائة من البدو المقاتلين على ظهور الجمال. ولمدة عشرين دقيقة اختلط ألف تركي وعربي سوية واشتبكوا في قتال شرس ومسعور، ويطلقون النار بجنون. وفي هذه المعمعة أطلق لورنس النار على جمله مصادفة وأصابه برأسه فخر الجمل صريعاً، وانطرح لورنس من على سرجه فاقداً الوعي أمامه، في حين أسرع رجاله إليه. ولو انه سقط مباشرة أمام جمله لكان هلك من جراء تدافع الجمال عليه.

لقد ارتكبت القوة التركية خطأً مميتاً في تفرقها وتبعثرها، تماماً كما توقع لورنس ذلك، وانتهت المعركة بحدوث مجزرة. ومع أن العديد من الأتراك فروا في الظلام، إلا أن العرب قتلوا وأسروا أكثر من العدد الإجمالي لعدد قوتهم. وفي صبيحة اليوم التالي تم إحصاء أكثر من ثلاثمائة قتيل تركي حول حفرة ماء. وأحيط بمعظم الأسرى الأتراك من قبل الشريف ناصر ولورنس، لأن بقية المقاتلين البدو اندفعوا إلى الخيام التركية، وهم لا يفكرون كالعادة سوى بالغنائم. فالرغبة في الغنائم تعتبر متعة تستهويهم تماماً ولا يعتبرونها شكلاً من أشكال السرقة بل أنها تندرج ضمن المناقب الأساسية.

وأراد المقاتلون العرب قتل أسراهم انتقاماً من استبداد وطغيان الأتراك الذين ارتكبوا المجازر ضد نسائهم وأطفالهم. كما أنهم أرادوا الانتقام لقتل الشيخ بلقاوية من الكرك، وكان واحداً من زعمائهم، حيث ربطه الأتراك بين أربعة بغال لتندفع وتمزقه إرباً. وكان موت الشيخ المأساوي قمة لمسلسل الإعدامات والتعذيب الوحشي مما أثار حنق العرب وسخطهم وأقسموا على أن لا يتركوا مجالاً لفرار ونجاة الترك من بين أيديهم. بيد أنه كانت لدى لورنس أفكار أخرى بهذا الشأن. فقد أراد أن ينشر شائعات بشكل واسع ومن خلال الجيش التركي بأن العرب لم يكونوا يحافظون على أسراهم فحسب وإنما أيضاً

كانوا يعاملوهم بشكل جيد، ولذلك فقد استطاع أخيراً أن يقنع رجاله بإرجاء الانتقام وأن يعاملوا أسراهم معاملة خاصة.

وكما توقع لورنس تماماً، فقد كانت نتائج هذه الدعاية مباشرة. ففي الأيام التي تبعت معركة أبي اللسن تلك كانت مجموعات من المستسلمين الأتراك تأتي باستمرار وهم يرفعون أسلحتهم فوق رؤوسهم ويصيحون: «مسلم، مسلم» تقليداً لما كان يصرخ به الألماني بعبارة «رفيق، رفيق».

* * *

8

الاستيلاء على المرفأ القديم للملك سليمان

لقد غادر لورنس الوجه لعدة مئات من الأميال نحو الجنوب إلا أنه عاد بعد شهرين. وبعد أن أعطى حصته من التموين للأسرى الأتراك، أصبح وضع الغذاء حرجاً. ومع ذلك فإن الجيش العربي، شبه الجائع، واصل مسيره عبر الجبال الجرداء الوعرة والتي تلامس سماء شمال الجزيرة العربية، تسبقه أخبار انتصاراته قدماً. وعندما وصل لورنس إلى القويرة، وهو موقع تركي يقع على جبال الملك سليمان، الذي يبعد خمسة وعشرين ميلاً عن العقبة، عند مدخل ممر ضيق جداً يعرف بوادي اليتم، جاء جنود حامية القويرة ووضعوا أسلحتهم أرضاً من دون إطلاق رصاصة واحدة. ومن ثم سار لورنس مع رجاله مجتازاً وادي اليتم إلى كثيورا وهو موقع آخر يحرس فقط الأراضي القريبة من العقبة. وهناك أسرت القوات العربية بضع مئات آخرين من رجال الحامية التركية. ومن ثم شقوا طريقهم من خلال ممر ضيق حتى وصلوا إلى بئر قديم يقع في منطقة خضرا، حيث قبل الفي عام وقبل حكم الرومان كان قد تم إقامة بناء حجري عبر الوادي ما زالت بقاياه موجودة لغاية الآن. وقد وضع الأتراك مدفعيتهم الثقيلة خلف ذلك الجدار المخرب. مشكلين خط دفاع أقصى أو أبعد للعقبة. وبوصول الجيش الشريفي أمام هذا الحاجز النهائي اندفع رجال القبائل، الذين كانوا يعيشون في الصحراء قرب العقبة، عندما سمعوا بالانتصارات العظيمة التي حققتها القوات العربية في أبي اللسن والغويلة، اندفعوا عبر الجبال التي تغطيها حجارة اللافا بالمئات للانضمام للقوات العربية الظافرة.

كانت الهزيمة الساحقة للكتيبة التركية في «أبي اللسن» تعتبر المرحلة الأولى حقيقة للاستيلاء على العقبة. وكانت المرحلة الثانية في المناورة المدهشة عندما حقق لورنس ما ظنه الترك مستحيلاً ونجح في قيادة مجموعة المقاتلين البدو غير النظاميين عبر جبال الملك سليمان الوعرة من على الجدار الروماني القديم، وتجاوز مباشرة رجال المدفعية التركية المذهولين، زاحفا نزولا إلى العقبة في صبيحة السادس من تموز 1917. ولكن لحفظ حامية العقبة من مجزرة، كان على الشريف ناصر ولورنس التعامل مباشرة مع مقاتليهم العنيفين من شروق الشمس إلى الفجر. فقد كانا من الممكن أن لا ينجحا عندئذ، وكان على الشريف ناصر أن ينزل إلى الوادي حيث لا يوجد بشر ويجلس على صخرة ليمنع رجاله من إطلاق النار.

تقع العقبة بشكل رائع على التخم الجنوبي لوادي عربة الواسع، وربما كان هذا الوادي من أكثر المناطق جفافاً وقفراً في العالم والذي يمتد أسفلاً من البحر الميت إلى خليج العقبة. وفي أعلى هذا الوادي يقع وادي موسى، الذي يعتقد بأن الإسرائيليين القدماء قد مروا منه إلى «أرض الميعاد»، كما اجتاز هذا الوادي كل من أبي بكر (الصديق)، وعمر بن الخطاب، ومحمد علي باشا (والي مصر). وهناك أيضاً ألقى النبي محمد (ﷺ) الكثير من مواعظه وخطبه في بداية بعثته النبوية. ويقع خلف نصف دائرة ضيقة من أشجار نخيل الثمر تمتد على حافة الشاطئ، المياه الزرقاء للخليج المهجور الآن حيث كانت أساطيل سليمان ترسو هناك في الماضي، وتبحر سفن الإغريق الشراعية والسفن الرومانية ثلاثية المجاديف لترسو على شاطئه. وتلوح من خلف العقبة الجبال البركانية المجدبة الجرداء. ومثلها كمثل معظم البلدات الصغيرة في الشرق الأدنى (الشرق الأوسط) فإن هذا المكان نفسه يحتوي على أكواخ مختلطة من الطين. وتغطي المظلات الشوارع الضيقة، وامتلأت الدكاكين في السوق بالثياب المطرزة والأقمشة المقصبة، وبسجاجيد الصلاة الرثة والبالية، وقصب السكر المغطى بالذباب وأكوام التمر، والأطباق والأواني النحاسية ذات الأشكال المختلفة.

كان الترك والألمان مشلولين جداً ومنذهلين بالإنجاز غير المتوقع للعرب في نجاحهم باجتياز الجبال ومن خلال الممرات بحيث أنهم استسلموا من دون ضجة أو

احتجاج كبير. وبعد دخول العقبة مباشرة تقدم ضابط ألماني وأدى التحية للورنس. ولم يكن يتكلم سواء التركية أو العربية وحتى أنه لم يكن يعرف بشكل واضح من أنه كانت هناك ثورة قائمة في الجزيرة العربية.

«ماذا يجري هناك؟ ما كل الذي يجري هناك؟ ومن هم هؤلاء الرجال؟» صاح الضابط الألماني باندهاش واستغراب «إنهم ينتمون لجيش الملك حسين»- وكان الشريف الكبير قد أعلن نفسه حينذاك ملكاً على الحجاز- «وهم يقومون بثورة ضد الأتراك» أجاب لورنس.

- «من هو الملك حسين؟» سأل الضابط الألماني.
- «إنه أمير مكة وحاكم هذا الجزء من الجزيرة العربية»، كان الجواب.
- «عاش هو! وماذا بشأني؟» أضاف الضابط الألماني.
- «إنك أسير».
- «هل سيأخذونني إلى مكة؟»
- «لا، إلى مصر».
- «هل سعر السكر مرتفع هناك؟»
- «بل رخيص جداً».
- «جيد». ومشى مشية عسكرية، وكان سعيداً ليكون خارج دائرة الحرب، وأسعد من ذلك ليكون متوجهاً إلى مكان بحيث يمكنه أن يشتري كمية وافرة من السكر.

وأصبحت خطط المستشار البريطاني الشاب للأمير فيصل في هذا الوقت تسير بشكل صحيح. ومن ذلك الحين فصاعداً فقد أصبح الأتراك في وضع دفاعي. وكانوا ملزمين بأن يضعفوا جيشهم بتشتيته وتفريقه إلى جزأين، جزء بقي في المدينة، والجزء الآخر كان يدافع عن خط حديد الحج. ولقد كان بإمكان لورنس، إذا ما أراد ذلك، أن ينسف خط السكة الحديد في العديد من المناطق بحيث أن الأتراك سينقطعون تماماً عن المدينة، ومن ثم فبإحضار بضع قطع من المدفعية البحرية بعيدة المدى من خليج العقبة، فقد كان بإمكانه تدمير حامية المدينة وإجبارها على الاستسلام. إلا أنه كانت لديه أسباب

وجيهة لعدم محاولة ذلك، كما سنرى لاحقاً. وكانت في مخيلته فكرة طموحه جداً، ولكي ينفذها بنجاح كان يجب أن يغري الأتراك بإرسال المزيد من التعزيزات التي تتضمن العديد من المدافع إلى المدينة، بالإضافة إلى الجمال والبغال، والعربات المصفحة، والطائرات، وغيرها من المعدات الحربية، بحيث يجبرون على نقلها من جبهاتهم الأخرى. فقد كان يأمل بأن يبقي الأتراك على حامية ضخمة هناك في المدينة حتى نهاية الحرب، وذلك بقصد التأثير على عدد الأتراك الذين سيوضعون في مواجهة الجيوش البريطانية في فلسطين والعراق؛ كما أن قطارات المؤن والإمدادات التركية التي سيكون من الضروري إرسالها من سوريا إلى المدينة يمكن أن تصبح مصدراً متواصلاً من المؤن والإمداد للعرب بعد أن يجري وضع الكمائن لها. وإذا ما تم الاستيلاء على المدينة وإخراج الأتراك منها ودفعهم شمالاً، فإن ذلك سيحرم لورنس من هذه الفرصة المهمة لإبقاء القوات العربية تعتمد على الإمدادات التركية. فذلك كان يخدم مصلحتهم أكثر من الاستيلاء على المدينة.

بعد الاستيلاء على العقبة، عاش لورنس ورجاله لمدة عشرة أيام على التمر غير الناضج ولحم الجمال التي قتلت في معركة أبي اللسن فقد أجبروا على قتل جمالهم التي كانوا يمتطونها وبمعدل جملين في اليوم لإنقاذ المئات من الأسرى الأتراك. ومن ثم ولكي يقي جيشه من الجوع، قفز لورنس على ناقته وسار بها بشكل متواصل لمدة اثنتين وعشرين ساعة عبر الجبال المقفرة والوادي الصحراوي لشبه جزيرة سيناء. مسجلا بذلك رقماً قياسياً، وجاء ذلك في نهاية شهرين متتاليين من القتال المتواصل والمسير لآلاف الأميال عبر أجزاء قاحلة مقفرة من الأراضي والعيش على الخبز غير المخمر والتمر ومن دون أن يغتسل لأكثر من شهر، ومن ثم حول ناقته نحو مركز للشرطة العسكرية في إحدى زوايا شوارع بور توفيق في قناة السويس، ومشى قليلاً بشكل غير ثابت إلى فندق سيناء، وطلب أن يستحم. وبقي لمدة ثلاث ساعات في حوض الاستحمام وخدم الفندق يقومون بتقديم المرطبات والمشروبات الباردة له. وفي ذلك اليوم، فقد شعر بأنه كان يعيش في جنة لم يدخلها من قبل بعد عناء طويل. وانتقل من السويس إلى الإسماعيلية، وهي محطة تقع على منتصف الطريق على قناة السويس.

كان وصول لورنس إلى الجزيرة العربية حدث غير معلن عنه حتى من قبل القيادة العامة البريطانية في القاهرة حيث تم تجاهل ذلك، كما تم تجاهل تحركاته أيضاً. وأصبحت مهمته معروفة عندما قابل الجنرال اللنبي في الإسماعيلية بعد وصول هذا القائد الجديد والذي كان عين للتو ليتولى قيادة القوات المصرية.

وكان ذلك الحدث مثيراً في بساطته. فقد تم إرسال اللنبي من لندن ليخلف السير ارشيبالد موراي كقائد عام للقوات البريطانية هناك وكان قد نزل البر للتو ويتواجد في محطة القطارات في الإسماعيلية يتمشى جيئة وذهاباً على رصيف المحطة مع الأدميرال ويميس. وكان لورنس يقف إلى الغرب منهما وهو في لباسه العربي، ويرى النظرات المهتمة للجنرال ومعه الأدميرال.

- «من ذلك الشخص؟» سأل لورنس أحد ضباط ويميس «إنه اللنبي»، أجاب الضابط.

- «وماذا يفعل هنا؟» استفسر لورنس.

- «لقد جاء ليحل محل موراي».

وبعد بضع دقائق كانت لدى لورنس فرصة ليبعث بتقرير إلى الأدميرال ويميس، الذي كان عراب «المشهد» أو «العرض» العربي. وأبلغه بأنه تم الاستيلاء على العقبة بيد أن رجاله كانوا في أمس الحاجة للغذاء. ووعد الأدميرال بإرسال سفن مؤونة فوراً، وبعد لحظة أبلغ اللنبي بما قاله لورنس. فأرسل الجنرال اللنبي بطلب لورنس في الحال.

كانت محطة القطارات تعج بضباط الأركان البريطانيين ومجموعات صاخبة من السكان المحليين الذين كانوا يحيون اللنبي، عندما انسل من بين هذا الجمع الغفير شاب صغير حافي القدمين، أشقر الشعر، يرتدي لباس البدوي.

- «ما هي الأخبار التي جئت بها؟» سأله اللنبي.

وفي نبرات منخفضة، ومن دون أية تعابير على وجهه كما لو أنه ينقل تحيات من الشريف الكبير، أفاد لورنس بأن العرب قد استولوا على الميناء القديم الواقع على ثغر

خليج العقبة. وقد أعطى لورنس كل الفضل في ذلك النصر للمقاتلين العرب، ولم يشر إلى الدور الذي لعبه في هذا الصدد. ونقل له لورنس انطباعاً من أنه كان يقوم بدور ناقل الأخبار والمعلومات فحسب، مع أنه في الحقيقة كان له دور فعال في الاستيلاء على هذه النقطة المهمة (العقبة).

وسر الجنرال فوراً من هذه الأخبار، لأن العقبة كانت تشكل نقطة حساسة ومهمة تقع على الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية. ومن ثم، عندما شرح لورنس بتفصيل وافٍ محنة القوات العربية آنذاك، وعد ويميس بإرسال سفينة مليئة بالأغذية إلى العقبة. بل إن السير روزالين ذهب حتى إلى أبعد من ذلك وتصرف بطريقة ستجعله مخلداً في الانتصار العربي. فقد كان العرب يخشون من أن يجلب الأتراك تعزيزات ويعيدوا السيطرة على العقبة ثانية، لذلك فقد أمر الأدميرال بأن ترسل بارجته إلى العقبة ولمدة شهر كامل لتعزيز معنويات العرب. وقد شجع وجود هذه القلعة الضخمة العائمة المقاتلين العرب وأقنعهم بأنهم لم يكونوا يقفون لوحدهم ضد الإمبراطورية التركية.

فقد كانت هذه البارجة البريطانية التي لم ير مثلها هؤلاء المقاتلون البدو من قبل دليلاً ملموساً على مدى قوة بريطانيا.

كما أن الأدميرال ويميس منح لورنس والمقاتلين العرب عشرين مدفعاً رشاشاً من بارجته وبضعة مدافع بحرية أيضاً. وكانت تلك المدافع لا تزال متواجدة في الجزيرة العربية. ومن المحتمل أنها وضعت على سقف قصر عوده أبو تايه الطيني، وبعد عشرة أشهر من انتهاء الحرب، تلقى لورنس رسالة من قيادة الأدميرال تطلب منه بلطف أن يعيد واحداً من مدافعها بعيدة المدى التي أنزلت إلى الشاطئ إبان الثورة العربية. فأجابها لورنس بأنه يأسف جداً لذلك بل إنه نسي «أين كانت أو أين وضع تلك المدافع».

وكنتيجة لانتصار العرب في العقبة وزيارة لورنس إلى مصر، فقد قرر البريطانيون مساندة العرب في حربهم من أجل تحقيق الاستقلال التام. وتم إرجاع ذلك الشاب عالم الآثار سابقاً (لورنس) إلى العقبة ومعه موارد غير محدودة، وخلال بضعة شهور قام بحملة مع القوات العربية بطريقة متألقة بحيث رقي من رتبة ملازم إلى رتبة مقدم، بالرغم

من أنه في الحقيقة كان بالكاد يعرف الفرق ما بين «الانحراف الصحيح» و «الأسلحة الحالية». ولم يطل الأمر بالألمان والترك ليكتشفوا بأنه كانت هناك قوة غامضة تمنح الأمل والإلهام للعرب. واكتشفوا من خلال جواسيسهم بأن لورنس كان يلعب دوراً حساساً في الثورة العربية. لذلك فقد خصصوا جائزة مقدارها خمسون ألف جنيه استرليني لمن يلقي القبض عليه حياً أو ميتاً. بيد أن رفاقه المقاتلين البدو لم يكونوا ليخونوه ولو مقابل كنوز سليمان.

كان سقوط العقبة بعد الاستيلاء على مكة المكرمة أعظم حدث في الثورة العربية الكبرى، لأنه وحد العرب، وبمساعدة فعالة من لورنس، حول قضيتهم مما منحهم الثقة التامة بأنفسهم.

وبعد تحقيق ذلك الانتصار أصبح لورنس حريصاً تماماً على الاستفادة من ذلك. ومع أن استراتيجيته الخاصة وشجاعته الشخصية قد لعبت دوراً رئيساً في نجاح هذه العمليات، إلا أنه كان حاذقاً تماماً وذكياً عندما أرجع الفضل في ذلك لقادة عرب رئيسيين مثل عودة أبو تايه والشريف ناصر. وبذلك فقد اكتسب محبتهم وتقديرهم، ومنذ ذلك الوقت أصبح لورنس صديقهم الوفي المقرب.

وحرصاً منه على نشر هذا النجاح الأولي، فقد أرسل لورنس مبعوثين إلى جميع القبائل في الصحراء، مع أن أخبار معركة أبي اللسن والتقدم الذي أحرز في العقبة بدت وكأنها تنتشر كالوميض في الجزيرة العربية وكأنها تذاع في الراديو. وقد أدرك مدى الأهمية الضخمة للدعاية فأرسل بعض معاونيه العرب الأكثر ذكاءً عبر خطوط العدو لينشروا أخبار سقوط العقبة إلى أقاصي جهات وأطراف الإمبراطورية التركية (العثمانية).

وهكذا فإن ذلك البريطاني الشاب الذي تخرج من جامعة أكسفورد، وذهب إلى زاوية من الأرض منسية منذ وقت طويل، قد ساهم بفعالية في الاستيلاء على ميناء سليمان القديم حيث جرت هناك معركة لم يحدث مثلها منذ ألف سنة أو أكثر، وبذلك تم تحقيق وكسب الانتصار المهم الثاني في الحرب على أرض ألف ليلة وليلة ومهد الطريق للاستيلاء على سوريا. وقد تحول العراك والقتال من مجرد عراك وقتال محلي، بعد الانتصار في العقبة،

إلى حملة هامة بعيدة المدى والهدف تدار مباشرة ضد قلب الإمبراطورية التركية؛ ومنذ ذلك الحين أصبحت الجماعات من الرجال السمر البشرة المنضوين تحت الألوية القتالية الصحراوية تشكل الجناح الأيمن لجيش اللنبي، ومنذ ذلك الحين أيضاً ترقى لورنس من رتبة ملازم ثانٍ إلى رتبة مقدم ليلعب دوراً أساسياً.

* * *

9

اجتياز البحر الأحمر للانضمام إلى فيصل ولورنس

لقد تجاوز الأمير فيصل والكولونيل لورنس في حملتهما أبعد من هدف العقبة عندما وصلنا من فلسطين ومعنا أجهزة تصويرنا، ولم يكن من السهل تماماً للوصول إلى قاعدة المعسكر العربي، وكان مبرر مغامراتنا من القيام بذلك يتبعه استطراد آخر من قصة لورنس وزملائه، لكي يتم توضيح كم كانت هذه الحملة (الثورة) حقيقة من بقية الحرب العالمية.

وبعد وقت قصير من مقابلتي لورنس في القدس بينما كان يتناول الغداء مع الجنرال اللنبي ودوق كونوت، وجاء ذكر اسم عالم الآثار الذي تحول إلى محارب خلال الحديث. وسألت القائد العام (الجنرال اللنبي) دون تحفظ لماذا حُفظت الثورة العربية ودور لورنس فيها بمثل هذه السرية؟ فأجاب بأنه كان يعتبر من المستحسن الإعلان والتصريح بأقل ما يمكن حول ذلك، لأنهم كانوا يأملون بأن ينضم عدد كبير من الجنود والضباط العرب الذين يخدمون في الجيش التركي إلى الشريف حسين في قتاله وثورته من أجل الاستقلال العربي. فقد كانوا يخشون من أن يأخذ عرب سوريا وفلسطين والعراق الذين انخرطوا في الخدمة العسكرية التركية فكرة خاطئة من أن الحلفاء كانوا يسيّرون ثورة الحجاز (الثورة العربية) وبالتالي يستنتجون بشكل خاطىء بأنها ليست ثورة وطنية. ولهذا السبب فقد كان الحلفاء حريصين على أن هذه الثورة يجب أن تبدو في شكلها الحقيقي كحركة استقلال عربية.

ولكن جهود لورنس كانت ناجحة جداً بحيث لم يعد ما قاله اللنبي ضرورياً تماماً للإبقاء على مثل هذه السرية التامة، وإذا ما أبديت اهتماما بما كان يجري في الجزيرة العربية فسيكون مسروراً لأن يضمني إلى جيش الملك حسين، وبعد ذلك أقوم بإبلاغ العالم ولو بصورة بسيطة بما كان يقوم به العرب للمساعدة والمساهمة في كسب الحرب العظمى.

ذلك ما كان يشغل بالي عندما فكرت بطلب السماح لي بالانخراط في ذلك الجيش، إلا أنني كنت حذرا من التصريح به بسبب السرية التي كانت تجري بها هذه الحملة (الثورة) فلم يكن هناك أدنى فرصة للحصول على موافقة القائد العام بهذا الشأن. وبالطبع لم أضيع وقتا في محاولة الحصول على هذه الموافقة، وقفزت على هذه الفرصة بالمضي نحو ما كنت متأكداً من انه سيكون مغامرة حياة.

وأبلغنا أنه سيكون من المستحيل عملياً القيام برحلة من فلسطين إلى الجزيرة العربية بأي وسيلة كانت، ولا حتى من خلال الذهاب عبر الخطوط التركية متخفين. كما لم يكن لدينا الوقت ولا الرغبة ولا المعرفة اللازمة بالبلاد وباللغة لمحاولة القيام بذلك؛ لذلك فقد رجعت إلى مصر يرافقني السيد شيس، زميلي الفنان، لاستشارة المسؤولين في مكتب الشؤون العربية في القاهرة، حيث أبلغنا هناك بما يلي:

«يمكنكم الذهاب إلى العقبة بواسطة سفينة شحن، ولكن لن تجدوا هناك فندقاً يأويكم، وستكونون راضين باستخدام قطعة من المرجان كوسادة وسعف النخيل كغطاء لكم.»

في الأيام التي سبقت اندلاع الحرب رجعت سفينة شراعية قادمة من بورنو أو جزر سليمان وهي تحمل شحنة من جوز الهند وضلت طريقها بسبب عاصفة جرفتها إلى خليج العقبة، ولكن بعيداً عن مناسبات أو أحداث نادرة مثل تلك الحادثة فلا أحد تقريباً قد زار المكان لمدة ألف سنة.

«ولن تجدوا شيئاً لتأكلوه سوى الخبز غير المخمر، والتمور، وربما يكون هناك بعض الجراد». أبدى أحد الجنرالات، في مكتب الشؤون العربية (البريطاني)، هذه الملاحظة، حيث بناء على نصيحته اشترينا العديد من قطع الحلوى الصغيرة، بما فيها خمسين قطعة من

الشكولاته. وحذرني كولونيل آخر مازحا: «إذا ما كانت حياتكم غالية عليكم فخذوا معكم كمية وافرة من السجائر لتقدموها للبدو». لذلك فقد ملأنا كل زاوية وفجوة في حقائبنا بكميات كبيرة من السجائر التي أثبتت جدواها. وفي اليوم الذي نزلنا فيه على أرض الجزيرة العربية حدث وأن سجل ميزان الحرارة نقطة ذوبان الشكولاته، وعندما فتحت حقيبتي الخشبية وجدت كتلة ضخمة شبه مائعة من الرصاص، علب الكبريت، السجائر، الأقلام، دفاتر الملاحظات والشكولاته.

واتبعنا في طريقنا إلى الجزيرة العربية طريقاً ملتوية وغير مباشرة حيث أبحرنا لمسافة ألف وخمسمائة ميل إلى أعلى نهر النيل إلى قلب إفريقيا إلى الخرطوم، ومن ثم اجتزنا صحراء النوبة لمسافة خمسمائة ميل إلى بور سودان الواقعة على البحر الأحمر، حيث أملنا بالحصول على مكان على سفينة شحن من أي نوع.

كان توقفنا الأول عند النيل الأعلى في الأقصر، حيث وجدنا ترحيباً حاراً لم يكن له مثيل منذ أن توقف «تيدي» روزفلت هناك وهو في طريق عودته من رحلة صيد كبيرة في شرق إفريقيا. واندفع نحونا حشد من الأدلاء المنهكين، الذين كانوا ينتظرون منذ سنوات طويلة دون جدوى ظهور سياح أمريكيين، وأخرجونا عن بهجتنا. وماثل الترحيب بنا معركة ملوكية، وأخيراً نجح المتسارعون من فندق الأقصر في جرنا إلى حلبتهم، وسرنا في شوارع تتواجد على جوانبها محلات سياح مهجورة، وبقية الجمع يصرخون ويدورون حولنا كمثل دراويش يرقصون.

أفسدت زيارتنا لمعبد الكرنك وقبور الفراعنة في اليوم التالي بقصة تثير الشفقة صبها في آذاننا دليلنا حيث قال: «لم يعد السياح الأمريكيون يأتون إلى هنا. ونحن الأدلاء جميعنا نعاني من الجوع، أوه، وأسفاه، أوه، وأسفاه» كان ينوح ذلك العربي كبير السن الكئيب، وأضاف: «إنني أعمل هنا دليلاً منذ خمسة وعشرين عاماً، والله يساعدني، فإن السائح الحقيقي في العالم هو أنتم أيها الأمريكيون. فالسياح الإنجليز والألمان والفرنسيون يمضون كل وقتهم في حساب السنتيمات (أجزاء العملة الصغيرة). وإذا ما رأى السائح الأمريكي شيئاً ما يرغب به يقول: «كم ثمن هذا؟» فتقول له ثمنه، ومهما كان ثمنه، يقول

«حسناً أعطني إياه». ونحن، أفضل الأدلاء، متخصصون في السياح الأمريكيين. وقبل الحرب لم أكن أرشد أي سائح سوى الأمريكيين. ولماذا لا يوقف الرئيس ويلسون الحرب»، وأضاف بصوت متوسل «أنتم أيها الأمريكيون ترسلون المال والغذاء للأرمن ولا ترسلون شيئاً لنا نحن الأدلاء المصريين الجياع».

في الليلة الأولى بعد وصولنا إلى الخرطوم، كنا نتناول العشاء مع رئيس دائرة الاستخبارات الإفريقية المركزية في بيت رأس جاموس البحر عندما لاحظت فجأة تحول وجهه إلى شاحب.

وعندما نظرت إلى السماء نحو جهة الشرق وجدت السبب. فقد كانت قادمة مباشرة باتجاه الخرطوم كتلة ضخمة تشبه حجم جبال تتحرك نزولا باتجاهنا. لقد كان هبوبا مروعا لعاصفة رملية إفريقية رهيبة. وانفضت مأدبة الغداء على نحو مفاجئ، وأسرع الضيوف الآخرون نحو منازلهم. وقفزت فوق حمار كان ينتظرني في الفناء الخارجي، واندفعت نحو فندق شارلز جوردون الذي يبعد نصف ميل.

كان ضوء القمر متألقاً مع تلألؤ النجوم بشكل مشع حول جهة الشمال، والغرب والجنوب، إلاّ أنه مباشرة إلى الشرق تمكنت من رؤية تلك الكتلة الضخمة من الرمال الهائجة تأتي باتجاهي. وبدت وكأنها مفرقعات مشؤومة تقترب. وسرعان ما أصبحت تبعد عنا بضعة مئات من الياردات، ومن ثم انفجرت فوقنا.

ولسعتني الرمال الطائرة على وجهي كمثل الأبر وأعمتني. وملت أماماً على رقبة مطيتي الصغيرة جداً وحاولت إبداء مقاومة ما أمكن لشق طريقي، إلا أنه كل ما كان باستطاعتنا عمله هو مقاومة ومكافحة هذه الكتلة الدوارة من الرمال والوصول إلى الفندق.

كانت الحرارة داخل الغرف لا تطاق بحيث أن كل واحد منا كان يحاول النوم ونوافذ غرفته مفتوحة، والرمال تهدد بدفننا ودفن أسرّتنا وكل شيء. وعندما أغلقت النوافذ أصبح الجو خانقاً، والرمال لازالت تتسلل في خيوط من خلال شقوق وصدوع النوافذ. واستمرت العاصفة الرملية لمدة أربع ساعات. ولم يكن هنالك بيت في الخرطوم لم تتسلل إليه الرمال. لقد شهدت من قبل أعاصير وزوابع حلزونية، وغيوما متفجرة،

وعواصف ثلجية قطبية، وعواصف هوجاء في المحيط الجنوبي، ورياحا موسمية وأعاصير استوائية في سومطرة، ولكن لا يمكن لأي واحدة منها أن توازي مقدار شمعة مثل تلك «الهبوب». وفي السودان يوجد هناك قول شائع مفاده أن من يشهد «الهبوب» يصبح فوراً عفريتا إفريقيا.

في عصر إحدى الأيام أخذني ممثل من مكتب الاستخبارات البريطانية إلى مكان يبعد بضعة أميال عن الخرطوم للقاء «أتقى رجل في السودان». لقد أصبح السكان المحليون أغنياء جداً بسبب الحرب بحيث كانوا يرفضون بيع محاصيلهم، التي كانت الجيوش في كل من فلسطين والجزيرة العربية بأمس الحاجة إليها. وقد أبديت رغبتي بمقابلة هذا الرجل التقي، وأملت السلطان بأنه يمكن أن تؤدي زيارة رجل أجنبي إلى إغوائه، ووضعه في مزاج سار تماماً ليمكنهم من تملق ومداهنة ذلك الرجل لبيع مخزونه من المحاصيل، مما يجعل السكان الآخرين يحذون حذوه ويحفزهم لاتباع خطوته.

بدأنا رحلتنا من قصر الحاكم، ذي المشهد الفيكتوري الرائع ووجود عربة الجياد البيضاء الجميلة. وكان سائقنا ذا عينين شريرتين وشعر يشبه زغب خاروف سمين، وجدائل متدلية من جميع جوانب رأسه تشبه أسياخا خشبية صلبة. ومن هناك تحركت الجياد لتعبر الصحراء إلى قرية «بيري»، حيث وجدنا هناك الشريف يوسف الهندي، الرجل التقي، بانتظارنا عند بوابة قصره المبني من الطوب الطيني. كان الشريف يوسف طويل القامة، ذا وجه نحيل، ومظهر عربي مميز وعينتين ناعستين، ينتعل صندلاً، ودشداشة حريرية بيضاء وخضراء اللون، وعمامة خضراء، وأرشدنا إلى حديقته، حيث دُعينا إلى سلسلة من المشروبات المذهلة لم أر مثلها من قبل. لقد كانت هناك مشروبات من كل الأنواع ابتداءً من عصير الرمان إلى عصير البرقوق، ومن ماء الورد إلى غيره. كانت من جميع الألوان والأشكال من اللون البنفسجي إلى اللون الرمادي الداكن. وقدمت لنا في أنواع متعددة من الأكواب من زجاجية إلى فضية. ولحسن الحظ فقد جرت العادة أن المطلوب هو أخذ رشفة واحدة فقط من كل منها، ولو كان الأمر بخلاف ذلك لكانت النتيجة كارثية، يعجز عنها الكثيرون.

إنني أتذكر دعوة عصر ذلك اليوم على أنها سلسلة من المفاجآت، كان أولها مدى جمال الحديقة الداخلية الواقعة بين جدران طينية خارجية بشعة لقصر الشريف يوسف. والمفاجأة الثانية كانت المرطبات المنعشة التي قدمت لنا. ولا بد أن الشريف يوسف الهندي كان لديه بالتأكيد جني من قصة «ألف ليلة وليلة» يقوم بخلط ومزج المشروبات في قصره. وحتى في أيام ما قبل التحريم، عندما كلفت بتغطية مؤتمر جمعية إخاء الكلية الوطنية، فإنني لم أدع أبداً لاجتياز مثل هذه المحنة بتناول المشروبات كمثل الذي واجهته في واحة الشريف يوسف الهندي.

وجاءت المفاجأة الثالثة عندما رأيت الداخل الجذاب لقصره عندما مررنا من خلال طريقنا إلى الشرفة المغربية بالقرب من السطح، حيث ووجهنا بسلسلة أخرى من المشروبات. بيد أن الذروة جاءت عندما اكتشفت بأن مضيفي بدلاً من أن يكون عبارة عن دكتور في السحر الإفريقي كان عالماً ذا اطلاع واسع. واحتوت مكتبته على ترجمات عربية لخطب كل من لويد جورج، لورد بلفور، ثيودور روزفلت و ودرو ويلسون. وفي الحقيقة فقد وجدت بأن هذا السوداني الورع كان يعرف الكثير عن تاريخ بلادي أكثر مما أعرفه أنا.

وتناقشنا في الدين، وكنت مندهشاً بروح التسامح لديه. وقال لي: «إنني أعتقد كما يعتقد جميع المسلمين الذين يستحقون بأن يدعون متعلمين ومثقفين بأن المبادئ الأساسية المبطنة للأديان الأكبر في العالم: اليهودية، المسيحية، البوذية والإسلام هي نفسها وهي تؤمن بأنه لا يوجد سوى إله واحد هو الله وأنه هو الأعلى والأسمى، وأنه يجب علينا أن نكون متسامحين في آرائنا مع بعضنا البعض، ذلك أن جميع الناس يجب أن يعيشوا كأخوة وما نحبه لأنفسنا نحبه للآخرين.»

ولم يكن من الصعب بعد ذلك أن أفهم لماذا كان الشريف يوسف الهندي يعتبر رجلا ورعا من قبل أبناء بلده الجاهلين نصف المتحضرين. فأساليبه الأميرية، ووقاره ورباطة جأشه، وصوته الموسيقي، الذي يشبه الجرس، وعيناه البنيتان اللامعتان المنومتان، وحكمته قد منحته ويمكن أن تمنحه تميزاً في أي بلد كان. إنه لم يكن من أصل أثيوبي وإنما كان منحدراً من قبيلة قريش العربية التي ينتمي لها النبي محمد (ﷺ).

وكونه رجلا تقيا فإن ذلك يعتبر مهنة مربحة، فالشريف يوسف الهندي يقضي معظم وقته في تسمية الأطفال. فعندما يولد طفل يأتي والده مسرعاً إلى الشريف يوسف ويجثو عند قدميه ويقول: «أيها الرجل الشريف، ما هو الاسم الذي سأمنحه لابني؟» عندئذ يجيب الرجل التقي قائلاً: «انهض أيها الرجل المخلص، واذهب الآن وعد ثانية غداً».

ومن ثم عندما يعود والد الطفل أو الطفلة في اليوم التالي، يقول له الشريف يوسف مترنماً: بارك الله بك. ففي رؤيا رأيتها الليلة الماضية ظهر لي الرسول وكشف لي بأن إيمانك يجب أن تكافأ عليه إن ابنتك بوركت باسم فاطمة. هات جنيها إذا سمحت».

ومن الخرطوم اجتزنا صحراء النوبة إلى بور سودان الواقع هناك، ووجدنا كما توقعنا سفينة تجارية متجهة إلى ساحل الجزيرة العربية. وكانت إلى حد بعيد سفينة شحن حولت من الخدمة الساحلية الهندية البريطانية إلى البحر الأبيض المتوسط، حيث أنها خلال السنوات الأولى للحرب نجت من عدة محاولات تدمير من قبل الغواصات الألمانية. وكان على ظهرها (220) خاروفا سودانيا و (150) فرساً وبغلاً من أمريكا وأستراليا، و(67) حماراً من الحبشة، (98) من الرجال الفارين من الجيش التركي، (82) من العمال الفلاحين المصريين، وجباليين، وستة ضباط بريطانيين، وطائرتان من طراز قديم. وتألف طاقم السفينة من هنود ويابانيين وصوماليين وبرابرة. وكان ربان «سفينة نوح» الجديدة هذه رجلا اسكتلنديا ممتلئ الجسم مرحا يطلق عليه اسم روس. وشككت فيما إذا كان الكابتن كيد في الأيام المزدهرة للقرصنة في البحر الكاريبي قد وضع في البحر مثل هذه الشحنة والطواقم المتعددة والملونة.

والجنسيات المختلفة التي كانت على ظهر السفينة عزلت نفسها كما لو كانت تعيش في مستعمرات عرقية صغيرة وقامت بطهو طعامها الخاص على أجزاء مختلفة على ظهر السفينة. وسيكون من المستحيل التصور ماذا كانت تبدو تلك السفينة الجيدة التي تدعى «أوزاردا» بعد أن أبحرنا لمدة بضعة أيام. وماذا كانت تشبه رائحتها. فبعض السودانيين كانوا من صحراء النوبة، بحيث كان من الصعب تماماً الحصول على الماء لأغراض الشرب، ولا شيء يقال عن ماء الاغتسال؛ فبعضهم لم يتح له أن يستحم استحماما حقيقيا

طيلة حياته. بيد أنه كان هناك واحد من الجباليين اسمه المستعار باتينغ بيرت. لقد كان هذا الرجل يستحم بدلوه خارج حوض الاستحمام خمس مرات في اليوم.

ومتعنا العمال المصريون باستمرار برقصاتهم الإحتفالية المثيرة. ولم يكن هنالك مكان كاف لأن يرقصوا جميعهم في نفس الوقت، ولذلك كانوا يرقصون بالدور. وكان بعضهم يرقص إلى أن ينهار على ظهر السفينة من الإنهاك. فالإنهاك والوهن بالنسبة لهم كان إشارة فحسب لالتقاء الروح بالخالق لدقائق. ولم يكن هناك غرف أو مقصورات للركاب، لذلك فقد كان علينا النوم على ظهر السفينة مع الحمير والبغال. فقد نمت بجانب بغله ملونة الجلد من هانيبال، ولاية ميسوري، وهي موطن الكاتب مارك توين. كانت متشائمة جداً. وبدت وكأنها قلقة من شيء ما في الوطن ولم تنم جيداً. ولا أنا أيضاً نمت جيداً. ولو كان مارك توين مكاني لفقد إحساسه بالرعاية.

كان معنا ضابط بريطاني على ظهر السفينة قاصداً الخليج (الفارسي) العربي. كان منشغلاً وواقعاً تحت انطباع خاطىء بأنه كان وارثاً لمعطف جورج روبري أو هاري لاودر. واعتاد أن يروي لنا قصة تلو الأخرى إلى أن نضجر تماماً. وهنا سأكرر واحدة من قصصه، ليس لأنني أعتقد بأنها كانت مضحكة وإنما لأنني أعرف بأنها لم تكن مضحكة لكنني أريد أن أريكم شيئاً ما مما كان علينا تحمله. فقد قال بأنه كان خارجاً مرة لاصطياد الأسود في إفريقيا الوسطى، ولا واحد منا شك بذلك، لأنه كان يتجول حول العالم من كامشاتا إلى الكاميرون. وقال إنه في أحد الأيام قفز أسد عليه خارجاً من دغل إلا أنه انحنى في الوقت المناسب، جاعلاً الأسد يذهب مباشرة من فوق رأسه. ومرت بعض الدقائق، وعندما لم يعد الأسد، فقد زحف على بطنه للاستطلاع. وعندما وصل إلى منطقة مفتوحة حدق بانتباه من خلال العشب الطويل وهناك رأى ذلك الأسد نفسه وهو يمارس قفزات منخفضة.

وخطرت لنا فكرة في يوم ما للتخلص منه، فقد أعطينا سجائر للفارين الأتراك بعدما أفهمناهم ببضع كلمات بالإنجليزية، لكي نجعلهم ينصتون إلى قصصه. فقد كانوا يضحكون عندما كان يضحك وبذلك فقد أرضوه، وبالتأكيد فقد أراحونا بذلك.

وعندما وصلنا إلى الميناء القديم المهجور للملك سليمان عند رأس خليج العقبة، رست سفينتنا على بعد ميل ونصف من الشاطئ. وأخيراً اندفعنا خارجين من السفينة متجهين إلى تخوم أشجار النخيل الواقعة عند قاعدة جبال الملك سليمان، وعلى متن السفينة تم تفريغ البغال والحمير بواسطة صندل. ورُفس حمار تعيس الحظ من قبل بغل هائج. وظهرت على الفور أسماك قرش فهاجمته من عند طرفي السفينة. وأمسكت سمكة قرش بساقه الأمامية والأخرى بردفه وشقاه إلى نصفين تماماً. وقد أبلغنا من قبل قبطان سفينتنا أنه كان يوجد هناك الكثير من سمك القرش في البحر الأحمر أكثر من أي بحر آخر في العالم.

عندما نزلنا إلى الشاطئ المرجاني حُيينا من قبل عدة آلاف من البدو الذين رحبوا بنا بإطلاق صليات في الهواء من بنادقهم ومسدساتهم. وبدأ إطلاق النار عندما كنا لا نزال بعيدين عن البر، وظننت أنا والسيد شيس بأننا سنصل إلى وسط معركة. وكان الشاطئ المرجاني المحاط بأشجار النخيل رائعاً وذا ألوان متعددة، وكم كان مشهد البدو رائعاً أيضاً بلحاهم الكثيفة ودشاديشهم البهية الرائعة، وكوفياتهم الغريبة، وأسلحتهم القديمة والحديثة من مختلف الأنواع، التي بدت كمهرجان شرقي مسرحي. وهكذا كان حقيقة، وكان هؤلاء بعضاً من فرسان الجزيرة العربية الحديثين الذين كان لورنس يعمل معهم.

تحول ميناء الملك سليمان المهجور إلى قاعدة ضخمة، توجد فيها أكوام كبيرة من المؤن مكومة فوق الرمال وتحت أشجار النخيل. وأخذنا بعض الضباط البريطانيين الذين كانوا يتولون استلام المؤن والإمدادات في العقبة إلى خيمة قريبة وأطفأوا ظمأنا المتزايد، وبعد بضعة ساعات جاء لورنس نفسه قادماً من وادي اليتم، عائداً من إحدى حملاته الغامضة في قلب الصحراء.

بالنسبة للورنس، لم يكن هناك يومان في الصحراء متشابهين، لذلك فسيكون من المستحيل وصف يوم واحد نموذجي بهذا الشأن. بيد أن روتين المعسكر في مقر قيادة الجيش العربي، عندما لا تكون هناك غزوة مقررة في برنامج ذلك اليوم، فإنه يتبع النظام التالي:

في الساعة الخامسة صباحاً، عندما تسقط أولى إشعاعات ضوء الشمس على قمم جبال ومرتفعات سيناء، يتسلق أمام الجيش كثيبا مرتفعا من الرمال ويقوم بالأذان لصلاة الفجر. وكان يتميز بقدرات صوتية مدهشة بحيث أن صوته يوقظ كل رجل وحيوان في العقبة. وبعد أن ينتهي من الأذان مباشرة، يقوم الإمام الخاص للأمير فيصل بالدعوة لصلاة الفجر أمام خيمة الأمير بصوت ناعم رخيم ويقول: «أصبحنا وأصبح الملك لله.»

وكتبت الآنسة جيرترود بيل، الرحالة في سورية الشهيرة، والتي خدمت أيضاً في هيئة الاستخبارات البريطانية في الشرق الأدنى (الشرق الأوسط) خلال الحرب وصفاً حياً للصباح الرائع في الصحراء: «لتصحو في الصحراء من النوم كمثل المشي في قلب أوبال أو حجر كريم تتغير ألوانه باستمرار. وعلى ما أذكر فإذا ما تحدثنا عن خليج نابولي لا بد أن يكون الأمر مختلفاً. فانظروا أو شاهدوا الصحراء في صباح صاف وموتوا إذا كنتم تستطيعون.»

وبالتأكيد فإن كتاب المغامرات والرومانسية يمكن أن يكتب حول تجربة واختبار أيام الحرب للآنسة بيل في صحراء بلاد ما بين النهرين (العراق). وكضابط أركان في الاستخبارات فقد كانت تقوم بأي شيء مطلوب من أي رجل بل أنها كانت ترتدي قميصا وسروالا قصيرا.

وبعد بضعة دقائق من الدعوة للصلاة (الأذان) الذي أيقظ المعسكر، يجري تحضير كوب من القهوة الحلوة وتحضر بواسطة واحد من عبيد الأمير فيصل. وكان للأمير خمسة عبيد أحباش؛ كانوا في قمة الإخلاص له، لأن الأمير لم يكن يعاملهم كعبيد، ولا يعتبرهم كذلك. وكلما أراد واحد منهم مالاً يأمره فيصل بأن يأخذ ما يريده أو يحتاجه من كيس الذهب. ومهما أخذ من مال فإنه لا يتذمر أبداً، وكنتيجة لذلك، فإن التفكير بالسرقة لم يخطر ببالهم أبداً.

وفي الساعة السادسة صباحاً، جرت العادة أن يتناول لورنس الإفطار مع الأمير فيصل في خيمته، ويجلسون القرفصاء على عادة البدو على سجادة. ويتكون طعام الإفطار في أفضل الأحوال من فطيرة غنية بالتوابل تدعى كعكة «مكة» ومن حبيبات ذرة

مطبوخة. ومن ثم، بالطبع، لا بد أن يكون هناك التمر. وبعد تناول الإفطار تحضر وتوزع أكواب الشاي الحلو. ومنذ السادسة وحتى الثامنة صباحاً، كان لورنس يناقش ويبحث في الأحداث المحتملة لذلك اليوم إما مع الضباط البريطانيين أو مع بعض الزعماء العرب البارزين، في حين يكون الأمير فيصل يعمل مع سكرتيره أو يتحدث بشؤون وأمور في خيمته خاصة مع لورنس. وعند الساعة الثامنة صباحاً كان فيصل يعقد مجلسه لمقابلة المستدعين والملتمسين لحوائجهم في ديوان خيمته. ووفقاً للإجراء النظامي المتبع، فقد كان من العادة أن يجلس الأمير في صدر الخيمة على سجادة كبيرة موجودة على منصة. ويقف المستدعون والملتمسون أمام الخيمة في الخارج على شكل شبه دائرة بانتظار أن ينادى عليهم. ويتم معالجة وإجابة جميع الطلبات وتسويتها بشكل مختصر ولا تترك أية مسألة.

كنت جالساً في صباح أحد الأيام في الخيمة مع لورنس عندما دخل شاب بدوي مندفع إليها، متهم على أن لديه عين شر. ولم يكن الأمير فيصل متواجداً. وأمر لورنس الشاب المتهك أن يجلس في الجهة المقابلة عند مدخل الخيمة ونظر إليه. ومن ثم ولعشر دقائق حدق فيه بثبات، وبدت عينا لورنس الزرقاوتان كالفولاذ تثقب حفرة في نفس المتهم تماماً. وبعد انتهاء الدقائق العشر، طرد لورنس البدوي. وبذلك زال الشر وذهب، بمباركة الله.

وفي يوم آخر جاء واحد من حراس لورنس الشخصيين إليه وهو يشتكي من أن واحدا من رفاقه كان لديه عين شر (حسد). وقال: «آه يا بحر العدالة، إن ذلك الفتى هناك نظر إلى جملي، وسرعان ما أصبح الجمل أعرجاً». وسوى لورنس هذه المشكلة بأن وضع الرجل المتهم بعين الشر على الجمل الأعرج ومن ثم أعطى جمل الرجل المتهم للرجل الشاكي.

إن العيون الزرقاء تخيف وترهب العرب العاديين. فلورنس كانت لديه عينان زرقاوان هما أكثر زرقة من مياه البحر الأبيض المتوسط ولذلك فقد اعتقد البدو أن هناك شيئا ما خارقا فيه. وهم أنفسهم لديهم كلهم عيون تشبه المخمل الأسود.

وحينما يكون الأمير فيصل متواجداً، كان لورنس يتنحى جانباً ويرفض حل النزاعات. فلم يكن لديه طموح لأن يصبح حاكماً، وقد عرف بأنه سيكون من الأفضل

تماماً بالنسبة لمستقبل العرب وبالنسبة للأمير فيصل إذا ما عولجت خلافاتهم وحُلت بطريقة عادية من قبل واحد من أبناء شعبهم. وفي الحقيقة فإن لورنس لم يقم أو يفعل أي شيء بنفسه يمكن أن يقوم به شخص عربي قادر على معالجته بطريقة ناجحة.

كان الأمير فيصل غالباً ما ينهض الساعة الحادية عشرة والنصف ويعود إلى خيمة جلوسه، حيث تقدم له وجبة غذاء صغيرة. في غضون ذلك، كان لورنس يمضي ساعة ونصف أو نحو ذلك بقراءة كتاب لأرسطو، أو يقرأ شعرا إنجليزيا محببا لديه. وكان يحمل ثلاثة كتب طيلة فترة الثورة وهي: كتاب السفورد للشعر الإنجليزي «المالوري»، و«الملك آرثر»، ومؤلفات أرسطو، مما يظهر مدى عقيدة لورنس الكاثوليكية.

وغالباً ما كان يتألف الغداء من أطباق مثل الزعرور الشوكي المطبوخ، والعدس، والخبز المخبوز في الرمل وأرز، أو كعكة العسل وكنت أتناول الطعام بالملعقة، مع أن العرب اعتادوا استخدام أصابعهم في الأكل وكذلك لورنس. وبعد الانتهاء من الغداء يتبع ذلك وقت قصير من الحديث العام، وفي غضون ذلك، تقدم القهوة السادة والشاي المحلي. وأثناء شرب القهوة والشاي يصدر رجال القبائل أصواتاً أكثر ما يمكن. إنها طريقة مؤدبة لبيان من أنك تتمتع بشرب قهوتك أو شايك. ومن ثم كان الأمير فيصل يملي رسائله على كاتبه العربي، أو يأخذ قيلولة، في حين أن لورنس كان يندمج في شعر ووردورث أو شيلي وهو يجلس القرفصاء على سجادة في خيمته الخاصة.

وإذا ما كانت هنالك قضايا يجب البت فيها، فيعقد الأمير فيصل أو لورنس مجلساً مرة ثانية في خيمة الاستقبال. ومن الساعة الخامسة وحتى السادسة غالباً ما كان فيصل يستقبل ويستمع للأشخاص، وكان لورنس يجلس بجانبه، حيث أن الحديث والنقاش دائماً ما كان يجري بخصوص الاستطلاع الليلي والعمليات العسكرية المستقبلية.

في غضون ذلك، يبدأ بإشعال النار من كومة من الأشواك بجانب خيمة الخدم. ويتم ذبح خاروف آخر، بعد أن يذكر اسم الله عليه. وفي الساعة السادسة مساءً تأتي وجبة العشاء، وهي تشبه وجبة الغداء كثيراً، إلا أنها تحتوي على قطع من لحم الضأن موضوعاً على كومة من الأرز، وبعدها يتم تقديم أكواب من الشاي بشكل متقطع حتى يحين وقت

النوم، الذي هو بالنسبة للورنس غير ثابت تماماً. وفي الليل كان لورنس يجري مشاوراته المهمة جداً مع الزعماء العرب، ولكن من فترة لأخرى كان الأمير فيصل يسلي رفقاءه الحميمين بقصص مغامراته في كل من سورية وتركيا خلال السنوات الثماني عشرة التي أمضاها مع أسرته في اسطنبول تحت رقابة السلطان عبد الحميد. وغالباً ما كان يقرأ جيداً خلال الليل. فقبل مغادرتي لمصر اقتنيت نسخا مستعملة من سجلات ومشاهدات الرحالة الكبار في البلاد العربية، مثل مؤلفات كل من بورخاردت، بورتون، ودوفتي. وباستثناء رائعة دوفتي الضخمة، فلم أجد في أي من الكتب الأخرى في مجموعتي العشوائية كتاباً أكثر إثارة من كتاب السيدة بيل «الصحراء والأرض المزروعة.»

فقد كان اهتمامي به محفزا ومثاراً بالقصص التي كان الكولونيل لورنس مرتبطاً ومتعلقاً بها بالمغامرات خلال الحرب، لهذه المؤلفة اللامعة. فهذه المرأة الإنجليزية الاستثنائية غير العادية قد تجولت في الزوايا والأماكن النائية للشرق الأدنى لعدة سنوات قبل اندلاع الحرب. وكانت عالمة ودارسة، وليست كرحالة تافهة للبحث عن شهرة سيئة. وكانت مع مرافق عربي أو مرافقين تقوم برحلة لمئات الأميال على طول حواف الصحراء العربية الكبرى، وتزور القبائل البدوية وتدرس لغتهم وعاداتهم. لذلك فقد كانت معرفتها واسعة مما دعا رؤساء إدارة الاستخبارات البريطانية في بلاد ما بين النهرين (العراق) أن يطلبوا منها قبول تعيينها ركناً، ولعبت دوراً ليس صغيراً في كسب صداقة بعض رجال القبائل المتعطشين للدماء الذين يقطنون في وديان نهري دجلة والفرات. وفي كتابها «الصحراء والأرض المزروعة» ألقت الآنسة بيل الكثير من الضوء المثير للدهشة على حياة ساكني الصحراء.

«إن ثروة العربي متغيرة كالذي يغامر في سوق البورصة. ففي يوم ما يكون أغنى رجل في الصحراء، وفي صباح يوم آخر قد لا يكون لديه سوى ناقة واحدة. فهو يعيش في حالة حرب وحتى إذا ما عقد أوثق التعهدات مع القبائل المجاورة فلا يوجد هناك تأكيد من أن عصابة من المغيرين لن تأتي من على بعد مئات الأميال وتغير على مضاربه في الليل، وكقبيلة مجهولة من سوريا، فقد غزت قبيلة بني عوجه، قبل سنتين، الأرض التي تقع إلى

جنوب شرق حلب، واجتازت مسافة ثلاثمائة ميل في الصحراء آتية من منطقتها شمالي بغداد، فسلبت كافة القطعان من المواشي وقتلت عشرات الأشخاص. ولعدة آلاف من السنين بقيت هذه الحالة قائمة، فأولئك الذين سيقرأون السجلات التاريخية المبكرة والقديمة للصحراء سيروون لنا أنه على مر القرون فإن العرب لم يحققوا حكمة من هذه التجربة. فالعربي في الصحراء ليس آمناً، ومع ذلك فهو يتصرف كما لو أن الأمن كان خبزه اليومي. وهو يعيش ضعيفاً في مضربه أو مضرب خيامه الصغير، حيث تكون هنالك عشر أو خمس عشرة خيمة مجتمعة سوية، تمتد حولها صحراء واسعة. بحيث لا يمكن حمايتها أو حتى لا تكون قابلة للحماية.

ويكون بعيداً جداً عن رفقائه ليستنجد بهم، بعيداً جداً كقاعدة ليجمع الفرسان سوياً ويتعقبوا الغزاة، الذين لا بد أن يكون تراجعهم بطيئاً، بسبب أحمالهم وعبئهم بما استولوا عليه من القطعان، ليضمنوا نجاحاً بتعقب سريع ومفاجئ. وبفقده لكل متاعه وثروته الدنيوية، ويجول هذا البدوي حول الصحراء ويشرح بليته، ويمكن أن يعطيه رجل ما فروة أو رداء من جلد الماعز، ورجل آخر يعطيه دلة قهوة، ويهديه رجل ثالث جملاً أو ناقة، ورابع يعطيه بضعة خرفان، إلى أن يصبح له سقف يغطيه ومواش كافية لتقي عائلته من الجوع. وتوجد هناك عادات جيدة بين العرب، كما قال غرود. ذلك أنه (الرجل المنكوب) يتحمل لأشهر، وربما لسنوات، إلى أن تسنح له الفرصة، ويغير فرسان قبيلته على القبيلة التي سلبته وتسترجع جميع قطعانه إضافة لأشياء أخرى زيادة، وبذلك يدخل العداء مرحلة أخرى. والحقيقة أن الغزو يعتبر الصناعة الوحيدة التي تعرفها الصحراء وهي أيضاً اللعبة الوحيدة فيها. وكصناعة وحيدة فإنها تبدو بالنسبة للعقل التجاري قاعدة. ولكن كلعبة فيوجد هناك الكثير ليقال بهذا الصدد. وتجد روح المغامرة مجالاً كاملاً فيها، فيمكنك تصوير مدى احتياج الإغارة الليلية عبر السهل، واندفاع الجياد في الهجوم، وصليات وطلقات البنادق والابتهاج بمعرفة نفسك كرفيق وزميل مشهور وأنت تعود إلى مضاربك بالنهب والسلب. إنها كأفضل نوع من الفنتازيا الموسيقية، كما يقولون في الصحراء، مع ما تحمله من خطر بهذا الشأن. ولا يعتبر ذلك الخطر كبيراً بشكل يدعو

للقلق، فيمكن أن يتم الحصول على مقدار كبير من اللهو والتسلية من إراقة الكثير من الدماء، ونادراً ما يميل العربي الغازي إلى القتل. كما أنه لا يتعرض للنساء والأطفال، وإذا ما كان هنا أو هناك رجل ما يقع صريعا بطلقة صدفة، فمن يمكنه أن يتأكد من مصدر طلقة البندقية عندما تخرج من مكمنها؟ فهذه هي وجهة نظر العربي في الإغارة أو «الغزوة».

* * *

10
معركة سيل الحسا

عندما اندفع جيش الأمير فيصل نحو الشمال من رأس خليج العقبة، انضمت لهذا الجيش الذي كان يدعى جيش الحجاز قبيلتا بن جازي الحويطات وبني صخر، وكانا من أفضل القبائل من الناحية القتالية في صحراء الجزيرة العربية كلها. كما انضمت إلى جيش الأمير فيصل في نفس الوقت قبائل كل من جهينة، عتيبة، وعنترة وهم يمتطون جمالهم.

وبعد سقوط العقبة، قام لورنس بعدة رحلات إلى فلسطين للتباحث مع الجنرال اللنبي. ومنذ ذلك الوقت أصبح هنالك تعاون وثيق بين الجيش البريطاني في فلسطين والجيش العربي.

وقد تم تقسيم الجيش العربي إلى جزأين رئيسيين: جزء عرف بالقوات النظامية، والجزء الآخر القوات غير النظامية. وكانت القوات النظامية من المشاة، وعددها عشرون ألفاً. وكانوا إما من الذين فروا من الجيش التركي، أو من الرجال العرب الذين كانوا يقاتلون تحت راية السلطان التركي ومن ثم تطوعوا للانضمام للجيش العربي بعد أن أسروا من قبل القوات البريطانية في العراق أو فلسطين. وكان يتم استخدامهم أولاً وبشكل رئيسي لحراسة المواقع التركية التي تم الاستيلاء عليها من قبل القوات البدوية الشريفية المتقدمة. ومن ثم بعد ذلك، وبعد أن جرى تدريبهم بشكل جيد، استخدموا كقوات ضاربة في الهجوم على المواقع التركية الحصينة. وكانت القوات النظامية العربية

تحت قيادة كولونيل إيرلندي يدعى جويس، وكان يلي لورنس في المهام، وربما لعب دوراً أكثر أهمية في الحملة العربية (الثورة العربية). أما القوات غير النظامية فكانت أكثر عدداً، وتتألف من البدو، الذين يمتطون الجمال والجياد. وكان عددهم حوالي مائتي ألف مقاتل، يشترك معهم لورنس.

وتوضح معركة سيل الحسا الأسلوب الذي كانت تتبعه قوات الملك حسين. فقد تم إرسال فوج تركي، من الكرك، بقيادة فخري بيك، كان يتألف من قوات مشاة، وفرسان ومدفعية جبلية، وفصائل مدافع رشاشة، إلى خط حديد الحجاز، التي تقع جنوب شرق البحر الميت، وذلك لإعادة الاستيلاء على الطفيلة، التي كانت سقطت بيد الجيش العربي. حيث تم تشكيل هذا الفوج التركي على عجل في منطقتي حوران وعمان، وكان تنقصه المؤن والإمدادات اللازمة.

عندما اشتبكت القوات التركية مع دوريات البدو في سيل الحسا، استطاعت هذه القوات التركية إرجاعها إلى بلدة الطفيلة. وأقام لورنس وهيئة أركان الجيش الشريفي موقعاً دفاعياً على الضفة الجنوبية للوادي الكبير الذي تقع عليه الطفيلة، واحتل الشريف زيد، الابن الأصغر للشريف (الملك) حسين المواقع خلال الليل ومعه خمسمائة جندي نظامي وغير نظامي.

وفي نفس الوقت، أرسل لورنس معظم قواته إلى جهة أخرى، فظن سكان الطفيلة أن الجيش العربي فر من المعركة، وقد أسرّ إلي لورنس بقوله: «أعتقد بأنهم ظنوا ذلك».

كانت الطفيلة مضطربة جداً وتتملكها الدهشة جراء ذلك. وقد أورد الشيخ ذياب العوران، «شرلوك هولمز» الهاوي في الحجاز تقارير عن عدم رضا القرويين وعن شائعات بالخيانة، لذلك فقد خرج لورنس من منزله قبل الفجر متجها إلى الشوارع المكتظة بالسكان ليسترق السمع بشأن ما يجري هناك. وقد استطاع بسهولة إخفاء هويته بثيابه الفضفاضة الكبيرة في الظلام.

كان هناك انتقاد كبير لما كان يجري، وكان كل واحد يصرخ بفزع ورعب، وكانت بلدة الطفيلة بحالة اضطراب وهيجان، والبيوت تفرغ من أثاثها على عجل، بل كانت

قطع الأثاث تقذف أيضاً عبر النوافذ إلى الشوارع المزدحمة. وكان العرب وهم يمتطون الجياد يعدون جيئة وذهاباً وهم يطلقون النار في الهواء بشكل عنيف ومن خلال جذوع شجر النخيل. وكانت كل صلية من صليات البنادق، يسمع لها صدى حاد وواضح من بين صخور وجروف الممر الضيق للطفيلة.

وعند الفجر تماماً بدأت صليات العدو تسقط على البلدة، فذهب لورنس إلى الشريف زيد وحثه على إرسال ضابط من ضباطه ومعه مدفعيان برشاشيهما لدعم القرويين العرب، الذين كانوا لا يزالون يحتلون الجزء الجنوبي من سفوح الجبال.

وبوصول المدفعيين انتعشت الروح المعنوية وحفزت العرب على الهجوم ثانية. وبصوت مكبر عالٍ تمكنوا من دفع الأتراك إلى قمة تلة أخرى ومن ثم عبر سهل صغير إلى وادي الحسا. ثم استولوا على قمة التلة. ولكن، ما إن وصلوا إلى هناك حتى وجدوا القوات الرئيسية لفخري متمركزة خلف التلة.

وأصبح القتال مستمراً الآن؛ فنزل الرجال من كلا الجانبين بكثافة. وأضعفت الصليات المتواصلة من المدافع الرشاشة والقصف التركي من حماسة العرب. وتردد الأمير زيد في إرسال قوات احتياطية داعمة، لذلك فقد أسرع لورنس إلى شمال الطفيلة من أجل الاستطلاع وإرسال تعزيزات. وفي طريقه قابل المدفعيين وهم عائدون، بعد أن استشهد خمسة من مقاتليهم، ودُمر مدفع واحد، ولم يبق لديهم ذخيرة. فأرسل لورنس برقيات مستعجلة إلى الأمير زيد ليرسل على الفور مدفعا جبليا ومزيدا من الذخيرة والمدافع الرشاشة إلى مواقعه الاحتياطية عند الحافة الجنوبية للسهل الصغير الواقع ما بين الحسا ووادي الطفيلة.

ومن ثم رجع لورنس بسرعة إلى خطه الأمامي على قمة التلة، حيث وجد الأمور بحالة خطيرة. فقد كان هناك على التلة ثلاثون رجلا من مقاتلي حويطات ابن جازي وبضعة قرويين مقاتلين واستطاع رؤية قوات العدو وهي تعمل من خلال الممر وعلى طول الحافة الجنوبية إلى أعلى السهل، حيث كان يتواجد هناك عشرون مدفعاً رشاشاً تركيا تركز نيرانها على العرب. وجرت محاولة لمهاجمة القمة التي كان يحتلها العرب. وكان

الضباط الألمان يوجهون القوات التركية كما كانوا يصححون توجيه القنابل التي كانت تدك قمة التلة والتي كانت تنفجر بشكل قاس على السهل الصحراوي. وحيث كان لورنس يجلس هناك، فقد بدأوا برش جوانب وقمة التلة بشظايا فولاذية ذات نتائج مروعة، وعرف لورنس بأن فقدان الموقع كان حتمياً بل مسألة دقائق. كما جاء سرب من الطائرات، مما جعل القصف الجوي يقلص فرص القوات الشريفية في النصر.

وأعطى لورنس لفرسانه المطالقة جميع ما لديه من الطلقات وما استطاع أن يجمعه، وأسرع للعرب راجعين من السهل على أقدامهم، وكان هو بينهم. وبما أنه جاء مباشرة من بين الجروف الصخرية من الطفيلة، فإن دوابه لم تكن معه، وبقي الفرسان لمدة خمس عشرة دقيقة أخرى ومن ثم رجعوا عائدين من دون أذى.

وجمع لورنس رجاله في موقع احتياط على قمة تلة على ارتفاع حوالي ستين قدماً في الأعلى وتشرف وتسيطر على السهل. وكان الوقت ظهراً آنذاك. وقد فقد خمسين رجلاً وبقي لديه ثمانون فقط. ولكن بعد بضع دقائق، جاء عدة مئات من قبيلة عقيل وبعض رجاله الآخرين، ومعهم مدفع رشاش من نوع هوتشكيس. كما جاء لطفي العسلي، وهو سوري، ومعه مدفعان رشاشان آخران، وبقي لورنس في موقفه حتى الساعة الثالثة عصراً، عندما وصل الشريف زيد ومعه مدفعية جبلية والمزيد من المدافع الرشاشة وخمسون فارساً ومائتا رجل مقاتل من العرب المترجلين.

في غضون ذلك، احتل الأتراك خطوطه الأمامية السابقة. ولحسن الحظ، فلقد كان لورنس يمتلك المديات بالضبط. وقد أخذ موقعه بهدوء بينما كان رجاله يتراجعون بفوضى وتهور إلى موقعهم الاحتياطي. ومن ثم دفع بالمدفعية إلى أعلى قمة التلة ووزع الفرسان إلى اليمين، ليعملوا خلف الحدود الشرقية للتلة. وكان هؤلاء الرجال محظوظين تماماً إذ استطاعوا أن يتقدموا من دون أن يشاهدهم العدو أو يحس بهم، إلى أن استطاعوا الالتفاف حول خاصرة الأتراك على بعد ألفي ياردة. ومن هناك انقضوا عليهم ودخان أبيض ينبعث من بنادقهم نتيجة الصليات المتعاقبة منها.

في غضون ذلك قدم أكثر من مائة مقاتل من قبيلة النعيمي وانضموا إلى لورنس، حيث كانوا قد رفضوا القتال في اليوم السابق لأنهم لم يكونوا راضين بكمية الغنائم الذين

كانوا يتلقونها. إضافة إلى أن البدو لم يكونوا قادرين على مقاومة إغراء الاشتراك بقتال جيد عندما يرون مقاتلا قادماً من المعركة. فأرسلهم لورنس إلى جناحه الأيسر، فزحفوا نحو الأسفل إلى ما وراء القمة الغربية للسهل ضمن مائتي ياردة عن القوات التركية. وكانت القمة الجبلية التي كان يحتلها الأتراك من الصوان الذي يشبه الصخر، لذلك فإن الاستحكام فيها كان مستحيلاً. وكانت ارتدادات القذائف والشظايا وهي تصطدم وتضرب الجلاميد الصوانية الكبيرة وهي تلمع وتبرق مخيفة ومرعبة، مسببة خسائر فادحة بين العدو. وأمر لورنس الرجال الذين كانوا متواجدين في الجناح الأيسر بأن يطلقوا صليات كثيفة غير عادية من مدافعهم الرشاشة من نوعي هوتشكيس وفايكرز على القوات التركية المتواجدة على المرتفعات. وكان تأثيرها دقيقاً جداً بحيث أنها أزالت العدو من هناك. ومن ثم أمر فرسانه بالتصدي للأتراك المتراجعين من الجهة اليمنى، في حين تقدم هو من الوسط ومعه مشاته والرايات ترفرف بتحدٍ. وانهار الأتراك وأحبط هجومهم. وعند غروب الشمس احتل لورنس وقواته الخطوط التركية ولاحقوا العدو متجاوزين مدافعه إلى وادي الحسا. وما إن حل الظلام حتى أوقف رجاله ملاحقتهم، وهم منهكون من قلة النوم والطعام. وكبر الرجال المرهقين «الله أكبر» وهم يسجدون على وجوههم متوجهين نحو مكة المكرمة، يشكرون الله على انتصارهم. وتفقد لورنس الفوج التركي المدمر، وكان من بين القتلى قائد الحملة التركي حميد فخري.

* * *

11

لورنس مدمر القطارات

لم يلعب القدر لعبة غريبة أكثر مما لعبه عندما حول هذا الشاب الخجول خريج جامعة أكسفورد من عالم آثار مجدّ إلى قائد يقود مئات الغارات المثيرة ومدمر قطارات ذي شهرة عالمية.

في أحد الأيام كان طابور لورنس يعدو على طول وادي اليتم. كان يعدو خلفه مسرعاً ألف مقاتل بدوي ممتطين الجمال ويتجهون نحو الأسفل باتجاه النقب. وكان المقاتلون البدو يرتجلون أناشيد حربية غريبة ويصفون مناقب «الشريف الأشقر» الذي وضعه ستورز عندما قدمه لي بأعلى المراتب. كان لورنس على رأس الطابور، ولم يعر اهتماماً للأناشيد التي كانت تمجده. وكنا نناقش ونبحث احتمالية أن تشكل الحضارة الحثية القديمة للبابليين ونينوى نقطة اتصال مع كريت القديمة. إلا أن فكره كان مشغولاً بأمور أخرى، وفجأة أدلى بملاحظة قائلاً: «هل تعلم بأن أعظم مشاهد مثيرة رأيتها كانت نسف قطار محمل بالجنود الأتراك».

بعد ثلاثة أيام من ذلك اتجه الطابور في الليل باتجاه محطة سكة حديد الحج. وكان يصحب لورنس مائتا مقاتل من الحويطات. وبعد يومين من المسير الصعب عبر خلالها بلادا جرداء أكثر من جبال القمر، وعبر وديانا تذكّر بوادي الموت في كاليفورنيا، وصل الطابور المغير إلى قمم تلال تقع بالقرب من محطة سكة حديد تركية مهمة ومن حامية بلدة

معان. وبإشارة من لورنس ترجل الجميع عن جمالهم ومشوا إلى قمة أقرب تلة وأشرفوا على طريق السكة الحديد من بين الصخور والجروف الكلسية.

كانت هذه نفس السكة الحديد التي بنيت قبل عدة سنوات لتمكن الحكومة التركية من إحكام مراقبتها للجزيرة العربية من خلال نقل القوات هناك. كما أنها سهلت وحلت مشكلة النقل والمواصلات للحجاج إلى المدينة ومكة. وكانت المدينة محمية بجيش يفوق عدده العشرين ألفاً من الترك ومحصنة بشكل قوي. وكان بإمكان لورنس ومقاتليه أن ينسفوا هذا الخط تماماً في أي وقت، إلا أنهم اختاروا سياسة ذكية. فلا بد أن يرسل الأتراك قطاراً محملاً بالمؤن تلو القطار وكميات من الذخيرة إلى المدينة عبر تلك السكة الحديد. لذلك فكلما نفدت المؤن أو الذخيرة عند المقاتلين العرب فإنهم سيقومون بالتسلل إلى خط السكة الحديد وينسفون قطاراً أو قطارين، ويغنمون ما فيها، ومن ثم يختفون في الصحراء حاملين معهم كل ما كان قد أرسل من اسطنبول.

وكنتيجة للخبرة، فقد اكتسب لورنس من هذه الإغارات كيفية القيام بالتفجيرات الكبيرة والكثيفة تماما كمعرفته السابقة بعلم الآثار، كما أنه كان فخوراً جداً بقدرته الفريدة على تدمير ونسف خطوط السكة الحديد. وكان المقاتلون البدو، من جهة أخرى، جاهلين تماماً لكيفية استخدام الديناميت؛ لذلك فقد كان لورنس يزرع كافة الألغام دائماً إلا أنه كان يأخذهم معه لمرافقته وللمساعدة بحمل ونقل الغنائم فحسب.

وقد نسف العديد من القطارات، ولذلك فقد كان معروفاً من قبل نظام المواصلات والنقل التركي والدوريات التركية تماماً. وفي الحقيقة فقد نسف بالديناميت القطارات التركية التي كانت تمر عبر الخط الحديدي الحجازي بشكل نموذجي، ولذلك فقد كانت مقاعد العربات الخلفية للقطار تباع بخمسة أو ستة أضعاف قيمتها العادية في دمشق، فقد كان هناك إقبال شديد على المقاعد في مؤخرة القطار؛ لأن لورنس كان دوماً يزرع ألغامه (التي كان يسميها تهكما أزهار التوليب الخاصة به) تحت محرك القطار، مما ينتج عنه تدمير العربات الأمامية فقط للقطار.

كان هناك سببان مهمان لعدم قيام لورنس بتعليم البدو كيفية استخدام المتفجرات عالية التفجير: أولاً، لأنه كان يخشى من أن يقوموا بتفجير القطارات بشكل هازل حتى

بعد انتهاء الحرب. فهم كانوا يعتبرون ذلك شكلاً مثالياً من الرياضة فحسب، كلعبة مسلية ومربحة معاً. وثانياً، كان من الخطر إلى حد كبير أن يترك آثار أقدام على طول خط السكة الحديد، وكان يفضل عدم زرع الديناميت من قبل رجال قد يكونون لا مبالين.

اختبأ المقاتلون خلف كتل ضخمة من الصخور الرملية لمدة ثماني ساعات إلى أن مر عدد من الدوريات التركية من هناك. وكان لورنس متأكداً بأن تلك الدوريات كانت تمر بشكل منتظم كل ساعتين. وفي منتصف النهار، وبينما كان الأتراك في قيلولتهم، تسلل لورنس إلى خط السكة الحديد، ومشى مسافة قصيرة على النائمين بقدميه العاريتين لكي لا يترك آثاراً على الأرض يمكن أن تُرى من قبل الأتراك، وعين ما اعتبره بقعة حقيقية لزرع الشحنة الناسفة. وكان إذا أراد مجرد إخراج القطار عن مساره أو خطه فإنه كان يستخدم رطلاً إنجليزياً واحدا فقط من الجيلاتين المتفجر؛ أما إذا كان يريد أن ينسف القطار فإنه كان يستخدم من أربعين إلى خمسين رطلاً من المتفجرات. وكان ذلك يستغرق منه أكثر من ساعة بقليل ليحفر حفرة بين الأتراك النائمين ومن ثم يقوم بدفن المتفجرات ومد سلك معدني رفيع تحت السكة وصولا إلى جانب التلة.

إن وضع المتفجرات أو دفنها ومن ثم مد سلك التفجير يعتبر مهمة طويلة وصعبة. وكان لورنس يمد السلك على حصى السكة الحديد بين القضبان، حيث كان يضع السلك في حقيبة يحملها تحت عباءته لذلك الغرض. ومن ثم يزيل مقداراً كافياً من التراب بقدر خمسة جالونات، وبعد ذلك يصنع شحنة ديناميت تزيد عن خمسين باونداً ثم يعيد الحصى إلى مكانه ويسويه بيديه. ومن باب الاحتياط فقد كان يأخذ وبر وشعر جمل ويفرشه على الأرض، ومن ثم ولكي لا يترك آثاراً، كان يمشي جيئة وذهاباً على حافة السكة لمسافة عشرين ياردة ومعه وبر الجمل ينثره بدقة ليزيل جميع آثار الأقدام. ثم يدفن السلك المعدني الموصول بالمتفجرات لمسافة مائتي ياردة حتى جانب التلة ومن ثم يجلس القرفصاء بهدوء تحت أكمة من الشجيرات منتظراً بصبر وكأنه يرعى قطيعا من الأغنام. وعندما يأتي أول القطارات وفي مقدمته حراس متمركزون على قاطرته الأمامية ومتحجبون بالبنادق فإنهم لا يرون أو يلاحظون شيئاً غير عادي سوى بدوي يجلس على جانب التلة ومعه عصا الراعي.

وينتظر لورنس حتى تمر العجلات الأمامية للقطار والقاطرة التي تحمل محركه فوق اللغم، ومن ثم، حيث يكون رفاقه جالسين هادئين خلف جلمود أو صخرة ضخمة، يرسل تياراً كهربائياً إلى الديناميت من خلال الضغط على جهاز التفجير محدثا انفجاراً هائلاً يشبه انهيار بناء من ستة طوابق، مخلفا غيمة سوداء من الدخان والتراب المتناثر. وهكذا يخرج القطار عن سكته نتيجة الانفجار وتتناثر قضبان السكة الحديد، وينقسم إلى جزأين. وينفجر «برجل» القطار ويتناثر الفولاذ وقطع الحديد إلى مسافة ثلاثمائة ياردة، وتتناثر قطع مرجل القطار لتصل إلى مسافة تبعد إنشين فقط عن لورنس.

وبدلاً من المؤن، فقد كان ذلك القطار يقل حوالي أربعمائة جندي تركي في طريقهم لتعزيز حامية المدينة. فخرجوا من عربات القطار وبدأوا يتجهون نحو لورنس. في ذلك الوقت اندفع المقاتلون البدو الذين كانوا ممددين على قمم التلال وانقضوا على الجنود الأتراك. وشك أحد الضباط الأتراك بأن الشخص الوحيد الذي كان يجلس هناك هو ذلك الإنجليزي الغامض الذي خصصت جائزة مقدارها خمسون ألف جنيه استرليني للقبض عليه. وصاح بشيء ما، وبدلاً من أن يطلق الأتراك النار، اندفعوا باتجاه لورنس بغية إلقاء القبض عليه حياً وأخذه أسيراً؛ ولكن قبل أن يتقدموا ست خطوات، أخرج لورنس مدفعه الرشاش من عباءته واستخدمه بفعالية ضدهم بحيث أنهم تراجعوا وفروا. فقد كان دائماً يحمل هذا المدفع الرشاش الأمريكي من النوع الثقيل. ولم يكن سوى بضعة أشخاص فقط كانوا من الناحية الفعلية قادرين على استخدامه بمهارة، وكان لورنس واحدا منهم إذ كان من المعروف لدى الضباط البريطانيين أنه كان يمضي عدة ساعات وهو يتدرب عليه مما جعله بالنتيجة خبيراً في التصويب.

واحتمى العديد من الجنود الأتراك خلف القطار وبدأوا بإطلاق النار من خلال عجلات عربات القطار؛ بيد أن لورنس رداً على ذلك وضع مدفعين رشاشين من نوع لويس حول منعطف الممر حيث غطى الجهة المقابلة لجسر السكة الحديد الذي اختفى خلفه الجنود الأتراك. وفتح طاقم المدفعين الرشاشين النار، وقبل أن يعرف الأتراك ماذا حدث كان قد تم رش صف الجند بكامله من أوله لآخره، وكانت النتيجة أن كل الرجال

الذين كانوا يتواجدون خلف جسر القطار إما قتلوا أو جرحوا. أما مَن تبقى من الأتراك على القطار فقد فروا مذعورين في جميع الاتجاهات.

واندفع العرب، الذين كانوا يتمركزون خلف الصخور ببنادقهم وطرحوا عربات القطار أرضاً وأخرجوا كل شيء منها. وكانت الغنائم تتكون من أكياس عملة فضية تركية وعملة ورقية، والعديد من الأقمشة والألبسة الشرقية الجميلة. ووضع المغيرون البدو جميع الغنائم على طول جسر السكة الحديد، وأخذوا يقتسمونها بينهم وهم يصيحون بمرح، بينما وقّع لورنس بيانات الشحنات من البضائع والسلع المشحونة بالقطار وأعاد نسخة منها بشكل مازح إلى حارس تركي جريح كان قد نوى أن يتركه هناك. وكانوا يتصرفون وكأنهم متحلقين حول شجرة عيد الميلاد. وحدث أن تشاجر رجلان حول قطعة من السجاد الحريري. فجاء لورنس ووقف بينهما وحوّل السجادة إلى شخص ثالث.

في وقت مبكر من شهر أيلول، غادر لورنس ومعه اثنان من شيوخ عقيلات بني عطية من المدورة، غادروا العقبة وتوجهوا إلى منطقة جروف صخرية رملية وهي ما يدعوها رجال القبائل «بوادي رم». وفي أقل من أسبوع انضمت إليه قوة مكونة من 116 رجلاً من قبائل الطويحة، الزوايدة، دراوشة، الدهمانية، الزلباني والحويطات.

وكان الموعد المحدد عند جسر صغير للسكة الحديد بالقرب من الكيلو 578 إلى الجنوب من دمشق. وهناك دفن لورنس شحنته الصغيرة من التوليب (الديناميت) بين قضبان السكة الحديد، كما نصب مدفعين رشاشين من نوعي لويس وستوكس عند نقاط ممتازة تبعد ثلاثمائة ياردة أو نحو ذلك. وفي عصر اليوم التالي اكتشفتهم دورية تركية. وبعد ساعة قدمت مجموعة من الجنود تقدر بأربعين جندياً تركياً من قلعة «حالة عمار» لمهاجمة المجموعة العربية التي وضعت الألغام من الجنوب. كما قدمت قوة تركية أخرى ضمت أكثر من مائة جندي لمهاجمة القوة العربية من الشمال، إلا أن لورنس قرر الثبات في موقعه.

وبعد قليل قدم قطار بمحركين وهو يتحرك ببطء من «حالة عمار» وكانت على سقفه مدافع رشاشة وبنادق قنص وبنادق مصوبة من فتحات ونوافذ القطار كلما تقدم

القطار. وما أن مر القطار حتى ضغط لورنس على المفتاح الكهربائي وفجر اللغم مباشرة تحت المحرك الثاني للقطار. وكان الانفجار كافياً ليخرج القطار عن سكته، ويتفجر المرجل، كما دمر وسحق المركبة الثانية للقطار وقلبها وخرجت العربة الثانية عن سكتها.

وبينما كان العرب يتحلقون حول القطار المدمر، فجر لورنس صندوقاً من الألغام تحت المحرك الأول للقطار متمماً تدميره.

وكانت عربات القطار مليئة بالأمتعة والأشياء القيمة، فأخذ العرب يخرجون الغنائم بفرح صاخب. وقتل سبعون تركياً، كما أسر تسعون، وقتل ملازم نمساوي وثلاثة عشرة رقيباً ألمانياً ونمساوياً.

يعتبر كل رابع أو خامس رجل من قبيلة المقاتلة الشهيرة على أنه شيخ. وبشكل طبيعي فإن الشيخ الفرد ليس له سوى سلطة ضئيلة. وغالباً ما كان هؤلاء الرجال يرافقون لورنس في الإغارة. وفي إحدى الحملات على خط السكة الحديد كان على لورنس أن يقضي ويحكم بينهم في اثنتي عشرة قضية اعتداء بالسلاح، وأربعة قضايا سرقة جمال، وتسوية زواج واحدة، وأربعة عشرة عداء ونزاع، وقضية سحر، وقضيتان عين حاسدة شريرة. وقد سوى مسألة السحر بسحر مضاد للمدعى عليه قليل الحظ. كما سوى قضايا العين الحاسدة الشريرة بإرسال المتهم خارجاً.

وفي مناسبة أخرى، خلال الأسبوع الأول لشهر أكتوبر التالي، كان لورنس ينجه إلى منطقة مفتوحة بالقرب من الكيلو (500). وكان رفاقه من المقاتلين البدو يختبؤون خلفه في دغل من الأشجار فقدم قطار ثقيل يحتوي على اثنتي عشرة عربة. وقد مزق وبعثر الانفجار الذي أعقب الضغط على التيار الكهربائي للمتفجرات مرجل القاطرة الأمامية، وأحرق العديد من العجلات للقطار، وقذف بالسيلندرات (الأسطوانات) في الهواء، وأزال القاطرة كلياً، بما فيه المهندس ورجل الإطفاء، ودمر إطار المحرك، وحتى عجلات السير الخلفية وكسر محورهما. وعندما وضع لورنس تقريره الرسمي حول هذه الفارة فقد أضاف بمرح حاشية أو جملة حيث أشار إلى أن «تصليح القطار كان مستحيلاً». كما أن مقطورة الوقود والماء دمرت. وكان من بين ركاب القطار معظمي بيك، وهو جنرال في

هيئة الأركان التركية العامة، الذي أطلق طلقتين من مسدسه من نافذة قاطرته الخاصة، والذي صدف بأنه تعطل. ومع أنه بدا من الحكمة بالنسبة له بأن يعدو إلى الجبال والتلال البعيدة، إلا أن لورنس ورفاقه انقضوا على القطار واستولوا على ثماني عربات ، وقتلوا عشرين تركياً، وحملوا معهم سبعين طناً من الأغذية من دون تكبد أية خسائر.

كان صديق لورنس الأوروبي الوحيد في أشرس حفلات نسف القطارات هو المدفعي الأسترالي الرقيب يلز. وقد كان نمراً في القتال. وفي مناسبة ما، عندما كان مع مجموعة إغارة بقيادة عوده أبو تايه، فقد رش يلز ما بين ثلاثين إلى أربعين تركياً بمدفعه من طراز لويس. وعندما قسمت الغنائم بين المقاتلين البدو، أصر يلز على أن يأخذ نصيبه من الغنائم. لذلك فقد أعطاه لورنس سجادة عجمية وسيف فارس تركي.

وقد لعب كل من الشريفين (الأميرين) علي وعبد الله دوراً مهماً أيضاً في الإغارات على الخط الحديدي الحجازي وفي الاستيلاء على قوافل الجمال التركية الضخمة بالقرب من المدينة المنورة.

في عام 1917، نسف لورنس وزملاؤه بالتعاون مع كل من الأمراء فيصل، علي، عبد الله، وزيد، خمسة وعشرين قطاراً تركياً، ودمروا أكثر من خمسة عشر ألفاً من قضبان السكة الحديد، ودمروا (57) جسراً وأعمدة أسلاك كهربائية. وخلال الثمانية عشرة شهراً فقد دمروا بالديناميت (79) قطاراً وجسراً. ولعل ما هو ثابت ومؤكد أنه لم يشترك في حملة أو إغارة كانت فاشلة أو غير ناجحة. فلقد قال الجنرال اللنبي في أحد تقاريره، بأن الكولونيل لورنس قد جعل تدمير القطارات رياضة وطنية في الجزيرة العربية.

وفي إغارة أخرى، بالقرب من درعا، وكانت نقطة التقاء مهمة جداً للسكة الحديد تقع جنوب دمشق، وضع لورنس متفجراته تحت عجلات قطار طويل بشكل خاص ومسلح بشكل كثيف. وصدف أن كان جمال باشا، القائد العام للجيوش التركية، على متن ذلك القطار ومعه حوالي ألف جندي تركي، فقفز جمال باشا من مقصورته وتبعه جميع أركانه، إلى خندق ماء.

كان مع لورنس نحو ستين فارساً، بيد أنهم كانوا جميعاً من أعضاء حراسه الشخصيين ومن المقاتلين المشهورين. وبالرغم من المخاطرة والصعوبة، فقد خاض ذلك الإنجليزي الشاب والمقاتلين العرب معركة عنيفة قتل فيها 125 تركياً وفقد لورنس ثلاثين فارسا من قوته. واحتشد ما تبقى من القوات التركية أخيراً حول قائدهم العام، وانسحب لورنس مع المقاتلين العرب بسرعة.

في كل محطة على طول الخط الحديدي الحجازي كان يوجد هناك جرس أو جرسان حيث يقرعها الموظفون الأتراك كتنبيه للمسافرين عندما يكون القطار جاهزاً للإقلاع. وهي كلها تقريباً الآن تزين منازل أصدقاء لورنس. كما توجد لديهم عشرات أو أكثر من لافتات ولوحات أرقام ومواقع مسافات الطرق والتي كانت تحدد رسمياً المسافات التي تقطعها القطارات على خط السكة الحديد من دمشق إلى المدينة المنورة. وكان لورنس وزملاؤه يجمعون هذه الأشياء لكي يثبتوا انتصارهم. وحينما كنت في الجزيرة العربية، غالباً ما سمعت شبه نكته، وشبه ملاحظة جدية من أن لورنس كان يغير على محطة أو موقع تركي لمجرد إضافة جرس آخر لمجموعته؛ كما أنه لم يكن بالشيء غير الاعتيادي أن يرى لورنس، أو أحد مقاتليه وهو يمشي على رصيف أو جسر السكة الحديد، بين الدوريات، وهو يبحث عن لوحة حديدية عليها إشارة «ألف كيلو جنوب دمشق»، وعندما يجدونها فإنهم كانوا يقطّعونها بتفجيرها بإصبع من الديناميت. وعندما لا يكون منخرطاً في مهمة خاصة ضد الأتراك أو في تعبئة قوات البدو، كان لورنس غالباً ما يقضي وقته في نسف القطارات وتدمير وتخريب السكة الحديد.

لقد أصبح عالم الآثار الشاب ذاك مشهوراً في جميع أنحاء الشرق الأوسط كمفجر ديناميت للجسور والقطارات، ذلك أنه بعد الهزيمة النهائية للجيوش التركية، وعندما وصل الخبر للقاهرة من أن لورنس سيمر قريباً عبر مصر في طريقه إلى باريس، أعلن الجنرال واطسون، القائد العام للقوات البريطانية هناك مازحاً بأنه سيفرز كتيبة خاصة لحراسة جسر قصر النيل، وهو يعتبر كقصر بروكلين بالنسبة لمصر.

فقد أشيع بأن لورنس كان غير قانع بما أنجزه في حملة الجزيرة العربية من حملات زرع الألغام تحت سكة الحديد وهو تسعة وسبعون حملة. لذلك فقد انتشرت قصة على طول سكة الحديد ما بين مصر وفلسطين بأنه يريد أن يجعل الرقم ثمانين، وأن ينسف بالديناميت كحفلة وداعية جسر قصر النيل، الذي يقع تماماً عند بوابة مقر القيادة العسكرية البريطانية.

* * *

12

شاربو حليب الحرب

بينما كان لورنس يتنقل من شيخ قبيلة لشيخ قبيلة آخر ومن شريف إلى شريف، يحثهم بلغة فصيحة وبليغة بلهجاتهم الصحراوية التي كان يتقنها على الانضمام إلى الثورة ضد الترك، كانت أسراب من الطائرات الألمانية تقلع من اسطنبول لتفزع وترهب الجيش العربي بطيرانها الشرير الغريب. إلا أن العرب رفضوا أن يخافوا، وبدلاً من ذلك فقد أصروا على أن يزودهم مصدرهم البريطاني ببعض «الطيور المقاتلة» أيضاً.

ولم يمض وقت طويل على قيام الطائرات الألمانية بغارة بغيضة على العقبة، حتى جاء رسول ملكي يعدو بجمله السباق وحيد السنام إلى خيمة لورنس. ومن دون أن ينتظر حتى تركع راحلته على ركبتيها، نزل من عليها قافزاً وسلم لفافة الرسالة والتي جاء فيها: «أيها الرجل المخلص، إن حكومتك تمتلك طائرات كالجراد. وبنعمة الله أناشدكم أن تطلبوا من ملككم أن يرسل لنا عشرا منها أو أكثر». «التوقيع: حسين»

إن شعب الجزيرة العربية شعب منمق بشكل مفرط وخيالي في التعبير عن نفسه. وهم - أي العرب - يقسمون بروعة الضياء وهدوء الليل، ويحبون التكلم بشكل خيالي، وهم فخورون جداً بلغتهم، ويدعونها «لغة الملائكة» فهم يعتقدون أنها لغة أهل الجنة. وهي واحدة من أصعب اللغات في العالم.

وحسب طريقتنا في التفكير فإن العرب يبدأون من نهاية الجملة ويكتبون بعكس الاتجاه، من اليمين إلى اليسار، بدلاً من اليسار إلى اليمين. وهم لديهم (450) معنى

«للخط» أو «السطر» و(822) معنى لكلمة «جمل» و(1037) معنى لكلمة «سيف». فلغتهم مليئة بالألوان أو متلونة. وهم يدعون المتسول أو المتشرد «ابن الشوارع» ويدعون ابن آوى «بابن عواء». ويسترسل العرب في كتاباتهم بمزاج رائع. وكتب الأمير عبد الله إلى لورنس يقول «إن القتال كان جديراً بالمشاهدة فقد كانت القاطرات المسلحة تفر بمركبات القطار كمثل الأفاعي المضروبة على رؤوسها».

ومثارين بسرب من الطائرات القاذفة والاستطلاعية ذات الطراز القديم التي جلبها لورنس من مصر، فقد أحرز العرب انتصاراً مهماً على الأتراك في الصحراء جنوب البحر الميت تماماً. وبناء على ذلك فقد أرسل قائد الجيش العربي هذه البرقية إلى الملك جورج:

«إلى جلالة ملك انجلترا. إن قواتنا الظافرة قد أسرت فرقة من فرق العدو بالقرب من الطفيلة بعد أن استولت على موقعها- فيصل.»

وكتب شيخ قبيلة عن قتال جرى يقول: «لقد هاجمت قدماً مع أفرادي، شاربي حليب الحرب، وتقدم العدو ليواجهنا، إلا أن الله لم يكن معهم».

مدت الحكومة البريطانية خلال الحرب أسلاك هاتف وتلغراف من جدة على البحر الأحمر إلى قصر الملك في مكة المكرمة. ومدت هذه الخطوط بواسطة فنيين مسلمين من مصر وليس بواسطة مسيحيين. وبالرغم من مقت وازدراء الاختراعات الحديثة، إلا أنه سمح بتركيب هذه الخطوط بسبب الأهمية الملحة وذلك للتمكن من الاتصال مباشرة مع الحلفاء. وبما أن الشريف (الملك) حسين كان مصراً على العيش في مكة المكرمة، فقد كانت خطوط الهاتف والتلغراف ضرورة عسكرية. وكان هناك حوالي عشرين خط تلفون فرعي في نظامه الهاتفي الرسمي.

بعد وقت قصير من الاستيلاء على جدة، فإن كلا من لورنس والكولونيل ويلسون، حاكم بورسودان، والسيد رونالد ستورز، والأمير عبد الله، جعلوا الفرقة الموسيقية التركية التي تم أسرها قبل بضعة أيام تقيم حفلة، وأن تعزف نشيد «ألمانيا فوق الجميع» و «ترنيمة البغض» وغيرها من الأغاني الألمانية. وصدف أن الملك اتصل هاتفياً في منتصف

الحفلة وسمع اللحن الموسيقي، فطلب أن ترسل الفرقة إلى مكة، وجلس لمدة نصف ساعة في قصره وهو يستمع لعزف الفرقة.

ولم يرتد الطيارون البريطانيون الذين قدموا مع طائراتهم إلى الجزيرة العربية الكوفية العربية فحسب، وإنما أيضاً كان عليهم التحليق بطائراتهم على علو كبير لتجنب أن تطلق عليهم النار من قبل البدو، الذين كانت لديهم رغبة لا تقاوم بإطلاق النار على أي شيء يتحرك سريعاً. ففي إحدى المناسبات احضروا عربة مصفحة بالرصاص ومن ثم أرسلوا اعتذاراتهم الوافرة. فقد اعترفوا بأنهم كانوا يعرفون أنها كانت آلة صديقة، إلا أنهم قالوا إنها كانت سريعة جداً وكان لا يمكنهم مقاومة إغراء محاولة إصابتها.

وقد أحضر لورنس وزملاؤه (الإنجليز) أول مركبات سيارة إلى الجزيرة العربية، كما أن الأمير فيصل استخدم مركبة تزن طنا واحدا كسيارة ليموزين ملكية له. وذهبت معه في رحلة من العقبة إلى مراكز وقواعد الخطوط الأمامية الواقعة في منطقة الوهيده في الصحراء، شمال المعقل التركي الحصين في معان الواقع على خط الحديدي الحجازي.

ولقد عسكرنا هناك ليوم واحد على قمة أحد التلال العالية بين خرائب وآثار حصن تركي قديم. وقد أقام الأمير فيصل ظهر ذلك اليوم وليمة غداء على شرفنا. وجلسنا حول صناديق فارغة بدلاً من الجلوس القرفصاء على الأرض كعادة العرب، وجهزت لنا مائدة خاصة بنا. وكان يوجد أيضا كل من الجنرال نوري (السعيد) باشا، مولود بيك، وعودة أبو تايه الكبير. وقبل أن يقدم الغداء قدمت لنا أكواب الشاي المحلى. ومن ثم أحضر الغداء ووضع في منتصف المائدة، وكان عبارة عن وعاء كبير من الأرز وعليه قطع كبيرة من لحم الضأن والماعز، وإلى جانبه طبق من الأرز مخلوط بقطع صغيرة من اللحم. وفاصولياء مع الصلصة، وعدس وبازيلاء، ورمان، وتمر وتين مجفف، ونوع من الحلوى مصنوعة من السمسم والسكر. وبالنسبة للحلوى فقد كانت هناك صفيحة من أجاص أو كمثرى كاليفورنيا، أرسلت من مصر كهدية للأمير.

ويبدو أن عودة أبو تايه لم ير مثل هذا الأجاص الشهي في حياته، فلم يقاوم إغراء أن يتذوق واحدة منه ومن ثم نفذ صبره ولم ينتظر حتى انتهاء الغداء. ولم يعبأ بالطعام الذي

أمامه، وضرب بالرسميات في عرض الحائط، وهجم على الأجاص والتهمه كله قبل أن يتمكن أي واحد منا من أخذ أي واحدة منه. وفي نهاية الغداء قدمت لنا أكواب من القهوة المطعمة بحب الهال في أكواب صغيرة، كما مرر علينا إبريق من الماء لكي نغسل أيدينا ونزيل ما تبقى من أثر الطعام على لحالنا. ومن ثم أحضر خدم الأمير الأحباش السجائر، ووقفنا نشاهد بمناظيرنا الميدانية سير المعركة التي تبعد عنا بضعة أميال والتي كانت تجري على أرض منخفضة حول معان.

وقبل وبعد الغداء كان عشرات من العرب يتوافدون على خيمة الأمير فيصل ليقبلوا يده. إلا أنه لم يسمح لهم أبداً أن يلامسوها بشفاههم، وإنما كان يسحب يده قبل أن يتمكنوا من تقبيلها، ليظهر لهم كم كان متواضعا.

إن كلا من الأمير فيصل ولورنس كانا يدينان بالكثير في زعامتهما السلطوية لإدراكهما واعترافهما بالاستقلالية التقليدية للقبائل. فهؤلاء الذين كانوا يجولون في الصحراء العربية الممتدة والمترامية الأطراف ويقومون بالغزوات والحروب الصغيرة الخاصة، لم يكن من السهل ضبتهم أو تطويعهم وتجنيدهم بشكل إلزامي، لذلك فقد كان على فيصل ولورنس أن يعالجا ذلك الأمر بحكمة وسياسة تجعل تلك القبائل تشعر بمدى أهميتها الذاتية والشخصية.

* * *

13

عودة أبو تايه روبن هود البدوي

«بمباركة الله، أنا، عودة أبو تايه، أنذركم بأن تخرجوا من الجزيرة العربية قبل نهاية رمضان. فنحن العرب نريد هذه البلاد لأنفسنا. وما لم يتحقق ذلك، فبشرف النبي، سأعلنكم محرمين عليها وخارجين عن القانون، ودماؤكم محللة».

كان هذا الإعلان الرسمي والشخصي للحرب الذي أصدره عودة أبو تايه، زعيم قبيلة الحويطات، والبطل الشعبي الأكبر لتاريخ الجزيرة العربية الحديث، وأعظم رجل مقاتل أخرجته الجزيرة العربية في أربعة أجيال أو عقود. كان هذا الإعلان موجها لسلطان تركيا، ولجمال باشا، حاكم سوريا التركي، وحاكم فلسطين والجزيرة العربية التركيين، ولمتصرف الكرك التركي، الذي كان حاكماً لمنطقة مهمة تقع على حافة الصحراء بالقرب من الحافة الجنوبية للبحر الميت حيث كان يعيش عودة أبو تايه.

كانت الثورة العربية معنية مباشرة بروبين هود البدو (عودة أبو تايه) لأنها أمدته بشكل كبير بمبرر مثالي لإعلان الحرب ضد الحكومة التركية.

عندما سمع عودة أبو تايه بأن الشريف حسين قد بدأ ثورة ضد الأتراك، قفز هو وأتباعه الجسورون من الحويطات، واندفعوا عبر رمال الصحراء إلى مقر قيادة الأمير فيصل وأقسموا على القرآن بأنهم سيعتبرون أعداء الشريف أعداءهم. ومن ثم جلسوا جميعهم ليشهدوا وليمة على شرف هذه المناسبة. وفجأة تفوه عودة المسن بقسم إسلامي

فعال وذكّر نفسه وأصدقاءه بأنه كان لديه طقم من أسنان اصطناعية تركي. ولعن طبيب الأسنان التركي الذي صنعه. واندفع خارجاً من الخيمة وقام بتكسيره وسحقه على صخرة. وبقي عودة أبو تايه لمدة شهرين وهو يعاني ولا يمكنه تناول شيء من الطعام سوى الحليب والأرز المسلوق. وعندما قدم لورنس من مصر، انزعج جداً لمنظر فم عودة، فأرسل إلى طبيب أسنان بريطاني موجود في القاهرة لعمل طقم أسنان خاص لحليفه.

وأثبت أبو تايه ولاءه وصداقته المطلقة للشريف حسين وللحلفاء في الثورة العربية، إضافة إلى أنه قدم خبرته الغنية والنادرة في حرب الصحراء. وباستثناء لورنس، فقد كان من أعظم المغيرين في الجزيرة العربية الحديثة، وخلال السبع عشرة سنة الأخيرة فقد قتل خمسة وسبعين رجلاً في قتال يدوي؛ جميعهم من العرب، لأنه لم يكن يضع في حسابه الأتراك بعد. ولا أظن أن ذلك كان مبالغا فيه، لأنه قد جرح اثنتين وعشرين مرة، وفي المعارك التي خاضها فإن جميع رجال قبيلته جرحوا ومعظم أقاربه قتلوا.

ويده اليمنى متصلبة ومعوقة بحيث أنه لا يمكن له أن يحك ظهره بها. وفي إحدى السنوات، عندما كان عودة أبو تايه يقود حملة ضد ابن سعود، حاكم وسط الجزيرة العربية، جاء أفراد دروز من جبل حوران (جبل العرب) الذي يقع إلى الجنوب من دمشق، وسلبوا كافة جماله، وتحمل عودة الخسارة بشكل هادئ وبطريقة فلسفية، بيد أن سوء حظه أوصل الخبر إلى مسامع صديقه نوري الشعلان، أمير الجوف وحاكم شمال وسط الجزيرة العربية، ووفقاً لواحد من القوانين غير المدونة أو المكتوبة للصحراء، فقد أرسل نوري الشعلان إلى عودة على الفور نصف ما يملك من الجمال.

يفتخر عودة المسن بنفسه بكونه جوهر وخلاصة التقاليد العربية. وقد نقلته مائة غارة ناجحة من مضاربه بالقرب من البحر الميت إلى جميع أجزاء ومناطق العالم العربي. وكان يوزع غنائمه بكرم مذهل، ويتكلم بصوت عالٍ، ويتحدث طويلاً وبشكل غزير بصوت يشبه جبلا جارفا.

ومع أن عودة قد غنم غنائم كثيرة بل وأكثر من أي زعيم قبيلة آخر جرّاء إغارته، إلا أنه كان فقيراً نسبياً، نتيجة لكرمه المفرط. وفوائد مائة إغارة ناجحة وفرت سعادة

ومتعة لأصدقائه فحسب. ومن البقايا الباقية لثروته العابرة وعاء نحاسي ضخم يمكن أن يتحلق حوله خمسة وعشرون رجلاً ليتناولوا وجبتهم. ويكون كرمه أحياناً غير ملائم تماماً باستثناء ضيوف يكونون في آخر مراحل الجوع.

في أحد الأيام، وعندما كان يساعدني في كومة من الأرز ولحم الضأن من على صينية نحاسية لأتمكن من تناول الطعام، كنت أبحث معه موضوع الجمال، وذكرت له الحقيقة من أنه ليس عندنا في بلادنا جمال أبداً باستثناء ما يوجد منها في حدائق الحيوانات فلم يستطع أن يفهم ذلك وأصر على أن يهديني عشرين من جماله العربية وحيدة السنام لآخذها معي إلى أمريكا للبدء بتربية الجمال. وتطلب هذا الأمر كل ما لدى لورنس من فصاحة وبلاغة لإقناعه أنه من المستحيل بالنسبة لي أن أقبل هديته الفخمة بسبب صعوبة نقل جماله تلك لتقطع نصف العالم.

في شهر أيار 1918، أرسل الأتراك عددا كبيرا من الجمال من سوريا. ووضعوها في زريبة مؤقتة في محطة سكة حديد معان. فسمع عودة بهذا، فاندفع بجرأة على رأس اثني عشر فارساً من قبيلته إلى معان. وكان هناك آلاف من الجنود الأتراك يحيطون بالمنطقة، ولكن قبل أن يدركوا ماذا يجري تمكن عودة من الإحاطة بخمسة وعشرين جملاً ودفعهم خارجاً لمسافة خمسة وعشرين ميلاً خلال ساعة من العدو المتواصل. كان مليئاً بمثل هذه المزحات المغامراتية ويستعيد تذكر مغامراته فيما بعد باستمتاع كبير.

إحدى مفاجآته المذهلة كانت عندما أعاق وأخر صديقه وأميره الحميم فيصل، فقد كان الأمير فيصل في طريقه عبر الصحراء ليقوم بإحدى حملاته العسكرية وكان معه أربعة آلاف جنيه ذهبي. ولسوء الحظ كان طريقه يمر من خلال منطقة عودة، وعرف الأخير بطريقة ما بخصوص الثروة الذهبية. لذلك فقد أصر بأن يبقى فيصل وحاشيته كضيوف عنده إلى أن أخذ ثلاثة آلاف من أصل أربعة آلاف من الجنيهات الذهبية الإنجليزية. وطبعاً، فإن عودة لم يستعمل القوة، وإنما لمح فحسب بأن له حصة في هذا الذهب.

كان عودة أبو تايه كريما وشهما، ورجلا صحراويا نقيا. كان طويل القامة، مستقيماً وقوياً، ومع أنه كان في الستين من عمره، إلا أنه كان نشيطاً وقوياً كالأسد. وكان وجهه

المنهك والمجعد كوجه بدوي صافٍ. وكانت جبهته عريضة ومنخفضة، وأنفه رفيعا ومعقوفا، وعيناه البنيتان الضاربتان إلى الخضرة مائلتين للخارج، ولحيته سوداء، وشاربه يتخلله الشيب. واسم «عودة» يعني «أبو الطيران» مما يذكر باليوم الذي قام فيه بأول رحلة على طائرة. إذ بدلاً من أن يظهر أي خوف أو خشية فقد حث الطيار، الكابتن فورنيس وليامز، على أن يطير ويحلق به إلى أعلى فأعلى.

كان هذا البطل الكبير عنيداً كما كان حاد الطبع. ويتلقى النصيحة والنقد أو الإساءة، بابتسامة متواصلة كما لو أنها مشرقة، بيد أنه لا توجد قوة على الأرض تجعله يغير رأيه أو يذعن لأمر أو يتبع نهجاً أو أسلوباً ما لا يقره أو يوافق عليه. وكان متواضعاً، وبسيطاً كطفل، وشريفاً صادقاً، طيب القلب وعاطفيا، ومحبوبا بشدة حتى من قبل أولئك الذين كان يحاول أن يجعلهم أصدقاء له. وكانت هوايته اختراع أو اختلاق الروايات والحكايات المثيرة حول نفسه وربطها بحكايات وقصص خيالية مرعبة إلا أنها مضحكة بطريقة ما، وتتعلق بحياة مضيفية أو ضيوفه. ويشعر بسرور غامر في جعل أصدقائه غير مرتاحين. في إحدى المرات توجه إلى خيمة ابن عمه، محمد، وصاح بأعلى صوته أمام جميع الحاضرين كيف تصرف قريبه بشكل خسيس في «الوجه». وقال كيف اشترى محمد طوقا جميلا لإحدى زوجاته. ولكن، ويا أسفاه، فقد قابل محمد امرأة غريبة، امرأة ذات جمال غريب، في «الوجه»، كان لها جمال آسر كضوء النجمة، ومستسلماً لجمالها وفتنتها، فقد أهداها القلادة. لقد كان العقد رائعا ومرصعا باللآلئ والأحجار النفيسة التي تتلألأ كالنجوم، بألوان زرقاء كالبحار، وحمراء كغروب الشمس. كان عودة يتكلم ببلاغة وفصاحة تامتين وهو يصف مفاتن وجمال تلك المرأة. وفي الجانب الآخر من الحي كانت نساء محمد تستمع لهذه الرواية ولما قام به سيدها الغادر. ومع أن تلك الرواية كانت مفبركة بشكل عابث، إلا أنها أحدثت اضطرابا كبيرا في أسرة محمد وأصبحت حياته لا تطاق لعدة أسابيع.

كان بيت عودة مبنيا من الطين ويقع على بعد ثمانين ميلاً شرق العقبة. وخلال مرافقته للورنس في الثورة العربية، فقد تعرف على تفاصيل مثيرة ومدهشة للحياة في

أوروبا. كانت عيناه تتلألآن عندما تذكر الفنادق والكازينوهات وعلب الليل والقصور، وكان يثور فجأة ليعلن تصميمه على هجر خيمته ليسكن في منزل رائع كالذي يصفه لورنس في لندن.

كانت المشكلة الأولى التي واجهته هي مسألة الشغل أو العمل. وقد حلت هذه المسألة بالإغارة على حامية تركية وأسر خمسين رجلاً جعلهم يحفرون الآبار. وبعد أن أنهوا ذلك العمل، وعدهم بأن يطلق سراحهم إذا ما بنوا له قصراً جميلاً. فبنوا له قصراً من أربعين غرفة وأربعة بروج، ولكن بسبب ندرة الأخشاب في الصحراء فلم يستطع أحد أن يخمن كيف يمكن أن يسقف مثل هذا البناء الضخم. وكان عودة حازماً كمثل فخ فولاذي، وعلى الفور وضع خطة، واستدعى مقاتليه الذين اندفعوا جميعاً نحو سكة حديد الحج وتغلبوا على الدوريات التركية المارة، واقتلعوا ثلاثين عامود تلغراف شكلت سقف قصره الصحراوي.

وحتى قصره المؤلف من أربعين غرفة لم يكن كبيراً جداً بالنسبة لعودة، الذي لم يكن معتدلاً أو عادياً في رغبته بالنساء. ولقد كان معروفا في جميع أنحاء الجزيرة العربية بولعه الشديد بتعدد الزوجات. فكل رجل مسلم يسمح له بأربع زوجات في وقت واحد، إذا ما استطاع أن يعدل بينهن. أما عودة أبو تايه الكبير فقد تزوج ثمانية وعشرين مرة، وكان يطمح لأن يزيد ذلك العدد إلى الخمسين قبل أن يموت. ولكن بالرغم من زيجاته المتعددة فإنه لم يكن لديه سوى ابن واحد على قيد الحياة. فجميع أبنائه الآخرين قتلوا إما في الإغارات أو العداوات. وكان ابنه الصغير محمد أبو تايه في الحادية عشرة عندما رأيته، إلا انه كان صغير الحجم جداً بحيث أن والده كان يمكنه أن يمسك به من مؤخرة عنقه ويرمي به على سرج جمله بيد واحدة. وعندما كانت القافلة تسير في الليل، كان والده يخشى من أن ينام ابنه محمد ويسقط من على سرج الجمل، لذلك فغالباً ما كان يمسك به ويضعه في أحد جيوب سرجه، حيث يمكن للصبي أن يقضي ليلته. وقد حارب هذا الصغير إلى جانب والده والكولونيل لورنس طوال الثورة العربية.

إن حماس عودة أبو تايه في عداوته للأتراك بلغ حداً بحيث احتوى كل الكره والبغض الذي كان يكنه لأعدائه الشخصيين، وهذا الحماس هو الذي جذب العديد من

القبائل للانضمام لصفوف الثورة العربية والقتال مع لورنس. ولقد لاحظ لورنس أن عودة كان يشبه القيصر إلى حد ما في قدرته لأن يبقي حوله منطقة حرة من الأصدقاء المخلصين، وحول ذلك حلقة كبيرة من الأعداء. حتى أن نوري الشعلان الشهير، وغيره من زعماء القبائل الأقوياء كانوا ودودين مع عودة أبو تايه، حيث كانوا يخشون عداوته.

كانت قبائل الحويطات رسمياً تحت سيطرة ابن رشيد وقبيلته، حيث كانوا يسيطرون على الصحراء العربية الشمالية. وأصبحت فيما بعد تحت قيادة ابن جازي، ثم انقسمت القبيلة إلى قسمين متضاربين أو متعارضين. وكان فرع أو فخذ أبو تايه هو نتيجة العمل المشترك لعودة، الرجل المقاتل، ومحمد الدحلان، المفكر. وأساء ابن جازي معاملة ضيف عودة الشراري، فحنق واغتاظ الزعيم المضياف والمفتخر. ولذلك استمر القتال بينهما لمدة خمس عشرة سنة تبعه عداء مستمر، حيث قتل عناد ابن عودة الأكبر ومفخرته القلبية. وكان هذا العداء بين فرعي أو قسمي الحويطات واحداً من الصعوبات الأكبر للأمير فيصل في عملياته حول العقبة ومعان. ودفع ذلك حامد العرار، زعيم قبيلة ابن جازي آنذاك، إلى جانب الأتراك، بينما ذهب زحيمان أبو تايه إلى الوجه للانضمام إلى الأمير فيصل ولورنس. وعقد عودة اتفاق سلام مع أعدائه بناء على طلب فيصل، وكان ذلك أصعب شيء فعله عودة في حياته. فموت ابنه عناد قد قتل آماله وطموحاته بالنسبة لقبيلة أبو تايه وجعل حياته تبدو إخفاقاً مريراً. بيد أن الأمير فيصل أعن بأن أتباعه لم يعد بينهم عداءات وثارات وليس هنالك أعداء عرب سوى أولئك المرتبطين بقبيلة ابن رشيد في شمال الجزيرة العربية، الذين واصلوا حرباً دائمة ومريرة مع كافة قبائل الصحراء الأخرى. وبنجاح الأمير فيصل في دفن العداءات القديمة التي لا تحصى أصبحت منطقة الحجاز حبلى بالوعود. ففي أفكار وعقول جميع العرب أصبح الشريف الآن يقف فوق القبائل والرجال، والغارات والحزازات القبلية. ويمارس الشريف الآن مهمة السلطة المستقلة وصانع السلام بين القبائل.

* * *

14
فرسان الخيم السوداء

بعد عودة، يأتي محمد الدحيلان في زعامة قبيلة أبو تايه، وهو أطول من ابن عمه وضخم الجثة، مربع الرأس، وهو رجل مفكر في الأربعين من العمر ذو مزاج كئيب وقلب طيب مختبئ فيه بعناية. ويتصرف كرئيس تشريفات لعودة أبو تايه، وكان الساعد الأيمن لعودة، وغالباً ما كان يظهر على أنه الناطق باسمه. وكان محمد الدحيلان جشعاً، وأغنى من عودة، وأعمق تفكيراً وأكثر حساباً منه. وقد منحه الله البلاغة والفصاحة العربية؛ ويخاطبه أبناء قبيلته «بأبي الفصاحة». وكان أبو تايه يعتمد عليه دوماً في مجلس القبيلة حيث يمكنه أن يقنع ويحث مقابليه على قبول وجهات نظره. ويمكنه أن يستخدم سيفه بنشاط تماماً. وهو أيضاً من «شاربي حليب الحرب»، ويأتي في المرتبة الثانية من حيث الشجاعة والبسالة بعد عودة القوي.

وزعل ابن مطلق كان ابن أخت عودة، في الخامسة والعشرين من العمر، شديد التأنق إلى حد ما، بأسنان ناصعة، وشارب مصفف بعناية، ولحية مرتبة ومزينة. وكان جشعاً أيضاً وحاد الذكاء، ولكن ليس بفكر وذكاء محمد الدحيلان. وقد دربه عودة لعدة سنوات كرئيس كشافة واستطلاع للقبيلة، لذلك فقد كان جريئاً جداً وقائداً مقبولاً في الغزو.

لم يكن نوري الشعلان، أمير الجوف، بمثل تلك الشخصية الرائعة التي كانت لصديقه وقريبه عودة أبو تايه، إلا أنه كان حاكماً لقبيلة روالى عنزه، وهي قبيلة كانت تضم

مائتي ألف مقاتل قوي، وتعد أكبر قبيلة منفردة في الصحراء وتحتل تقريباً كافة الأراضي الواقعة ما بين دمشق وبغداد، وكان نوري واحداً من أعظم الرجال في الصحراء العربية. وكانت صداقته للشريف حسين عاملا حيويا في الاستيلاء على درعا ودمشق، وربما كانت هذه الصداقة تمثل أهمية خاصة للأمير فيصل آنذاك وفيما بعد، عندما أصبح فيصل ملكاً على العراق، لأنه - أي نوري الشعلان - لم يبع نفسه للفرنسيين في سورية عام 1919، بعد انتهاء الحرب.

ولم يدع لورنس نوري الشعلان يوقف الحرب على الأتراك حتى آخر دقيقة، لأن ولاء نوري كان يعني إطعام الكثير جداً من الأفواه. وكان نوري الشعلان عدواً لدوداً لابن رشيد، الذي كان يتعاون مع الأتراك، إلا أنه منذ اندلاع الحرب العظمى فقد حصته من الجزيرة العربية لصالح السلطان سعود، سلطان نجد.

في إحدى المرات، احتاج نوري الشعلان إلى صانع سيوف وخناجر. فألقى القبض على ابن الباني من حائل، وكان صانع سيوف ابن رشيد، وكان أمهر رجل في حرفته في الجزيرة العربية، ووضعه في السجن مع حداده الخاص، ابن زريح. وأعطاهما أدوات حدادة وأبلغهما بأنهما سيبقيان في السجن إلى أن يتمكنا من صنع سيوف وخناجر لا يمكن أن تتميز أو تختلف عن تلك التي لابن الباني. فعملا بكد وتعب، وكانا يعملان حتى ساعة متأخرة من الليل أمام النار، وأخيراً وبعد عدة أسابيع، أنتج ابن زريح خنجراً رائعاً له حد يمكن أن يقطع الريح تقريباً. وارتاح نوري لذلك، فأطلق سراح سجينيه، وأعاد ابن الباني إلى منطقته محملاً بالهدايا الثمينة.

كان نوري الشعلان رجلاً كبيراً في السبعين من العمر عندما قامت الثورة العربية. كان طموحاً دائماً، ومصمماً على أن يكون قائداً. فقبل ثلاثين عاماً مضت قتل شقيقيه الاثنين ونصب نفسه زعيماً للقبيلة. وكان يحكم أبناء قبيلته بيد من حديد، لذلك فقد كانوا البدو الوحيدين الذين يطيعون الأوامر، فإذا ما خانوه يقطع رؤوسهم. وعلى الرغم من قسوته إلا أن أتباعه جميعهم كانوا معجبين وفخورين به. وكان معظم شيوخ العرب مجرد ثرثارين، إلا أن نوري كان يظل صامتاً في الاجتماع القبلي ويسوي كل شيء ببضع كلمات

بقرار أخير. وحتى انتهاء الحرب، فقد كان يفضل حياة الخيام على تلك التي في جميع القصور من بغداد إلى البوسفور، وكان يعيش في خيمة ضخمة مصنوعة من شعر الماعز الأسود في الصحراء، حيث تنحر الخراف كل بضع دقائق لسيل لا ينتهي من الضيوف. وكان يمتلك أفضل أرض مزروعة بالقمح في سورية وأفضل الجمال والجياد. كان غنياً جداً بحيث لا يعرف كيف يحصي ثروته.

كان ابن جيعان، شيخ قبيلة بني عطية، التي كانت تعيش جنوب معان، قد أضاف أربعة آلاف مقاتل إلى قوات الملك حسين (الشريف حسين سابقاً). كان يعمل كثيراً وكان شجاعاً كالأسد. وقد ساعد لورنس في تفجير ونسف القطارات بالقرب من معان، وكان يتواجد حيثما توجد هناك محطات قطارات يمكن أن يتم الاستيلاء عليها أو في أية أنشطة وأعمال صغيرة ذات طبيعة خطرة بشكل خاص. خلال عمليات الاستطلاع التي كانت تجرى حول معان، كان هناك ضابطان للورنس يحاولان اكتشاف الطريق الرومانية القديمة في الصحراء. وكان مطلق متشوقاً دائماً للمغامرة، فذهب معهما. وفي عمق رمال الصحراء كانت سيارتهما الفورد تنطلق بسرعة جنونية من اليسار إلى اليمين، ومن ثم في نقطة ما انحرفت بشكل حاد بحيث قذف منها مطلق وسقط على رأسه. فقفز الضابطان خارجين من المركبة وأسرعا لرفعه عن الأرض والاعتذار له، ظانين أنه سيكون غاضباً جداً. بيد أن الشيخ الكبير نفض الرمال عنه وقال بحزن: «أرجو ألا تؤاخذاني، فأنا لم أتعلم ركوب واحدة من هذه الأشياء». فقد كان يعتبر ركوب السيارة فنا كان عليه أن يتقنه كمثل ركوب الجمل تماماً.

لم تكن عشيرة الحارث على علاقات طيبة مع الشريف حسين قبل اندلاع الحرب، غير أن شيخهم، علي بن حسين، وكان شاباً في التاسعة عشرة من عمره، كان مسؤولاً على تحويل كافة عشيرته تقريباً في حوران إلى صفوف الثورة العربية. وكان شابا متهوراً جداً، وفظاً جداً، والأكثر مرحاً في الجيش العربي، وكان أسرع عداء في الصحراء، فقد كان يمكنه أن يقفز على ظهر الجمل وهو حافي القدمين بيد واحدة بينما كان يحمل بندقيته باليد الأخرى. وعندما كان يذهب إلى معركة ما كان يأخذ معه جميع ثيابه ما عدا سراويله

الداخلية. فقد كان يقول إنها أنظف طريقة إذا ما أصيب بجرح. كان لديه روح وحس الدعابة والمزاح، ويطلق النكات حتى لو كان في حضرة الملك. لقد كان واحداً من شريفين في أرض الحجاز لم يكونا يقفان برهبة أمام الملك حسين. وكان الآخر هو الشريف شاكر، ابن عم فيصل، وأغنى رجل في الحجاز. وكان الشريف الكبير الوحيد الذي كان يضفر بشعره، ليظهر احترامه للمثل البدوي القديم الذي يقول: «إن الرأس الذي يكون أكثر شهرة هو علامة لعقل سخي». وكان بيته في مكة، إلا أنه كان يقضي معظم وقته على سرج الجمل مع رجال القبائل البدو.

كانت هذه بضعة أمور عن الزعماء القياديين في بعض حماستهم للقومية العربية التي كانت متوهجة، وآخرين كانوا متملقين بإعجابهم بخيلائهم وغرورهم، وجميعهم متوهجين بسحر الحرب على مستوى عالٍ - وهي اللعبة التي عرفوها وخبروها ولعبوها منذ طفولتهم. وعندما كانوا يقسمون بالولاء والإخلاص كانوا صادقين في ذلك كالفولاذ ومن دون ولائهم وبسالتهم الشجاعة وحبهم الملحمي للمغامرات الدموية فقد كان من الممكن أن تكون الثورة العربية عبارة عن حلم على ورق مفبركة من قبل عالم آثار شاب غير عملي.

وفي تعامله مع عودة وغيره من شيوخ القبائل العرب فقد وجد لورنس أن شعورهم وإحساسهم الغني بالفكاهة والمرح هو مصدر قوة مهم. فإن تجعل العربي يضحك فإن ذلك يعني أنه يمكنك أن تحثه وتقنعه بأن يفعل معظم الأشياء. فاللغة العربية لغة مهيبة، مليئة بالرسميات والفخامة، وقد اكتشف عالم الآثار الشاب، الذي كانت لديه معرفة غير عادية باللهجات المختلفة المحكية في الجزيرة العربية، بأن الترجمة المباشرة للإنجليزية العامة المحكية إلى العربية يمكن أن يبهّرها بالظرف وخفة الدم ويسعد سامعيه. وكان السلاح الآخر المفيد بشكل كبير في موارد لورنس الفكرية هو القدرة على السيطرة على ما هو غير متوقع مع بعض الارتجال الملهم. وبمرور الوقت فقد مر ثانية بوضع يائس لم تكن هنالك طريقة واضحة للفرار منه. فخلال بضع ثوان كان المنبه العقلي عنده يعمل بشكل مثير وواضح بل حتى بأسلوب رائع مشرق للتعامل مع الأمور

الطارئة، وإحدى مغامراته العديدة في الصحراء السورية خير مثال على مثل ذلك. فقد كان في بلدة الأزرق، يعيش بين الكثبان المتنقلة والرمال إلى الجنوب الشرقي من دمشق، عندما جاء رسول يحمل أخباراً من أن بعض جواسيس الأتراك كانوا ضمن قافلة تجار سوريين كانت في طريقها إلى قاعدة تموين الجيش العربي في العقبة، على بعد 300 ميل إلى الجنوب. وقرر لورنس على الفور أنه لكي يقتلع أسنان الجواسيس فيجب عليه الوصول إلى العقبة إما بمرافقة القافلة أو بعد وصولها بوقت قصير. وقد كانت الرحلة من الأزرق إلى العقبة تستغرق اثني عشر يوماً على ظهر الجمل، وكانت القافلة السورية قد بدأت مسيرها منذ تسعة أيام.

وكان لورنس يدرك أن أتباعه لا يمكنهم تحمل العدْو كما هو، يتبعه بالترحال، لذلك فقد أخذ معه رجلاً واحداً فقط من أصل حوراني كان مشهوراً في صحراء شمال الجزيرة العربية بتحمله. وأسرع الاثنان عبر المرتفعات الواقعة ما بين الأزرق ومنطقة البير، وعلى بعد ثمانين ميلاً جنوب المعسكر الذي انطلقا منه، ظهر فجأة رجال عرب على حافة تل رملي وأسرعوا بجمالهم إلى المنحدر ليقطعوا الطريق على الغريبين. وعندما اقتربوا صاحوا بلورنس ورفيقه لكي ينزلا من على دابتيهما، وفي نفس الوقت أعلنوا عن أنفسهم بأنهم أصدقاء كونهم أفراد من قبيلة حويطات الجازي. وعندما أصبحوا على بعد ثلاثين ياردة نزلوا هم أنفسهم من على دوابهم بطريقة يمكن أن تشجع لورنس ورفيقه بأن يفعلا نفس الشيء. بيد أن لورنس تحقق من أنهم كانوا من عرب بني صخر، الذين كانوا حلفاء للأتراك آنذاك وعلى خصامات دموية مع معظم القبائل البدوية. فقد تناهى إلى إسماعهم بأن هناك كميات من الذهب تروح وتجيء عبر طريق القوافل فجاؤوا للحصول على الغنائم. كان هذا القطاع هو الطريق التجاري الوحيد إبان الحرب ما بين سوريا والجزيرة العربية وكان تجار سورية يسافرون عبره في رحلات تستغرق عدة أشهر إلى العقبة لشراء قطن مانشستر. وكان لورنس يستغل القطن في كل مرة كمساعدة للدعاية وكوسائل للحصول على الكثير من الذهب ما أمكن من سوريا وتركيا على حد سواء. فقد كانت الإمبراطورية العثمانية بحاجة ماسة للقطن، ولهذا السبب فقد سمحت السلطات العسكرية التركية للتجار بأن يروحوا ويجيئوا عبر الخطوط العسكرية. وعندما كانوا

يصلون العقبة، كان لورنس والزعماء العرب يقومون بتلقينهم المبادئ القومية العربية. وبنفس الوقت كانوا يجمعون منهم المعلومات القيمة فيما يتعلق بالأوضاع في تركيا. كما كان التجار أيضاً مفيدين في تهريب المناظير الألمانية إلى العقبة والتي كان يحتاجها لتجهيز القوات في الصحراء.

في غضون ذلك، وقف رجال بني صخر المترجلين على الرمال وأصابعهم على زناد بنادقهم تحسباً، بينما كانوا لا يزالون يصدرون تحياتهم الودية. وفجأة ابتسم لورنس ابتسامة عريضة وبشكل لطيف جداً بحيث أصبحوا مربكين. وقال لقائدهم: «تعال إلى جانبي أريد أن أهمس لك بشيء ما». ومن ثم انحنى للأسفل من على سرج جمله وسأله «هل تعرف ما هو اسمك؟» فنظر الرجل صامتاً ومندهشاً، فاستطرد لورنس يقول: «أعتقد بأنه ينبغي أن يكون قواد». وقد كانت هذه أكبر شتيمة لاذعة يمكن أن توجه لبدوي. كان الرجل مشدوهاً وعصبياً. فهو لم يستطع أن يفهم كيف يمكن لمسافر عادي أن يتجرأ على قول مثل هذا الشيء له في صحراء مفتوحة خاصة وأن لديه رجالاً وسلاحاً كافيين. وقبل أن يعود الرجل إلى وعيه، أشار إليه لورنس بسرور «السلام عليكم»، وأشار لرفيقه للحوراني بهدوء أن يتبعه، واستدار ليدب على رمال الصحراء. وظل رجال بني صخر منذهلين إلى أن أصبح الاثنان على بعد مائة ياردة. وعندئذ عادوا إلى وعيهم وبدأوا بإطلاق النار؛ بيد أن لورنس ورفيقه أسرعا إلى أقرب مرتفع وفرا. فالرصاص بالمناسبة، ليس له سوى تأثير بسيط على جمل يسير بسرعة عشرين ميلاً في الساعة.

لقد قتل لورنس ورفيقه الحوراني جمليهما تقريباً خلال تلك الرحلة. فقد سارا بمعدل اثنين وعشرين ساعة في اليوم. فمن الفجر وحتى غروب الشمس كانا يعدوان بدابتيهما فوق الرمال الحارقة، ويقفان فقط للحظة راحة من أجل دابتيهما. وعندما وصلا إلى منطقة عودة أبو تايه، إلى شرق الحافة الجنوبية للبحر الميت، استبدلا دابتيهما بدابتين جديدتين. وقطعا كامل مسافة الثلاثمائة ميل في ثلاثة أيام فقط، وهو رقم قياسي يمكن أن يسجل لعدة سنوات للسرعة التي يمكن أن يعدو بها جمل.

ما كانت هذه المغامرة العجيبة سوى واحدة من مائة مغامرة قام بها لورنس. وقد سمعت بواحدة أخرى تفسر لماذا كان لورنس يحمل دوماً مسدساً من نوع كولت من طراز قديم.

فقبل بضع سنوات، بينما كان يطوف في آسيا الصغرى (تركيا)، بالقرب من ماراش، أصيب لورنس بالحمى، فذهب إلى بيرجيك، وهي القرية الأقرب إليه. وصدف أن قابل رجلا تركمانيا. والتركمان هم قوم شبه بدو من أصل منغولي، ويتميزون بعيونهم الضيقة الغائرة ووجوههم الصفراء كما لو أنها دهنت بالزبدة ومن ثم تركت تحت الشمس. ولم يكن لورنس متأكداً من مكانه، وسأل التركماني أن يدله على الطريق. فأجاب الرجل «يميناً عبر تلك التلال المنخفضة إلى اليسار». وما إن استدار لورنس ليذهب حتى وثب عليه التركماني، وتقاتلا قتالاً عنيفاً على الأرض لبضع دقائق، بيد أن لورنس شعر وكأنه مشى أكثر من ألف ميل، وبمعزل عن الحمى، فقد كان محملاً تقريباً. وسرعان ما وجد نفسه أسفلاً.

وقال: «لقد جلس على معدتي، وسحب مسدسي الكولت، وضغط به على صدغي وضغط على الزناد عدة مرات. إلا أن صمام الأمان كان مرفوعاً. فالرجل التركماني كان بدائياً ولا يعرف سوى القليل جداً عن آلية المسدس. فرمى بالمسدس جانباً بازدراء، وأخذ يضرب برأسي بصخرة حتى لم أعد أقاوم. وبعد أن أخذ كل شيء كان معي، ذهب عني. وذهبت إلى القرية وطلبت من سكانها بأن يساعدوني في تعقب ذلك الوغد. وأمسكنا به واسترجعنا منه جميع الأشياء التي سلبها مني. ومنذ ذلك الحين فقد أصبحت أكن احتراماً عميقاً للمسدس كولت، ولا أسير أبداً بدون أن أحمله.

* * *

15
سيدي الجمل

لم يكن لورنس ليغفل أو يتجاهل أية معرفة يمكن أن تزيد من تأثيره على أبناء الجزيرة العربية، حتى أنه عمل دراسة لتلك الدابة الغامضة، الجمل، لشخصيته ونوعيته، لا يعرفها سوى القليل جداً من العرب، مع أنه يلعب كل هذا الجانب المهم جداً في حياتهم.

لقد كان لورنس الأوروبي الوحيد الذي قابلته وهو يمتلك «غريزة ومقدرة الجمل» وهي خاصية تتضمن معرفة حميمة كاملة بعادات تلك البهيمة ومصادر قوتها وخاصيتها التي لا تحصى ولا تعد. فقد كان عودة أبو تايه، روبن هود البدوي، لديه مثل هذه الغريزة والمقدرة التي تطورت إلى درجة كبيرة وبشكل غير عادي.

لقد وجدت ستة أنواع مختلفة من الجمال في الجزيرة العربية، والتي جاء منها أفضل النسل. والبدو يدعون بلادهم بأم الجمال. والجمال العربية ليس لها سوى سنام واحد؛ وفي الحقيقة، فإن معظم العرب لم يسمعوا بالجمال ذات السنامين، والتي توجد فقط في آسيا الوسطى، إلى شمال غرب بلاد فارس، وبشكل رئيسي في صحراء غوبي.

ويعتبر الجمل ذو السنامين بطيئاً وقليل الاستخدام ما عدا أنه دابة تتحمل الحمولة الثقيلة. والجمل وحيد السنام هو الجمل العربي (درومیداري) وهي كلمة إغريقية شائعة للجمل.

إن الثروة الرئيسية في الجزيرة العربية هي الجمل. فالرجل هناك لا يتكلم عن امتلاكه لعدة شقق أو بيوت أو مطاعم الوجبات السريعة، وإنما ما يمتلك من جمال. فمنذ التاريخ التوراتي نزولاً إلى التاريخ الحديث فإن الحروب قد شنت في الصحراء من أجل امتلاك الجمال. ويمكن أن تغزو قبيلة قبيلة أخرى وتسلب كافة جمالها؛ ومن ثم يمكن أن تمتطي تلك القبيلة جيادها، وتندفع عبر الصحراء، وتسوق جميع جمال قبيلة أخرى. لذلك، ففي غضون اثني عشر شهراً، قد يصبح جمل ما ملكاً مسروقاً لست قبائل مختلفة. ويعتمد وجود الإنسان في الصحراء على الجمل. ولا يستخدمه العرب كدابة تتحمل العبء فحسب؛ وإنما أيضاً يشربون حليب الناقة (أنثى الجمل) ويستخدمون وبره لصنع الثياب، وعندما يصبح كبيراً في السن يذبحونه لاستخدام لحمه في الطعام. وتعتبر شرائح لحم الجمل في الجزيرة مفيدة إلى حد كبير، تماما كما يعتبر الدهن بين سكان الأسكيمو، بل كما يفضل معظمنا شرائح الدجاج المشوي.

والجمل هو الحيوان الوحيد عملياً الذي يمكنه البقاء والعيش على نباتات الصحراء الهزيلة. وأسنانه طويلة جداً بحيث يمكنه أن يمضغ نبات الصبار من دون أن توخز أشواكها شفتيه أو سقف فمه. كما أن الجمال يمكنها أن تظل لفترات طويلة من دون ماء، فهي عندما تشرب فإنها تعب كثيراً من الماء وتخزنه من أجل أوقات العطش. وتستغرق الجمال نصف ساعة لسقايتها، وكل جمل يمكنه أن يخزن في معدته عشرين جالوناً من الماء. ويبدو الأمر مثيراً وغريباً جداً عندما يعاني المرء من العطش في الصحراء بينما يسمع جمله في نفس الوقت يجتر احتياطي الماء من داخل جسمه. وعندما يصبح الأمر كذلك فإن العرب يقتلون جملهم ويشربون الماء المخزن في معدته. ويكون الماء داخل معدته مخضر اللون وله طعم أو مذاق الاخضرار، بيد أن الإنسان في مثل هذه الحالة لا يمكنه أن يكون شديد الحساسية جداً حتى لا يهلك من العطش.

وفي وصف الجمل، فإن شيئاً من عدة أشياء يمكن أن يؤخذ بالاعتبار وهو طول بطن الجمل، والطريقة التي يرفع بها قدمه، وطريقة حمله لرأسه، وعمق أو طول رقبته، وطول قدميه الأماميتين، وطول كتفيه الأمامي والخلفي وشكل محيط سنامه، وقدمه

الطويلة جداً ، ومحيط خصره الصغير. ويجب أن يكون الجمل متوسط السمنة فلا يكون سميناً جداً أو نحيفاً جداً. والسنام، الذي يجب أن يكون قاسياً، ذو عضلات خالية من الدهن، يكون ذا أهمية عالية. ويبدو أن الجمل يعيش فعلا على سنامه، وإذا ما عمل وأجهد كثيرا فإن سنامه يختفي تدريجياً. وإذا لم يكن له سنام، أو له سنام منخفض أو نحيل، فإنه يكون قليل القيمة ويمكن أن ينهار في وقت قصير. ويحسب عمر الجمل بواسطة أسنانه، كما هو الحال بالنسبة للفرس. وغالباً ما يعيش الجمل نحو خمسة وعشرين عاماً، ويكون في أوج قوته بين أربع إلى أربع عشرة سنة. ويمكن للجمال العربية أن تعدو وتخب على أرض جيدة لأكثر من واحد وعشرين ميلاً، وتخب وتعدو لأكثر من ثمانية وعشرين ميلاً في الساعة، وأن تعدو لأكثر من اثنين وثلاثين بأقدامها التي تبدو كمثل مكابس ضخمة.

ومع ذلك، فليوم كامل من السفر والمسير، فإن العدو المرغوب به يكون عدوا وئيدا أو بطيئا لسبعة أميال في الساعة. والسرعة العادية لرحلة طويلة تستغرق عدة أيام عبر الصحراء تكون فيها سرعة الجمل حوالي أربعة أميال ونصف الميل في الساعة، وإذا ما كانت الرحلة أكثر من مئات الأميال فمن المستحسن دوماً أن يبقى الجمل ماشياً. لذلك فقد كان ما فعله لورنس من العدو بجمله ثلاثمائة ميل في ثلاثة أيام عملا بطوليا، بل لقد اعتبر هذا من قبل جماعته على أنه معجزة تقريباً. والجمل الجيد لا يصدر أي صوت مطلقاً عندما يسير؛ وهي سمة تساعد البدو أثناء إغاراتهم وغزواتهم الليلية، كما أنها تساعد التجار الصحراويين أو الذين يعبرون الصحراء والذين يخشون الاعتداء عليهم. ويعلّم العربي دابته بأن لا تئن أو تصدر صوتاً، ويمكن لقافلة كاملة أن تمر على بعد عشرين ياردة من خيمة ما من دون أن تسمع من قبل ساكنيها.

كان شتاء عام 1917 - 1918 شديداً على الجمال، فقوات لورنس كانت في الطفيلة في شهر كانون الثاني، وكانت تتمركز على جبل يبلغ ارتفاعه خمسة آلاف قدم. وتساقطت الثلوج وتراكمت بكثافة وصلت إلى أربعة أقدام، مما جعل المرور مستحيلاً بالنسبة للجمال ما لم ينزل عنها راكبوها ويفتحوا أو يشقوا طريقاً لها بين الثلوج بأيديهم. لذلك فقد هلك الكثير، سواء من الجمال أو الرجال، جرّاء البرد القارص.

وأرسل لورنس طلباً إلى مقر القيادة (البريطانية) في القاهرة، من أجل إرسال ملابس ثقيلة وأبواط وأحذية لرجاله. وبدلاً من أن يتسلم طلباته، استلم برقية تخبره بأن الجزيرة العربية تعتبر «منطقة استوائية».

في صباح أحد الأيام صحى فوج من القوات العربية وهم على سفح تلة ليجدوا بأن الثلوج طمرت جمالهم الجاثمة على السفح. فأزالوا الثلوج عنها بمغارف حديدية كانت تستخدم لتحميص البن، إلا أن جميعها كانت قد نفقت. وكان على لورنس ورجاله أن يمشوا حفاة الأقدام عبر الثلوج لعدة أميال قبل أن يصلوا إلى المعسكر الحربي. وفي وقت آخر سار أربعة وثلاثون رجلاً من العقبة إلى الطفيلة على الجمال، إلا أن رجلاً واحداً نجح في الوصول إلى هناك حياً.

لقد كان لدى الجيش العربي وفرة من الجمال في ذلك الوقت. والفضل يعود في ذلك جزئياً إلى الشريف زيد. فقبل بضعة أشهر أرسل الأتراك قافلة كبيرة من المؤن من حائل باتجاه المدينة المنورة، وكانت حائل عاصمة ابن رشيد الواقعة في وسط الجزيرة العربية. ففاجأ الشريف زيد ورجاله القافلة في «حنيكة»، وقتلوا ثلاثين تركياً، وأسروا أكثر من مائتين وخمسين رجلاً كما استولوا على ثلاثة آلاف جمل وألفي شاة، وأربعة مدافع جبلية وعدة آلاف من البنادق.

ومع أن الجمل والناقة تعتبر دابة معقدة وتتطلب مهارة في التعامل معها، إلا أنه وفقاً للكولونيل لورنس فإنها تذعن وتستسلم بشكل رائع. ولم يكن لدينا نظام معين للتموين؛ فكل رجل كان ذي اكتفاء ذاتي ويكد على سرجه من قاعدته البحرية حيث يبدأ الغزو منها ليحمل معه مؤنة ستة أسابيع. وكانت حصة أو مؤنة الستة أسابيع تتكون من نصف كيس طحين، و «وزنة» (45 ليبرة) بالنسبة للرجل الواحد. أما بعض الرجال المرفهين فقد كانوا يحملون معهم بعض الأرز للتنوع أيضاً. وكان كل رجل يخبز لنفسه، ويصنع لنفسه أرغفة من الخبز غير المخمر ويحمرها على رماد النار. وكنا نحمل معنا غالوناً من ماء الشرب لكل واحد منا، حيث أن الجمال والنياق لم تكن بحاجة لشرب الماء إلا مرة كل ثلاثة أيام، لذلك فلم تكن هناك منفعة من أن نكون أغنى من مطايانا. وكان

بعضنا لا يشرب أبداً بين كل بئر وبئر، إلا أولئك الرجال الذين لا يقوون على العطش؛ فمعظمنا كان يشرب كثيراً أو مقداراً وفيراً من الماء عند كل بئر، ويأخذ شربة ماء عندما يكون الجو جافا. وخلال حر الصيف كانت الجمال العربية تسير بشكل مريح مسافة حوالي 250 ميلاً ما بين شربة ماء وأخرى؛ وكان هذا يمثل ثلاثة أيام وليالٍ من المسير الشاق.

ولم تكن المنطقة أو البلاد جافة جداً كما هو متصور، إلا أن الآبار كانت نادرة أو شحيحة ولا يتم الوصول إليها إلا بعد قطع مسافة أكثر من مائة ميل. وكان مسير اليوم السهل لا يقل عن خمسين ميلاً؛ أما المسير الطارئ فقد يتم خلاله قطع أكثر من 110 أميال في اليوم الواحد.

لقد منحتنا مؤونة الطعام لمدة ستة أشهر مدى ألف ميل خارج منطقتنا، وإن غالونا من الماء كان أكثر مما نحتاجه، حتى في مثل تلك البلاد الواسعة. وكان ممكننا المسير مسافة 1500 ميل خلال شهر من دون التزود بالمؤن، ولم يكن هناك خوف من الجوع أبداً، لأن كلا منا كان يسير وخلفه مائتي ليبرة من اللحم، وعندما كان ينقصنا الطعام نتوقف ونأكل أضعف جمالنا. فالجمال الواهنة تكوّن طعاماً فقيراً لنا، إلا أنها أرخص في ذبحها من الجمال السمينة، وكان علينا أن نتذكر دائما أن حياتنا تعتمد على عدد الجمال الجيدة التي في حوزتنا. وكانت الجمال تعيش على جز الأعشاب والنباتات ونحن نسير (فنحن لم نكن نقدم لها الحبوب والعلف) وبعد ستة أسابيع من المسير على الطرق فإنها تضعف وتصبح نحيلة ويكون علينا أن نرسلها إلى مرعى لبضعة أشهر من أجل الراحة، بينما نطلب من قبيلة أخرى استبدالها، أو نجد جمالاً جديدة للركوب والامتطاء.

تقول الأساطير بأن الجواد نشأ في الجزيرة العربية، وأن معظم الجياد الأكثر جمالاً وتناسقاً وجدت هناك، ومع ذلك فهي لا تمتلك قوة تحمل أكبر من قوة تحمل الجمل؛ ولا هي بأسرع منه أو أكثر رشاقة.

فالعرب مغرمون وفخورون جداً بجيادهم. فهي في الحقيقة تعتبر حيوانات أليفة، إلا أنها على أية حال غير معتادة لتشغل نفس الخيمة أو الخيام كأسيادها. وتعود أصول

بعضها إلى القرن الخامس، ونادراً ما تباع الفرس أو المهرة المسجلة، مع أن الفحول من الجياد تباع أحياناً أو تعطى إلى شخصيات أجنبية متميزة. ومن المعروف بأن الأنثى سواء كانت فرساً أو ناقة تكون لديها قوة أكبر على التحمل. ويزيت العرب حوافر جيادهم ليحفظوهم من الانزلاق على الرمال الحارة، ويطعمونها لحم الماعز لمنحها قوة مستمرة. ونادراً ما يقدمون لها كل ما ترغب فيه من ماء للشرب. وحتى إذا ما كانت مهوراً فإنهم يقترون عليها الماء بشكل مستمر بحيث يمكن أن تصبح متعودات على العطش والمعاناة ما أمكن عند اجتياز الأجزاء أو المناطق الجافة من الصحراء العربية. فالعديد من مصادر أو آبار المياه في الصحراء غالباً ما تكون على مسافة خمسة أيام من المسير. فالفرس، بطبيعة الحال، لا يمكنه تحمل مثل هذه المدة الطويلة من دون ماء؛ أما الجمل والناقة فيمكنها ذلك، ولذلك فإن الجواد العربي ينبغي أن يسير ويسافر جنباً إلى جنب مع الناقة وأن يشرب حليب الناقة، وبتلك الطريقة يستطيع أن يتحمل المسافة ما بين مصدر ماء وآخر.

إن ما تقدم ما هو إلا جزء بسيط عن الفرس والمعرفة المكتسبة عن الجمل والناقة المألوفة لدى خبير بدوي بهذا الشأن. وقد اعترف لي لورنس، بعد سنوات طويلة من الخبرة والتجربة في صحارى الجزيرة العربية وسورية، بأنه لم يكن باستطاعته أن يكوّن رأياً متكاملا عن جمله بشكل صحيح.

* * *

16

عبد الله وآثار الجدري . . وقصة كل من فراج وداود

كان عبد الله صغير الحجم الذي يحمل آثار الجدري على وجهه، بدوياً يقود الحرس الشخصي للورنس، ومع أن مظهره كان نحيلاً جداً، إلا أنه كان واحداً من أجرأ الرجال والفرسان من أبناء إسماعيل الذي امتطى جملاً. وكان بإمكانه مصارعة عشرة رجال لوحده. وإضافة لجسارته، فقد كان عبد الله مساعداً ذا قيمة للورنس، لأنه كان يعرف كيف يتعامل مع العنيدين الصعبين من حراسه الشخصيين. كان لورنس يعد رجاله بإعطائهم جوائز شخصية، وذهب، وجواهر وملابس جميلة، إذا ما نجحوا في مهامهم. أما عبد الله فقد كان يعدهم بعقاب قاسٍ إذا ما فشلوا في تلك المهام، وكان يؤكد لهم دائما أنه سينفذ تهديده بشدة وبنفس مستوى اللطف الذي كان لورنس يعاملهم به. وبالنسبة لعبد الله نفسه، فإنه غالبا ما كان يزهو ويفخر بأنه قد خدم مع أمراء الصحراء كافة وسجن من قبل كل واحد منهم.

كان الحرس الشخصي للشريف الإنجليزي (لورنس) يتألف من ثمانين رجلاً اختيروا بعناية، وكانوا من نخبة فرسان الصحراء. وجميعهم كانوا من المقاتلين المشهورين الذين كانوا قادرين على التحمل ويمكنهم امتطاء المطايا والمسير ليوم كامل وليلة كاملة، إذا ما دعت الضرورة. وكانوا جاهزين دوماً للإغارة والهجوم على الأتراك في أية لحظة، وجاهزين دائماً لاتباع قائدهم في أية رحلة أو مسير. ولم يكن يتم قبول أي رجل في مجموعة الحرس هذه إذا لم يكن قادرا على القفز على مطيته بيد واحدة بينما يحمل بندقيته

باليد الأخرى. وكان الحارس الشخصي يعتبر انتقاءً استثنائيا غير عادي لشخص متعدد النشاط يمتاز بخفة الدم والمرح وروحه الودية الطليقة.

ولقد تم تخصيص أعضاء هذا الفريق لشريفهم الأنجلو - بدوي؛ وتحسبا لأية احتمالات للتآمر فيما بينهم فإنه لم يكن ليتم اختيار أكثر من اثنين من قبيلة واحدة، وبذلك فإنه يمكن منع أي اتفاق ذي طابع قبلي لأية مجموعة ضد زعيمهم. وكان كل رجل في جيش الحجاز تقريباً يريد أن ينتسب لفريق الحرس الشخصي ذاك، لأن لورنس كان يأخذهم معه في جميع إغاراته وهجوماته، لنسف الجسور، وتدمير القطارات والحملات العسكرية، مما يعني الكثير من الغنائم والعديد من المزايا والمنافع- من هدايا عزيزة على قلب كل بدوي. وأيضاً، كان الراتب الذي يعطى لهم أكبر بكثير مما كان يعطى لأي متطوعين في الجيش العربي. علاوة على ذلك، فقد كانوا يستلمون مصاريف إضافية من أجل شراء الملابس والثياب الفاخرة؛ لأنهم كانوا ينفقون كافة نقودهم على الملابس. وكانوا عندما يتجمعون سوياً يبدون بملابسهم تلك وكأنهم حديقة أزهار شرقية.

وكان حديثهم المألوف بين بعضهم بأنهم يمكنهم أن ينفقوا ذهبهم على الملابس والوقت الجيد واللهو، حيث يمكن أن يأخذهم الله إلى الجنة في أية لحظة. فقد كانت نسبة الإصابات بين مجموعة الكولونيل لورنس هذه أكبر بكثير مما كان بين الجيش النظامي وغير النظامي للأمير فيصل، لأنهم كانوا يرسلون باستمرار وبشكل متواصل عبر الصحراء في مهام خطيرة جداً. وغالباً ما كانوا يرسلون إلى الخطوط التركية ليقوموا بأعمال التجسس، وهي خدمة كانت ملائمة بشكل خاص للحارس الشخصي، حيث أنها كانت تتطلب وجود رجل (يتجسس) على الأقل في كل منطقة تقع بين مكة وحلب. وكان لورنس يهتم دائماً بهذه المهام الخطيرة.

ومرافقة لورنس ومجموعته في حملة أو إغارة كانت تعتبر تجربة مثيرة. أولاً لرؤية لورنس، بوجهه الأنجلوسكوني، وكوفيته الرائعة وأثوابه الجميلة. وإذا ما كانت المجموعة تتحرك بعدو بطيء كالمشي، فقد كان لورنس يقرأ ويبتسم لنفسه للهجاء الرائع في كتاب أرسطو الأصلي. ومن ثم ففي طابور طويل غير نظامي، كان «أبناؤه» البدو

يتبعونه في ثيابهم الملونة كقوس قزح، ويتمايلون مع أنغام مشي جمالهم. وسواء كانوا يمرون فوق رمال شرق العقبة، أو في منطقة جبلية صخرية في سدوم أو مؤاب، فقد كانوا دوماً يغنون وينكتون. وعند نهاية كل موكب للفرسان كان يوجد هناك شاعر محارب.

وكان يمكن لأي واحد منهم أن يبدأ بإلقاء بيت من الشعر، وكل رجل على طول الطابور، كان يأخذ دوره لتكملة أو إتمام كلمات الشاعر بأبيات من نفس الوزن الشعري. وكانت هناك أغان حربية تجعل الجمال تخفض رؤوسها وتعدو بشكل أسرع. وكان الرجال غالباً ما يتحدثون في غراميات بعضهم البعض أو في مدح الأمير فيصل أو اللورد لورنس.

«أتمنى بأنه سيدفع لنا جنيهاً آخراً في الشهر». كانت هذه فكرة أغنية في يوم ما لحارس شخصي، وانتشرت بينهم بلغة عربية. وفي وقت آخر، كان هنالك مديح لـ (كوفية) لورنس. والحقيقة، أن الكوفية التي كان يرتديها الشريف لورنس كانت أكثر تألقاً وأناقة من أية كوفيات أخرى رأوها من قبل. فقد اشتهى «أبناؤه» (حرّاسه) اللعوبون المازحون امتلاكها.

ويختلف وزن وإيقاع الموسيقى العربية عن موسيقانا، فالأذن الغربية فهي غير معتادة على سماع أصوات غناء كخليط متنافر من الألحان. ومع ذلك فقد استمتع البدو العرب بالموسيقى الغربية التي كانت تنبعث من الفونغراف الذي جلبه معه لورنس من القاهرة. وقد شجع ذلك رقيبا اسكتلندي في العقبة فأحضر بعض الأدوات الموسيقية ونظم فرقة موسيقية. وقد ساعد العرب على ابتكار نشيد وطني، كما علمهم العزف على بعض الألحان الاسكتلندية، التي اعتدنا سماعها لبعض الوقت، على الرغم من أن كل أداة موسيقية كانت تعزف بشكل نشاز وخارجاً عن اللحن إذ كان كل رجل يختار مفتاحه اللحني الخاص؛ ولكن كلما كان العرب يعزفون نشيدهم الوطني حول معسكرنا كنا نفضل السباحة، ونغادر على الفور إلى جزيرة مهجورة داخل الخليج من أجل الغطس في الأمواج المتكسرة، تحت آثار قلعة صليبية مباشرة، حيث استحم هناك غودفري دي بويلون وفرسانه قبل ألف سنة من وجودنا.

وقد اتخذ شعور الحراس البدو بالدعابة أحياناً شكلاً من النكات العملية. فإذا ما استغرق أحد زملائهم في غفوة على جمله، فقد كان رفقاؤه يلكزون جملة فينطلق بسرعة كبيرة فيصحو الرجل الغافي مذعوراً. وحينما كان «سيدهم» يغادرهم ليذهب في زيارة قصيرة إلى القاهرة، أو يذهب إلى مقر قيادة اللنبي، فقد كان معظم حراسه يسجنون من قبل الأمير فيصل نتيجة لمزاحهم الثقيل المؤذي ولعدم انضباطهم العام. فلا أحد غير لورنس كان يستطيع أن يضبط عفاريته، كما كانوا يطلقون عليهم.

في إحدى المرات، وبعد أن رجع إلى العقبة من مصر، أراد لورنس أن يقوم فوراً بمهمة سرية من دون تأخير. وكالعادة، فقد وجد معظم أفراده في الحجز. وكان من بين المسجونين اثنان من أجرأ الرجال وهما كل من فراج وداود. فأرسل لورنس فوراً إلى الشيخ يوسف، الحاكم المدني للعقبة، وسأله عما حدث. فضحك الشيخ يوسف ولعنهما، ومن ثم ضحك ثانية وقال: «لقد كان عندي ناقة بيضاء جميلة ضلت طريقها وتاهت. وفي صباح اليوم التالي سمعت جلبة ضخمة في الشارع، وعندما خرجت وجدت كل واحد في السوق يضحك بصخب على بهيمة لها أرجل زرقاء ورأس أحمر. وقد تعرفت عليها من دون صعوبة، فقد كانت ناقتي. وكان فراج وداود قد وجداها عند الواجهة المائية وهما يغسلان أيديهما من الحنة الحمراء والصبغة الزرقاء، على الرغم من أنهما أنكرا معرفتهما بها».

كان كل من فراج وداود معروفين جداً بتلازمهما معا، فقد كانت الحياة في الصحراء القاحلة توجب على الرجال إقامة علاقات صداقة وثيقة بينهم. ولم يكن «داود ويوناثان» صديقين حميمين أكثر من داود وفراج، كما كان يقول راوي قصة شرقية، فقد جاء إليهما مدمر المسرات والبهجات ومنادي القبور، فقد مات داود بالحمى في العقبة، في حين أصبح فراج من بعده تعيساً جداً وسرعان ما انتحر فذب بجمله نحو خطوط الأتراك فأردوه قتيلاً. ومن فترة لأخرى كان أعضاء الحرس الشخصي للورنس يرافقونه إلى القاهرة. فكانوا يتميزون بارتدائهم أثواباً مزركشة جداً، ويضعون أحمر الشفاة على شفاههم، يكحلون عيونهم، ويرشون أنفسهم بكثافة بزجاجات العطر. ومن ثم يتباهون ويلوحون بأسلحتهم وهم يجوبون شوارع مدينة القاهرة، ويرمقون النساء المنقبات

بنظرات غرامية، ويشترون الثياب المطرزة الغالية، ويسببون كثيراً من الدهشة والإثارة والمرح والهرج الذي كانوا يمارسونه.

في إحدى المرات، سافر عبد الله، رئيس حرس لورنس، مع قائده إلى مقر قيادة اللنبي في الرملة. وبينما لورنس يتشاور مع القائد العام (اللنبي)، خرج مساعد لورنس (عبد الله) لوحده، ومرت ست ساعات ولم يعد. ومن ثم أبلغ لورنس بواسطة الهاتف بأن مساعد قائد الشرطة العسكرية قد اعتقل العربي الصغير لأنه بدا وكأنه قاتل مأجور كان يحوم هنا وهناك بقصد إطلاق النار على الجنرال اللنبي. وقال عبد الله إن مساعد قائد الشرطة العسكرية قد وضح له من قبل مترجم من أنه كان واحداً من «أبناء» سيدي لورنس، وطالب عبد الله بعد ذلك بأن يقدم له اعتذار رسمي بسبب قيامهم باعتقاله. في غضون ذلك كان قد تناول جميع البرتقال الموجود في مكتب قائد الشرطة العسكرية.

كان العقاب على الأخطاء التي يقترفها أعضاء مجموعة حراس لورنس صعباً. فلقد كان من النادر أن يتم سجن العربي البدوي، كما أنه لم يكن يعبأ بكلمات التأنيب والتوبيخ. وربما كان توبيخ الضمير من عبد الله حلاً أكثر فعالية. وكان الشكل الشائع للعقاب بين البدو هو قذف أو رمي خنجر قصير على رأس الرجل المذنب بحيث يخترق شعره ويسبب له جرحا سطحيا لكنه مؤلم. والبدو الذين كانوا يشعرون بالذنب أحياناً كانوا يجرحون أنفسهم بمثل هذه الطريقة، ومن ثم يطلبون السماح والصفح من الأشخاص الذين أساؤوا إليهم والدم ينزل وينصب على وجوههم.

* * *

17

العين بالعين، والسن بالسن

كان القانون القديم في الجزيرة العربية الذي يعمل به هو العين بالعين، والسن بالسن، والحياة بالحياة، وكان لا يزال صالحاً للعمل به، لكنه كان يثير نزاعات وعداوات معقدة على مر العصور. فنادراً ما كان القاتل يفلت من عقوبة الموت؛ فمن المستحيل بالنسبة له من أن يهرب من ملاحقة أقارب القتيل إذ أنهم سيجدونه عاجلاً أم آجلا. وتكون فرصته الوحيدة في الإفلات هو أن يهجر العيش في الخيمة ويصبح من سكان القرى والمدن؛ حيث أن البدوي يعتبر الناس الذين يعيشون في القرى والمدن أقل منه شأناً إلى حد كبير، لذلك فهو نادراً ما يذهب بنفسه إلى مثل تلك الأماكن التي تعتبر مهينة بالنسبة له.

كان المظهر الفريد للقانون غير المدون للجزيرة العربية هو أنه لأغراض وغايات العقوبة لا يوجد هناك تمييز أو تفريق ما بين القتل العمد أو غير المقصود (غير العمد). فإذا ما قتل بدوي بدوياً آخراً، سواء كان ذلك بالصدفة أو عمداً، فمن المعتاد أو العرف أن يفر ويتوارى عن الأنظار ومن ثم يرسل أسفه وتفسيراته وتوضيحاته لذلك إلى أهل القتيل بواسطة الرسل. وقد تورط حارس شخصي للورنس بمثل هذه المسألة. فخلال إحدى الغارات تسلق رجل عربي من خلال نافذة محطة سكة حديد وحاول فتح الباب من الداخل. في غضون ذلك، كان بعض زملائه يحاولون مهاجمة الباب وفتحه من الخارج. وأطلق واحد منهم النار من بندقيته من خلال الباب وعندما دخلوا وجدوا

الرجل الذي كان في الداخل ممدداً ميتاً. واندفع البدوي الذي أطلق النار فوراً من خلال الجمع وقفز فوق جواده وأسرع هارباً، كما جرت العادة.

وكان عليه أن يدفع الأضرار إذا ما قبل أهل وأقارب الرجل القتيل وذلك بقبول المال كدية لحياة المقتول. ولقد جمع الحراس فيما بينهم مبلغ مائة جنيه إسترليني وأرسلوه إلى أقارب القتيل وكان المفروض أن ينتهي كل شيء، فلقد كانت نسبة الدية لرجل عادي تتراوح ما بين مائة إلى خمسمائة جنيه إسترليني. أما ذلك الرجل زميلهم فقد كان خطه سيئاً نوعاً ما بحيث أن رفقاءه اعتقدوا بأن مبلغ مائة جنيه كان وافراً بالنسبة لأهله. أما الأشراف فقد كانت قيمة دمائهم مرتفعة جداً أكثر من العرب الآخرين. فإذا ما قتل واحد منهم، فعلى القاتل أن يدفع دية لا تقل عن ألف جنيه إسترليني، ما لم يساوم القاتل ويرتب قيمة الدية مع عائلة المغدور أو القتيل قبل الالتزام بصك الدية.

لم يشهد لورنس أية قضية أو حالة خيانة ضده بين القبائل التي أنشأ معها علاقات ودية، وحتى مع القبائل غير الصديقة والتي واجه معها خرقا أو انتهاكا خطير لقوانين الضيافة. وكان يقوم لوحده بجولة عبر الخطوط التركية للتفتيش والتجسس بين معسكرات العدو. وقام بزيارة لشيخ قبيلة بني صخر، التي كانت تتعاون مع الأتراك. وقد خرق الشيخ القانون غير المدون للصحراء وحاول أن يوقع بضيفه. فأرسل رسولا إلى بعض القوات التركية التي كانت تبعد عشرة أميال، في غضون ذلك جرت محاولة لحث لورنس على البقاء في خيمته.

فقد كان قصده ونيته أن يوقع بزائره القيم ويحصل على جائزة مقدارها (50) ألف جنيه إسترليني. بيد أن لورنس شعر بذلك، فغادر مضارب بني صخر بسرعة. ومع أنه كان واحداً من كبار شيوخ القبيلة، إلا أن القبيلة اعتبرت عمله معادياً لتعاون العرب مع لورنس، فوضع له أبناء عشيرته السم في فنجان القهوة لأنه خان وفادة الضيف. فقد شعر أبناء بني صخر بالخزي جرّاء تصرف شيخهم.

كانت عادة وتقاليد أحكام وقواعد الضيافة الصحراوية كمثل الدين تقريباً. فإذا ما كان رجل ما في حي أو مضارب رجل من أبناء القبائل ويكون في ضيافته وأوشك على

قتله، فإن الضحية غالباً ما يمكنه أن ينقذ نفسه بقوله «دخيلك» أو «أنا دخيل عليك»- وهي كلمة تتضمن وتنطوي على «إنني ألتجىء إليك»، أو «إنني في خيمتك وعند موقد قهوتك كضيف عندك». فالحماية بين البدو تعتبر التزاماً مقدساً عندئذ. ومعنى كلمة «دخيلك» السحري تعتبر واحدة من نقاط الاختلاف والفروقات ما بين بدو الصحراء العربية وسكان المدن في سوريا. فالسوري يستخدم هذه الكلمة بمعنى «إذا سمحت» بينما بالنسبة للبدوي تعني خرقا شنيعا لآداب الضيافة والمعاشرة.

من أجل المهمة الضخمة التي أسندها لنفسه، فقد كان على لورنس أن يفوز، ولم يكن على لورنس أن يفوز بالتزام رجال القبائل الرحل فحسب، وإنما أيضاً أن يحصل ثقة أبناء المدن والقرى العربية. وقد حقق ذلك بأخذه بالحسبان الاختلافات والفروقات العديدة ما بين النوعين، وباستخدام أساليب وطرق مختلفة. فالبدوي صافي السلالة والمنشأ، ولغاية اليوم فهو يعيش بنفس الطريقة والأسلوب تقريباً كما كان يعيش النبيان إبراهيم ولوط، الآباء الرحل الأولون. أما رجل المدينة، فإنه يعتبر خليطا من جميع الأعراق والسلالات في الشرق، ويوجد كثير من التنوع أو الفروقات في سلالته العرقية. والبدوي هو رجل رياضي، ويعشق الحرية الشخصية، وشاعر فطري أو طبيعي. أما القروي فهو غالباً ما يكون كسولاً، قذراً، غير موثوق به، ومرتزقاً تماماً. كما توجد هنالك أيضاً اختلافات وفروقات في العادات اليومية للحياة، في شكل التحية والسلام، على سبيل المثال. فإن رجل المدينة أو القروي يظهر احترامه للأشراف والوجهاء بتقبيل أيديهم، بيد أن البدوي يعتبر مثل هذا الفعل غير وقور ودوني، ولا يفعله إلا عندما يرغب بإبداء تبجيل أو توقير لذلك الشخص.

ومع أن لورنس تلقى دعماً كثيراً من رجال المدن العرب، إلا أن البدو كانوا هم الداعمين بشكل رئيس، والذين كانوا تحت قيادة وتوجيه الأمير فيصل ولورنس، هم الذين قاموا بالثورة العربية، منذ بدايتها الصغيرة المحلية وحتى نجاحها الشهير الباهر. وكان شغف البدوي بالإغارة على الأتراك والفوز بالغنيمة شيئا ثمينا وذا قيمة. بيد أن البدوي الحقيقي دائماً ما يسر ويفرح بالغنائم ويمقت مشهد الدماء. ويمكن أن يسرق إلا أنه لا يمكن أن يظلم أو يضطهد غريباً.

وينتمي عربي الصحراء النقي إلى سلالة تعتبر واحدة من أقدم أشكال المدنية. وقد عرف العرب الفلسفة والآداب في حين كان سكان الجزر البريطانية متوحشين وغير متطورين. وكانوا من الشعوب القلة في العالم الذين فشل الرومان في غزوهم أو احتلالهم. وهم يتجولون على وجه الأرض؛ كمخلوقات تعدو فوق جمالها عبر الكثبان الرملية، وتنام تحت نجوم السماء، وتعيش كما عاش أجدادهم عندما كان الجنس البشري يافعاً.

كان كل من الأفراد النظاميين وغير النظاميين في الجيش العربي يتلقون أجوراً تماماً كمثل القوات الحليفة الأخرى في الأجزاء الأخرى من العالم. وكانوا يتلقون أجورهم ورواتبهم على شكل نقود ذهبية، وكانت جميعها تأتي أو تدفع من قبل الحكومة البريطانية. وغالباً ما كان لدى لورنس كيس أو كيسان من الجنيهات الذهبية في خيمته، وكلما أتى شيخ وطلب مالاً، كان لورنس يقول له خذ ما تشاء. وكان يسمح لهم بأن يأخذوا ما يمكنهم أخذه من الكيس في حفنة يد واحدة. ومرة جاء بدوي من الحويطات داكن اللون عملاقا يبلغ طوله ستة أقدام وطلب فنجاناً من القهوة وسيجارة، وعندما جلس ذكّر لورنس بلهجة مضارب أبناء بيوت الشعر السوداء بالمساعدة القيمة التي قدمها للملك حسين (الشريف حسين). فأشار لورنس، بعد أن فهم مقصد الرجل، إلى كيس ذهبه الموجود في ركن الخيمة، وطلب منه أن يأخذ ما يريد لنفسه. فحطم ذلك الشيخ جميع الأرقام القياسية بالتقاطه مائة وثلاثة وأربعين جنيهاً ذهبياً في حفنة واحدة من يده.

كانت القبائل البدوية تستغرب من قلة الضيافة وبخل الناس في المدن. وكانوا يزدرون ويمقتون أهلهم الذين يسكنون المدن لأنانيتهم. فالعرب يفتخرون بأنفسهم بأربعة أشياء: بشعرهم، وبلاغتهم، وفروسيتهم، وضيافتهم. وتوجد بين الأساطير العربية العديد من المناسبات التي تمجد وتحفظ تقليد الضيافة حياً. وهناك أسطورة تتعلق بثلاثة رجال كانوا يتنازعون في المسجد الحرام في الكعبة على من هو الرجل الأكثر كرماً في مكة. وقد كان أحدهم يمجد مناقب عبد الله، ابن أخت جعفر، عم النبي محمد (ﷺ). وآخر كان يمتدح كرم قيس بن سعيد. وآخر كان يرشح عرابا، الشيخ المسن، باعتباره أكثر رجل كرماً. وأخيراً أنهى أحد المتفرجين أو المشاهدين النقاش وجنبهم إراقة الدماء، عندما اقترح بأنه

يجب على كل واحد أن يذهب ويطلب مساعدة من الشخص الذي يمجّده لحريته ومن ثم يعود إلى المسجد الحرام، حيث يتم تقييم الدليل ويعطي أو يصدر الحكم. وتمت الموافقة على ذلك، وذهب الجميع. فذهب صديق عبد الله الذي يمجده، إليه فوجده يمتطي ناقته ليذهب إلى أراض تقع ما بعد الأفق، فبادره بالقول: «آه، يا ابن أخت عم رسول الله وأبو الشهامة، إنني مسافر وأنا بحاجة ماسة». فأعطاه عبد الله ناقته وكل ما عليها. فأخذ الرجل الناقة ووجد عليها أثوابا وملابس من الحرير وخمسة آلاف قطعة ذهبية.

وذهب الرجل الثاني إلى قيس ابن سعيد. فأبلغه خادمه بأن سيده كان نائماً، ورغب بأن يعرف ما هي مهمته وما يريد. فأجاب الرجل بأنه كان يريد طلب المساعدة من قيس. فقال الخادم إنه يفضل أن يعطيه ما يحتاجه على أن يوقظ سيده، فأعطاه كيساً يوجد به عشرة آلاف من القطع الذهبية، وكان ذلك جميع المال الموجود في بيت سيده، ومن ثم أرشده لأن يذهب إلى الخان ويأخذ منه جملاً وعبداً. وعندما صحا قيس، أبلغه خادمه بما حدث. فسر قيس لذلك جداً وأعتق خادمه، وفي نفس الوقت وبخه لعدم إيقاظه وقال له «لو أنك أيقظتني لكان بإمكاني إعطاؤه أكثر من ذلك».

وذهب الرجل الثالث إلى عراب، وقابل ذلك الشيخ المسن خارجاً من بيته في طريقه ليحضر صلاة الظهر في المسجد الحرام. وكان نظره ضعيفاً ويساعده اثنان من عبيده. وعندما عرض الرجل محنته على عراب، ترك العبدين وصفع يديه ببعضهما، وأخذ يندب باسم الله بصوت عالٍ ويندب حظه بأنه ليس لديه مال، إلا أنه قدم للرجل خادميه. ورفض الرجل عرضه، في حين احتج عراب وقال له: «بما أنك لا تقبلهما فيجب عليك أن تصفعهما إذن». قال ذلك، ثم ترك العبدين واتجه نحو جدار الكعبة. وعند عودة المغامرين الثلاثة صدر حكم بالإجماع لصالح عراب على أنه أكثر الثلاثة سخاء. فصاحوا جميعهم بحماسة «جازاه الله خيراً على ما فعله».

قد تكون هذه الأسطورة موجودة في الحقيقة، فقد يرى الإنسان العديد من الأمثلة على مثل هذه الروح من الكرم والحرية، كرم يمكن أن يزيد من إعجاب المرء بأبناء الله هؤلاء. وقد أدرك وعرف لورنس هذا السخاء والكرم على أنه منقبة أساسية عند العرب،

وجعل يدرب نفسه ليتفوق في ذلك وأيضاً في الشجاعة والإقدام والتحمل الجسدي والفطنة والذكاء، الذي أعجبوا به إلى حد كبير. وبعد النجاحات التي تحققت والتي مكنته من الحصول على ثقة حكومته، فقد أحضر قوافل محملة بالهدايا الثمينة والنادرة، مما أذهلهم بإسرافها وتفوقها حتى على الأساطير المتواجدة في الأشعار الكلاسيكية التي تلقى حول مواقد ونيران مضاربهم والتي تمجد كرم الأسلاف القدماء.

كان البدو مغرمين جميعهم بشكل خاص بساعات اليد، والمسدسات، ومناظير الميدان، لذلك فقد اعتاد لورنس أن يأخذ معه جملين أو ثلاثة جمال محملة بمثل هذه الأشياء ليوزعها. كما أنه كان يعطي رجاله من خمسين إلى مائة طلقة رصاص في كل يوم؛ كانوا يطلقونها دائماً في الهواء بصرف النظر فيما إذا كانوا يقاتلون أو لا يقاتلون. ففي معظم الجيوش إذا ما أطلق مقاتل رصاصة واحدة من دون إذن قائده فإنه يقدم إلى محكمة ميدانية أو عسكرية جرّاء ذلك. أما العرب فقد كانوا يطلقون النار على كل طائر يرونه، وفي أحد الأيام، عندما وردت إلينا شائعة في العقبة من أن معان قد سقطت بيد الجيش العربي بقيادة رئيس أركان قوات فيصل الجنرال بيك (نوري السعيد)، فقد أطلقت آلاف الطلقات بشكل عنيف في الهواء. وإذا ما صدف وشاهد بعض البدو، من الذين كانوا يجيئون إلى قواعد التموين والإمداد المتواجدة على طول البحر الأحمر، وشاهدو ضابطاً بريطانياً يتجول ويتمشى وليس معه سوى سوط مطيته أو عصا، فإنهم كانوا يهزون برؤوسهم ويمدون لحاهم ويقولون: «إنه إنكليزي مجنون، إنكليزي مجنون». ولكن إذا ما كان الضابط يتجول ومعه بندقية، ويصوبها إلى كل صخرة أو طائر يراه، فإنهم سيعلقون على ذلك على أنه يماثل العرب، ويقولون: «لقد قلنا بأن هؤلاء الآفات ليسوا كمثل حمير تافهين تماماً. ففي الحقيقة إنهم عقلاء تماماً، ألا تعرفون ذلك».

كان البدو يرفضون تنظيف بنادقهم بزيت الخنزير، لأن الدين الإسلامي يحرم ذلك ويعتبر الخنزير نجساً. لذلك فقد كان لورنس يقوم هو بنفسه بتنظيف جميع البنادق في الجيش العربي، أو أنه يقدم بنادق لا تحتاج إلى تنظيف. وقد حل هذه المشكلة بتجهيزهم ببنادق من النيكل الفولاذ التي استولى عليها اللنبي في جبهة فلسطين، وكانت يمكن لتلك البنادق أن تخدم سنة كاملة من دون أن تنظف.

كانت الحرية في الصحراء ملكاً له منذ آلاف السنين؛ لذلك فمن الطبيعي أن البدوي كان مستقلاً بحكم الطبيعة. و«الضبط الانضباط» هما كلمتان غير معروفتين بالنسبة له. ومن المحتمل أنه كان لا يوجد أحد من رجال لورنس يمكنه أن يسجل درجات عالية في امتحانات رئيسية في ساندهرست أو ويست يونت، إلا أنهم كانوا يعرفون كيف يقاتلون الأتراك وكيف يهزمونهم، وكانوا يعتبرون أنفسهم مساوين لأية رتبة عسكرية ولأي جنرال. لقد كان هؤلاء رجال لورنس الذين كان عليه أن يشكل منهم جيشه منذ البداية، وكانوا مزيجاً من بين القبائل لكنهم كانوا صالحين ليشكلوا جيشاً قادراً على هزيمة قوات عالية التدريب ذات قيادة جيدة. وكانت جميع أنظمة ذلك الجيش ارتجالية وتعمل حسب خطط بدائية. فلم يكن هنالك إدارة للتموين. وعندما كانت القوات البدوية غير النظامية تبدأ بحملة أو مهمة فقد كان كل رجل يحمل معه كيساً صغيراً من الطحين وبعض القهوة. وكل وجبة كانت من نفس النوع. فكان كامل الجيش يعيش ويقاتل على خبز غير مخمر يخبز في الرماد. وكان يمكن للمقاتل أن يأكل رغيفاً أو رغيفين في كل وجبة، بيد أن لورنس غالباً ما كان يحمل في ثنايا سرجه قطعة من الخبز يقضم منها وهو يقود طابوره.

كان البدوي ينظر إلى الطعام المعلب على أنه مادة مشكوك فيها. ففي أحد الأيام، عندما كان الميجور مانيارد يرافقنا في رحلة حول الصحراء شمال شرق العقبة، أعطى كل واحد من الرجال علبة لحمة. فتناولوا اللحمة على مضض وبدا وكأنهم يعتبرونها غير حلال. وقد اكتشفنا حينذاك كم كان العرب يشكون بالأغذية الموجودة في العلب، ولكن من ناحية دينية وليس من ناحية صحية. فمن عادة العرب عندما يذبحون شاة أو أي حيوان حلال آخر أن يقولوا عند نحره بالسكين «بسم الله الرحمن الرحيم». لذلك فعندما كانوا يفتحون المعلبات كانوا يرددون نفس الكلمات، خشية أن يكون معبئها لم يذكر ذلك، أو لم يسم عليها.

وبمعزل عن هذه العادات الرسمية، فإن معظم البدو لم يكونوا متشددين أو متزمتين دينياً على الإطلاق. وكانوا نادراً ما يستحمون، متذرعين بقولهم «ليس لدينا حتى ماء كاف للشرب».

لكن بكل ما كان عليه البدوي وعدم تشدده الديني، فإنه رجل شرف وعهد ورجل مرح ودعابة.

18

« مدينة وردية قديمة كقدم الزمن »

واحد من الفصول الأكثر رومانسية والملونة للحرب في أرض ألف ليلة وليلة كانت تلك المعركة التي جرت في مدينة قديمة مهجورة كانت نائمة لألف سنة خلت، وأفاقت فقط على هدير المدافع الثقيلة والاشتباك بين العرب والأتراك. فهناك تجلت عبقرية لورنس عالم الآثار ولورنس العسكري. من خلال بضعة رحالة من الذين غامروا بالوصول إلى تلك الزاوية الخفية من الصحراء العربية والتي عرفت «بالمدينة الوردية»، والتي حفرت بين جبال إيدوم الساحرة. وتقع عميقاً في برية الصحراء، وهي ليست ببعيدة عن جبل «هور» (نيبو) حيث يعتقد بأن الإسرائيليين القدماء دفنوا هناك نبيهم هارون.

لقد حدثت تلك المعركة في 21 تشرين الأول 1917، بعد وقت قصير من الاستيلاء على العقبة. وقد كانت معركة مهمة من وجهة النظر العسكرية لأنها قررت بالتأكيد مسار وتطور الثورة العربية وامتدادها نحو سوريا، وهي مسألة كانت كبيرة الأهمية.

ولقد قاتل لورنس وقواته البدوية الأتراك على نفس قمم الجبال التي تغلب منها ملك إسرائيل القديم أمازياح على عشرة آلاف من السكان الذين كانوا يسكنون الكهوف أسفلاً. وقد دافع لورنس والقوات العربية عن المدينة ضد الأتراك بنفس الطريقة تقريباً التي دافع فيها الأنباط عن مدينتهم ضد جيوش اسكندر الكبير (المقدوني) قبل ثلاثمئة سنة قبل الميلاد. وقد كمنوا للترك في نفس الممر الضيق مما يعيد للذكرى الغزو الطروادي قبل ألفي عام مضت.

بعد سماع وصف لورنس المتحمس والشجاع للقصور المنحوتة في الصخور الحية، حيث عسكر هناك مع قواته البدوية، التمست من الأمير فيصل إذا ما أمكن السماح لي لأقوم باستطلاع قصير بين جبال إيدوم. ولم يوافق على طلبي فحسب وإنما أيضاً أعطاني واحد من أشرس المقاتلين عنده ليحمينا أنا ومن معي من اللصوص وقطاع الطرق والدوريات المعادية. وانطلقنا من العقبة وقطعنا ثمانية وثلاثين ميلاً عبر وادي اليتم إلى إحدى القواعد المتقدمة للأمير فيصل في القويرة. ووادي اليتم هو عبارة عن ممر ضيق مطوق بالجبال الغرانيتية المثلمة أو المسننة؛ متقاطعة ومتصالبة بعروق حجارة اللافا البركانية السوداء يتراوح عرضها ما بين عشرين إلى اثنين وعشرين قدماً تكونت نتيجة ثوران بركاني منذ قرون مضت. ويؤدي هذا الوادي العجيب إلى سهل طيني يذكرنا بأراضي داكوتا السيئة ونجود (السهول المرتفعة) لبلوخستان الوسطى. ومكثنا هناك في خيمة مهجورة لعدة أيام قبل مواصلة رحلتنا عبر قمم جبال جرداء وامتدادات صحراوية رملية. ومن مرتفع إلى مرتفع وصلنا إلى منطقة شديدة الانحدار، وممر متعرج صخري، حيث كانت جمالنا تزل على ركبتيها من وقت لآخر، حتى وصلنا إلى أعلى النقب، وكانت آثار أقدام الجمال تؤدي إلى مرج عشبي والى ميدان معركة تقع حول آبار «أبي اللسن».

وأرسل الجنرال نوري باشا (السعيد)، أحد قادة جيش فيصل قواته لترحب بنا. ووقفنا هناك لبضعة دقائق لشرب القهوة، وعندما غادرت خيمة الجنرال تناول قطعة سجاد عجمية فاخرة كان يجلس عليها ورمى بها فوق سرج ناقتي مصراً على ذلك، رغم اعتراضاتي المتكررة، ذلك أنه يجب أن آخذها لاستخدامها كوسادة لي. كما أنه أعطاني عصا كانت أهديت له من قبل ملك الحبشة، لكي أوجه بها ناقتي. وبعد بضعة أميال من أبي اللسن قدم رسول من الأمير فيصل إلينا وسلمني رسالة تقديم من الأمير إلى قائده في منطقة بوستا. كان الساعي وغداً داكن اللون، وبدا كمثل الكابتن كيد بعينيه السوداويين اللامعتين وشاربيه المفتولين. وكانت كوفيته الحمراء مطرزة بأزهار صفراء كبيرة، وكانت أثوابه ساطعة بألوان عدة كرداء يوسف. وكان يضع حول حزامه مسدساً وخنجرين. ومما زاد في دهشتي أنه كان يتحدث لهجة نيويورك الإنجليزية. وقد أبلغني بأنه عاش في أمريكا مدة أربعة عشر عاماً كمشغل آلات في مصنع للسجائر، وكان ولد في جبال لبنان، وكان

اسمه حسن خليل، ولكن في نيويورك كان يدعى شارلي كيلي. وعند اندلاع الحرب العظمى كان يعمل بشركة ثوماس كوك وابنه في اسطنبول، ومن ثم جند في الجيش التركي على الفور. وفي معركة غزة الثانية فر من الجيش التركي وانضم للقوات الأسترالية كمترجم. وبعد أن خدم مع الجيش البريطاني في مصر نقل أخيراً إلى جيش الحجاز. وحالما أصبحنا نعرف بعضنا بشكل أفضل، أخبرني شارلي بأنه لم يكن مسلماً إنما هو مسيحي كاثوليكي، إلا أنه توسل إلي بأن لا أكشف سره لأي عضو آخر في القافلة، لأنه كان يخشى من أن يقتل على الفور من قبل بعض الرفاق المسلمين المتشددين، إذا ما اكتشفوا ارتداده الديني.

كان شارلي كيلي يسلينا ونحن نجلس حول موقد المعسكر بحكايات الجاسوسية. وكانت لديه عدة ترجمات عربية لروايات «نيك كارتر» يحتفظ بها في جيوب سرج دابته، وقال بأن المصريين يعتقدون بأن نيك كارتر كان الرئيس الفعلي للمخابرات الأمريكية. ووفقاً لشارلي، فإن روايات «نيك كارتر» كانت الأفضل مبيعاً في مصر، حيث أن أعماله البطولية الجريئة تعتبر كتاريخ حقيقي موثوق به.

وإذا لم يكن الشخص المصري يستطيع القراءة، فإن كان يستأجر قارئا ليمتعه ويسليه بإحدى حكايات البوليسية هذه. وكان هناك عضو آخر في مجموعتنا وهو شخص مصري ذو وجه جامد وكأنه منحوت من حجر. وكنا ندعوه رمسيس لأنه بدا إلى حد كبير كمثل تماثيل الملوك الفراعنة الممتدة على ضفاف النيل. وكان بقية مشهدنا الرائع هو ذلك الحارس الشخصي البدوي للورنس. فجميع هؤلاء يستخدمون الكحل ليضعونه تحت رموشهم ويضعون أحمر الشفاه على شفاههم وخدودهم. ويقال بأن هناك حديثا عن الرسول (ﷺ) في مناسبة ما قال فيه «إن هناك شيئين لا يجب للمؤمن أن يقرضهما هما مكحلته وزوجته.

في كل صباح، كان على شارلي أن يساعد شيس، وهو رجل صغير الحجم، على امتطاء جمله. فمن الناحية العملية، فإن كل جمل كان يسوقه شيس يموت أو ينفق في مسيره قبل نهاية الرحلة. وكان يتميز في الصحراء كمادة خاصة لجلب جميع حشرات الصحراء. ففي عدة صباحات عندما كنا نصحو من فراش نومنا، كنا نجد عقارب وأم

أربعة وأربعين بين أغطية شيس. في صباح أحد الأيام أعطى شيس علبة تحتوي على لحم الخنزير لواحد من حراسنا مع تعليمات بأن يطهوه له لطعام الإفطار ليتناوله وكأنه في منزله.

وما أن فتح الطباخ البدوي علبة اللحمة حتى رماها بفزع، وقال مدهوشاً بأن إحساسه المسلم قد أرشده إلى معرفة رائحة لحم غير نظيف. فمثله مثل جميع المسلمين، فإنهم لا يستعملون لحم الخنزير بأي شكل من الأشكال. فهم يطهون طعامهم بالزبدة أو السمنة المصنوعة من حليب العنز.

ولقد مررنا في طريقنا بجانب قطيع من الخراف البيضاء، كانت جميعها سمينة كالزبدة، وذات صوف كثيف مجعد وقرون لولبية صغيرة.

وجلس الراعي البدوي بقربها على كتلة حجرية من البازلت، وكان يعزف على ربابته أغنية حب عربية. وقد كانت بعض من هذه السهول المرتفعة للحجاز مفروشة بالأعشاب الكافية لرعي الخرفان، كما كانت بعض القبائل المقيمة هناك تربي القطعان من الخراف وبضعة جمال وجياد.

أحد المخططين من بغداد، بعد سماعه بالثورة في الحجاز، كان بعيد النظر تماماً ليدرك بأن الحلفاء كانوا مقيدين ليستفيدوا من هذه المسألة عاجلاً أم آجلاً وأن الجنيهات الذهبية البريطانية ستحل محل القطع الذهبية التركية والتي كانت لوقت طويل العملة المتداولة على طول تخوم الصحراء. لذلك فقد صنع من معدن الرصاص المطلي بالذهب آلافاً من الجنيهات الإنجليزية المزيفة، وسرعان ما بدأت هذه العملات الذهبية المزيفة ترد إلى الحجاز من مصر، ولكن قبل أن يألفها البدو تماماً ويكتشفوا أنها مزيفة وليست حقيقية، فقد جال ذلك الرجل عبر البلاد واشترى جميع ما وجده من الخراف. وبدلاً من أن يدفع السعر العادي وهو جنيه لكل رأس (خاروف)، فقد دفع جنيهين من القطع المزورة. ومن ثم، وقبل أن يصل البدو إلى كل من جده، وينبع، والوجه ليصرفوا وينفقوا ذهبهم (المزيف) في الأسواق، ساق ذلك البغدادي خرفانه شمالاً إلى فلسطين، وباعها هناك بجنيهين لكل رأس للجيش البريطاني. وعندما اكتشفت الخدعة كان قد اختفى.

لا تقاس المسافات في الصحراء العربية بالأميال وإنما بالآبار. ففي الليلة التي تلت حادثة لحم الخنزير المشؤومة، وبعد أن انتهينا تماماً من نصب خيمتنا عند بئر الماء الثالثة، والتي تعرف باسم بوستا، قدم عشرون من الجنود العرب النظاميين وهم يركبون على بغال بيروفية. وكانت البغال تخجل من الجمال، وما أن رأوا قافلتنا حتى فروا بأسرع ما يمكن في جميع الاتجاهات، وبعض البغال طرحت راكبيها أرضاً واختفت بين جبال ايدوم. وجلس هؤلاء الجنود، الذين قدموا من مكة، طيلة الليل وهم يغنون حول موقد خيمنا ويطلقون الرصاص في الظلام. وكانت الخطوط التركية، تبعد عنا بضعة أميال، وكنت مستاء من أن تأتي دورية تركية وتستغل تلك الفوضى وتنهي ذلك التهليل بإبادتنا جميعا. ومع ذلك، فلم يحدث شيء من هذا القبيل، وبعد أن قطعنا ثمانين ميلاً عبر البلاد من دون أي اشتباك مع الأتراك وصلنا إلى قمة نجد عالٍ.

وبدت أمامنا قمم منتشرة من مرتفعات الحجارة الرملية الحمراء والبيضاء. وعلى بعد حوالي عشرين ميلاً إلى الشمال امتد أمامنا وادي البحر الميت، واختفت في سديم أرجواني ورمادي الصحراء العربية الوسطى. وكانت القمم الممتدة أمامنا هي جبال ايدوم المقدسة.

وكانت مشكلتنا هي أن نخترق تلك السلسلة من الحجارة الرملية الضخمة الموجودة أمامنا. ونزلنا من النجد العالي إلى وادٍ عرضه اثنا عشر ميلاً يضيق حتى اثني عشر قدماً، ليصبح ممراً ضيقاً موازيا لحافة الجبل. ومن خلال هذا الممر الضيق، أو الخندق كما يدعى من قبل العرب، زحفت جمالنا وخيولنا مذعورة على الصخور والجلاميد وشقت طريقها من خلال آلاف شجيرات الدفلى، بينما كان العرب يشقون طريقهم ومسدساتهم مصوبة نحو السحالي التي كانت تزحف على الحجارة. وعندما كنا نسير من خلال هذا الشق أو الصدع بين الصخور دهشنا من الجدران الجميلة للصخور التي ترتفع آلاف الأقدام فوقنا، وكانت أحياناً تحجب السماء تقريباً. وكان على كل جانبٍ صخور عالية وشاهقة جروف صخرية وصخور عالية مكدسة.

أخبرنا حسن المورغني، وكان واحداً من البدو الذين معنا، وكان يرتدي معطفا مزركشا بأخضر وزوجاً من بوط فروسي أخذه من ضابط تركي مقتول، بأن ذلك الممر الضيق هو وادي موسى.

وأكد شارلي كيلي (اللنباني) ذلك مع التأكيد بأنه من هنا جلب النبي موسى الماء النازل من بين الصخور. واليوم فإن كل أسرة عربية في هذه المنطقة لديها ابن يدعى موسى. وسال من خلال الممر الضيق جدول أو غدير صغير وخرجت من بين الجلاميد الضخمة من الصخور شجيرات الدفلى وأشجار التين البرية. وفي الأعلى كانت الشمس تدفئ قمم الصخور الرفيعة وتتحول إلى وردية رائعة. وبعد أن شققنا طريقنا من خلال الممر الضيق لأكثر من ساعة، انعطفنا فجأة إلى آخر منعطف ووقفنا حابسي الأنفاس صامتين. فقد كان هناك أمامنا العديد من الأميال الخالية من أية علامة أو إشارة لأي مسكن أو مستوطن حضاري. عميقاً في قلب الصحراء العربية، كانت واحدة من المشاهد المذهلة التي شاهدتها عين إنسان من قبل، فلقد كان ذلك هو المعبد، الذي زين بنقوش دقيقة على صخر وردي فوق جدار صلب وقاسٍ. لقد كان أكثر جمالاً حتى من معبد ثيسيوس في أثينا أو مدرج المنتدى في روما.

فبعد سيرنا وعدونا في الصحراء لنحو مائة ميل توقفنا فجأة لنرى وجهاً لوجه مثل هذا البناء العجيب الذي حبس أنفاسنا. وكانت تلك هي أول إشارة حصلنا عليها، فقد وصلنا أخيراً إلى مدينة البتراء الوردية، تلك المدينة المهجورة والمفقودة في التاريخ لمدة ألف وأربعمائة عام وأعيد اكتشافها فقط خلال القرن الماضي (التاسع عشر) من قبل المكتشف السويسري الشهير بورخادت.

يكمن السحر السري لهذا الهيكل الأول الذي رأيناه في موقعه بشكل جزئي في واحدة من أكثر البوابات غير العادية في العالم. وقد نقشت الأعمدة والقواصر والمثلثات بشكل كثيف، إلا أنه كان من الصعب تمييز العديد من التصاميم التي شوهدت بمرور الوقت أو حطمت من قبل أشخاص. وكانت هناك في جانب واحد صفوف من الكلوات والمشكاة، وآثار واضحة لسلالم استخدمت من قبل النحاتين الذين قاموا بنحتها. واستخدم أولئك الحرفيون أو الفنانون المهرة أدلة مثلمة أو مسننة بحيث كان يمكنهم أن يؤثروا إلى أعلى حد على الطبقة الصخرية الملونة، والتي تبدو وكأنها كسوة كاملة لأوشحة وشرائط وديمومة كمثل الحرير المائي في ضوء شمس الصباح. ومع أن الهيكل حفظ

بشكل عجيب، إلا أنه تبدو عليها آثار الرمال عبر العصور. وقاعة الاجتماعات الموجودة فيه تبدو كربع كامل تقريباً، مساحتها أربعين قدماً في كل اتجاه. وكان أسلوب هندسته المعمارية خليطاً من طراز روماني- إغريقي.

لقد نحت الهيكل في جرف صخري ضخم قبل ألفي سنة مضت، خلال حكم الإمبراطور الروماني هادريان، الذي زار البتراء في عام 131 ميلادية. وقال لي العرب الذين كانوا معي بأنها كانت تدعى الخزنة، بسبب وجود الوعاء أو الجرة الكبيرة التي تعلو وتتوج الصرح، والتي يعتقد البدو بأنها مليئة بالذهب والجواهر النفيسة للملوك الفراعنة. لذلك فقد جرت عدة محاولات لكسر الجرة وأطلقت عليها آلاف الرصاصات لهذا الغرض. كما أن حارسي الشخصي أطلق النار عليها، إلا أنه لحسن الحظ فقد كانت على علو مائة قدم تقريباً. وكان رأي لورنس بأن البناء كان معبداً مسخراً لايزيس، الآلهة المشهورة خلال حكم الإمبراطور هدريان. وقد نقش أحد الرحالة اسمه في أحرف على ارتفاع قدم واحد من أعمدة الهيكل (الخزنة).

تقع مدينة البتراء على سهل واد بيضاوي، طوله ميل ونصف الميل وعرضه نصف ميل. ولا بد أنه قد عاش هناك عدة مئات آلاف من الناس ولم تهدم وتتلاشى سوى الأبنية غير المهمة فيها، حتى أن بعضها لا يزال أنقاضاً لغاية اليوم. والجزء الأعلى من الوادي يحتوي على قلاع وحصون قديمة، وقصور، وقبور، ومتنجعات راحة وتسلية، نحتت جميعها في صخور صلبة. وكان الجزء المنخفض على ما يبدو سيركاً مائياً حيث كان السكان ينخرطون في ألعاب رياضية مائية ومباريات مختلفة. وتعتبر البتراء حفرة ضخمة تكونت على مر العصور. ونزلنا إليها من جبل ارتفاعه تسعة آلاف قدم، حيث كنا نشاهد ونحن فوقه جبال إيدوم وأصبحنا على مرتفع علوه ألف قدم عندما دخلنا المدينة الأثرية.

إن جميع الرحالة الذين زاروا البتراء قد ذهلوا من آثار جروفها الرملية الحجرية. فقد نحتت في الصخر الذي يصدر ألواناً في ساعات معينة في اليوم. ففي الصباح تكون أشعة الشمس كمثل ألوان قوس قزح بسبب توهجات الصخور والحجارة البيضاء، والقرمزية، والصفراء البرتقالية والقرنفلية. وقد لعب الوقت وقوى الطبيعة دوراً سحرياً في إظهار

تلك الآثار بأشكالها ومظاهرها النادرة. وعند الغروب فإنها تتوهج بأشعة غريبة قبل أن تغرق في ظلام دامس من ليل الصحراء. وقد استغربنا طيلة الوقت فيها إذا ما كنا صاحين أو يقظين حقيقة أو فيها إذا لم نكن قد نقلنا إلى أرض العجائب على بساط ريح فارسي سحري ملون.

ونحت الدرج في الصخور، وبعض الدرجات فاقت مساحتها الميل في الطول، وامتدت إلى قمة جميع الجبال المحيطة بالبتراء تقريباً.

وتسلقنا درجاً كبيراً وصل بنا إلى علو ألف قدم فوق المدينة حيث كان هناك معبد أو هيكل يطلق عليه العرب اسم الدير، وهو واجهة رمادية معبرة جداً، يبلغ ارتفاعها مائة وخمسين قدماً، يعلوها وعاء ضخم، ومزينة برؤوس قناديل البحر (أسماك هلامية). ومعظم الدرجات تؤدي إلى جبال ثم إلى مذابح قربانية، حيث اعتاد الناس العبادة في الأماكن العالية قبل آلاف السنين.

ويؤدي الدرج الأكبر إلى جبل التضحية، وهو قمة منعزلة تشرف على الحوض الأسفل. وتوجد على القمة مسلتان أو نصبان عموديان ومذبحان. مذبح كان مخصصا لعمل النيران، والمذبح الآخر للذبائح والقرابين التي كانت تقدم لكل من: «دو شاره» و «اللات» وهما كبيرا الآلهة لسكان البتراء القديمة. وأصر أحد البدو الذي كان يرافقني على أن يخلع ملابسه ويستحم في ماء المطر الذي تجمع في بركة. ولا يحتاج البدوي العادي إلى تشجيع للإقدام على مثل هذا التصرف، لذلك فإننا لم نلمه أو نؤنبه لهذا العمل المدنس.

ويوجد بالقرب من المذابح عمودان كبيران، كل واحد يبلغ ارتفاعه أربعة وعشرين قدما، حيث نحته سكان البتراء القدماء في صخرة صلبة واستخدم في عبادتهم القضيبية، وهي واحدة من أقدم العبادات التي عرفت للإنسان.

وتشرف قمة الجبل على كافة الوديان والجبال المحيطة، وأيضاً على معظم آثار المدينة. فالمشهد كان رائعاً. إنه مشهد يفرح القلب ويقنعه بتلك المشاعر التي أدت بالإنسان من قبل لأن يعبد خالقه. وعلى قمة بالقرب من ذلك المكان كانت توجد بقايا قلعة صليبية. ويبرز إلى أقصى اليسار جبل من صخور اللافا البركانية السوداء. وكانت

أشعة الشمس الصحراوية العربية الحارقة تتلألأ على قمته، ورأينا قبة بيضاء صغيرة، كمثل جماجم مبيضة مررنا بها ونحن نجتاز الصحراء الواقعة ما بين العقبة وجبال إيدوم. كانت هذه القمة هي جبل هور، والقبة جزء من المسجد الذي بني من قبل العرب على قبر «القديس» هارون المبجل لدى الإسرائيليين وشقيق النبي موسى. وقضينا يوما ونحن نتسلقه، وعندما بلغنا قمته وجدنا علما تركيا يرفرف على مقام هارون. وتقربا منهم فإن العرب كانوا يتسلقون جبل هور ومعهم ذبائحهم من الخرفان والشياه ليذبحوها أمام مقام هارون. ومع أنه لم تصل الأخبار خارج العالم في ذلك الوقت، إلا أن خطوط المعارك البعيدة للحرب العظمى وصلت حتى إلى سفوح جبل هور.

كانت جميع أبنية مدينة الأشباح هذه ذات واجهات متقنة، ولكن من داخلها كانت بسيطة وجامدة. ويدهش المرء وتصيبه الرهبة من هيبتها وجمالها. فكم كانت تعني من جمال للعابدين في الأيام التي كانت فيها المدينة تعج بالحياة. ومعظم حجارة المدينة يصبح لونها ورديا عندما تسقط أشعة الشمس عليها، وتتموج إلى اللونين الأزرق والسمائي. وكانت الشوارع المهجورة للمدينة غنية بشجيرات الدفلى والغار، حيث يبدو شكلها ومظهرها منسوخاً من الصخور ذاتها. وفي الحقيقة، فإن سكان هذه المدينة الوردية كان لديهم على مدى مئات السنين ملايين لا تحصى من الزهور البرية الجميلة التي ازدهرت وانتعشت بين صدوع وشقوق مئات القصور والمعابد الدارسة، كما أنها نبتت حول الأعمدة نصف المهدومة. وقد عاش رجال البتراء الأشداء ونساؤها الجميلات في تلك المدينة الغامضة والتي لم يعد أي مسافر أو رحالة من تخومها. إنه مشهد في الحقيقة يذهل المرء مع تلاشي مجمل الحياة منها.

ويوجد في قلب المدينة مدرج كبير محاط بالمعابد والقصور من جميع النواحي، يشق قاعدة نفس الجبل المرتفع الكبير الذي يؤدي إلى مكان نحر الذبائح. وصفوف من المقاعد الحجرية تواجه الطرق الجبلية للمعابد. ويبلغ قطر المسرح مائة وعشرين قدماً، كما ويعتبر المسرح رمزاً للحياة والمرح لهذه المدينة المهجورة الغامضة. وكان ضحك وابتهاج آلاف الأشخاص يعلو ويدوي من هنا وعبر هذا التجويف القابر للآمال والطموحات القديمة.

وهنا كان قبل آلاف السنين الفنانون المشهورون لذلك العصر البائد يؤدون أعمالهم وينالون الاستحسان والتصفيق من آلاف معجبيهم. فأين هم الآن؟

كل أولئك الناس المبتهجون والمرحون الذين كانوا يحتلون هذه الصفوف من المقاعد الحجرية في أيام الاحتفالات ويشاهدون الألعاب ذهبوا، أما الآن فالسحالي تزحف على المقاعد الحجرية الملونة بشكل متقن ورائع في هذه الليلة، ولا يسمع سوى عواء ابن آوى في المسرح لعصور طويلة. ولا يعرف الأدوميون (الأنباط القدماء) ولا يتصورون أن هناك شعباً يسمى الأمريكيين جاؤوا من قارة مجهولة يوماً ما ليتجولوا بين آثار وخراب مدينتهم الصخرية.

احتل الأنباط ايدوم، وهم قبيلة عربية قديمة، وأنشأوا في عام (100) قبل الميلاد مملكة قوية، امتدت شمالاً إلى دمشق، وغرباً إلى غزة في فلسطين، وبعيداً إلى وسط الجزيرة العربية. وقد أبلغني لورنس بأن الأنباط كانوا قراصنة كبارا أبحروا إلى سواحل إفريقيا وشنوا غارات مدمرة على السودان. ووصلوا إلى مرحلة عالية من الحضارة، وأنشأوا صناعات زجاجية جيلة، وصنعوا الملابس، وصنعوا الآنية الفخارية. وغالباً ما كانوا يزورون روما والقسطنطينية. وقد استخدم الملك سليمان وملكة سبأ الأنباط، الذين نافسوا حتى التدمريين في تنظيم القوافل التجارية الغنية، وجعلوا من البتراء مركزهم التجاري الرئيسي في الصحراء العربية. وزار القائد المقدوني انتيغونس (أكبر قواد الإسكندر) البتراء في عام 301 قبل الميلاد ووجد هناك كميات كبيرة من البخور والصمغ والفضة. كان الإغريق، بعد أن عرفوا هذه المدينة الحصينة والمنيعة في جبالها، هم أول من سموها بتراء، التي تعني الصخرة. ويعتقد بأن الإسكندر الكبير احتل آنذاك جميع بلدان العالم المعروفة ويبكي لأنه لم يعد يوجد بلدان لتحتل. إلا أن هذا الاعتقاد خاطئ. فهنا تكمن هذه المدينة التي فشل الإسكندر الكبير في احتلالها. ويخبرنا ديودروس المؤرخ اليوناني سيكولوس بأن الإسكندر اعتبر البتراء ذات أهمية كبيرة بحيث أرسل قائده ديمتريوس على رأس جيش لاحتلالها. وحاول ديمتريوس شق طريقه من نفس الممر الضيق الذي دخلنا منه. بيد أن السكان أغلقوا على أنفسهم في جبلهم المنيع ونجحوا في

تحدي كل من الحصار والاعتداء. ومع أن المدينة رفضت الزائر الذي جاء يحمل سيفاً، إلا أنها رحبت بالذي جاء وبيده غصن زيتون.

وكونها كانت عاصمة للأنباط، فقد وصلت إلى ذروتها في القرن الثاني قبل الميلاد. وقد أطلق الجغرافيون الإغريق على أرض إيدوم في تلك الأيام اسم «بتراء العربية».

إن وجود الرموز والهندسة المعمارية المصرية في البتراء تؤكد أنها لا بد أن تكون قد بنيت من قبل جيل أو سلالة كانت على اتصال مع ثقافة وحضارة الشعوب التي نحتت أبي الهول وشيدت الأهرامات. بل إن مجموعة الرموز والتسميات والتقاليد الصحراوية تدعم الاعتقاد بأن البتراء كانت في وقت ما متماثلة مع مصر. ويعتقد البدو بأن هذه الصخور قد نحتت بواسطة الجن، وبأمر من أحد ملوك الفراعنة، وأنهم ليسوا متأكدين فحسب من أن الجرة أو الوعاء الكبير المتواجد في الخزنة يحتوي على ثروة لطغاة الفراعنة القدماء بل إنهم يعتقدون بأنهم قد عاشوا فعلاً في البتراء، ويطلقون على المعبد المتواجد في الوادي اسم قصر فرعون. ولكن لا أحد يعرف متى أو من قبل مَن بنيت البتراء. فالبعض يعتقد بأن بدايتها تعود إلى زمن طويل قبل عصر النبي إبراهيم وأنها كانت مدينة قديمة عندما فر الإسرائيليون القدماء من عبودية المصريين الفراعنة.

وكانت المنطقة المحيطة بالبتراء تعرف باسم وادي سير في عصر النبي إبراهيم، ويقال بأن إيساو، جاء هو وأتباعه إلى هذه البلاد بعد أن فقد حق مولده. ونقرأ في العهد القديم (التوراة) عن البتراء. فهي تدعى سيلا، التي تعني الصخرة بالعبرية. ويعتقد بأنه عندما كان بنو إسرائيل في التيه في البرية جاؤوا إلى البتراء وطلبوا السماح لهم بدخولها والاستراحة فيها، بيد أن شعب البتراء رفض ذلك، وتوقع أنبياء إسرائيل خرابها، واتهمها أحد أنبيائهم بأنها كانت متكبرة ومتغطرسة، قائلاً: «ومع ذلك، ومع ذلك أيها الجبل المتواجد في الأعلى كالنسر، سأنزلك أسفلاً من هناك، بمشيئة الرب». وفي عصر إسياح كانت مدينة مغرورة وشهوانية، حيث توقع لها اليهود الصارمون القدماء الدمار. وفي عهد أريطاس الثالث، لقبت البتراء بصديقة الإغريق، وضربت فيها أول عملة ملوكية، واقتبست البتراء العديد من مظاهر الحضارة اليونانية الإغريقية. وحتى في العصر الذهبي

لروما، عندما جلس القيصر أوغسطوس على العرش، فقد وصلت شهرة هذه المدينة إلى أوروبا. فلقد كانت تعتبر كعبة للسياح من جميع أنحاء العالم، ولا بد أنها كانت تضم عدة مئات آلاف من السكان. وكانت مركزاً للفنون والتعلم حيث انتهل منها كل من فناني ذلك العصر براكتيل وميشيل أنجلو وليوناردو دافنشي. وكانت ضيافتها وكرمها تعتبر أنموذجاً بين القدماء. فقد فتحت أبوابها للمسيحيين الأوائل، حيث سمحت لهم بفتح دور عبادة جنباً إلى جنب مع معابد بعل، وأبولو وأفروديت. وقد كانت البتراء في هذا الجزء من آسيا مثلما كانت عليه روما بالنسبة للرومان وأثينا بالنسبة للإغريق.

وفي عام 105 بعد الميلاد احتل أحد قادة طروادة البتراء وأنشأ فيها مقاطعة رومانية أطلق عليها اسم بتراء العربية، بيد أن المدينة واصلت ازدهارها كمركز تجاري تحت حماية قوية من روما. وكانت البتراء في تلك الأيام تشكل نقطة ارتكاز لطرق القوافل المارة عبر الصحراء العربية، وبلاد الفرس والهند إلى مصر وفلسطين وسوريا. وكانت مكاناً آمناً جداً لخزن وإيداع الثروات، فقد كانت محمية بمناعة الجلاميد الصخرية الضخمة المحيطة بها. ووصفها كل من سترابو وبليني بأنها مدينة عظيمة. ولكن عندما وهنت القوة الرومانية، أصبح الأنباط الذين صبغوا بالرومانية غير قادرين على مقاومة بدو الصحراء الرحل. وحولت القوافل التجارية إلى طرق وقنوات أخرى، وفقدت البتراء أهميتها، ونسيت تماماً.

وفي القرن الثاني عشر الميلادي، أرسل إليها الصليبيون حملة، بقيادة الملك بالدوين الأول، وبنوا فيها عدة قلاع وحصون؛ وقد أخرجوا بعد ذلك بواسطة صلاح الدين الأيوبي.

توجد هناك العديد من الإشارات من أن البتراء كانت تعتبر مدينة مسرة ومحبة للسرور والسعادة. ولا بد أن الطبقات الاجتماعية الأكثر غنى وثروة كانت تعيش في رفاهية لم تكن تعرف في قرون عديدة. فبقاعاتها الاحتفالية، وسيركاتها، وبساتينها الغامضة، وكهنتها وآلهتها الحسية الدينية العديدة، وثروة أزهارها، وشمسها المشرقة المتلألئة، ومناخها المبهج، لا بد وأنها كانت بنفس درجة كل من باريس والريفيرا وآسيا الوسطى (تركيا). فكما تقول الأشعار:

تقع هناك وردة حمراء تنشط تحت الشمس،
مدينة سحرية، تختبئ في الصحراء العربية؛
وبالنسبة لها فلا توجد أسطورة قديمة قد نسجت؛
وكل ما فيها فقد فازت سنوات الصمت.
إلى عمق خزائن الآثار.

قبل أكثر من قرن مضى بقليل، تسلل الرحالة السويسري، جون لويس بوركهاردت، الذي سمع من خلال الإشاعات عن مدينة عظيمة تقع بين الصخور بعيداً عن حافة الصحراء العربية، تسلل عبر الممر الضيق ووجد مرة أخرى هذه المدينة القديمة العجيبة البتراء، التي لم تذكر في أي سجل أدبي منذ عام 536 ميلادية. وبعد قرن أو أكثر من الوقت الذي كتب فيه بوركهاردت عن اكتشافه للمدينة الصخرية في رسالة له من القاهرة، فإن عددا قليلا من الرحالة وعلماء الآثار فقط قد زاروا البتراء.

وربما يكون الخطر والخشية من عنف بدو الصحراء له تأثيره الكبير في عدم تحمس العديد من الرحالة على محاولة زيارتها. فالأسد والسحلية قد حفظا الساحة خالية من الزوار حيث هلل وابتهج جميش وشرب كثيراً إلى أن أحضر لورنس مقاتليه البدو إلى مدينة القبور والقصور الفارغة.

* * *

19

معركة بدوية في مدينة الأشباح

كان الاستيلاء على البتراء ضرورياً للاحتفاظ بالعقبة، التي اعتبرت أهم نقطة إستراتيجية على الساحل الغربي للجزيرة العربية، حيث أبحر من هناك أكبر أسطول قديم للملك سليمان قبل ثلاثة آلاف عام. بيد أن المعركة التي خاضها العرب في البتراء كانت الأولى منذ سبعمائة عام. وكان الصليبيون برماحهم البراقة وأعلامهم المثلثة التي تحمل شعارات نبالة القرون الوسطى وبلبساهم وأسلحتهم الحربية وبارونات القرون الوسطى في أوروبا، كانوا آخر المحاربين الذين مروا من خلال ذلك الممر الضيق. وقد تجول لورنس، عندما كان عالم آثار في لباسه العربي حول هذه البلاد قبيل اندلاع الحرب، وعرف كل قدم في المنطقة من أجف حفرة ماء إلى أكثر عمود مهدم أو مخرب في البتراء. وبعد أن أجبر الأتراك على الاستسلام في العقبة، فقد صمم على الاستيلاء على جميع الطرق المؤدية إلى النجد المرتفع الذي يبدأ في الداخل بمسافة خمسين ميلاً من رأس خليج العقبة ويجتاز الجزيرة العربية إلى الخليج العربي. وفي نفس الوقت فقد أدرك الترك بأنهم يجب أن يعاودوا الاستيلاء على العقبة أو يواسوا أنفسهم بفقدان الجزيرة العربية كلها. لذلك فقد جلبوا عشرة آلاف جندي جديد من سوريا ووضعوهم في مواقع إستراتيجية متفرقة على هذا النجد.

بيد أن لورنس كان متأكداً بأن الترك لن يكونوا قادرين على استعادة العقبة، لأنه ليس هناك سوى طريق واحد بالنسبة لأي جيش لكي يمر من هناك إلى ذلك الميناء البحري القديم نزولاً عن طريق وادي اليتم. وليتأكد من ذلك، فقد سار بجيشه غير

النظامي من خلال نفس الممر الضيق قبل ذلك بضعة أسابيع، إلا أنه أدرك الأتراك نائمين، فتسلل إلى العقبة قبل أن يصحوا ويدركوا الخطر المحدق بهم. فهو لم يكن لديه نية لأن يعطي للأتراك فرصة مماثلة.

ويعتبر وادي اليتم من أكثر الممرات صعوبة في العالم بالنسبة لقوة مسلحة تحاول دخوله، فهو صعب الاجتياز جداً كما هو الحال بالنسبة لممر خيبر الواقع بين الهند وأفغانستان. وهو يتخلل سلسلة جبال بركانية جرداء تدعى بجبال الملك سليمان، وتمتد على طول الساحل الشرقي لخليج العقبة وترتفع إلى علو خمسة آلاف قدم من كل جانب للممر. فإذا ما هوجم جيش غازٍ من أعلى قممه من كل الجوانب، فلن ينجو من الهلاك. لذلك فقد أراد لورنس أن يبيد أية قوة تحاول التقدم إلى العقبة عبر وادي اليتم.

ومن شهر تموز وحتى منتصف شهر أيلول عام 1917، كان الأتراك هادئون. ومن ثم قاموا بعدة عمليات استطلاع حول البتراء في محاولة منهم لخداع العرب ولورنس ليظنوا بأنهم كانوا يريدون مهاجمة البتراء، مع أن هدفهم الحقيقي كان التقدم مباشرة نحو العقبة. وكانت آخر محاولة استطلاع لهم مفجعة، فقد اعترضتهم القوات العربية وأبادت مجموعة من الكشافة الأتراك تقدر بمائة رجل تقع على بعد خمسة عشر ميلاً إلى شمال شرق البتراء حيث تقع هناك قلعة صليبية تطل على الصحراء من على جبل شاهق من الكلس الأبيض، وتعرف بقلعة الشوبك التي بناها الملك بالدوين الأول، ملك القدس (الصليبي)، وبنى حولها جدارا ضخما في أعلى الجبل خلال وجود الصليبيين في المنطقة آنذاك. وتقع كل من القلعة وقرية عربية حديثة ضمن هذا الجدار، والطريق الوحيد الذي يوصل إلى القمة يمر من خلال منعطف شديد الانحدار. وكانت الشوبك لا تزال بيد الأتراك حينذاك، بيد أن جواسيس لورانس جلبوا له أخباراً من أن جميع الحامية التركية هناك كانت من السوريين، فجميعهم كانوا من دماء عربية، ويتعاطفون مع الحركة القومية العربية. لذلك فقد أرسل لورنس مولودا وعشرة من مساعديه إلى الشوبك ليلاً، وتبعه الشريف عبد المعين ومائتان من رجال البدو، فحوّل السوريون جميعاً ولاءهم إلى جانب الثورة العربية. وفي اليوم التالي نزلت القوات السورية والعربية من الجبل الكلسي ودمروا

ثلاثمائة من قضبان السكة الحديد الواصلة من المدينة إلى دمشق، بالقرب من قرية عنيزة. كما أنهم حاولوا الاستيلاء على محطة السكة الحديد الواقعة بالقرب من سفح الجبل، حيث كان هناك سبعمائة حطاب أرمني يعملون في تقطيع الأخشاب. ولكن في هذه المرة فقد أنشأ الترك تحصينات قوية جداً حول محطة السكة الحديد، ذلك، أنه لو استطاع المقاتلون البدو والسوريون الفارون من الجيش التركي الاستيلاء على المواقع الأمامية التركية، فإنهم لن يكونوا قادرين على الاستيلاء على المواقع الرئيسية. إلا أن الترك كانوا مذعورين وفزعين جداً، فأرسلوا الرسل إلى مواقعهم في معان و «أبي اللسن» من أجل إرسال تعزيزات. وبإضعافهم لحاميتهم في «أبي اللسن» فقد وقع الأتراك مباشرة في يد لورنس، إذ أنه سرعان ما وصلت قوات احتياط تركية إلى هناك، فاستدعى لورنس رجاله وأعادهم إلى ألبتراء من موقع السكة الحديد.

بعد فرار كافة أفراد حامية الشوبك والغارة الجريئة التي شنها العرب ولورنس ضد محطة السكة الحديد، قرر جمال باشا، القائد العام للجيوش التركية آنذاك في كل من سورية وفلسطين والجزيرة العربية، رغم اعتراض ونصيحة الفيلد مارشال فون فالكنهاين، القائد العام الألماني حينذاك في الشرق الأدنى، ذلك أنه قبل أن يمكنه التأمل من استعادة كل من القويرة والعقبة فسيكون من الضروري استعادة البتراء أولاً. وحوّل جمال فوج فرسان ضعيف، ولواء مشاة، وعدة بطاريات من مدفعية خفيفة من فلسطين إلى معان عبر خط الحديد الحجازي.

وكان ذلك انقلابا استراتيجيا ذكيا، أولاً، لأنه كان على الألمان والأتراك أن يقلصوا قواتهم بمواجهة اللنبي في الأرض المقدسة (فلسطين والقدس). ثانياً، فقد كانوا يسيرون للوقوع في فخ وضع لهم، لأن اعتقاد لورنس كان أنه إذا ما جرى القتال بوساطة قوات البدو غير النظامية في سفح جبل إيدوم القديم، فإن التحرك والمناورة الأعلى القوات ستمكنهم من هزم أية فرقة عسكرية نظامية ومدربة جيد في العالم في نهاية الأمر.

كان مولود بيك، مساعد لورنس الأول في معركة البتراء، واحداً من أكثر الشخصيات المثيرة للجدل في الثورة العربية، وواحداً من أكثر المشاهد روعة. فقد كان

يتنعل بوطاً من نوع كافير ذا حافة عليا أرجوانية، مثلما كان يفعل جالك القاتل العملاق، وعليهما أيضاً مهمازان يحدثان صوتاً موسيقياً عندما كان يتمشى هنا وهناك، ويحمل سيفاً طويلاً من القرون الوسطى، وله شارب طويل، مفتول كمثل شارب شخصية النذل في مسرحية ميلودرامية. إلا أنه لم يكن هناك ضابط في الجيش العربي أكثر رشاقة وأناقة منه. وكان ابنا لشيخ بدوي ومحظية شركسية، وكان منذ نشأته وطنياً عربياً متحمساً. ودرس بشكل شامل العلوم العسكرية الحديثة لكي يساعد في يوم ما في الإطاحة بالأتراك، حتى أنه ذهب إلى أبعد من ذلك حيث أنه أمضى ثلاث سنوات في الدراسة بكلية الأركان التركية قبل أن يكتشفوا ميوله الثورية ويطردوه.

ثم ذهب إلى الصحراء وأصبح سكرتيراً لابن رشيد، الذي كان واحداً من حكام وسط الجزيرة العربية. وهناك شارك مولود في عشرات الغارات، واكتسب سمعة كمقاتل جريء بحيث أن الأتراك سامحوه وتسامحوا عن ماضيه ودعوه للعودة والانضمام إلى سلاح فرسانهم. وعند اندلاع الحرب العالمية (الأولى) رقي إلى رتبة نقيب، إلا أنه حوكم فيما بعد أمام محكمة عسكرية وسجن لاشتراكه في مؤامرة ضد السلطان. وبعد إطلاق سراحه، حارب ضد القوات البريطانية في بلاد ما بين النهرين (العراق)، وأسر من قبلها في البصرة. وأخيراً، سمح له بالانضمام للأمير فيصل. وجرح في كل اشتباك أو معركة اشترك فيها، لأنه كان جسوراً بحيث لا يتردد في مواجهة الجيش التركي لوحده.

اختار جمال باشا معان، لأنها كانت محطة مهمة جداً تقع على الخط الحديدي الحجازي ما بين البحر الميت والمدينة، كنقطة انطلاق لثلاثة أفواج من الجند يفوق عددها السبعة آلاف جندي، وعدة وحدات من المدفعية الخفيفة، وسرب من الطائرات الألمانية. واتخذ أحد هذه الأفواج قلعة الشوبك كقاعدة له، وآخر من الجند قدم من الجنوب مباشرة عن طريق «أبي اللسن» و «بوستا»؛ والفوج الثالث تحرك من معان مباشرة نحو الشرق. وقد حرك الأتراك أفواجهم بحيث تمركزوا وأحاطوا بالبتراء في 21 تشرين الأول.

في غضون ذلك، كان لورنس وقواته البدو يقيمون براحة وسلام في العاصمة القديمة للأنباط، خلف تلك المتاريس الصخرية المحكمة التي تحدت جيوش الاسكندر

الكبير. ولأول مرة منذ عصور وقرون عديدة فقد عجت هذه الممرات بالحياة. فقد أضيئت نيران المعسكر على أعمدة المذابح القديمة للآلهة، وتمركز الحراس على الأماكن العالية الكبيرة القديمة يقومون بمراقبة الأتراك القادمين. وفي غرف المقابر الواسعة ذات الصدى كان العرب يجلسون في حلقات يتسامرون ويروون القصص الطويلة وينشدون الأغاني القديمة وأهازيج المعارك الملحمية. واحتل لورنس نفسه مركز قيادة فخما؛ وهو معبد أو هيكل ايزيس (الخزنة) وهو قصر وردي اللون قديم يقع عند مدخل الممر الضيق. وإذا ما رغب فقد كان بإمكانه استخدام خياله الأثاري ليعيد الحياة في مخيلته إلى القاعة الكئيبة برؤية وصيفات ايزيس وهن يرقصن أمام ضريح آلهتهن.

ولكن بدلاً من ذلك فقد أرسل إلى الشيخ خليل العلجي، في قرية مجاورة وأبلغه أنه سيكون من الضروري بأن يرسل جميع نساء القرية إلى عدة أميال حول المنطقة ليساعد ذلك في تعزيز قواته. فالنساء العربيات قد لا يذهبن للعمل في الصليب الأحمر أو الهلال الأحمر أو في سلك النقليات أو خدمات التموين، كما تفعل أخواتهن في الغرب خلال الحرب، وإنما يشجعن دوماً رجالهن على القتال.

ففي النزال الحربي القبلي المتواصل غالباً ما تكون النساء في المؤخرة، يشجعن رجالهن بالمديح وإنشاد الأغاني البدوية البطولية، ويصرخن بكلمات الشجب والتأنيب إذا لم يبل رجال القبيلة بلاء حسناً في النزال وساحات الوغى. وقبل بضعة قرون مضت كانت للقوات المقاتلة في الصحراء اثنتان أو ثلاث نساء من نساء تلك القوات يلبسن أثوابا جميلة متألقة ليقمن دائماً بحمل الأعلام والرايات. وكان ذلك أول مرة في التاريخ العربي تنخرط فيها نساء في كتائب مسلحة ويشتركن في المعارك فعلية.

لقد نهضت النساء البدويات اللواتي كن يعشن بالقرب من البتراء وبشكل فعال بمهمة طوارئ. فقد كن يرسلن الزبدة والغزل الذي كن يصنعنه إلى مقر قيادة لورنس بقيادة زوجة الشيخ خليل. ولم تكن هنالك أناقة أو لباس موحد أنيق بأزرار وأشرطة أنيقة لبدو الأمازون هؤلاء، فقد كن يلبسن القلائد والأطواق الذهبية ويضعن الحلق في آذانهن وأنوفهن، وتجمعن من كافة الأحياء والمناطق ليشكلن كتيبة الموت. ويحتشدن بناء على

نداء لورنس، الذي كان لديه بضعة رجال تحت تصرفه فقط، وقاتلن ببسالة كبيرة كما كان يقاتل أزواجهن وأشقاؤهن، ولعبن دوراً حيوياً في هزيمة الأتراك.

تذكر لورنس خطة دفاعية جريئة نفذها ملوك الأنباط القدماء، عندما فشل جيش الإسكندر المقدوني في الاستيلاء على البتراء، فركز النساء البدويات عند الممر الضيق بمواجهة معبد ايزيس للدفاع عن المدينة. وكانت النساء مستعرات في حماسهن ولا يحتجن إلى تحفيز لجعلهن قادرات على استخدام أسلحتهن الصغيرة. وكن يختفين وراء أعمدة المعبد، وبعضهن كان معهن أطفالهن شبه الناشئين، ويغطين ببنادقهن الممر الذي كان ضيقاً جداً بحيث لا يستطيع سوى بضعة أتراك وألمان أن يجتازوه جنباً إلى جنب.

وأخذ الرجال مواقعهم بشجاعة حتى أنهم لم يتملكهم الفزع عندما جاءت طائرات ألمانية وانخفضت إلى مسافة قريبة من صخور الهياكل والمعابد وألقت بقنابلها على الشوارع والمسرح والمدرج. وقد أمسكوا ببنادقهم بإحكام كبير عندما أصابت قنبلة ألمانية مدفع رشاش عربيا إصابة مباشرة، مسببة دمارا وتلاشيا لطاقمه.

كان لورنس يقود المعركة برمتها من قمة جبل يقع في الشمال. وكانت معه قوة مؤلفة من خمسين شاباً بدوياً، اختيروا لسرعتهم الكبيرة كعدائين، كما أنهم أثبتوا أنهم منضبطون ونظاميون بشكل كبير. وكان يمكنهم العدو كالأرانب البرية، وتسلق الصخور برشاقة الثيران الإفريقية. وإذا ما شاهد المرء المعركة من المواقع العربية وشاهد فقط النساء والرجال البدو وهم يرتدون الملابس حسب العادات الصحراوية التي يمكن تصورها وتخيلها، ويمتطون الجياد والجمال دون سروج، ويستخدمون كل الأسلحة المخترعة من قبل الإنسان تقريباً منذ فجر التاريخ، وإذا ما أمكن للواحد أن يزيل العلامات الحديثة لخوذات الخنادق والأشياء المألوفة والملابس الرسمية الملونة للأتراك وطائرات سربهم، فقد يخطئ بسهولة معركة البتراء ليظن بأنه اشتباك أو معركة بين الأدوميين القدماء وملوك إسرائيل.

كان لدى لورنس مدفعان جبليان ومدفعان رشاشان فقط، إلا أنه بهذه الأسلحة استطاع احتلال المرتفع أو الجبل الأول الذي يقع على بعد خمسة أميال جنوب البتراء لمدة

ست ساعات ويقتل ستين تركياً بدون أية خسائر في صفوف قواته من الناحية العملية. ومن ثم، عندما هاجم العدو بكامل قوته، وعندما تقدم الأتراك والألمان مباشرة إلى أعلى الجبل بالرغم من النيران العربية، أخلى لورنس والقوات العربية مواقعهم وأرسلوا نصف رجالهم لاحتلال قمة جبل تقع على مسافة قريبة من البتراء إلى الجنوب، وتوجه النصف الثاني إلى قمة جبل تقع على الجهة المقابلة للوادي الذي يقع جهة الشمال. وكان يقع بين القوتين العربيتين جزء من وادي موسى، وكان على بعد ميل من النقطة التي تضيق أسفلاً وتصبح عبارة عن شق أو صدع فحسب من خلال جدار الجبل جنوب مدينة البتراء.

وابتهج الترك عند احتلالهم الاستحكامات على الجبل الأول، حيث كانوا متأكدين بأنهم قد هزموا القوات العربية بشكل حاسم، لذلك فقد نزلوا بحماس من قمة الجبل إلى الوادي، ظانين بأن العرب قد تراجعوا تماماً إلى البتراء. في غضون ذلك، كان لورنس ورجاله مختبئين في كمين على تلال البتراء. وجعلوا ألفا من القوات التركية على الأقل يدخلون إلى الممر الضيق قبل أن يبدأوا بإطلاق النار. وعندما جعل الأتراك يدخلون إلى الجزء الأضيق من الممر، بالقرب من المدخل إلى المدينة، أطلق أحد مساعدي لورنس صاروخاً في الهواء كإشارة للقوات العربية للهجوم. وبعد لحظة انفجر الجحيم في جبال إيدوم. فقد صب العرب نهراً من النيران في جميع الاتجاهات. وكانت طلقات البنادق تأتي من جهة كل صخرة مع هدير صراخ النساء والأطفال المندفعين من بين الجلاميد والصخور الضخمة على الحافة فوق رؤوس الأتراك والألمان الذين كانوا في الأسفل على بعد مئات الأقدام. وأبقى أولئك العرب الذين كانوا متمركزين خلف أعمدة معبد ايزيس النيران مفتوحة على العدو باستمرار وبشكل مذهل تماماً، ولذا فقد أصبح الأتراك مذعورين، وتبعثروا في جميع الاتجاهات، في حين واصل العرب المتواجدون على المرتفعات تدمير عدوهم.

وقبل بضع دقائق من غروب الشمس خلف الجبال الوردية اللون، أطلق لورنس ومولود الإشارة الثانية لأتباعهما. وصاح مولود قائلاً: «هبوا يا أبناء الصحراء». واندفعت الأجسام من خلف الصخور من كل المختبئات، وهم يصيحون «الله أكبر»، كان ذلك الجواب الذي انطلق من حناجر مئات البدو وهم ينزلون بسرعة إلى الوادي.

واستولى العرب على كامل وسائل النقل لدى الأتراك، ومستشفى ميداني كامل، ومئات الأسرى. وشق ألف من القوات التركية المهزومة، الذين نجحوا في الانسحاب من المعركة، طريقهم الذي استمر عدة أيام فيما بعد إلى بوستا أولاً ومن ثم إلى أبي اللسن وإلى معان. وبعد المعركة، تسلل لورنس من خلال خطوط الأتراك متخفياً وعاد ومعه نسخة من بلاغ تركي يصف المعركة التي جرت في البتراء. وقد أثار ذلك البلاغ الضحك من قبل العرب المنتصرين حيث جاء فيه: «لقد هاجمنا تحصينات البتراء، وخسرنا اثني عشر رجلاً وجرح أربعة وتسعون رجلاً. أما العرب فقد خسروا ألف قتيل وجريح، كما أحصينا سبعة عشرة ضابطاً بريطانياً من بين القتلى».

كان الضابط البريطاني الآخر، باستثناء لورنس في ذلك الجزء من الصحراء العربية في ذلك الوقت موجودا على بعد عدة أميال، في العقبة. وكان لورنس نفسه يرتدي ثياباً عربية. وكانت الخسائر العربية ثمانية وعشرين بين قتيل وجريح. لذلك فقد أخطأ الأتراك في تقديرهم بـ (972) إصابة.

* * *

20

« قريبة في بيتي »

ربما يعود السبب في أن النساء لعبن مثل هذا الدور البسيط في الحرب في أرض ألف ليلة وليلة كما فسر لورنس إلى أن الرجال هناك يرتدون الأثواب أو (الدشاديش) وهن يتأذين من هذه الأرواب أو الأثواب، ويضيف لورنس بشكل فلسفي: ربما يكون هذا واحدا من الأسباب التي جعلتني مغرما بالجزيرة العربية. بحيث أنها البلاد الوحيدة يحكم فيها الرجال؛ بيد أن الكولونيل لورنس ينفي تأكيد السلطة أو الدولة على أن الرجل في الجزيرة العربية هو السيد المطلق والمرأة ما هي إلا جارية فحسب. وأيضاً أنها تعتبر مادة أو شيئا لرغباته الحسية، ودمية يلعب بها متى أراد وحيثما يريد أن يتسلى، أو أنه هو صاحب المعرفة وهي ممثلة الجهل، وأنه هو قبة السماء والضوء، وهي الظلام والسجن؛ وهو القائد والآمر، وهي عليها الإطاعة بشكل أعمى.

حيث أنها لا زالت تدبر وتفرض ببراعة فائقة نفوذها غير المباشر. بيد أن أحدا لا يرى أو يسمع عنها سوى القليل. وفي الحقيقة، فإن الجزيرة العربية هي واحدة من البلدان التي ليست فيها دعاية مساوية لدعاية السيدتين كات وبانخورست.

ومع أن ملك الحجاز يذكر في وسائل الإعلام بشكل عادي، إلا أن زوجته الملكة، أو جلالة الملكة، لا تذكر أبداً في وسائل الإعلام.

وقد حضر الأمير فيصل مؤتمر السلام الذي عقد في قصر فرساي بباريس كرئيس للوفد العربي، بيد أن زوجته، التي أصبحت بعد وقت قصير الملكة الأولى في العائلة المالكة في بغداد، لم ترافقه إلى هناك.

وكانت عاصمة الحسين بن علي واحدة من المدن التي لم يكن يرحب فيها بوجود البعثات الدبلوماسية أو الدبلوماسيين وزوجاتهم.

وتصوروا كم ستكون الحياة كئيبة في كل من لندن ونيويورك إذا ما ثبتت فجأة عادات وتقاليد مكة. ولم يكن هناك طابعات آلة كاتبة وسكرتيرات أنيقات وجذابات، ولا حفلات راقصة في الفنادق والمطاعم، ولا أسواق خيرية (بازارات)، ونساء سياسيات. ونحن نقف عندما تدخل النساء إلى مكان ما، إلا أن العربي لا يفعل ذلك أبداً. وفي الحقيقة، فإنه حتى لا يأكل مع امرأته، ولكن طبعاً، عليها أن تخدمه. وعندما يذهب أمير عربي خارجاً لاستنشاق هواء نقي وهو على جمله، فإن زوجته لا تخرج معه. ونادراً ما تغادر نساء المدن بيوت الحريم أكثر من مرة في الأسبوع. ففي جدة؛ على سبيل المثال، يخرجن من بيوتهن عصر يوم الخميس إلى خارج سور المدينة ليزرن قبر الجدة حواء. ولكن بالرغم من حياتهن المنعزلة، فإن العديد من النساء المنقبات لديهن جمال عربي لعب دوراً ذكياً وحاذقاً في السياسة وكان لها دور آسر في الحب. والعديد منهن في الحقيقة كن من سليلات ملكة سبأ، وهن ساحرات وفاتنات، وجعلن أسيادهن ورجالهن يقبلن الأرض أو التراب تحت أقدامهن.

ويتيح الدين الإسلامي في القرآن الكريم للرجل بأن يتزوج أربع نساء في وقت واحد، ولكن الرجل المسلم غالباً ما يتزوج امرأة واحدة، ما لم يكن واسع الثراء ويستطيع أن يوفر منزلاً آخراً لزوجات أخريات. وهذا بالطبع ينطبق على رجال المدن. فمن الصعب تصديق ذلك، ومع ذلك فمن الصحيح بأن غالبية الرجال المسلمين يجدون من الصعب فعلياً بأن يعيشوا مع أربع زوجات تحت سقف واحد. كما أن القرآن أتاح للرجل أن يمتلك من الجواري ما يشاء على أنهن ما ملكت أيمانه وكحق له. إلا أنه سيكون من الصعب بالنسبة للجدول المائي أن يفيض بأكثر من ماء مصدره، لذلك فإن الحقيقة هي أن سكان المدينة الأذكياء ليس لديهم تعدد زوجات ولا محظيات ولا جاريات. فالملك حسين، والملك فيصل، والأمير علي والأمير عبد الله أمير شرق الأردن فيما بعد، ومعظم الشخصيات البارزة في الجزيرة العربية، لم يكن لدى كل واحد منهم سوى زوجة واحدة.

ويمكن أن تطلّق الزوجة العربية بسبب عدم إنجابها أولادا ذكورا، ولكن هذا غالباً ما يحدث وليس دائماً. ونادراً ما يتكلم الرجل العربي عن زوجته بالاسم. وإنما يدعوها قريبة أو نسيبة في بيتي، أو «أم علي، أم ابني علي». وغالباً لا يرحب بالخلفة البنات في البيت العربي. ولكن عندما يولد الطفل/ الطفلة، لا يهم ماذا سيكون جنس المولود، وأول ما يفعل هو حماية الطفل/ الطفلة من عين الحسد. وهذا يتم بوضع تعويذة أو حجاب حول عنق المولود/ المولودة. كما أن الأمهات يكرهن الشعر المجعد، ويفعلن ما يمكنهن لتسوية وتمليس شعر الطفل/ الطفلة.

وفي بعض أجزاء الصحراء يوجد هناك قانون غير مدون يقول بأنه إذا ما اغتصبت فتاة من قبل رجل ما بين شروق الشمس والظهر، فيجب أن يجلد الرجل بقسوة؛ وإذا ما فعل ذلك ما بين الظهر وغروب الشمس، فإنه يغرم فحسب؛ وإذا ما فعل ذلك خلال الليل عندما يفترض أن يكون الجميع في خيمهم تحت حماية أسرهم، فإن الرجل لن يخضع لأي عقاب.

وغالباً ما يتزوج الذكور ما بين عمر العشرين والرابعة والعشرين، والإناث في أي وقت أو بعد أن يبلغن الثانية عشرة، والخاطبات في الجزيرة العربية يؤدين خدماتهن بشكل مجاني كما يفعلن ذلك أو يجري ذلك في أوروبا وأمريكا. وعندما يريد الرجل المسلم من المرأة أن تساعد في شؤون الزواج فإنه يطلب خدمات سيدة لهذا الغرض تكون مدبرة أو خطابة تدبر الزوجات كمهنة أو حرفة لها. كما أنه يدفع مهرا لقاء عروسه ويكون هذا من حق زوجته مهما كانت قيمة المهر مرتفعة. ولا يرى الرجل خطيبته أبداً إلى أن يتم الزفاف. ولا تقوم أم العروس بصنع ملابس لابنتها العروس وإنما تتولى ذلك خياطات. وهي تقترض فحسب شالاً من نوع كشمير لابنتها.

ومن المهن القليلة المسموح بها للنساء في الشرق الأدنى آنذاك هي القيام بالعويل أو مهنة العويل والنحيب. وغالباً ما يجري العويل والنحيب والندب لعدة أيام؛ ويشبه صراخ روح مفقودة، وغالباً ما ينتهي بصراخ حاد يجعل دمك يتدفق بارداً.

وعادة دفن الموتى فوراً غالباً ما ينتج عنها تعقيدات. فهناك قصة غريبة رويت في جدة تتعلق بضابط يدعى سكوت، كان يتمركز هناك في أوائل الحرب، ومات نتيجة مرض غامض. فحمل إلى مسافة قصيرة خارج المدينة ودفن في الرمال بالقرب من الشاطئ، ولم يلف سوى بعلم. وقبل بضع ساعات من الدفن غادر قارب ميناء جدة وهو يحمل مذكرة رسمية إلى الحكومة البريطانية في لندن تروي قصة موت ذلك الضابط. وبعد مراسم الجنازة والدفن رجع المشيعون إلى المدينة عندما سمعوا فجأة أصوات صراخ، فالتفتوا إلى الخلف، فذعروا عند رؤية جثة الضابط وهي تسرع نحوهم، والعلم الذي عليها مشقوق من كل الجهات. إذ يبدو أن سكوت كان مغمى عليه فحسب، وبعد بضع لحظات من دفنه في الرمال الطرية، هاجمته سرطانات الأرض وأعادته إلى الحياة. بل أن الرواية لم تقف عند هذا الحد، فهم يروون كيف أنه ألقي القبض على سكوت في لندن لانتحاله شخصية أخرى عندما دعي إلى بنكه لاستلام قيمة شيك.

يوجد هناك فرق كبير بين المرأة البدوية التي تعيش في الخيام والمرأة في المدينة أكبر بكثير من الفرق بين الشيخ الصحراوي النحيل ونظيره في المدينة. والمرأة في المدينة تكون بدينة وبيضاء، في حين أن المرأة البدوية تكون نحيلة وسمراء. والعديد من شيوخ البدو لديهم أو لدى كل واحد منهم أربع زوجات في وقت واحد. وبعض رؤساء أو شيوخ القبائل الأغنياء جداً تزوجوا أكثر من خمسين مرة في حياتهم، إلا أنهم لم يجمعوا أكثر من أربع زوجات في وقت واحد. ومن الأسباب التي كانت تدعوهم للزواج وربط أنفسهم برفاهية ثلاث أو أربع زوجات التدبير المنزلي الأسهل. فجميع الزوجات البدويات كن يعشن في نفس الخيمة؛ وأيضاً، مما يدعو للاستغراب، فإن الغيرة كانت غير شائعة عندهن. فهن لا يعتبرن الزوج كملك أو امتلاك خاص لهن كما نفعل نحن.

كما أن النساء البدويات أكثر جهلاً ومعرضات للأذى أكثر من رجال أبناء قومهن، وهن يقضين جزءاً كبيراً من حياتهن وهن يحثثن رجال قبيلتهن على القتال. فهن يبقين العداءات الدموية والثأر قائمة لقرن من الزمن.

لا يوجد عند بدو الصحراء مناسبة أو وقت معين يحتفلون فيه أو يعطلون فيه؛ فلا يوجد عندهم أيام الآحاد، ولا الاثنين أو غيرها، ولا مناسبات أو أعياد وطنية معينة. فهم

ولدوا «لأنها مشيئة وإرادة الله شاءت ذلك». ومن ثم يكبرون وبعد مدة يموتون: «لأنها مشيئة وإرادة الله». كل شيء يسير هناك «بإرادة ومشيئة الله». لذلك فليس من السيء أن تسأل المرأة البدوية عن عمرها، لأنها لا تعرف إذا ما كانت جميلة جذابة وهي في سن السادسة عشرة، أو في سن آخر.

وهم جميعهم ثرثارون بشكل مزعج، وعندما كنا نجلس جنباً إلى جنب مع الرجال البدو في الجناح المخصص للرجال الذي يفصله غطاء رقيق عن جناح النساء في بيت الشعر لشيخ القبيلة، ونتحدث عن العادات والتقاليد الغربية، مثل أن النساء في الغرب يتمشين على جوانب شوارع المدن وهن سافرات بدون غطاء رأس أو نقاب، أو يحضرن مسرحية برفقة أصدقائهن من الرجال، أو يلعبن الجولف، كانت نساء الشيخ يرفعن رؤوسهن من فوق الغطاء ويبدين رأيهن بقولهن: «كم هذا شيء مقرف وبذيء قذر ولا أخلاقي». ولقد كان الكولونيل لورنس يتجنب التحدث بحرية عن النساء. فقد كان مثل هذا الموضوع صعبا ومحرما كالتحدث عن الدين.

في إحدى المناسبات، عندما كنا نجلس في خيمة الشيخ عودة أبو تايه، كان لورنس في مزاج ثرثار غير عادي وقدم لمضيفه وصفاً غير محتشم لحياة علب الليل في لندن. فكان عودة كل بضع دقائق يصفع ركبتيه بيده ويزمجر قائلاً «آه أتمنى لو كنت هناك». ومن ثم تتدخل زوجاته ويوبخنه بقسوة.

غالباً ما تحتفظ النساء البدويات بجمالهن لغاية سن الثلاثين، ولكن بعد ذلك السن، يصبحن قصيرات ونحيفات. ويجرين ويقمن بجميع مسراتهن وتسليتهن في خيامهن. والنساء البدويات في الصحراء غير محجبات أو منقبات، إلا أنهن يوشمن وجوههن وأيديهن وشفاههن باللون الأزرق. وهن يرتدين في جميع المناسبات ثوبا من القطن الأزرق الداكن ويغطين رؤوسهن، فالإسلام يمنع أن تكون المرأة حاسرة الرأس كاشفة لشعرها في العلن.

وجميع العرب مغرمون بشراء اللآلئ والحلي الذهبية الصغيرة لنسائهم. وتلبس بعض نسائهم أو زوجاتهم حليا ذهبية تقدر بنحو ألف جنيه إسترليني أو أكثر. ووفقاً

لقانون غير مدون في الجزيرة العربية، فإن جميع الحلي تكون ممتلكات شخصية للمرأة، وإذا ما طلقت فإنها تحتفظ بها. وإذا ما أراد العربي أن يطلق زوجته، فإنه يقول ببساطة ثلاث مرات أمام شهود: «أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق». وبالتالي، فإن جميع النساء يكن جاهزات تماما بوضع جميع ممتلكاتهن على شكل قابل للحمل.

ويتم تدريب النساء البدويات في الخيام تماماً. ويقضين معظم أو الكثير من وقتهن في حلب نياقهن والماعز أو العنز وفي صنع الزبدة.

ولصنع الزبدة فإنهن يجعلن الحليب يتخثر، ومن ثم يعصرنه بأيديهن ويضعنه على سطح الخيام إلى أن تذهب منه الرطوبة أو النداوة. وعندما يجف يصبح صلباً كالصخرة. وفي الحقيقة، فإن زبدتهن تكون قاسية جداً بحيث أنها تكسر حد السكين. وكان لورنس يسحقها بين الحجارة ويخلطها بالماء إلى أن تذوب وتصبح لبناً أو حليباً (ربما يقصد المؤلف هنا الجميد).

والعديد من رجال البدو يعتبرون النساء مصدر شر، ويقولون بأن جهنم مليئة بالنساء. وهناك بضعة أبيات شعرية لشعراء بدو تعبر عن بغض وكره النساء بدلاً من الحب. وهذا بيت شعر من إحدى الأبيات التي ترجمها السير ريتشارد بورتون:

«لقد قالوا تزوج، فقلت أنا حر؛ ولماذا اجلب إلى قلبي وصدري ملء كيس من الأفاعي؟ فالله لا يبارك أبداً بجنس النساء!»

وإنها مسألة سهلة بالنسبة للمرأة البدوية أن تنظف البيت (بيت الشعر) أو تعد للرحيل والانتقال. فالقبيلة تغادر مكانها في الصحراء حالما تصبح منطقة الرعي في الجوار فقيرة أو مستهلكة لمواردها. والبدو الأكثر أرستقراطية هم الذين لا يكون لديهم قطيع خراف أو ماعز، وإنما جمال وجياد فقط. وهم يحصرون أنفسهم في أقل كمية ممكنة من الممتلكات ويرفضون أن يقيدوا أنفسهم بأية بقعة في الأرض. ويرغبون فقط بأقل الحاجات ويكونون أكثر حرية وطلاقة من أي شعب على الأرض.

سأل الشيخ نوري الشعلان مرة عن العادات والتقاليد الأوروبية. فقال له لورنس، «حسناً، إذا ما أتيت إلى منزلي في إنجلترا، فستقدم لك نسائي الشاي». عندئذ صفق نوري

بيديه لإحدى زوجاته، وأمرها أن تعد الشاي، ودعا لورنس إلى جناح النساء لشرب الشاي، وكان ذلك عمل مناقضاً تماماً للقانون أو العرف غير المدون للصحراء.

والبدو يجاملون إلى أقصى حد، ومهما كانت لغتك العربية مزعجة فإنهم لن يصححوا كلامك أبداً. وعندما تدعى إلى خيمة بدوية فستلقى كل كلام لطيف، ومن ثم فعندما تغادر فقد تنهض وتغادر من دون قول كلمة وداع. فقد رأيت بدويا يدخل إلى خيمة لورنس وهو يقرأ. وقد كان يمكنه أن يحييهم، ومن ثم يجلسون القرفصاء وهو يستمر بالقراءة في كتابه. وبعد برهة يمكن أن ينهضوا ويمشون أو يغادرون بهدوء. بيد أن لورنس لم يكن أبداً ليتركهم أو ليترك ضيوفه هكذا طويلاً وهو يقرأ.

لقد قال الغزالي، وهو عالم إسلامي كبير وفقيه عاش في القرن الحادي عشر الميلادي بأن «الزواج يعتبر نوعاً من العبودية، حيث تصبح الزوجة جارية لزوجها، ومن واجبها أن تطيع زوجها تماماً في كل شيء يطلبه منها ما عدا ما يناقض قوانين وأحكام الإسلام».

وقد أباح القرآن ضرب الزوجة، في حالات معينة. وقد تكون جميع الجاريات اللواتي يستولي عليهن الرجل في الحرب كملك خاص له. وهناك مثل قديم يقول بأن الكذب يمكن أن يغتفر في ثلاث حالات: في الحرب، ولتسوية الأمور مع الأصدقاء، وعلى النساء.

وبالنسبة لمعظم العرب، فقد كانت الواحة بشجر نخيلها، وينابيعها ونوافيرها المتلألئة وبجِمالها السريعة هي الجنة، حيث أن كل رجل يمكن أن يكون لديه العديد من المحظيات كما يرغب. لذلك فلا عجب بأن العربي والتركي يعتبران مقاتلين رائعين، عندما عرفنا بأنهم إذا ما ماتوا في معركة وهم يجاهدون ضد الكفار فإنهم سيذهبون إلى مثل هذه الجنة مباشرة.

ففي تلك الأرض الرومانسية وغموض شجر النخيل، والجمال، والنساء المحجبات، فقد أسست عادات اشتقت من تعاليم الإسلام يجعل الجنس اللطيف (المرأة) في منزلة أقل من الرجل، ليس في هذا العالم فحسب وإنما في الحياة الآخرة فيما بعد أيضاً.

ولكن بالرغم من هذا، فإن هناك العديد من العرب أحبوا بعاطفة وحماس كمثل إخوانهم في أراض وبلدان أخرى، وجميع الشعراء العرب تقريباً اشتقوا إلهامهم من حب النساء، كما يقول الشاعر:

«إن قلبي أثبت من جذور الجبال؛

وشهرتي منتشرة كرائحة المسك؛ ويكمن سروري في اصطياد أسد بري؛

البهيمة الفريسة التي زرتها في عرينها، ومع ذلك فإن برهة من التودد أوقعتني في شرك، عجلة صغيرة في مراعي خزام».

* * *

21

التجسس من خلال الخطوط التركية

جميع العرب تقريباً يحملون نوعا ما من تعويذة حسن الحظ، والاعتقاد بالجن والجنية أمر شائع عندهم. والطلسم أو التعويذة التي كان عوده أبو تايه يضعها حول عنقه كانت من المحتمل واحدة من التعويذات غير العادية جداً لتكون موجودة في جميع أنحاء الجزيرة العربية. وكانت تلك التعويذة عبارة عن نسخة مصغرة من القرآن الكريم حجمها بوصة واحدة مربعة، والتي دفع لقاءها أو ثمنها مائتي جنيه إسترليني. وقد عرضها مرة بفخر عظيم، واكتشف لورنس بأنها كانت مطبوعة في غلاسكو، وبالنسبة لسعرها الذي طبع داخل الغلاف فقد كان مقداره ثمانية عشر بنساً فقط. والشيء الوحيد الذي يحميهم ضدها هو حمل مثل هذه التعويذة حول العنق.

يوجد هنالك ثعابين زاحفة بالآلاف في أجزاء معينة من الصحراء. ويمتد أسوأ حزام من الثعابين في الشرق الأدنى من منطقة الجوف إلى الأزرق على طول سلسلة من الآبار الضحلة في شمال الصحراء العربية، حيث يجد الإنسان غالباً بالقرب من مصادر المياه، ثعابين الكوبرا الهندية، والأفاعي النافخة، والثعابين السوطية السوداء، وغيرها من الثعابين والأفاعي المهلكة.

ومرة بدأ لورنس إحدى حملاته ومعه ثمانية عشر رجلاً، مات منهم خمسة في الطريق من جراء لدغ الأفاعي السامة. وبدلاً من الاعتماد على استخدام ترياق كحولي مضاد للسم، فالبدو يحبذ كما يحبذ رفاقه أن يضع ثقته بالله في هذا الشأن. وفي الصحراء العربية

تنتقل الأفاعي ليلاً إلى المكان الذي ينام فيه البدوي التماساً للدفء، ولكنها لا تلدغ ما لم يتمط البدوي النائم كثيراً فوقها ويفزعها. ومع أن وعيهم أثناء النوم لا يكون واضحاً، فإن جميع البدو غالباً ما يشخرون، لحسن الحظ، أثناء نومهم.

وكلما أراد لورنس ورجاله استكشاف وجود الأفاعي في الليل فإنهم يفتشون عنها في أبواطهم وأحذيتهم كما يكونوا واعين جداً وحذرين في أن يضربوا كل شبر في الأرض ويزيلوا كل شجيرة من أمامهم لإزالة خطر الأفاعي منها. وإذا ما لدغ البدوي من قبل أفعى فإن أصدقاءه يقرأون عليه سورا معينة من القرآن. وإذا ما صدف واختاروا السور والآيات الوافية لهذا الغرض، فإنه يشفى وتكتب له الحياة؛ ولكن إذا لم يكن لديهم نسخة من القرآن، فإن حظ هذا الملدوغ يكون سيئاً واحتمال موته يكون كبيراً.

ومع أن العرب كانوا يعرفون أن لورنس مسيحي، إلا أنه عندما حاز على ثقتهم فغالباً ما كانوا يدعونه ليصلي معهم.

وكان يفعل ذلك فقط عندما يشعر بأنه يميل لمسايرتهم، بيد أنه كان يتذكر تماماً جميع الصلوات المهمة لدى المسلمين وذلك ليكون مستعداً لأي طارئ غير متوقع فقد يسبب عدم معرفته وإخفاقه بالصلاة إرباكاً لكل من الملك حسين والأمير فيصل بحضور أعضاء أو أفراد من قبائل غريبة أخرى. ولكن لحسن الحظ لم يحدث مثل هذا الطارئ أبداً. ولكن عندما كان يصلي مع رفاقه البدو في عدة مناسبات، كان يفعل ذلك ليسرهم، وكان أداء الصلاة كما يلي: كانوا يقفون، لورنس ورفاقه على سجاجيد الصلاة ووجوههم نحو مكة المكرمة. ومن ثم يؤم بهم أحد الشيوخ في الصلاة وهم يتبعون ما يقوم به من حركات الركوع والسجود، ويتخلل ذلك قراءة سور من القرآن الكريم. وعند انتهاء كل صلاة يسلم كل مصل وهو يدير رأسه إلى اليمين ومن ثم إلى اليسار قبل أن ينهض. وقد فسر لي لورنس ذلك بأن هناك ملكين يفترض أن يقفا بجانب كل شخص بينما هو يصلي. فملك يسجل أعماله وأفعاله الحسنة والملك الآخر يسجل أفعاله السيئة، لذلك فمن الطبيعي السلام عليهما. ويؤدي كل مسلم جيد خمس صلوات في اليوم، بيد أن لورنس ورفاقه اختصروها إلى ثلاث صلوات بإيجازها أو اختصارها إلى صلاة في الصباح وصلاتين بعد الظهر؛ وإلا فإن الجيش العربي كان سيقضي وقته في الصلاة وليس في القتال.

لقد تغلب لورنس على أكبر عقبتين تجاه البدو، وهما أنه كان أجنبيا ومسيحيا. فمعظم الأجانب الذين عرفهم هؤلاء البدو كانوا أتراكاً، وكانوا يحتقرونهم لأنهم متوحشون، وهم يعتبرونهم متكبرين ومنافيخ. والمسيحيون الوحيدون الذين يعرفونهم كانوا من المسيحيين الأصليين من أهل البلاد من مسيحي الساحل السوري والأرمن، الذين كانوا أكثر تسامحاً ولا يظهرون عداوة، وإذا ما صفع الواحد منهم على خده الأيمن يدير خده الأيسر؛ مما يثير اشمئزاز العرب. وكان يناسبهم بشكل كبير أن يتجاهلوا حقيقة أن لورنس كان مسيحياً، لأنهم يعتبرون أنه من الخزي أن يفوقهم أي مسيحي في أي شيء يعتبرونه عادياً.

ومع ذلك، فمن فترة لأخرى، كانوا يدعونه فعلياً لتلاوة صلواته المسيحية بصوت عالٍ، حيث كان يؤدي ذلك بشكل فصيح.

كان تشارلز دوفتي، الرحالة والشاعر، على حد علمي، الرجل الوحيد بعد لورنس الذي استطاع أن يتجول ويجول في الجزيرة العربية كشخص مسيحي. أما جميع المستكشفين الآخرين فقد منعوا من زيارة الأراضي المقدسة الإسلامية وكانوا يتخفون على أنهم مسلمون. وقد نجا دوفتي من الموت مرات عديدة، لأنه لم يكن مسلحاً ولا يفعل أي شيء بسرية. ولم يكن يحمل معه نقوداً، وكان يشق طريقه ويدبر نفسه بمعالجته للمرضى بعلاجات بسيطة وبتطعيم وتلقيح العرب. وأصبح الآن رجلاً كبيراً وعالما كبيرا يعيش في منتجع مائي يقع على الساحل الجنوبي لإنجلترا. وكان هو ولورنس صديقين حميمين، ويدين له لورنس لفتح الطريق أمامه وأمام زملائه للعمل مع البدو خلال الحرب. وفي الحقيقة فإن كتاب دوفتي «الصحراء العربية» كان يعتبر إنجيلاً بالنسبة للورنس وكتاب تعليم للعسكرية خلال الحملة أو الثورة العربية ضد الترك.

إن الملابس البدوية التي كان يرتديها لورنس لم تكن زياً مسرحياً. فهي كانت جزء من خطته المرسومة بعناية لكسب ود العرب. ومع أنه لم يحاول أن يخفي دينه أو جنسيته، إلا أنه كان عربياً في الظاهر. وباستثناء مجالات معينة، فقد وجد نفسه، باعتباره ضابطاً بريطانياً ومسيحياً، أقل من أن يكوّن عائقاً أمامه من أن يتخفى تماماً. وكانت لديه رغبة في

أن يظهر نفسه كبدوي، وكان يود أن يربي لحيته، وهو عمل لم يحققه حتى لو أن قدر الإمبراطورية البريطانية كان يتوقف على ذلك.

ومع ذلك، ففي بضع مناسبات، كان يخفي نفسه أو يتخفى بزي امرأة بدوية ويذهب عبر الخطوط التركية. ولكن بالنسبة للضباط البريطانيين الآخرين الذين كانوا يرغبون بزيارة قبيلة ما، فقد كان يوصيهم بان يرتدوا أو يضعوا على رؤوسهم الكوفية العربية، ليكون ذلك مجاملة وليس تخفياً.

إن البدو لديهم تحفظ شديد ضد وضع القبعة على الرأس، ويعتقدون بأن إصرارنا على وضعها أو لبسها متأسس أو مبني على مبدأ غير ديني. وإذا ما كنت لابساً قبعة أنيقة جداً اشتريتها من محلات بيكادلي أو قبعة مخملية أسترالية ودخلت على مكة أو كنت في مكة، فإن أصدقاءك وأقاربك سيتبرأون منك. فلبس الكوفية والعقال والعباءة فإنك ستحصل على ثقة وصداقة أبناء إسماعيل (العرب) لأنه من المستحيل أن يكون ذلك بارتدائك الملابس الأوروبية. كان ذلك هو مبدأ لورنس، ولكن ارتداء الثوب العربي له مخاطر وفوائد. فخرق قواعد وآداب التقاليد والعادات من قبل الأجانب التي يمكن التغاضي عنها، لا يمكن أن تغتفر أو يتسامح معها إذا ما كان الأجنبي في ملابس عربية. فإنك كممثل إنجليزي يظهر على مسرح ألماني لأول مرة.

ويأتي النجاح التام عندما ينسى العرب بأنك غريب عنهم ويتحدثون بشكل طبيعي أمامك. وقد عرفت إلى حد بعيد بأن الكولونيل لورنس كان الأوروبي الوحيد الذي كان مقبولاً لديهم كواحد منهم.

وكانت نصيحة لورنس أنه إذا ما ارتديت الملابس العربية، فإنك يجب أن تكون لابسا الأفضل دوما، لان الملابس تكون لها أهمية بين القبائل. والبس كممثل شريف، فإذا ما تقبل الناس ذلك، وإذا ما استخدمت العادات والتقاليد العربية، فإنك ستذهب إلى حيث تشاء هناك.

واترك أصدقاءك الإنجليز والعادات والتقاليد الإنجليزية عند الساحل، عند نزولك إلى الجزيرة العربية، واعتمد تماماً على العادات العربية، وإذا ما تفوقت على العرب

بذلك، فإنك ستحرز خطوات تامة نحو النجاح، ولكن إذا ما أبقيت على حياتك وتفكيرك ولغتك الأجنبية، وعلى ملابسك وعاداتك الغريبة على العرب، واحتفاظك بخصوصيتك وهدوئك، وعدم إمكانية تقليدك لعادات وتقاليد الآخرين، فإنك لن تحرز أي تقدم بهذا الشأن، ولن يكون هذا النهج متخذاً من دون تفكير جاد ومصمم.

وعندما لم يكن لورنس منخرطا في تنفيذ عمليات عسكرية أو القيام بزرع ألغام تحت سكة الحديد، فإنه كان ينتهز الفرصة ويتخفى بزي امرأة عربية تائهة أو منبوذة ويتسلل عبر خطوط العدو. وكان ذلك أفضل تخف للجاسوس، إذ أنه بالنسبة للحراس الأتراك غالباً ما يعتبرون إيقاف امرأة وسؤالها عن وجهتها شيئا غير وقور. وكان يتسلل مرات عديدة إلى بعد مئات الأميال داخل أراضي العدو، حيث كان يحصل على الكثير من المعلومات التي مكنت في نهاية الأمر جيش المارشال اللنبي في فلسطين والقوات العربية بقيادة الأمير فيصل من أن تطيح بالترك في أكبر وأشهر عمليات حربية في التاريخ.

في إحدى المرات كان لدى لورنس أسبوعان من الفراغ، فجعل فيهما الأمور مثيرة ومفعمة بالحياة بالنسبة للترك. فبينما كان ينتظر عوده أبو تايه للانضمام لمقاتليه الحويطات استغل هذا الوقت وذهب هو ومعه واحد من قبيلة عنيزه اسمه دهمي لوحدهما فقط، وتغلغلا داخل الخطوط التركية وهو متخف في زيه النسائي فوصل حتى تدمر، حيث أمل أن يجد هناك شيخا بدويا متنفذاً كان يتعاطف مع الثورة العربية. كان هذا الشيخ زعيم قبيلة في منطقة تبعد حوالي ألف ميل عن نهر الفرات، لذلك فقد حول لورنس ودهمي جمليهما باتجاه بعلبك الواقعة في الصحراء بالقرب من تلك المدينة السورية القديمة (تدمر)، وتشتهر بمعابدها وهياكلها الأثرية التي تضاهي الأكربوليس في أثينا، حيث كانت تتواجد هناك قبيلة شبه بدوية، وهي قبيلة المتاولة، الذين كانوا على علاقات ودية مع الشريف (الملك) حسين والأمير فيصل مع أنهم كانوا مجبرين على التعاون مع الاتراك. فقد أراد لورنس أن يزور هؤلاء المتاولة ليتأكد من مساعدتهم بعد عدة أشهر عندما يتم التقدم الأخير وعندما يتوقع أن تندفع قوات الحجاز وقوات اللنبي وتدفع بالقوات التركية شمالاً من خلال سوريا.

كانت خطته تكمن في أن يحفز كافة القبائل والعشائر البدوية في سورية، بحيث يمكنها أن تقوم بمضايقة الجيش التركي باستمرار من داخل خطوطه.

وعلى بعد ميلين خارج بعلبك، نزل لورنس من على ناقته، واستبدل ملابسه العربية بملابس ضابط بريطاني من دون رتب أو شارات عليها ودخل البلدة بجرأة. كانت بعلبك في ذلك الوقت لا تزال تبعد عدة مئات من الأميال جنوب الخط الفاصل لقوات اللنبي عن القوات التركية. وكانت القوات التركية في شوارع بلدة بعلبك تحيي لورنس ظانة بأنه ضابط ألماني. ولكن لم يكن هناك شيء غير عادي في ذلك، ذلك أنه بمجرد ان يمر ضابط بروسي من وحدة الفرسان من أمام مقر الحكومة البريطانية في لندن خلال الحرب، فإنه سيتلقى التحية، من دون شك، من حراس المقر. وكانت نظرية لورنس تتلخص في أنه من الأسهل أن يمضي الواحد بجرأة وبشكل علني في زيه الرسمي في المناطق الريفية التركية بدلاً من أن يتخفى بطريقة مشكوك فيها.

وبعد أن ألقى نظرة سريعة على التحصينات التركية حول بعلبك، حاول لورنس زيارة المدرسة الحربية التركية هناك، حيث كان يتواجد آلاف الضباط الشبان يتدربون هناك. إلا أنه عندما وصل إلى أبواب المدرسة لاحظ بأن الضباط يملأون الطريق هناك، لذلك فقد قرر أنه من الأسلم أن يتراجع من دون انتزاع أو اخذ تحية.

وأصل لورنس تخفيه بثياب امرأة وذهب إلى مضارب المتاولة، حيث نزع عنه الحجاب وكشف عن شخصيته. وتجمع الشيوخ حول لورنس وطالبوا بإعلان الثورة السورية فوراً. وشرح لهم لورنس بان الوقت لم يحن بعد، وحاول تشجيعهم على القيام بعمل مستقبلي بعد أن تتقدم وتترسخ انتصارات الثورة في الحجاز بشكل أكبر.

ومع ذلك، فقد وجد لورنس المتاولة متشوقين جداً من أجل القيام بإغارة أو لعبة من النوع الذي كان يتقنه ويشير إليه دائماً على أنه «عرض سينمائي». ففي اتصاله مع أبناء الصحراء اكتشف بأن الضجيج يعتبر واحداً من أفضل أشكال الدعاية. لذلك، ففي ذلك المساء، ذهب لورنس يتبعه كل واحد قادر سواء ذكر أو أنثى أو طفل في القبيلة إلى الخط الرئيسي للسكة الحديد التركية، الذي كان يمتد من اسطنبول إلى حلب وإلى بيروت من

خلال بعلبك. واختار واحداً من أكبر الجسور الإسمنتية الذي يحتوي على أكبر تحويلة للسكة الحديد، وبعد أن زرع تحته أصابع الديناميت على جانبيه وجميع نتؤاته، حمل سلكاً كهربائيا ووصله بجميع الشحنات، ومده إلى قمة أقرب تلة، كان قد احتلها أبناء عشيرة المتاولة كمدرج للمشاهدة. ومن ثم، وفي لحظة نفسية جياشة، ضغط على آلة التفجير فتناثر الجسر في السماء في كتلة ضخمة من النيران والدخان. وأقسم جميع رجال المتاولة بالله العظيم وبالقرآن الكريم، بأنهم سينضمون إلى جانب الملك حسين.

ومن هناك انطلق لورنس ومعه رفيقه البدوي الوحيد عبر الأراضي السورية حتى وصلا إلى دمشق. وسارا من خلال الأسواق في الليل إلى قصر علي رضا باشا، الذي كان يعمل كحاكم عسكري للأتراك هناك. وعلى الرغم من أنه واحد من مسؤولي السلطان العثماني الكبار في سورية، إلا أن علي رضا كان يتعاطف مع الحركة القومية العربية. وفي ذلك المساء وعلى مائدة العشاء، وبعد شرب عدد لا يحصى من فناجين القهوة الحلوة، أبلغ علي رضا لورنس بأن ازدياد الانشقاق والخلافات ما بين الضباط الأتراك والألمان سيضمن النجاح التام للحلفاء في فلسطين والجزيرة العربية. فقد أصبح الألمان متكبرين جداً ومسيطرين على الأتراك بحيث أنهم أصبحوا يعتبرونهم كالكلاب. وبالتالي، فإن الشعور العدائي التركي ضد الألمان قد أصبح شديداً جداً بحيث أنه كلما أصدر جنرال ألماني أمراً فإن الأتراك سيفعلون ما بوسعهم لمنع تنفيذه. ووفقاً لما قاله علي رضا، فإن القائد الألماني في الشرق الأدنى، فاكنهاين نصح الأتراك قبل بضعة أسابيع بأن ينسحبوا من كل من فلسطين والجزيرة العربية ويتراجعوا إلى خط يمر عبر سوريا إلى البحر الأبيض المتوسط من درعا، التي كانت نقطة وصل هامة للسكة الحديد جنوب دمشق. وقد أعطى المارشال الألماني الأتراك نصيحة واضحة وقيمة، بيد أن الأخيرين كانوا معارضين جداً لقبول ذلك بالدرجة التي كانوا يعارضون فيها قبول المارشال فالكلهاين كقائد عام لهم.

وكنتيجة لازدرائهم لنصيحته، فإنهم هزموا بعد مدة قصيرة من قبل القوات العربية البريطانية المشتركة، إذ أنهم لم يخسروا جميع المنطقة فحسب، التي نصحهم فالكنهاين أن يتخلوا عنها، وإنما أيضاً خسروا مدينة دمشق وكافة الأراضي السورية التي كان يمكنهم الاحتفاظ بها بطريقة ما.

بعد وليمة العشاء السخية وهذه المقابلة التنويرية والتوضيحية من حاكم دمشق العثماني، تسلل لورنس ودهمي إلى الصحراء وشقا طريقهما جنوباً إلى منطقة حوران، وهي منطقة الدروز، وهم قوم وزعوا مساكنهم وخيامهم على مساحة جبل عالٍ كان يدعى بجبل الدروز (جبل العرب).

وكان الدروز يدينون كثيراً في تضامنهم القبلي لعقيدتهم الخاصة. وقد لقي الأتراك صعوبة كبيرة في جعل هذه القبيلة المشاكسة والمستقلة تعترف بالسلطة العثمانية أو تدفع الضرائب للسلطان. وكان معظم عرب الصحراء على نزاعات وثارات دموية دائمة معهم، بيد أن لورنس جمع بين زعماء قبائلهم، بموهبته الفريدة في اكتساب الأصدقاء، ونجح في إقناعهم بأنه يجب عليهم أن يقسموا بالولاء للأمير فيصل وأن يجعلوا أنفسهم مستعدين للتعاون مع جيشه عندما يقترب من دمشق.

لم تكن هناك منطقة بالنسبة للورنس لم تطأها قدماه. فتجول ومعه رفيقه دهمي، وطلال، وهو شيخ بدوي كان معروفاً جداً في كل زاوية وصوب في الجزيرة العربية، تجولوا حول مناطق دمشق ودرعا وحوران، يستطلعون الخطوط الدفاعية التركية. كما استطلع لورنس الخط الحديدي التركي من ثلاث اتجاهات ووصل درعا وأخذ فكرة عن النقاط المهمة الواقعة على الخطوط الشمالية، والجنوبية، والغربية لنقطة الوصل أو الالتقاء للخط الحديدي والتي ستكون ضرورية بالنسبة له ليقطعها أو يدمرها عندما يتقرر تقدمه الحاسم نحو دمشق. وكان كل ذلك محفوفاً بالخطر، وكان تخفيه الكامل وإتقانه التام للهجات البلاد قد أنقذه من أن يتطرق إليه الشك من قبل الأتراك، وبالتالي إطلاق النارِ عليه على أنه جاسوس عادي.

وقد نجا مرة بصعوبة. فبينما كان يتجول غير عابئ في شوارع درعا، متخفياً على أنه ابن الشيخ طلال، أوقفه جنديان تركيان في السوق وألقيا القبض عليه بتهمة أنه فار من الجيش التركي. فقد كان كل شخص قادر على حمل السلاح في الإمبراطورية العثمانية خاضعاً للخدمة العسكرية. وقاداه إلى مقر القيادة التركية وجلداه حتى فقد الوعي. ومن ثم رموه خارجاً بين الحياة والموت، وهو مصاب برضوض رهيبة. وبعد بعض الوقت استعاد وعيه، وأصبح قادراً على الزحف، ونجا بنفسه تحت جنح الظلام.

كما أن التخفي في ثياب امرأة نتجت عنه صعوبات عديدة ففي منطقة عمان، وفي جبال مؤاب، الواقعة شرق الأردن، تجول لورنس عبر الخطوط التركية متخفياً بزي امرأة غجرية، وأمضى ما بعد الظهر يتجول حول الخطوط الدفاعية التركية المحيطة بمحطة السكة الحديد، وبعد أن قرر بأنها ستكون غير ذات جدوى أو غير مهمة بالنسبة للعرب لمحاولة الاستيلاء عليها نظراً لحجم الحامية وقوة المدفعية فيها، لذلك فقد بدأ رجوعه عبر الصحراء. فتعقبته مجموعة من الجنود الأتراك الذين كانوا يبحثون عن «امرأة» بدوية. وتبعوه لأكثر من ميل، وكانوا يحاولون مغازلته قبل أن يستطيع الإفلات منهم.

كانت الكرك من أهم المواقع التركية الحصينة الواقعة على تخوم الصحراء، وهي بلدة تقع بالقرب من البحر الميت. وتخفى لورنس في إحدى الليالي على أنه بدوي، وذهب من خلال الخطوط التركية مع الشيخ طراد ابن نويرس من قبيلة بني صخر ووجدا بأنه لم يكن في الحامية التركية سوى ثلاثمائة جندي في تلك اللحظة. وحل لورنس والشيخ طراد ضيوفاً في تلك الأمسية عند واحد من أصدقاء طراد في الكرك. وقد ذبح القرويون على شرف ضيفيها المميزين شياهاً وماعز في شوارع البلدة، وأوقدوا نيراناً كبيرة، واحتفلوا ورقصوا وأنشدوا أهازيج الحرب حتى الفجر. وكان جنود الحامية التركية مذعورين جداً من هذا الإظهار الجريء فأغلقوا على أنفسهم وتمترسوا في ثكناتهم.

وبعد انتهاء الاحتفال، غادر لورنس ورفيقه الكرك وعادا إلى العقبة. وكانت نتيجة هذه الحادثة غير المهمة أنه تم سحب ألفي جندي تركي آخرين من القوات التركية التي كانت تواجه قوات اللنبي في فلسطين وأرسلوا إلى حامية الكرك. وقد حقق لورنس هدفين كانا في ذهنه: جعل تلك الرحلة المغامراتية التي قام بها تمتد وتصل إلى أرض العدو؛ ونشر دعاية من أجل مسألة القومية العربية بين القبائل التي كانت لا تزال تحت الحكم أو السيطرة التركية، وقد حصل على معلومات كافية ليملأ كتاباً يتعلق بخطط القيادة العليا الألمانية. ومضى يتابع جولاته خلف الخطوط التركية بشكل شامل ذلك أنه خلال الزحف النهائي للثورة العربية كان يعرف ذلك الجزء من البلاد تماماً، تقريباً كما يعرفه الترك أنفسهم.

22

أكبر خدعة منذ خدعة حصان طروادة

مع الاستيلاء على ميناء العقبة البحري القديم، الذي حول الثورة العربية إلى هدف الاستيلاء على سوريا، ومع الاعتراف الكامل بجيش الحجاز على أنه أصبح يمثل الجناح الأيمن لقوات اللنبي، فقد أصبح من الواجب أن تتلاءم جميع تحركات لورنس مع خطط اللنبي الحربية.

كان اللنبي آنذاك يسيطر على جنوب فلسطين وحتى الممر الضيق المتعرج الممتد عبر البلاد من وادي الأردن إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط جنوب جبل الكرمل، والذي عرفت قمته منذ العصور القديمة على أنه جبل «الله». وكان قد نجم عن الزحف الأول للنبي بقواته في خريف 1917 تحرير صحراء النقب، وهي الموطن القديم للنبيين إبراهيم ولوط، وغزة التي كانت عاصمة الفلسطينيين القدماء حيث خانت دليلة شمشون، والخليل حيث دفن فيها كل من إبراهيم، إسحق، سارة وربيكا في مغارة «ماشبيلا». كما نجم عنه أيضاً تحرير مدينة يافا، وهي ميناء رئيس في فلسطين منذ أيام النبيين داوود وسليمان قبل ثلاثة آلاف سنة، وسهول فلسطين وسهول شارون، والأكثر أهمية من ذلك، نجم عن ذلك الزحف تحرير مدينتي القدس وبيت لحم المقدستين من النير التركي. إلا أنه كانت لا تزال هناك أرض «السامرا» القديمة ومدينة الناصرة وجميع أراضي الجليل، والسهل الساحلي الشمالي لفلسطين وكافة أنحاء سوريا في أيدي الأتراك، وبذلك فإن

الحملة العسكرية كانت قد أنجزت نصف هدفها. وأصبح هناك نهجان أو سبيلان مفتوحان أمام اللنبي: إما أن يدفع بالترك شمالاً بدرجات معينة، أو أن يحطم القوة التركية في الشرق بضربة واحدة ساحقة. فاختار القائد العام للجيوش البريطانية (اللنبي) القيام بالخطوة الكبيرة، ومفضلا الخطوة الثانية.

وقرر اللنبي شن هجومه النهائي شمال يافا والقدس في تموز عام 1918. ولكن في شهر حزيران عندما كان لوديندروف يقوم بهجومه الأخير نحو باريس وموانئ شانيل، فقد أصبح وضع الحلفاء صعباً في إحراز تقدم في أوروبا الغربية بحيث أجبروا على أن يطلبوا من اللنبي إرسال العديد من فرقه العسكرية لتعزيز جبهتهم في فرنسا.

وكان هذا مما أفشل كل خطط اللنبي تماماً. وأصبح من الضروري الآن بالنسبة له أن ينشئ جيشاً جديداً. ومثل هذه الخطوة غير المتوقعة، أي إنشاء جيش كامل للحلفاء في الأرض المقدسة، كانت ضرورية لكنها في نفس الوقت كانت ضربة مذهلة، بيد أن أسد بريطانيا (اللنبي) كان مستعدا لذلك، فعمل على الفور على تشكيل جيش جديد مؤلف في غالبيته من فرق هندية جلبت من العراق ولكنها غير مدربة على الحرب، ومن فرسان خيالة مخضرمين بقيادة الجنرال الأسترالي هاري شوفيل. وبدلاً من أن يهاجم الأتراك في شمال فلسطين في شهر حزيران أو تموز فقد بدا الآن من المستحيل بالنسبة للنبي أن يشن هجومه الساحق النهائي قبل شهر تشرين الأول أو تشرين الثاني. وكان لورنس مقتنعاً بأن مثل هذا التأخر سيجعل من الصعب عليه أن يقدم الكثير من المساعدة في الجناح الأيمن من الجبهة. إذ عند ذاك سيكون المقاتلون البدو قد استعدوا للهجرة بقطعانهم إلى أماكن الرعي الشتوية الواقعة على النجود الصحراوية الوسطى، إضافة إلى أن سنوات خبرته العديدة في البلاد قادته لأن يعتقد بأن أمطار الخريف ستعيق أية عمليات عسكرية يحاول القيام بها خلال ذلك الفصل.

وشرح لورنس ذلك للقائد العام للجيش البريطاني في فلسطين الجنرال اللنبي، الذي فهم الوضع على الفور، وبجهد خارق استطاع أن يشكل فرقة جديدة بسرعة كبيرة جداً لتأخذ مكانها في الميدان خلال ثمانية أسابيع من تاريخ وصولها من العراق. وفي نهاية

شهر آب، أرسل اللنبي طائرة استطلاع إلى الجزيرة العربية ومعها برقية ترحيب إلى لورنس يعلن فيها بأنه سيكون قادراً على شن هجوم مشترك في وقت مبكر من شهر أيلول بدلاً من شهر تشرين الأول أو تشرين الثاني.

كان اللنبي بسبب إدراكه التام لنقص خبرة معظم قواته الجديدة، متأكداً من أن الأتراك سيهزمون بواسطة الإستراتيجية بدلاً من القوة. لذلك قرر مفاجأة الأتراك بخدعة ضخمة، وهي نوع من صورة متحركة للجيش البريطاني بحيث يندفع مباشرة على طول نهر الأردن من البحر الميت باتجاه الجليل. ولكن من خلال جيش خادع مزيف. ففي إعداده لهذه الخطة كان تحرك جيش اللنبي أولاً لنقل وتغيير مواقع مستشفياته الميدانية المحمولة على الجمال من جنوب فلسطين إلى نهر الأردن على بعد خمسة عشرة ميلاً من الخطوط التركية. ثانياً كان لديه مئات من الخيام البالية وغير الصالحة للاستخدام شحنها على خط سكة حديد الحليب والعسل من مصر ومن ثم نصبها على ضفاف نهر الأردن. ثم نقل جميع مدافعه التي استولى عليها من الأتراك أسفلاً إلى وادي الأردن وبدأ بتوجيهها في اتجاه مخيم القوات التركية على جبال مؤاب. ومن ثم نشر عشرة آلاف سرج وغطاء جواد على الأشجار وأكمات الشجيرات في الوادي وثبتها لتبدو وكأنها خطوط طويلة من الجياد. ووضعت خمسة عوامات وطوافات جديدة لجسور متحركة على النهر.

كان الوادي المقدس لنهر الأردن مليئاً بجميع الصفات المميزة وخاصيات الخدعة للمعركة لعصور طويلة. ولم تكن هنالك خدعة منذ خدعة الإغريق للطرواديين بحصانهم الخشبي الشهير أكبر من هذا التمويه الضخم الذي وضع أمام عدو ساذج.

وعندما حلقت طائرات الاستطلاع الألمانية فوق وادي الأردن أرسلت للقيادة التركية أخباراً مهمة من أن اللنبي وضع فرقتين جديدتين في هذا القطاع. لقد رتب ونظم هذا الجيش التمويهي بعناية كبيرة من قبل الجنرال بارثولوميو أحد أركان جيش اللنبي، وكان يبدو حقيقياً تماماً بحيث أن الألمان والأتراك لم يظنوا بأنه كان جيشاً كاذباً مزيفاً؛ كما أنه لحسن الحظ كان محروساً بشكل دقيق وبإحكام بحيث لا يستطيع أي جاسوس ألماني أو تركي الوصول إليه أو اختراقه. كما أن لورنس ساعد أيضاً في خداع الأتراك. فقبل

الموعد المقرر للهجوم الكبير بوقت قصير اندفع ثلاثمائة من سلاح الهجانة الملكي من فلسطين لمساعدته. وكانوا بقيادة الكولونيل روبين بوكستون، وكان جنديا بالفطرة، حيث كان قبل الحرب يعمل مصرفياً بارزاً في شارع لومبارد بلندن. وبقيادة وإشراف زميله في المعسكر، الميجوري، مارشال، وكان قبل الحرب عالم جراثيم (بكتريولوجي) أرسل لورنس قوات سلاح الهجانة لمهاجمة حامية تركية مهمة في المدورة، حيث جرى هناك اشتباك مثير لمدة عشرين دقيقة في الثامن من شهر آب، 1917. وبعد معركة المدورة، قاد لورنس قوة مشتركة مؤلفة من قوات الهجانة الانجليز وقوات عربية ضد الحامية التركية في عمان، في شرق الأردن تماماً.

كانت تلك خدعة فحسب، إلا أنها أكدت للأتراك اعتقادهم بأن وادي الأردن التاريخي كان يعج بأعداد ضخمة من قوات اللنبي. وأرسل لورنس واحداً من أبرز شيوخ بني صخر باتجاه دمشق ومعه سبعة آلاف جنيه ذهبي إسترليني. واشترى الشيخ بسرعة كل ما وجده من شعير في كل بلدة وقرية تقع على الحدود الشرقية لسوريا. وكان الأتراك يعرفون جيداً بان قوات الأمير فيصل لا يمكنها استخدام مثل هذه الكميات الضخمة من الشعير، وقرروا على الفور بأن الشعير لا بد وان يكون مخصصاً لقوات اللنبي في وادي الأردن، كما بدأ لورنس ببث شائعات من أن قوات الأمير فيصل ستشن هجومها الرئيسي ضد محطة سكة حديد درعا المركزية الواقعة ما بين عمان ودمشق. وعلق لورنس على ذلك بقوله، «في الحقيقة، فقد كان لدينا كل النية لمهاجمة درعا، إلا أننا نشرنا أخباراً بشكل واسع بحيث أن الأتراك لن يصدقوها. ومن ثم في سرية تامة عقدنا العزم أن نبقي الأمر ضمن دائرة ضيقة بيننا بأننا كنا سنحشد قواتنا ضد عمان. إلا أننا في الحقيقة لم نكن ننوي ذلك.»

وتسرب هذا «السر» ونقل إلى الأتراك، الذين نقلوا على الفور الجزء الأكبر من قواتهم إلى مقربة من عمان، تماماً كما خطط كل من اللنبي ولورنس.

وعندما بدأ تقدم الجيش العربي فعلياً، لم يكن أحد سوى الأمير فيصل، والكولونيل جويس، والكولونيل لورنس يعرف بأن الهجوم كان مركزاً على درعا. وبدأ لورنس في وقت مبكر من شهر أيلول 1917 بالزحف شمالاً من رأس خليج العقبة لمساعدة اللنبي

في زحفه التاريخي الأخير. ولكن بدلاً من أن يأخذ لورنس أتباعه من قوات البدو من الحجاز، باستثناء حراسه الشخصيين، فإنه جند وشكل جيشاً جديداً من أبناء قبائل الصحراء العربية الشمالية، كما أن جويس عمل على إضافة مجموعة كبيرة من الفارين من الجيش التركي التي كانت أعدادهم في ازدياد مضطرد.

عندما بدأ زحفه من وادي عربة من رأس خليج العقبة، كانت قافلة لورنس تضم ألفي جمل محملة بالعتاد، وأربعمائة وخمسين من القوات العربية النظامية الممتطين جمال سباق، وأربع وحدات عربية من المدافع الرشاشة، وطائرتين، وثلاث سيارات مصفحة من نوع رولزرويس، وكتيبة تدمير من رجال مختارين من سلاح الهجانة المصري، وكتيبة غوركاس الهندية ممتطية جمالا طويلة من صحراء سيند (الهندية)، وأربعة مدافع جبلية بأطقم من الجزائريين. إضافة إلى أنه كان معه مائة من الحراس المتألقين الخاصين والمنتقين من البدو. وكانت مجموع قواته حوالي ألف رجل ممتطين الجمال.

كان شعار لورنس في هذه الحملة، كما كان الحال بالنسبة للآخرين، «لا حد معين». فقد واجهوا مسيراً لمسافة خمسمائة ميل عبر صحراء مقفرة من دون خارطة تحديد وتحت ظروف نقل وصعوبات كبيرة. فخلال مرحلة واحدة ساروا لمدة أربعة أيام من بئر ماء إلى أخرى، وهم يحملون مؤونتهم الكاملة من الماء ويعانون من العطش بعد ذلك. وعندما كانوا يصلون إلى بئر ماء جديدة كانوا يشربون بكثرة ليكتشفوا بعد ذلك بأن المياه كانت مليئة بالعلق والطفيليات. فهذه الطفيليات أو العلقات تثبت نفسها داخل الغشاء الأنفي أو داخل الأغشية المخاطية للفم وتسبب ألماً فظيعاً. ومع ذلك فقد استطاع هذا الفوج أو الطابور أن يسير لمدة أسبوعين. ومن ثم أسرعوا شمالاً ليقطعوا ويدمروا ثلاثة خطوط حديدية تركية وجميع أسلاك التلغراف حول درعا، فقد كانت مهمة لورنس الرئيسية تكمن في منع الأتراك من الاتصال مع دمشق، وحلب، واسطنبول عندما يبدأ اللنبي تقدمه.

لقد كانت خطة جيش التمويه في الأردن ناجحة تماماً. وفي الحقيقة، فقد كانت هناك ثلاث كتائب فقط من القوات المدربة في ذلك الجزء من الأرض المقدسة، اثنتان منها كانتا

قد وصلتنا حديثاً من قوات من الجزر البريطانية والولايات المتحدة. فإذا ما عرف الأتراك الحقيقة فإنهم كانوا سيرسلون لواءً، يدفعونه إلى ما وراء خطوط قوات اللنبي، ويعيدون الاستيلاء على القدس.

لقد زود القائد العام قواته في وادي الأردن بمؤونة ثلاثة أسابيع فقط لكي يتمكن من استخدام كافة نقليات المؤن من أجل جيشه الرئيسي. وكان مستخدمو تموينه مستائين من ذلك، فقد قالوا بأن القوات على طول نهر الأردن يجب أن تمنح مؤونة تكفي لثمانية أسابيع؛ بيد أن اللنبي كان يعرف أنه سيكون آمناً تماماً ما دامت خطته من أجل ضربة قاصمة تسير من دون توقف أو تردد أو معيقات.

وكان اللنبي يشعر بأنه لن يكون من الصائب أن يشتبك مع الأتراك في معركة مختارة بجيشه الصغير وناقص التدريب، لذلك فقد كان هدفه الوحيد هو إيقاع كافة احتياطي الجيش التركي في الشرك وفي المكان الخاطئ، وهو وادي الأردن.

كان هجوم اللنبي الزائف أو الخادع بالقرب من أريحا مقرراً له يوم 18 أيلول، 1917 . فقد سمحت شعبة المخابرات البريطانية بتسرب هذا «السر» بعناية، وبالطبع فقد كان الأتراك مستعدين لالتقاط ذلك.

أما هجوم اللنبي الحقيقي فلم يكن في الثامن عشر من أيلول وإنما في التاسع عشر منه، وعندما صحا الأتراك واكتشفوا كم كانوا أغبياء، كانت الحرب في الشرق الأدنى قد انتهت، وأصبح معظمهم إما أسرى عند البريطانيين أو عند العرب. علاوة على ذلك، فالمعارك لم تجر في وادي الأردن وإنما بعيداً في الجانب الآخر من فلسطين إلى الشمال من مدينة يافا على ساحل البحر الأبيض المتوسط. فقد نقل اللنبي كافة مشاته وفرسانه تقريباً إلى هناك ليلاً، وظلوا متخفين في بساتين البرتقال حتى يوم المعركة الحقيقية، تلك المعركة التي قصمت العمود الفقري للإمبراطورية العثمانية.

* * *

23

اشتباك فرسان البحرية وإغارة لورنس الأخيرة

كانت جميع الذخائر التركية والمؤن تجلب من شمال سورية بواسطة خط السكة الحديد إلى دمشق وفلسطين وعمان والمدينة. وكانت خطة لورنس تكمن في الالتفاف عبر نهر من رمال الصحراء غير المحددة، والالتفاف شرقاً إلى نهاية الخطوط التركية، والخروج بشكل غير متوقع من الصحراء والاندفاع خلف الأتراك، ومن ثم قطع كافة خطوط اتصالاتهم المتواجدة حول درعا. وكان من أكبر المشكلات صعوبة خلال هذه المناورة الإبقاء على تزويد طابور قواته بالمؤن. حتى أن العربات المصفحة والطائرتين لم تستطع حمل وقود كافٍ لتواصل سيرها. والمسافة من العقبة إلى واحة الأزرق تبلغ (290) ميلاً عبر رمال صحراء حارقة. وكانت هناك آبار في ثلاثة أماكن فقط حيث يمكن أن تسقى الجمال، ويبقى القليل جداً من الماء الذي يمكن أن يسد به رمق الرجال.

وفي طريقه استراح الرتل في الطفيلة، وهي قرية يبلغ عدد سكانها ستة آلاف نسمة، وقد وقع بقربها حدث غير عادي في مجمل أحداث الثورة العربية. حيث توجهت مجموعة من الفرسان البدو بقيادة أبي أرجيج من بئر السبع، تحت جنح الظلام، إلى قاعدة بحرية صغيرة للعدو، تقع بالقرب من التخم الجنوبي للبحر الميت، ولا تبعد كثيراً عن مدينتي سادوم وعمورة القديمتين. وكان ما يدعى بأسطول البحر الميت التركي يتألف من بضع سفن قديمة وقوارب آلية مسلحة بمدافع خفيفة كانت تجوب على طول الساحل. وكان الضباط الأتراك يتناولون طعام الإفطار في قاعة طعام الجيش التركي القريبة، ولم يكونوا

مدركين تماماً لاقتراب القوة المعادية. ورأى أبو ارجيج بنظرة واحدة بأن المرسى كان مهجوراً باستثناء بضعة حراس، لذلك فقد أمر أتباعه بأن يترجلوا عن جيادهم. وبهجوم واحد تسللوا إلى القوارب كمثل قراصنة برابرة، وقضوا على طواقمها، ومن ثم خرقوها، ثم امتطوا جيادهم ببراعة تامة، واختفوا في سراب الصحراء قبل أن يدرك الأتراك ما حدث. فربما كانت هذه المناسبة أو الحادثة الوحيدة في التاريخ التي فاز وانتصر فيها الفرسان في اشتباك بحري.

كانت خطة لورنس الأصلية بأن يضم تحت رايته أبناء قبيلة الروالى العديدين، والذين يشغلون جزءاً واسعاً من شمال الصحراء العربية، ومن ثم ينزل بقواته على منطقة حوران الجبلية ليقوم بالهجوم المباشر على درعا. وأدى هذا إلى لا شيء بسبب خلاف بسيط نشأ بشكل غير متوقع بين الملك حسين والفريق جعفر باشا وكبار ضباط الجيش الشمالي العربي، مما كدر مزاج جزء مهم من قوات لورنس. وعندما أعيد الانسجام أصبح الوقت متأخراً جداً، وكنتيجة لذلك، فإن عشيرة روالى لم تأت إلى سورية أبداً، مما جعل من الضروري بالنسبة للورنس أن يعدل خطته.

وفي النهاية قرر تنفيذ هجوم طيار على خطوط السكة الحديد شمال، غرب، وجنوب درعا بقوات نظامية، يساعدها فقط أفراد من الدروز الشرسين من منطقة حوران وبضعة فرسان من قبيلة الروالى بقيادة الشيخ خالد وطراد الشعلان. وقبل البدء بهذا الهجوم، رتب لورنس خدعة أخرى قرر أن يجريها في الثامن عشر من أيلول ضد كل من عمان والسلط، ولهذا الغرض فقد أرسل ملاحظة إلى أبناء قبيلة بني صخر لكي يتجمعوا في الصحراء بالقرب من عمان. وقد أكدت هذه الإشاعة بتعبئة اللنبي لجيشه التمويهي الضخم في وادي الأردن، مما جعل عيون الترك تتركز باستمرار على الأردن بدلاً من المنطقة الساحلية للبحر الأبيض المتوسط إلى شمال يافا.

جعل لورنس مقر قيادته لعدة أيام في واحة الأزرق حيث تقع هناك قلعة مهمة يعود تاريخها إلى ما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، ولها أبراج وكوات أو فرجات لإطلاق النار منها وهي تشبه قلعة بارون اسكتلندي. وعلى ما يبدو فإنها كانت قاعدة أو

مركزا دفاعيا بعيد للإمبراطورية الرومانية، فوفقاً للكولونيل بوكستون، من سلاح الهجانة الملكي (البريطاني)، فقد وجد حجراً محفوراً بين الأنقاض كان عليه نقش يبين بأن فيلقين لأنطونيوس بيوس (إمبراطور روماني) كانا متمركزين هنا. ولم يعرف إلى حد بعيد من أن قوة أخرى قد زارت هذه القلعة حتى قدم إليها لورنس ورجاله. وكان العرب يرفضون الذهاب بالقرب منها أو الاقتراب منها لأنهم كانوا يقولون بأنها كانت مسكونة بكلاب مسعورة لملوك الرعيان وهي تجوب حول القلعة طوال الليل. إلا أن لورنس فكر في وقت من الأوقات أن يتقاعد هنا ويجعل قلعة الأزرق منزله بعد الحرب.

في الثالث عشر من أيلول، 1917، غادر لورنس، ترافقه قوة صغيرة متحركة كان قد نظمها استعداداً للهجوم الكبير على درعا، واحة الأزرق وساروا إلى سفوح جبال السلط. وبعد يومين وصلوا إلى «أم طي»، التي تبعد ثلاثة عشر ميلاً إلى جنوب شرق درعا، حيث انضم كافة السكان الذكور من جميع قرى حوران تقريباً لجيش الشريف حسين ككتلة واحدة. وكان من بينهم الشيخ طلال الحارثي من قرية «طفس»، وكان أروع مقاتل في حوران، رافق لورنس في بعض حملاته التجسسية خلف الخطوط التركية. كما كان يعمل كدليل لهذه الحملة ويكفل قضية الثورة في كل قرية. وقد أعلن لورنس أنه لولا شجاعة، وطاقة، وصدق وأمانة بعض قبائل المنطقة التي مروا بها، الذين كانوا على عداوات وثارات دموية مع بعض القبائل في الجزيرة العربية، لكان من الممكن فشل جميع خططهم. ومن المحتمل أنه قد انضم ما بين عشرين إلى ثلاثين ألفاً من القرويين والبدو العرب إلى صفوف الثورة في مناطق مختلفة في هذه الحملة النهائية الكبرى في الشرق الأدنى.

إضافة إلى تدمير خطوط المواصلات فقد كان لورنس قد عزم على أن يضع نفسه وقواته ما بين محطة السكة الحديد الرئيسية الحيوية في درعا والجيوش التركية في فلسطين بحيث يوقعوا العدو في الشرك ليقوم بتقوية حاميته المعزولة في درعا بقوات من جبهة فلسطين مما سيساعد في تقدم قوات اللنبي. وبنفس الوقت فقد كان ضرورياً أيضاً بالنسبة للورنس والقوات العربية أن تقطع وتدمر خط السكة الحديد إلى جنوب وغرب درعا لكي تضيف تأكيدا لاعتقاد العدو بأن كامل هجوم الحلفاء سيأتي ضد الجيش الرابع التركي المتمركز في وادي الأردن الأعلى.

كانت الوحدة العسكرية الوحيدة الموجودة لنسف خط السكة الحديد تتألف من عربات مصفحة. وقد انطلقت هذه العربات مع لورنس متخطية السكة الحديد واستولت على موقع تركي قبل أن يعود الأتراك المشدوهون ويدركوا الخطر المحدق بهم. كان ذلك الموقع يشرف على جسر سكة حديد جذاب، وهو موقع الكيلو 149، الواقع جنوب دمشق، وقد نقش على الجسر إطراء منمق لإهدائه للسلطان المسن عبد الحميد، السلطان الأحمر.

ووضع لورنس مائة وخمسين باوندا من المتفجرات وأصابع الديناميت عند نهايتي الجسر وفي وسطه، وعندما ثبتها تماماً اختفى مع نسيم الخريف. وأنجز هذا العمل، وبدأت السيارات المصفحة بالعودة بأقصى سرعتها إلا أنها أصبحت تجنح وتتوقف في التراب حيث تأخروا عدة ساعات بسبب ذلك. وفي طريق عودتهم للانضمام للجيش المتواجد في منطقة حوران عبروا خط سكة حديد يقع على بعد خمسة أميال من درعا، حيث قاموا بمهاجمة موقع تركي آخر، وأبادوا كتيبة فرسان كردية، ونسفوا جسراً آخراً، وخربوا ستمائة قضيب مزدوج من السكة الحديد.

بعد تدمير كافٍ لخط السكة الحديد في منطقة درعا بحيث تم جعل كافة خدمات التموين والإمداد التركية في تشويش وفوضى تامة، صعد لورنس ورجاله إلى قمة جبل عالٍ يدعى جبل «تل عرا»، يشرف على مشهد بانورامي شامل لدرعا ويبعد عنها أربعة أميال. ومن خلال منظاره الميداني استطاع رصد تسع طائرات جاثمة على مطار إقلاع. فخلال ذلك الصباح كان الطيارون الألمان دائمي الحركة في الجو. وكانوا يقومون بلعبة مزعجة مع القوات العربية بإلقائهم القنابل اليدوية ورشها بالمدافع الرشاشة. وحاولت القوات العربية حماية نفسها من الأرض بواسطة المدفعية الخفيفة، إلا أنهم أصيبوا منها بضرر وأذى، إلى أن قدمت طائرة إنجليزية قديمة الطراز يقودها الكابتن جونور تدب قادمة من الأزرق وتوسطت في منتصف السرب الألماني.

شاهد لورنس ورجاله هذا الاشتباك بمشاعر مختلطة، حيث كانت كل أربع طائرات معادية وأربع طائرات استكشاف أكثر من مساوٍ لطائرة بريطانية عتيقة الطراز جداً.

وبمهارة وحظ أوفر انطلق الكابتن جونور بأقصى سرعته باتجاه اليمين من خلال الطائرات الألمانية وقاد كل السرب الألماني نحو الغرب.

وبعد عشرين دقيقة عاد الطيار جونور الجريء يدب بطائرته في الجو تتبعه طائرات العدو وأشار إلى لورنس من انه لم يعد بطائرته وقود. وهبط ضمن خمسين ياردة بين القوات العربية ونزل من طائرته التي جثمت على الأرض. وانقضت طائرة ألمانية عليها فوراً ووجهت لها ضربة مباشرة بقنبلة حيث فجرتها وحولتها إلى أشلاء. ولحسن الحظ، فقد كان جونور قد قفز من مقعده فيها قبل لحظات. وكان الجزء الوحيد الذي لم يعطب من الطائرة ويدمر هو مدفع لويس المركب عليها. وخلال نصف ساعة نقله ذلك الطيار الشجاع إلى عربة فورد، وأصبح هذا المدفع يجوب على تلك العربة حول درعا ويرشق الأتراك برصاصه.

في غضون ذلك، اندفع لورنس للانضمام إلى كتيبة القوات التي أرسلها في اتجاه قرية مزيريب. وبعد ساعة من وصوله إليها ساعدهم في قطع خطوط التلغراف التركية التي تربط فلسطين بسوريا. وسيكون من الصعب تقدير مدى أهمية هذا العمل، لأنه يعزل كلياً الجيوش التركية عن كل أمل بالاتصال بشمال سورية وبالأراضي التركية أيضاً.

وفي مزيريب انضم عدة آلاف من سكان القرية وسكان منطقة حوران للقوات العربية وفي اليوم التالي سار الرتل العربي على طول خط السكة الحديد باتجاه فلسطين مباشرة إلى قلب المنطقة الواقعة خلف الخطوط التركية. وأمضوا معظم نهار ذلك اليوم وهم يزرعون أصابع الديناميت تحت خط السكة الحديد، وبالقرب من قرية نصيب فجر لورنس هناك الجسر التاسع والسبعين، وكان من أكبر الجسور التي فجرها من قبل حيث احتوى على ثلاث قناطر جميلة، وبذلك فقد أغلق به مهنته الطويلة والناجحة بنسف وتدمير الجسور والسكة الحديد. وكأنه كان يعرف بأنه سيكون آخر عمل تدميري له، فقد زرع تحته عددا مضاعف من أصابع الديناميت.

قضى الرتل العربي ليلته في نصيب وناموا فيها ليلة الثامن عشر من أيلول بعد يوم عمل جيد. وفي صباح اليوم التالي، صحوا مبكرين ونشيطين، فسار لورنس ومعه كافة

الرتل إلى «أم طي» حيث انضمت إليهم هناك العربات المصفحة. وخلال الصباح أظهرت طائرة عدوة بالقرب من السكة الحديد فأسرع لورنس ومعه عربتان مصفحتان عبر منطقة مفتوحة للاستطلاع. فوجدوا ثلاث طائرات ألمانية من ذوات المقعدين جاثمة أمام حظائرها. ولم يتركوا الفرصة تفوتهم فاندفعوا بالعربتين نحو الطائرات، فتمكنت طائرتان ألمانيتان من الإقلاع وحلقتا كمثل طائرين ضخمين، وقامتا برشق كثيف للمصفحتين، بينما كان لورنس وطاقم المصفحتين يقضيان على الطائرة الثالثة الجاثمة على الأرض بإطلاق ألف وخمسمائة طلقة عليها. وعندما رجعت المصفحتان إلى «أم طي»، حاولت الطائرات الألمانية تدميرها وأغارت عليها أربع مرات، بيد أن جميع قنابلها أخطأت الهدف، ونجت المصفحتان من غير ضرر، ما عدا جرح بسيط أصاب الكولونيل (لورنس) في يده. وعندما تحدث لورنس عن ذلك وعبر عن انطباعه بشأن عمل المصفحتين، قال بأنه يعتبر ذلك قتالا فاخرا بهاتين السيارتين.

في نفس ذلك اليوم أظهرت كل من القوات النظامية العربية بقيادة جعفر باشا والسيارات المصفحة وطواقمها والكتيبة الفرنسية وفرسان قبيلة الروالى بقيادة نوري الشعلان اعتباراً كبيراً لأنفسهم.

ينحدر جعفر باشا، الذي شق طريقه بشكل رائع من خلال هذا الاشتباك، من أسرة بغدادية رفيعة المستوى. وكان تاريخه مليئا بالتعاقبات والتغيرات الرومانسية. وعند اندلاع الحرب، أُرسل جعفر العسكري، كجنرال في هيئة الأركان التركية، في غواصة من اسطنبول إلى شمال إفريقيا لتنظيم انتفاضة أو ثورة في الصحراء بين أبناء السنوسيين العرب. وقاد السنوسيين في حملة قصيرة ولكنها مشهودة ضد البريطانيين. ففي المعركة الأولى، هزم الإنجليز، وانسحب في المعركة الثانية، وفي المعركة الثالثة أصيب بجروح خطيرة، وهُزم وأُسر بواسطة حرس دورست يومانتري في العجاجية بالقرب من السلوم، وسجن في القلعة الكبيرة في القاهرة.

وعند محاولته الفرار بعد ثلاثة أشهر كسر كاحل قدمه وتم أسره ثانية في خندق مائي تحت القلعة. وكان بديناً كالبرميل، مليئاً بمرح وحب الحياة وجنتلماني مغامر، وشخصاً

محبوباً، وبعد فترة قصيرة أطلق الإنجليز سراحه لقاء عهد شرف وسمحوا له بالتجوال في القاهرة. وكونه عربي النشأة فقد تعاطف مع حركة القومية العربية، وطلب يوماً من آسريه الإنجليز بأن يسمحوا له بالتطوع بشكل خاص مع قوات الأمير فيصل. وتمت الموافقة على طلبه، وقام بعمل بارز بحيث أنه بعد مرور عدة أشهر رقي إلى منصب القائد العام لجيش الأمير فيصل النظامي، الذي كان يتألف بشكل رئيس من الأفراد والرتب الفارين من صفوف الجيش التركي الذي عُرف فيه كجنرال أو فريق تركي.

منح جعفر باشا عدة أوسمة تقديرية منها وسام الصليب الحديدي القيصري في الدردنيل ووسام الهلال التركي لجهده في حملة السنوسي، وبعد فترة قصيرة من عمله في الجيش العربي منح وسام قائد من درجة القديس ميشيل والقديس جورج من قبل البريطانيين. وقد قلده اللنبي هذا الوسام في قصر قيادته في رام الله بفلسطين. وكان حرس الشرف الذي استعرضه في هذه المناسبة نفس حرس دورست يومانتري الذي أسره قبل عام. وقد سر جعفر بشكل كبير واستمتع بهذه اللفتة الذكية من التكريم من جانب اللنبي.

كما لعب نوري السعيد، نسيب جعفر باشا العسكري، دوراً مشهوراً ولامعاً بشكل موازٍ في الحرب. وكان رئيساً لأركان جيش الأمير فيصل، وبقي في منصبه هذا عندما أصبح فيصل ملكاً على سورية، وملكاً على العراق فيما بعد. ومثله مثل جعفر، فقد درس في كلية الأركان التركية. وعمل ملاحاً جوياً في حرب البلقان. وبعد ذلك عمل أميناً للجمعية السرية للضباط العرب التي خططت للإطاحة بالحكم التركي. وكان مغامراً ويحب القتال الضاري. وفي الحقيقة كلما كان القتال مستعراً أو ضارياً كلما كان نوري السعيد أبرد مزاجاً. وكان واحداً من رجال المدن العرب القلائل الذين أعجب بهم البدو واحترموهم.

كل شيء كان يمضي بشكل جيد بالنسبة للخطط التمهيدية لهجوم اللنبي في فلسطين. ولكن لغاية أربع وعشرين ساعة قبل أن يشن الهجوم في التاسع عشر من أيلول، لم يكن القائد العام نفسه متأكداً بعد فيما إذا كان سينجح فيه أم لا. فإذا ما اكتشف الأتراك والألمان خطته الحقيقية ولم يخدعوا بالظن والتفكير من أن كلا من القوات العربية

والبريطانية كانت محتشدة ومتمركزة في منطقة عمان بقصد محاولة الاندفاع شمالاً لما فوق وادي الأردن، وفيما إذا سحب العدو جناحه الأيمن حوالي نصف المسافة فقط عبر فلسطين من ساحل البحر الأبيض المتوسط والذي سيكون فحسب لمسافة عشرة أميال على طول كامل الجبهة، فيمكن للأتراك عندئذ أن يكونوا آمنين، وستضيع سدى ضربة اللنبي (الهجوم الكاسح) وستكون كافة العمليات الفعالة التي قام بها لورنس والقوات العربية حول درعا غير ذات جدوى.

حتى أن لورنس لم يكن لديه مؤن تكفي قواته لمدة يومين آخرين، لذلك فإن أي فشل لن يكون سوى كارثة حقيقية بالنسبة له. وبالطبع، فلا اللنبي ولا لورنس يمكنهما أن يعانيا أو يتحملا خسائر كبيرة، ولكن من ناحية أخرى فإنهما لن ينزلا الستار بشكل سريع في الجزيرة العربية وفلسطين. فالحرب العظمى برمتها يمكن أن تستمر لعدة أشهر أخرى وتكلف إزهاق مئات الآلاف من الأرواح الإضافية أو أكثر التي يمكن أن تتم التضحية بها على الجبهة الغربية (في أوروبا). ولكن لا يوجد هناك «افتراضات»؛ فالعدو مضى في الشرك أو الخدعة التي أعدّت له كمثل شياه ذاهبة إلى المسلخ.

* * *

24

سقوط الإمبراطورية العثمانية

كانت هذه العملية الحربية المشتركة الأخيرة للقوات العربية والبريطانية ككل تعتبر من أعظم التخطيطات الرائعة في كافة سجلات الأحداث التاريخية العسكرية. لقد كانت كلعبة شطرنج من قبل خبراء على لوح عالمي. ولم تكن هنالك حملة عسكرية مشابهة لها حدثت من قبل. وكانت عكس مبادئ وأسس المارشال فوش العسكرية تماماً. فقد رجع كل من اللنبي ولورنس إلى الخطط الحربية النابليونية، وإلى المعارك التي وقعت في القرن الثامن عشر، عندما كان الجنرالات يفوزون ويكسبون الحروب بالمناورة والإستراتيجية بدلاً من التكتيكات (ومصطلح تكتيك يعود إلى علم معالجة الرجال المقاتلين تحت نيران المعارك).

وفي هذه المعركة، التي اعتبرت أعظم وأروع عملية عسكرية في تاريخ العالم، فقدت قوات اللنبي والقوات العربية أربعمائة وخمسين رجلاً فقط، إلا أنهم سحقوا تماماً الجيش التركي، وأسروا أكثر من مائة ألف جندي تركي، وتقدموا أكثر من ثلاثمائة ميل في أقل من شهر، وحطموا العمود الفقري للإمبراطورية التركية (العثمانية). ويجب أن يعود جزء من هذا الفضل إلى الجنرال بارثولوميو.

كان اللنبي جباراً ويحتاج إلى رجل ليتممه. فوجد ذلك في شخص ضابط واستراتيجي، هو الجنرال بارثولوميو.

كانت خطة اللنبي الكاملة، التي تضمنت تدمير كافة الفعاليات التركية بضربة ساحقة واحدة، معروفة من قبل أربعة أشخاص فقط هم: القائد العام نفسه، ورئيس أركانه (الجنرال بولز)، والجنرال بارثولوميو، والكولونيل لورنس.

في الساعة الخامسة من صباح يوم 18 أيلول 1917، حضر الجنرال بارثولوميو إلى مكتبه في القيادة العامة البريطانية في الرملة وسأل ضابط الأركان المناوب بقلق: «هل هناك أي تغير؟» فأجابه الضابط: «لا، لا يزال الأتراك هناك». فقال بارثولوميو «جيد، إننا سنأسر ثلاثين ألفاً على الأقل قبل أن ينتهي هذا العرض (المعركة)». ولم يكن يحلم أبداً بأن قوات الحلفاء ستأسر ثلاثة أضعاف هذا العدد من الأتراك.

فقد كان خداع العدو كاملاً في كل تفصيل أو مجال. وعندما دخلت قوات اللنبي الناصرة، التي كانت يوجد فيها مقر قيادة القوات الألمانية والتركية في فلسطين، وجدت أوراقاً تشير إلى أن القيادة العليا الألمانية كانت متأكدة من أن هجوم الحلفاء سيقع في وادي الأردن. وهكذا خدع المارشال الألماني ساندرس حتى آخر لحظة.

في غضون ذلك، لم يتلق كل من لورنس، جويس، الجنرال نوري السعيد أية أخبار عما كان يحدث في جبهة فلسطين، إلا أنهم كانوا مشغولين ليلاً ونهاراً بتدمير أجزاء من السكة الحديد.

وفي إحدى الليالي ذهب اللورد وينتيرتون، الذي لعب دوراً نشطاً في هذه المرحلة الأخيرة من الحملة العسكرية الصحراوية، في مهمة لتدمير أجزاء من السكة الحديد بوضع متفجرات تحتها. واندفع هذا اللورد الإنجليزي من نقطة إلى نقطة في الظلام بسيارته المصفحة. وبينما كان يسير على طول خط السكة الحديد قابل جندياً فسأله قائلاً: «كيف تسير الأمور؟»

فأجاب وينتيرتون «تماماً، فلدينا ثمانية وعشرين شحنة مدمرة زرعناها وستكون جاهزة للتفجير في بضع دقائق». وعلق الجندي على ذلك أن هذا رائع، ومن ثم اختفى. وبعد لحظة انطلقت المدافع الرشاشة في كافة الاتجاهات، وكان على اللورد الإنجليزي أن يسرع من هناك. فالشخص الذي سأله قبل قليل كان إما ألمانياً أو تركياً ولو أن ذلك

حدث قبل ساعة فربما فسد كل شيء في عملية اللورد وينتيرتون في تلك الليلة. بيد أن أصابع الديناميت كانت قد زرعت ومن ثم فجرت وكانت العملية ناجحة. في اليوم التالي اندفع لورنس عائداً إلى الأزرق في عربة مدرعة، ومن ثم طار في اليوم التالي عبر الصحراء وشمال فلسطين إلى مقر قيادة اللنبي في الرملة. وعقد اجتماعا عاجلا مع القائد العام وحصل منه على ثلاث طائرات مقاتلة أخرى من طراز بريستول، وكانت أفضل طائرات مقاتلة بريطانية يستخدمها البريطانيون في الأراضي المقدسة (فلسطين). كما أنه جلب معه أخباراً مذهلة بأنه تم أسر أكثر من عشرين ألفاً من الأتراك من قبل قوات اللنبي حينذاك، وإن كلا من الناصرة ونابلس والعديد من المراكز المهمة قد سقطت بيد القوات البريطانية، وأنها تتقدم باتجاه درعا ودمشق. وهذا كان يعني بأن الجيش العربي سيدعى للعب دوراً أكبر من الآن فصاعداً، لأنه كان القوة المتواجدة بين بقايا الفرق العسكرية التركية المفتتة والأناضول الذي لا بد وأنهم سينسحبون باتجاهه.

لقد ذهب لورنس إلى فلسطين من أجل الحصول على طائرات لأن الألمان كان لديهم تسع طائرات بالقرب من درعا، وكانت تقوم بقصف قوات الأمير فيصل مما يشتتها. وكان واحد من الطيارين الإنجليز هو الكابتن بيترز، والآخر كان الكابتن روس سميث، الذي أصبح فيما بعد مشهوراً على المستوى العالمي ورفع إلى رتبة فارس لأنه طار من انجلترا إلى أستراليا. وقدم لنا اللورد وينتيرتون صورة بيانية للأحداث في ذلك الصباح في مادة رائعة.

وبينما كان اللورد ونيتيرتون والطيارين يتناولون طعام الإفطار معنا، لوحظت طائرة تركية تتجه نحونا مباشرة. وأسرع واحد من الطيارين لإسقاط الطائرة المتسللة. وقد استطاع إنجاز ذلك بنجاح، وهوت الطائرة مشتعلة بجانب السكة الحديد. ومن ثم رجع الطيار وأكمل إفطاره من العصيدة أو الثريد، الذي ابقي ساخناً له في غضون ذلك، ولكن لم يتسن له تناول فطوره بسلام في ذلك الصباح. فما كاد أن يصل إلى مرحلة تناول المربى حتى ظهرت طائرة تركية أخرى. ونهض الطيار الأسترالي بسرعة مرة ثانية؛ ولكن هذه الطائرة التركية كانت مراوغة أيضاً وعادت بسرعة إلى درعا، فقط لتلاحق من قبل الطيار بيترز بطائرتها الذي أسقطها وهوت مشتعلة.

في تلك الليلة حرق الألمان جميع ما تبقى من طائراتهم، ومنذ تلك اللحظة أصبح الطيارون الإنجليز يسيطرون على أجواء شمال الجزيرة العربية، وفلسطين وسوريا لوحدهم.

في عصر ذلك اليوم وصلت طائرة عملاقة من طراز هاندلي- بيج من فلسطين كان عليها الجنرال بورتون، قائد أسراب طائرات اللنبي، ويقودها الطيار روس سميث. وقد أحضروا معهما سبعة وأربعين صفيحة وشحنة من الشاي للورنس وويتيرتون ورفاقهما. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تقوم بها طائرة قاذفة ليلية بالتحليق فوق خطوط العدو في وضح النهار. وكان الهدف من ذلك هو الدعاية، حيث انطبع ذلك بعمق كبير على رجال القبائل وتأثروا بمشهد ذلك الطائر الضخم الذي كان حجمه أكبر بسبع مرات من أية طائرة شاهدوها من قبل، وكان من نتيجة ذلك أن جميع أبناء حوران، الذين كانوا يعارضون التعاون مع قوات الثورة أقسموا على الفور بيمين الولاء للأمير فيصل وللقضية العربية وأسرعوا بجيادهم وهم يلوحون ببنادقهم في الهواء، متشوقين لتحدي الترك، أو على الأقل ليستعرضوا بسالتهم.

في اليوم التالي تحركت قوات المشاة بقيادة الجنرال جعفر باشا (العسكري)، والقوات النظامية بقيادة القائد العام المرح الكولونيل جويس، لإلقاء نظرة على الجسر الكبير الذي دمره لورنس بالديناميت بالقرب من درعا. فوجدوه قد أُصلح تقريباً، ولكن بعد قتال عنيف استطاعوا إبعاد حراسه الذين كانوا يستمرون بإطلاق النار مع أطقم المدافع الرشاشة الألمانية، ودمروا المزيد من خط السكة الحديد، ومن ثم عملوا على إشعال النار في الإطار الخشبي الضخم الذي بني وركب من قبل الأتراك والألمان خلال فترة الأيام السبعة الفاصلة. وفي هذه المواجهة الشديدة فإن كلا من العربات المصفحة، والكتيبة الفرنسية بقيادة الكابتن بيزاني، وفرسان قبيلة الروالى بقيادة نوري الشعلان اندفعوا بقوة وبسالة في خضم المعركة وأبلوا بلاءً حسناً.

كان نوري (الشعلان) رجلاً هادئاً، منكفئاً على نفسه ولا يتكلم سوى ببضع كلمات إلا أن أفعاله وأعماله وافرة كثيرة. وتحول ليكون ذكياً بشكل غير عادي، ومطلعا تماماً،

وحاسما، ومليئاً بالمرح والدعابة الهادئة. وقد قال لي لورنس مرة، بأنه (نوري الشعلان) لم يكن زعيم أكبر قبيلة في الصحراء، وإنما كان واحداً من أفضل الشيوخ الذين اجتمع بهم من قبل، وأن أفراد قبيلته كانوا كمثل الشمع أو لعب الشمع بين يديه لانه كان يعرف ماذا يجب أن يفعل ويفعله.

عندما بدأ لورنس عملياته حول درعا، قام القائد الألماني فون ساندرس بما كان يتوقع منه أعداؤه أن يفعله تماماً. فقد أرسل آخر جنوده الاحتياط إلى درعا، بحيث أنه عندما تسحق قوات اللنبي القوات التركية وتجتاز خطوط الجبهة تكون الطريق مفتوحة للتقدم أمامها. وفي محطة التقاء السكة الحديد المهمة في العفولة، في مساء يوم التاسع عشر من أيلول، قدمت عربات تركية من نوع لوريس تدب وهي تحمل مؤناً ولا تعرف بعد بأن جميع مستودعاتها كانت في أيدي رجال اللنبي. وعندما وصلت إلى مركز التموين، أشار لها ضابط إنجليزي بقوله: «اعبروا من هذه الطريق إذا سمحتم» واستمر ذلك الأمر لمدة أربع ساعات، إلى أن انتشرت أخبار من المناطق الخلفية التركية تفيد بأن قوات اللنبي قد استولت على العفولة، وعلى محطة التقاء السكة الحديد في وسط سهل اسدريلون حيث ترتبط خطوط السكة الحديد هناك مع كل من اسطنبول، ودمشق والأراضي المقدسة وتتفرع منها، ويمتد خط من هناك إلى منطقة السامرة (الضفة الغربية) وشرق حيفا على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

كانت العفولة هي قاعدة التموين الرئيسية لكل الجيش التركي. وبعد أن استولى اللنبي على العفولة خلال ست ساعات تماماً، جاءت طائرة ألمانية ومعها أوامر للقائد الألماني فوق ساندرس من رئيس أركان القوات الألمانية آنذاك المارشال فون هندبنرغ. ولم يكتشف راكبو الطائرة الألمانية ورطتهم إلى أن غادروا طائرتهم وتوجهوا إلى قصر القيادة المحلية ليقدموا تقريرهم. ولدهشتهم العظيمة وجدوا أنفسهم يقدمون أوامرهم لأركان اللنبي.

بحلول الرابع والعشرين من أيلول 1917، كانت قوات اللنبي قد تقدمت إلى حد بعيد بحيث أن كل قوات الجيش الرابع التركي، التي كانت محتشدة ومتمركزة حول

منطقة عمان ووادي الأردن والتي كانت في مهمة الهجوم على خيم فارغة وأغطية خيول، قد أُمرت لتتحول وتعود للدفاع عن درعا ودمشق. وكان جنرالات الجيش الرابع التركي حانقين عندما اكتشفوا بأن خط السكة الحديد قد قطع ودمر خلفهم، وحاولوا التراجع شمالاً بواسطة طرق المركبات ومعهم كافة مدافعهم ووسائل نقلهم. ولم يشأ لورنس وفرسانه أن يتيحوا لهم انسحاباً وردياً. فتمركزوا على التلال المحيطة وصبوا وابلاً متواصلاً من الرصاص عليهم بحيث أُجبروا على التخلي عن مدافعهم وعرباتهم ما بين منطقتي المفرق ونصيب.

وقتل المئات منهم. وتحول الطابور الرسمي للتراجع التركي إلى جمع غفير من الفارين، الذين لم يكن لديهم دقيقة هدوء واحدة لإعادة تنظيم صفوفهم. وأضافت الطائرات البريطانية لمسة أخيرة للوضع بإلقائها القنابل عليهم فتبعثر الجيش الرابع التركي بطريقة مذعورة في كافة الاتجاهات.

وقرر لورنس حينذاك بأن يتمركز مع القوات العربية ما بين درعا ودمشق، على أمل تحقيق إخلاء فوري لدرعا وبذلك فإنهم سيتصيدون شراذم الجيش التركي الرابع المتصدع وهي تغادر درعا، كما أنهم سينهكون البقايا الأخرى للجيوش التركية في فلسطين التي يمكن أن تحاول الفرار شمالاً. ووفقاً لذلك، فقد أسرع لورنس على رأس هجانته وشقوا طريقهم باتجاه الشمال في اليوم الخامس والعشرين من أيلول، وبحلول عصر يوم السادس والعشرين من أيلول قاموا بنسف وتدمير خط السكة الحديد التركية بالقرب من منطقتي غزالة وعدرا على الطريق إلى دمشق.

كان معه كل من الشريف ناصر، ونوري الشعلان، وعوده أبو تايه والفرسان الدروز، وهي أسماء لامعة كافية لتسكن وتهدئ الأطفال حتى في وضح النهار، إضافة إلى لورنس نفسه. وكانت مناورته السريعة تأخذ الأتراك المذعورين على حين غرة، فقبل يوم واحد فقط عملوا بشكل محموم على خط السكة الحديد وجعلوه صالحاً للاستخدام في بعض النقاط حيث دمره لورنس قبل أسبوع. فقد زرع بضع مئات من أصابع الديناميت، بحيث جعل الخط غير صالح للاستعمال بشكل دائم، كما دمروا ستة قطارات كاملة في

درعا. وانتشرت تقارير رائعة عن حجم الكارثة التي حلت بالأتراك كانتشار النار في الهشيم في جميع أنحاء سورية، وبدأ الترك حينذاك بإخلاء درعا على الفور عن طريق البر.

وفي فجر السابع والعشرين من أيلول أصبح لورنس وفرسانه يستكشفون المنطقة المحيطة وقد أسروا كتيبتي مدافع رشاشة تركية - نمساوية وضعتا هناك عبر الطريق لمواجهة تقدم قوات اللنبي ومن ثم تسلق لورنس إلى قمة جبل عالٍ يقع بالقرب من منطقة تدعى شيخ سعد، بحيث كان يمكنه أن يستطلع تلك المنطقة الريفية بمناظيره، وكلما رأى رتلاً صغيراً للعدو يظهر في الأفق، كان يقفز على فرسه ومعه بضع مئات لينقض على الفلول الفارة من الجيش التركي. أما إذا ما لاحظ من محطة رصده تلك من على الجبل العالي طابوراً كبيراً جداً للعدو بحيث يكون من الصعب التعامل معه، فإنه كان يدعه يمر.

في ظهر ذلك اليوم ألقت طائرة بريطانية رسالة إلى لورنس تفيد بأن هناك رتلين من القوات التركية كانا يتقدمان نحوه. الأول كان مؤلفا من ستة آلاف جندي وكان قادماً من درعا؛ والآخر كان مؤلفاً من ألفي جندي تركي، كان قادماً من مزيريب. فقرر بأن الرتل الثاني ملائم له. فأرسل بطلب بعض الأفراد من القوات النظامية، الذين أحاطوا بالقوات التركية على بعد بضعة أميال، ثم اندفعوا ليعترضوا قوات العدو بالقرب من قرية طفس. وفي نفس الوقت أرسل لورنس الفرسان الحوارنه في الاتجاه الآخر ليحيطوا بالرتل التركي من جميع الجوانب لكي يقوموا بإزعاجه. بيد أن الأتراك وصلوا قرية طفس قبل وقت قصير من القوات العربية واعتدوا على سكان القرية بوحشية خاصة النساء والأطفال. فقد أمر شريف بيك، قائد سلاح الرماح التركي، بقتل جميع سكان القرية بمن فيهم النساء والأطفال.

كان طلال شيخ هذه القرية، قرية طفس، يعتبر قمة القوة مع لورنس منذ البداية، وكان واحداً من أجرأ الفرسان في شمال الجزيرة العربية. كان يسير في مقدمة الرتل العربي مع عوده أبو تايه ولورنس عندما شاهد زوجات وأبناء أقاربه وهم يسبحون في برك من الدماء على الطريق.

بعد عدة سنوات من انتهاء الحرب، تزوج واحد من أصدقاء لورنس في إنجلترا، وكان شاعراً، وعندما عبر لورنس عن أسفه من أنه لم يكن لديه مال كافٍ لشراء هدية زفاف ملائمة له، اقترح عليه صديقه الشاعر بأنه من الممكن أن يهديه بضع صفحات من مذكراته بدلاً من ذلك. ولبيت رغبته، فنظم الشاعر هذه الصفحات، ونشرها في أمريكا تحت عنوان «العمل العالمي».

وصدف أن الجزء أو العمل المباع احتوى على قصة لورنس التي تروي موت الشيخ طلال الحردين المقدام، كما يلي:

«تركنا عبد المعين هناك وسرنا نحو جثث أخرى، بدت لنا الآن بوضوح تحت أشعة الشمس بأنها لرجال، ونساء، وأربعة أطفال صغار، وتوجهنا نحو القرية التي كان سكونها يوحي بأنها مليئة بالموت والرعب. وفي شوارع القرية كانت هناك جدران طينية لبعض حظائر الخراف، كان في إحداها شيء أحمر وأبيض ممتد.

ونظرت عن قرب، ورأيت جثة امرأة وقد طعنت بالرماح بشكل وحشي وشيء متطاير في الهواء من بين ساقيها. فقد كانت حاملا، وكانت حولها جثث أخرى، ربما كان عددها عشرين جثة، قتلت وذبحت بمختلف الوسائل. وانفجر الزعاقي في ضحكة هسيرية مدوية. لقد كان مشهداً يشبه الجنون، ويصبح كئيباً أكثر مع دفء أشعة الشمس والهواء النقي لهذه المنطقة العالية في فترة ما بعد الظهر. فقلت: «أفضل واحد منكم من يقوم بقتل معظم الأتراك»، واستدرنا بأسرع ما يمكن في اتجاه العدو المتلاشي عن الأنظار. وفي طريقنا أطلقنا النار على أولئك الذين تخلفوا عنه على قارعة الطريق والذين كانوا يتوسلون إلينا أن نرحمهم.

«لقد رأى طلال كل شيء كما رأينا. وصدر منه أنين كمثل حيوان مجروح، ومن ثم سار ببطء إلى أرض عالية، ومكث هناك فترة طويلة وهو على فرسه يرتجف وينظر بثبات منتظراً الترك. وتحركت نحوه لأتكلم معه، بيد أن عوده أبو تايه أمسك بلجام جوادي وأوقفني. وبعد بضع دقائق لف طلال كوفيته حول وجهه، ومن ثم بدا وكأنه يعد نفسه

لشيء ما حيث ثبت قدميه في ركاب سرج فرسه على جانبيه، واندفع يعدو قدماً منحنياً على سرج فرسه ومتمايلاً وكأنه يكاد يسقط، متوجهاً مباشراً نحو قوات العدو الرئيسية.

كان عدواً طويلاً، نزولاً عن السفح المرتفع وعبر التجويف الأرضي، ووقفنا جميعنا كمثل حجر صامت بينما كان هو يندفع قدماً، وكان دبيب حوافر فرسه يصدر صوتاً مرتفعاً غير عادي يصب في آذاننا. وأوقفنا إطلاق النار كما أوقف الأتراك إطلاق النار؛ فالجيشان كانا بانتظاره. فقد كان يطير في هذه الأمسية الهادئة، إلى أن وصل إلى بضع خطوات عن العدو، ومن ثم وقف على سرج فرسه وصاح صرخته الحربية «طلال، طلال» مرتين بصوت مجلجل. وعلى الفور، توجهت إليه جميع بنادقهم ومدافعهم الرشاشة منطلقة في وقت واحد سوية ومزقه الرصاص هو وفرسه وسقط ميتاً بين رؤوس رماحهم.

وبدا عوده أبو تايه بارداً جداً ومتجهماً. وقال: «الله يرحمه. سنثأر له». وهز لجام فرسه وتقدم ببطء متعقباً العدو. واستدعينا المقاتلين الفلاحين، الذين كانوا حينذاك ثملين بالخوف والدم، وأرسلناهم في هذا الاتجاه وفي ذلك الاتجاه لتعقب رتل العدو المنسحب. وقادهم عوده كمثل أسد كبير في معركة كان كفئاً لها. وبالتفافة ماهرة دفع بالعدو إلى أرض ذات تضاريس سيئة مما شرذم طابوره إلى ثلاثة أجزاء كان الجزء الثالث، أصغر جزء، ويتألف غالبيته من مدفعيين ألمان ونمساويين، وكانوا متحلقين حول ثلاث عربات كانت على ما يبدو تقل ضباطاً ذوي رتب عالية. فقاتلونا بشراسة واستطاعوا صد هجماتنا مرة تلو الأخرى بالرغم من تكرار هجماتنا عليهم. وكان العرب يقاتلون كالشياطين، والعرق يغمر عيوننا، وحلوقنا مليئة بالتراب والألم المبرح بالثأر والعمل الوحشي الذي قام به العدو يحرق وينهش أجسادنا ويلوي أيدينا بحيث كانت تعمل بصعوبة في إطلاق النار. وكانت أوامري بأن لا يؤخذ أي أسير، وذلك لأول مرة في هذه الحرب».

كان هذا وصفاً لموت طلال الحريدين من بلدة طفس، بكلمات لورنس الخاصة، يظهر لنا ما كان من قوة وصف رائعة لهذا الجندي الشاب المتعلم وفي قيادته، ويعطينا لمحة رائعة من أن العالم يجب أن يتعلم يوماً ما من قلمه.

استطاعت سريتان من مدافع رشاشة ألمانيتان المقاومة بشكل شرس والإفلات، وكان معهما القائد العام التركي جمال باشا، متواجدا في مركبته في الوسط. واستطاع العرب إبادة الجزء الثاني من قوات العدو تماماً بعد قتال شرس بالأيدي. ولم يؤسر أي واحد، لأن العرب كانوا مستعرين غضباً وانتقاماً بعد مجزرة قرية طفس. وتم أسر مائتين وخمسين ألمانياً خلال ذلك اليوم؛ ولكن عندما اكتشف العرب بأن واحدا من رجال لورنس كان طعن في فخذه بحربيتين ألمانيتين، تصرفوا كالنيران الهائجة. وحولوا مدافعهم الرشاشة على ما تبقى من الأسرى وأبادوهم.

بعد هذه المواجهة، سار نوري الشعلان على رأس فرسان قبيلة الروالى مباشرة إلى الطريق الرئيسي لدرعا. وحدثت هناك ضربة سريعة قاضية. وفي صباح اليوم التالي عاد نوري الشعلان إلى لورنس في «طفس» ومعه خمسمائة أسير من المشاة الأتراك وتحرير بلدة درعا. ووصلت بعض القوات من قوات اللنبي إلى درعا في ذلك اليوم أيضاً.

أمضى لورنس وقواته تلك الليلة - وكانت ليلة مضطربة جداً - على تل الشيخ سعد. ولم يشعر بأنه كان متأكداً من النصر حيث كان يوجد هناك دوماً خطر على قواته الصغيرة نسبياً من أن تباد من قبل موجة كبيرة من قوات العدو المنسحبة.

وفي تلك الليلة تمسك الفرسان الحوارنة بمناوشة وقتال رتل تركي كبير منسحب من درعا مؤلف من ستة آلاف رجل، لم يجرؤ لورنس على قتاله. وبدلاً من أن ينام مع قواته في منطقة شيخ سعد، أمضى لورنس جزءاً من الليل وهو يساعد فرسان حوران، وعند الفجر سار إلى جهة الغرب مع مجموعة صغيرة من الرجال إلى أن قابل طلائع فرقة الفرسان الرابعة للجيش البريطاني.

وبعد إرشادهم إلى درعا والبدء بتوجههم وزحفهم نحو الشمال باتجاه دمشق، رجع لورنس بأقصى سرعة إلى الفرسان الحوارنه. ومع أن الرتل التركي المنسحب كان تعداده ستة آلاف جندي عند مغادرته درعا، إلا أنه أصبح بعد أربعة وعشرين ساعة يعد خمسة آلاف فقط. حيث تم إبادة ألف منهم من قبل قوات البدو. وبعد ثماني عشرة ساعة كان ما تبقى منه ثلاثة آلاف رجل، وبعد نقطة تدعى الكسوة (بلدة الكسوة)، حيث كان لورنس

يتعقب ما تبقى من الجيش التركي الرابع ويدفعهم نحو ألوية قوات اللنبي القادمة من جهة جنوب- غرب، فقد أصبح ما تبقى من هذا الرتل التركي المنسحب ألفي رجل فقط.

وإجمالاً، فإن كلا من لورنس، جويس، جعفر (العسكري) ونوري الشعلان، وقواتهم المبعثرة من البدو الشرسين وسلاح الهجانة النظامي قد قتلوا حوالي خمسة آلاف جندي تركي في هذه المرحلة الأخيرة من الحملة وأسروا أكثر من ثمانية آلاف منهم، واستولوا أيضاً على خمسين مدفع رشاش وثلاثين مدفعاً. إضافة إلى رتل يضم أقل من ألف رجل بدأوا مسيرهم من شمال العقبة مع لورنس، وعوده أبو تايه ومعه مائتين من أفضل مقاتلي قبيلة الحويطات الذين اشتركوا في المعركة التي وقعت حول درعا، وكان هناك أيضاً ألفان من بني صخر «أبناء الصقور»، من منطقة شرق البحر الميت، وأربعة آلاف رجل من قبيلة الروالى بقيادة نوري الشعلان جاؤوا من صحراء الجزيرة العربية الشمالية، وألف رجل من الدروز جاءوا من منطقة حوران، وثمانية آلاف عربي قروي من قرى حوران.

في رسالة كتبها لي بعد أكثر من سنة بعد انتهاء الحرب، لخص الكولونيل ستيرلنغ، الذي لعب دوراً بارزاً في هذه الحملة النهائية، فعاليات وتأثيرات ما قام به العرب لمساعدة اللنبي في التغلب على الأتراك بقوله: كان هذا برغم كل شيء التبرير الرئيسي لوجودنا والمال والوقت اللذين أنفقناهما لهذا الغرض. فالحملة بحد ذاتها كانت في الحقيقة مثيرة ودراماتيكية جداً، ذلك أننا بدأنا بقوة عربية نظامية صغيرة مؤلفة من (400) مقاتل عربي وسرنا حوالي ستمائة ميل في مدة ثلاثة وعشرين يوماً عبر صحراء صعبة التضاريس ووصلنا إلى بعد أميال خلف خطوط الجيوش التركية، وشكلنا بذلك مفاجأة كاملة لهم.

وقبل يومين من بدء تقدم القوات البريطانية في فلسطين فقد قمنا بقطع ثلاثة خطوط من السكة الحديد وبذلك منعنا مرور قطارات عليها لمدة خمسة أيام لتصل من خلالها إلى الجيوش التركية. وعندما بدأ تراجعهم وجدوا أن جميع مخازن مؤونتهم وذخيرتهم كانت مستنفذة. وقمنا خلال هذه الأيام، بشيء خطر هدد وجودنا بعض الشيء، فقد غيرنا معسكرنا بشكل عام مرتين في ليلة واحدة لتجنب أن نفاجأ من قبل

العدو. وكنا قوة ضعيفة جداً، وكما ترى، ففي الوقت الذي زحفنا فيه واندفعنا نحو دمشق انضم إلينا حوالي أحد عشر ألفاً من الفرسان الممتطين جياداً وجمالاً.

وسار بعض الفرسان العرب في تلك الأمسية مباشرة نحو دمشق، حيث حولت محتويات مخازن الذخيرة المحترقة الليل إلى نهار. وبالعودة إلى الكسوة، على بعد بضعة أميال فقط من دمشق، وليس بعيداً جداً حيث كان شاول طرسوس مبهوراً بالضوء الذي حوله إلى يوحنا مفسر المسيحية، وجعل وهج النيران الصادرة من دمشق والهدير والارتجاج الصادرة عن التفجيرات لورنس يقظاً معظم الليل. وقد كان مرهقاً تماماً. فمن الثالث عشر إلى الثلاثين من أيلول، كان ينام في فترات متقطعة قليلة جداً. فقد كان إما ممتطياً ناقة أو جمل سباق أو مندفعاً يجول البلاد على جواد عربي أصيل، أو يكون متواجداً داخل عربة مصفحة أو يحلق في طائرة مقاتلة هنا وهناك، فقد كان يقود قضية وجود لا ترحم، مطلوبة منه في هذه المرحلة الطارئة الكبرى من الحرب. والآن تبدو نهاية الحرب على مرأى البصر في أرض ألف ليلة وليلة. بيد أن النوم كان صعباً بسبب أن الأتراك والألمان كانوا طيلة الليل يفجرون مستودعات ذخيرتهم الواقعة على بعد ثمانية أميال شمال دمشق. وكان يصدر مع كل تفجير اهتزاز في الأرض، وتبدو السماء بيضاء ومن ثم تتناثر أعمدة النيران الحمراء في السماء كلما زادت التفجيرات. وقال لورنس لستيرنغ «إنهم يحرقون دمشق». ومن ثم تمدد على الرمال وغط في نوم عميق.

* * *

25

لورنس يحكم في دمشق وخيانة أمير جزائري

في صباح اليوم التالي رأوا دمشق في قلب حدائقها الخضراء كأجمل مدينة في العالم. وكان سحر المشهد «كمثل حلم يزور ضوء الصباح، كحلم لكنه تلاشى»، مما ذكر لورنس بقصة عربية تقول: عندما قدم الرسول محمد (ﷺ) لأول مرة إلى هنا (دمشق) في قافلة تجارية، ورأى دمشق من على بعد، رفض دخولها، قائلاً «يمكن للإنسان أن يأمل بدخول الجنة لمرة واحدة فقط». فالقدوم من الصحراء ومشاهدة هذا المنظر، الذي لا مثيل لسحره وإغرائه في العالم، فلا عجب من أن النبي محمدا (ﷺ) كان مفتوناً إلى حد بعيد وحتى أنه ارتعدت نفسه لهذا المشهد. فرؤية هذه الواحة الخضراء من على بعد والمكسوة والمحاطة من جميع جهاتها بالصحراء الجرداء والجبال الظاهرة في خلفيتها المكسوة قممها بالثلوج، هي في الحقيقة لؤلؤة في محيط زمردي. ذلك أنها طبيعية فقط بحيث أن ساكن الصحراء لا بد وأن ينظر إليها على أنها جنة أرضية.

وعندما أرخت أشعة الشمس سدولها ناسجة خماراً رقيقاً شفافاً على مآذن وقبب هذه المدينة الحلم، سار كل من لورنس وستيرنغ بسيارتهما داخلين دمشق بالروزرويس الشهيرة، وذهبا مباشرة إلى قاعة البلدية، وهناك دعيا إلى اجتماع لكافة الشيوخ الرئيسيين. واختار لورنس شكري الأيوبي، وهو منحدر من سلالة صلاح الدين الأيوبي، ليقوم بعمل الحاكم العسكري في ظل النظام الجديد. ومن ثم عين رئيساً للشرطة، ومديراً للنقل المحلي، ومسؤولين عديدين آخرين. ورتب هذه التفاصيل كل من شكري الأيوبي، نوري

السعيد، عودة أبو تايه، نوري الشعلان، ولورنس وهم على رأس القوات البدوية غير النظامية، وهم يجوبون شوارع دمشق.

ذلك الفارس البالغ من العمر تسعة وعشرين عاماً في أكبر جيش نشأ في الجزيرة العربية منذ خمسة قرون، الذي جعل نفسه في عام واحد فقط ذا أهمية كبرى في الجزيرة العربية والبلاد العربية منذ أيام الخليفة العظيم هارون الرشيد، قام بدخول رسمي لهذه العاصمة القديمة للإمبراطورية العربية (أيام الأمويين) في الساعة السابعة من صباح يوم 31 تشرين الأول، 1917. وتجمع كافة سكان المدينة مع عشرات الآلاف من البدو الذين جاؤوا من تخوم الصحراء وملأوا «الشوارع التي تدعى بالمستقيمة»، عندما دخل لورنس بوابة المدينة وهو يرتدي زي أمير عربي.

لقد تحقق الجميع أخيراً بأن مدينتهم المجيدة قد حررت من النير التركي ومرت من أمامه فرقة دراويش وهم يرقصون ويغرسون السكاكين في أجسادهم، بينما كان يسير من ورائه طابوره الطيار بمشهد فرسانه العربية الرائعة. فلعدة أشهر سمعوا بالأعمال البطولية (للشريف لورنس)، ولكن الآن ولأول مرة رأوا هذا الإنجليزي الغامض الذي وحد القبائل العربية وساعد على إخراج الأتراك من البلاد العربية. وكلما كانوا يرونه يأتي متمايلاً داخلاً إلى الأسواق وهو راكب على جمله، فقد كان يبدو وكأن جميع سكان دمشق كانوا يهتفون باسم الأمير فيصل واسمه في صوت واحد بهيج. ولمسافة عشرة أميال وأكثر على طول شوارع هذه المدينة التي تعتبر الأقدم في العالم والتي لا تزال قائمة على قدميها. كانت الجموع تقدم لهذا الشاب الإنجليزي واحداً من أعظم أشكال الترحيب والاحتفاء الذي لم يحظ به أي شخص من قبل.

وصف الدكتور جون فانيلي، من الهلال الأحمر الأمريكي، الذي قدم مع اللنبي إلى الشمال، المشهد بقوله: «كانت هنالك مشاهد من الفرح والنشوة يمكن أن لا أشاهدها في حياتي على هذه الأرض ثانية. فقد كانت الأسواق مزدحمة بمئات الآلاف من الناس. والشوارع التي تدعى بالمستقيمة كانت مليئة أيضاً بحيث كان من الصعب مرور الخيول والجمال فيها. وكان السكان يقفون على أسطح المنازل بكثرة. كما أرخوا وأنزلوا من على

شرفات منازلهم قطع السجاد الثمينة وكانوا يرمون بأغطية الرأس الحريرية والأزهار والورود العطرية على رجال القوات العربية.

ولحسن الحظ بالنسبة للعرب، فقد أمر اللنبي فرقة الفرسان الخفيفة «هاري شوفيل» بأن توقف وترجع القوات الأسترالية إلى الوراء وتدع حرس الأمير فيصل يدخل المدينة أولاً، كما أن اللنبي لم يعط أية أوامر عشوائية فيما يتعلق بتشكيل حكومة مؤقتة في دمشق. ذلك أن لورنس كان ذكياً بما فيه الكفاية ليرى بأن ممثلي الجيش العربي يدخلون دمشق قبل القوات البريطانية، وبذلك منح الأمير فيصل أول استحقاق.

مكث لورنس في دمشق أربعة أيام فقط. ولكن خلال تلك المدة القصيرة جداً كان يعتبر الحاكم الفعلي للمدينة، وأول عمل قام به كان زيارة قبر صلاح الدين الأيوبي، حيث كان قيصر ألمانيا في عام 1898 قد وضع عليه علماً من الساتان وإكليلا برونزيا من الغار نقش عليه باللغتين العربية والتركية عبارة تقول: «من إمبراطور عظيم إلى إمبراطور عظيم آخر». وقد زين الإكليل والنقش بشعار النسر البروسي مما أثار سخط لورنس عندما زار الضريح في زياراته لدمشق قبل الحرب العظمى، وفي وقت مبكر من الثورة العربية، عندما كان بعيداً جداً في الجنوب في ينبع، فقد أقسم الأمير فيصل ولورنس على أن لا ينسيا زيارة قبر صلاح الدين.

ويزين الإكليل البرونزي الآن مكتب أمين المتحف الحربي البريطاني، في حين أخذتُ علم القيصر معي إلى أمريكا.

خلال وجود لورنس القصير في دمشق، كانت الأسواق متغيرة في معظم تلك التقاليد لكافة المدن الشرقية حيث كانت مليئة بالإثارة. فمعرفته الوثيقة بالنزوات الشخصية للمتآمرين المختفين خلف الخدع والمؤامرات العديدة والتصدي لها جعل من الممكن بالنسبة له السيطرة على الوضع. مع أنه كانت هناك أحداث مثيرة وخطر صادر من حشاشين مغتالين.

ففي الثاني من تشرين الثاني، حدثت أعمال شغب في دمشق، وكانت هذه الأعمال عبارة عن اضطراب يمكنه أن يحوّل براعمه بسهولة إلى ثورة مضادة. وكان المحرك أو

الباعث لذلك هو الأمير عبد القادر الجزائري، الذي كان على عداء قديم مع الملك حسين وأبنائه.

وكان هذا الأمير حفيداً للأمير الجزائري الشهير عبد القادر الجزائري، الذي حارب الفرنسيين لسنوات عديدة في الجزائر، وعندما هزم في نهاية المطاف، فر إلى دمشق. فقد لعب كل من الأميرين محمد سعيد وعبد القادر دوراً غير مرغوب فيه في الحرب في الشرق الأدنى. فالأول قام بدور عميل للألمان والأتراك في إفريقيا، حيث كان يحرض السنوسيين في الصحراء على غزو مصر، بينما كان شقيقه الأصغر، عبد القادر، أكثر ضرراً فقد كان يعمل جاسوساً لأنور باشا، وانضم لجيش الثورة العربية، لهذا الغرض.

والحقيقة الكاذبة والمخادعة من أن عبد القادر فر من اسطنبول، هذه الحقيقة منحته العذر المقنع المطلوب الذي كان يحتاج إليه ليصل إلى منزلة جيدة وسمو لدى العرب، فعندما وصل عبر الصحراء إلى مقر قيادة الأمير فيصل في العقبة تظاهر بأنه قومي عربي متحمس.

وفي الحقيقة، فقد كان مقبولاً جداً ظاهرياً، وكانت وعوده التي قطعها حقيقية في ظاهرها، مما جعل حتى الملك حسين يرحب به في مكة ويمنحه لقباً فخرياً.

ومن ثم عندما شن اللنبي هجومه الكبير الأول الذي نجح من خلاله في الاستيلاء على بئر السبع، وغزة، والقدس، وأريحا، طلب من لورنس أن يتعاون في عملية نسف جسر سكة حديد مهم يقع ما بين الجيش التركي وقاعدته في دمشق. وصدف أن عبد القادر كان سيداً إقطاعياً يسيطر على معظم المنطقة المحيطة بالجسر، وعندما بحث الأمير فيصل العملية معه التمس على الفور أن يسمح له بالمشاركة فيها، ولكن بعد مرافقة لورنس في طريقه شمالاً لعدة أيام وإلى أن أصبحت المجموعة القتالية فعلياً ضمن مسافة بضعة أميال عن الجسر، أسرع عبد القادر ومعه فرسانه بالعدو في الصحراء ليلاً وقدموا تفاصيل عن خطة لورنس إلى هيئة الأركان الألمانية والتركية. غير أن لورنس ومن معه من الرجال قاموا بعمل يائس بل بمحاولة غير ناجحة لنسف الجسر، وكانت مغامرة نجوا منها بأعجوبة.

لقد شك الأتراك في البداية بجاسوسهم الجزائري خشية من أن يكون عميلا مزدوجا ويتحول في الحقيقة إلى موالٍ للعرب، إلا أنهم أطلقوا سراحه أخيراً وأكرموه. وفيما بعد، عندما قام اللنبي بزحفه الكبير تجاه دمشق، أرسل عبد القادر من ضمن القرويين السوريين ليتملقوا لمن تبقى من ولاء لحكامهم العثمانيين. ولكن عندما رأى عبد القادر الماكر وشقيقه أن الأتراك كانوا يتفسخون ويتجهون نحو الانهيار، تلاشى حماسهما نحو أصدقائهما الأتراك القياديين أنور، وطلعت، وجمال، وأسرعوا إلى دمشق قبل عدة ساعات من وصول اللنبي ولورنس، وعملوا بشكل سريع لتشكيل حكومة مدنية عربية هناك جاعلين نفسيهما على رأسها، وأعدوا ترحيباً ظافراً للقوات العربية والبريطانية القادمة والمقتربة من المدينة.

ولكنهما كانا مرتبكين نوعاً ما عندما قابلا المنتصرين ومعهم لورنس، الذي أمرهما بشكل قاطع أن يستقيلا، ومن ثم قام بتعيين رجال الأمير فيصل الذين اختارهم بدلاً منهما. الأمر الذي أزعج وأغضب الأخوين المخادعين حيث شهرا سلاحهما وكادا أن يهاجما لورنس قبل أن يتمكن الرجال الآخرون الذين كانوا حاضرين في المجلس من نزع سلاحهما. ومن ثم فهذان الرجلان الغاضبان كانا من أصحاب الأموال الوفيرة واستطاعا جمع عدد من أعوانهما وحراسهما الشخصيين، الذين قاموا باستعراض ومظاهرات في الشوارع وهم يلقون الخطب المناوئة للثورة العربية ويشجبون الإنجليز. ودعوا سكان مدينة دمشق للإضراب وتوجيه ضربة من الداخل ومن ثم القيام بثورة جديدة.

واندلعت أعمال شغب، وتطلب الأمر من رجال لورنس ست ساعات لتحرير المدينة من العصاة. ولكن سرعان ما تحول الشغب إلى أعمال سلب ونهب، لذلك فقد كان من الضروري بالنسبة لكل من لورنس، والجنرال نوري السعيد، وشكري الأيوبي، والزعماء الآخرين لقوات الثورة العربية استدعاء المدافع الرشاشة ووضعها في الساحة الرئيسية لدمشق لفرض النظام بالقوة، بعد قتل وجرح عدة أشخاص. وعمل الأميران المتمردان على الاختباء، ومكثا متخفيين لمدة شهر، بينما كانا يخططان لتمرد جديد. بيد أن عبد القادر القلق والمقهور رأى أنه من الأفضل له أن يقوم بعمل طائش بدل الاختباء،

وفي لحظة طيش حمل بندقيته، وأسرع يعدو بسرعة إلى قصر الأمير فيصل، وهو يصيح على فيصل بأن يخرج إليه ويقاتله، ومن ثم بدأ بإطلاق النار. وكان مصراً جداً على ذلك مما جعل واحداً من الحراس العرب يطلق النار على رأسه، وبذلك انتهت بشكل مفاجئ مغامرات الأمير الجزائري.

بعد سقوط دمشق، احتلت قوات مشتركة عربية - بريطانية الميناء السوري على البحر المتوسط حينذاك، مدينة بيروت، حيث تتواجد هناك الجامعة الأمريكية والتي تقدم الكثير وترفد وتطعم الشرق الأدنى بروح الديمقراطية. وحدثت هنا حادثة حذرت العرب من متاعب ومشاكل دبلوماسية قادمة إليهم. إذ أنه كما كان الحال في دمشق، قامت القوات العربية، ومن خلال شخصيات محلية، بالاستيلاء على الحكومة، ولكن بعد بضعة أيام حضر ممثل فرنسي (يرافقه ضابط بريطاني) إلى دار الحكومة وطلب أن ينزل العلم العربي من على مبنى دار البلدية ليمكن رفع العلم الفرنسي بدلاً منه. فما كان من الحاكم العربي إلا أن وضع مسدسه على الطاولة وقال:

«هذا هو مسدسي. يمكنكم إطلاق النار علي إذا ما رغبتم، ولكنني لن أنزل علمنا».
ومع ذلك، فبعد ثلاثة أيام أخرى، أبرق اللنبي أنه لا يجب أن يرفع أو يرفرف أي علم فوق بيروت، وأن ضابطا فرنسيا يجب أن يحكم المدينة باسم جميع الحلفاء. ومنذ ذلك التاريخ كان على العرب أن يقاتلوا ويخوضوا معركة في المجال الدبلوماسي للحفاظ على ما فقدوه وقاتلوا من أجله في ميدان الحرب. وكان رجلهم في هذا المضمار مرة ثانية هو لورنس.

ومن بيروت اندفعت القوات المشتركة العربية- البريطانية شمالاً إلى منطقة بعلبك، مدينة الشمس، حيث كان على الرجال، في أيام انحطاط الإمبراطورية الرومانية، أن يقيموا أعظم معبد على الأرض، وهو المعبد الذي ما زالت أعمدته قائمة ويعتبر واحداً من عجائب الدنيا السبع.

ولعدم الاكتفاء بذلك، فقد اندفعت عربات اللنبي المدرعة وهجانة الأمير فيصل بقيادة الجنرال العربي المندفع نوري السعيد نحو الشمال إلى أن أخرجوا الأتراك من حلب،

وهي واحدة من أهم النقاط الإستراتيجية في الشرق، بقدر ما كانت الحرب العظمى معنية بذلك. ومن ثم، فإذا لم يلق الأتراك بسلاحهم، فإنه سيتم دفعهم شمالاً إلى القرن الذهبي.

عندما استولت القوات العربية وقوات اللنبي على دمشق وحلب تم بذلك قطع خط سكة حديد برلين إلى بغداد، وكان ذلك حلم القيصر واليونكر (وهم أعضاء الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية البروسية) من أجل أوروبا مزدهرة تصل من البلطيق إلى الخليج الفارسي (العربي) وقد تلاشى في الهواء.

وعندما رمت تركيا بنفسها في أحضان قيصر ألمانيا، فقد كانت متأكدة من أنها كان بإمكانها تعبئة جيش يبلغ تعداده أكثر من مليون جندي. إلا أنه من ذلك المليون كان هناك حوالي خمسين بالمئة من العرب، ومنذ قيام الثورة العربية إلى الانهيار التام النهائي لتركيا فإن حوالي أربعمائة ألف منهم قد فروا أو تركوا الجيش التركي، وتعود ضخامة هذا العدد بشكل رئيس إلى عاملين اثنين هما: الدعاية للقومية العربية التي نشرها لورنس وزملاؤه في جميع أنحاء الشرق الأدنى، والنجاح الباهر للثورة العربية. وفي الحقيقة، فإن فرار العناصر العربية من الجيش كان لوحده سبباً لجعل الحلفاء يساندون القضية العربية.

في رحلتنا السريعة شمالاً من العقبة إلى حلب مع لورنس، لم نعد نشير إلى المدينة المقدسة (المدينة المنورة) ومصير حاميتها التركية المهمة هناك. فمع أن الجزيرة العربية لم تعد آنذاك تحت الحكم التركي، إلا أن القوات العثمانية كانت لا تزال تحتل المدينة المنورة التي يوجد فيها قبر الرسول (ﷺ). وللتأكد من حصارها، فقد كان الأمير عبد الله، شقيق الأمير فيصل، مبقياً على محاصرتها منذ وقت طويل بجيشه، وفي الحقيقة فقد عمل الأتراك على التمسك بالمدينة المنورة لأنها تعتبر واحدة من أقدس المقدسات بالنسبة للعرب، ولأن جميع المؤن والإمدادات اللازمة للحامية كانت تشحن عبر الصحراء من سورية، فقد كان لورنس يعتبر أن ذلك مهم جدا حيث تذهب تلك المؤن والإمدادات إلى العرب بدلاً من وجهتها المقصودة. وفي الحقيقة فإن فريق لورنس التفجيري الذي كان يعمل على طول سكة حديد دمشق - المدينة قد غنم غنائم سخية من مؤن الأغذية والذخيرة التركية وغيرها من الأعتدة والمخزونات العسكرية.

في تفسيره وشرحه لأسباب عدم إخراج الأتراك من المدينة المنورة، كتب لورنس بهذا الشأن يقول: «لقد كان الجيش موسميا، وكنا ضعفاء جداً من الناحية المادية بحيث لم يكن بإمكاننا أن ندع السلاح يصدأ من عدم الاستعمال.

وقد أظهرت لي هذه الاستنتاجات بأن فكرة الهجوم على المدينة، أو حتى تجويعها حتى تستسلم بسرعة لم تكن تنسجم مع إستراتيجيتنا المفضلة. فقد أردنا أن يبقى العدو في المدينة وفي أي مكان آخر غير مؤذٍ وبأعداد كبيرة. فعامل الغذاء سيقيده في نهاية الأمر بالسكة الحديد، بل إنه كان مرحبا به بخط سكة حديد الحجاز، وخط سكة حديد شرق الأردن، وخط سكة حديد فلسطين ودمشق وحلب، خلال مدة الحرب، ما دام يقدم لنا تسعمائة وتسعة وتسعين ألفاً من العالم العربي. فإذا ما أظهر رغبته أو ميلاً للإجلاء عن المدينة سريعاً جداً، كخطوة للتمركز في منطقة صغيرة حيث يمكن السيطرة عليها بشكل فعال، فقد كان علينا محاولة إعادة ثقته بنفسه، ليس بشكل كبير، وإنما بتقليص عملياتنا العسكرية ضده. لقد كان هدفنا أن نبقي على سكته الحديدية عاملة، ولكن بأقصى قدر ممكن من الخسائر وعدم الراحة له».

وفي الحقيقة فقد وصل القليل جداً مما أُرسل إلى حامية المدينة من سوريا، ذلك أنه لعدة أشهر قبل إعلان الهدنة تقلصت مؤن القوة التركية المعزولة في المدينة إلى الاقتصار على لا شيء سوى التمر، الذي كان يجمع من أشجار نخيل الواحة المشهورة. حتى أن أسقف جميع المنازل في المدينة قد نزعت وكسرت واستخدمت للوقود. ومع ذلك فقد ظلت الحامية صامدة غير مستسلمة، ذلك أن قائدها فخر الدين كان جنرالاً شجاعاً، مصمماً وعنيداً.

وعندما وصلته أخبار من أن القوات العربية- البريطانية المشتركة قد استولت على دمشق وحلب، وأن القوات التركية في سوريا قد قهرت وانهزمت تماماً وأُجبرت على توقيع الهدنة، عرف فخري باشا بأنه من الأجدى بالنسبة له أن يحاول الإبقاء والصمود مدة أطول إلى أن تنتهي الحرب برمتها وأنه هو وحاميته كانا منعزلين في وسط الصحراء على بعد ألف ميل من اسطنبول، إلا أن ذلك النمر التركي رفض الاعتراف بالهزيمة.

ومرت الأيام والأسابيع. وأصبحت حامية المدينة التركية الآن متقلصة إلى الأسوأ وبشكل عسير أكثر مما كان عليه وضع البريطانيين في كوت العمارة قبل استسلام القائد الإنجليزي تاونسند. فمن أصل عشرين ألف رجل كانوا يشكلون قوة الدفاع عن المدينة لم يبق سوى إحدى عشر ألفاً الآن. إلا أن فخري باشا كان لا يزال يقسم على القرآن أنه بدلاً من أن يستسلم للعرب والبريطانيين فإنه سيفجر الحرم النبوي ويبيد نفسه وجميع رجاله. حتى أن البريطانيين ضمنوا لفخري بأنه سيكون محميا هو وقواته من أي أذى قد يلحقه بهم البدو. إلا أن النمر العجوز ظل عنيداً صلباً.

ومع ذلك، فلم تكن قواته متطرفة جداً مثله، وقد اشتاقوا بعد كل هذه المدة الطويلة للعودة إلى الأناضول. لذلك فقد تمردوا أخيراً وألقوا القبض على قائدهم العنيد وسلموا المدينة للأمير عبد الله في العاشر من كانون الأول 1919، بعد أشهر من انتهاء الحرب العظمى.

وبالتأكيد فإن اسم الجنرال فخر الدين يستحق أن يحتل مكانة رفيعة في التاريخ التركي، وستستخدمه الأمهات العربيات في المدينة المنورة لأجيال عديدة كوسيلة لإسكات وإخافة أطفالهن به.

بعد الاستسلام الدراماتيكي المثير للمدينة، لم يعد يسمع باسم فخري باشا في الشرق الأدنى وبدا وكأنه اختفى كلياً من المسرح. ولكن في وقت ما بعد ذلك، عندما كنا نسافر في أجزاء صغيرة معروفة في آسيا الوسطى، فقد قابلت المدافع عن المدينة في مدينة كابل، في بلاط أمير أفغانستان. ولم يفقد على ما يبدو من مزاجه الناري، فقد كان يبذل قصارى جهده كسفير لتركيا هناك ليبقى أمير أفغانستان بعيداً عن صداقة البريطانيين في الهند. فإذا ما كان لتركيا مليون رجل مقاتل له نفس الروح القتالية لفخر الدين، فإنها لن تستطيع استعادة جميع أقاليمها القديمة فحسب بل أن تحتل الشرق الأدنى وتبني وتنشئ إمبراطورية يمكن أن تفوق المجد القديم لإمبراطورية المغول العظمى.

* * *

26
حكايات الجهاز السري

مع أنه لا أحد لعب دوراً مهماً ورائعاً جداً كلورنس، إلا أنه كان هناك ما لا يقل عن عشرين ضابطاً آخرين مندفعين قد ميزوا أنفسهم في البلاد العربية، ويمكن أن يكتب، أو في الحقيقة يجب أن يكتب مجلد حول الأعمال البطولية لكل واحد منهم.

لقد تم ترتيب وتنظيم التعاون البريطاني مع العرب بواسطة إدارة الخدمة السرية؛ وهو جهاز استخبارات الشرق الأدنى، الذي أنشئ في الأيام التي كان فيها السير هنري مكماهون مندوباً سامياً في مصر. وعندما تقاعد، تولى إدارة هذا الفرع من الخدمة السرية خلفه السير ريجينالد وينجيت، ومن ثم السير أدموند (وهو الآن المارشال فيسكونت) اللنبي. ومع أن كل واحد من هؤلاء الرجال الثلاثة المتميزين قد شجع ودعم العرب بشكل شخصي وأبدى اهتماماً كبيرا بالثورة العربية، إلا أنه لا أحد من بين أولئك الذين لم يزوروا الجزيرة العربية يستحق أن ينسب إليه الفضل بشكل أكبر في المساهمة بنجاح الثورة من السير جيلبرت كلايتون، مؤسس ومنظم هذا الجهاز.

خلال الأيام الأولى للعمليات في الشرق الأدنى، أنشأ الجنرال كلايتون مقر قيادته في القاهرة. وهناك قام بجمع مجموعة من الرجال النشطاء اللامعين الذين كان لكل واحد منهم معرفة وثيقة بكل زاوية في الشرق الأدنى، مع مجموعة معينة خاصة من الأشخاص المذهلين المختلفين والمتنوعين. كان من بينهم طلاب في الشؤون السياسية، ورجال مثل

مارك سايكس وأوبري هيربرت؛ ومن ثم كان هناك هوغارت، الجغرافي وعالم الآثار الشهير؛ وكورنواليز وجويس المخضرمين من السودان؛ وولي ولورنس، اللذين كانا منخرطين في البحث والتنقيب عن الآثار في بلاد ما بين النهرين (العراق) وغيرهم الكثيرين، من ضمنهم المهندس المغامر والجريء الشهور نيوكمب، الذي وصفه لورنس لي بأنه «شخص يمتلك أكبر طاقة تدميرية في العالم».

مع أن الكولونيل لورنس قام بنسف المزيد من القطارات والسكة الحديد التركية ويعود إليه الفضل في ذلك أكثر من أي شخص آخر، إلا أنه لم يكن الرجل الأول الذي قدم هذه (الرياضة اللطيفة). بزرع الألغام والديناميت في الجزيرة العربية والمناطق العربية الأخرى. فلا بد أن هذا الشرف يعود إلى الليفتينانت كولونيل (المقدم) س. ف نيوكمب، الذي يمكن أن يكون سجله التدميري للقطارات والسكة الحديد قد فاق سجل لورنس في هذا المجال، ولعل جرأته وحبه للقتال نتج عنها قضاء المراحل الأخيرة من الحرب في سجن تركي.

قبل عام 1914، اكتسب نيوكومب سمعة ممتازة بكونه أقدر مهندس في الجيش البريطاني. وكان خط السكة الحديد الممتد عبر صحراء السودان من وادي النيل إلى البحر الأحمر واحداً من أعماله وجهوده. وكونه كان دائماً من الرواد في هذا المجال، فقد قام بمسح وتدمير سكك حديد في كل من الحبشة وإيران ومناطق مختلفة أخرى من العالم والتي تبدو مجرد نقاط على الخارطة.

لقد أصبح مختصا في كل عمل قام به، ذلك أنه اكتسب أيضاً شهرة لجرأته أيضاً. وبعد الاستيلاء على الوجه في الأيام الأولى للثورة العربية (ثورة الحجاز)، عين قائداً مؤقتاً لذلك الميناء. وكان يعيش معه هناك حينذاك عدة مسؤولين آخرين، غير أنه ولكونه عقيداً فقد خصص له خادم لوحده، ولكنهم كانوا جميعهم معتمدين عليه من أجل ترتيبات الطعام. بيد أن نيوكمب عاش هذه المرحلة غير المهمة لنشاطه اليومي بطريقة عشوائية جداً، فإذا ما إن تصبح الساعة الواحدة ظهراً حتى يأتي أحد ما ويقول «حان الآن موعد الغداء»، وغالباً ما ينسى نيوكمب إعطاء تعليمات بهذا الشأن، وكنتيجة لذلك يكون عليهم تسوية الأمر بجمع فترة الغداء مع فترة الشاي في الساعة الثانية بعد الظهر.

لقد لعب نيوكمب دورا لامعا في الشؤون العربية لمدة سبعة أشهر، وهو الذي بدأ أساليب نسف خط السكة الحديد والقطارات التي طبقها لورنس فيما بعد بطريقة فعالة. ومع أنه كان يرتدي الزي العربي، إلا أنه بالفعل كان شرقياً تماماً في طرقه وأساليبه، ومنغمساً حتى رأسه في عمله ليل نهار في سرعة شديدة، بحيث لا يمكن لأحد أن يوقفه. وفي نهاية الأشهر السبعة التي مكثها في الصحراء التحق نيوكمب ثانية بالجيش البريطاني في فلسطين، وفي الهجوم على بئر السبع وقام بتنفيذ أجرأ الأعمال في الحرب.

كانت قوة مشاة وفرسان اللنبي تطبق على بئر السبع من جهات الغرب والجنوب والشرق. ولكن إلى جهة الشمال باتجاه موطن النبي إبراهيم كان يمر من هناك طريق بئر السبع - الخليل - القدس، الذي كان يعتبر في تلك الأيام خط شريان الاتصالات والمواصلات التركي. فزحف نيوكمب ومعه مائة من الأستراليين الذين تطوعوا لأن يتبعوه في عمليته تلك من خلال الخطوط التركية ليلاً قبل بدء الهجوم على بئر السبع تماماً. وكان عملهم يتلخص في قطع طريق الخليل وإيقاف كافة تموينات وتعزيزات القوات التركية إلى أن يهزم اللنبي وقواته القوات التركية ويستولوا على بئر السبع. وكانت العملية عبارة عن محاولة يائسة، إلا أنه خلال ثلاثة أيام ولياليها ظل نيوكمب ومجموعته الأسترالية يعملون على ذلك الطريق ويقاتلون بقدرة خمسين ضعف عددهم. وتم في نهاية الأمر تطويقهم وهم على قمة جبل، والقلائل الذين كانوا محظوظين منهم وظلوا على قيد الحياة تم أسرهم.

وصدف أن الكولونيل نيوكمب كان يحمل أعلى رتبة عسكرية بريطانية يأسرها الأتراك في فلسطين، لذلك فقد اهتموا به تماماً واستعرضوه من خلال شوارع القدس وهو في طريقه للسجن في الأناضول.

ولكن بعد أشهر، وبعد أن شفي من مرض الجدري ونجا من كافة (رفاهيات) حياة السجن التركي، فقد فر الكولونيل نيوكمب من زنزانته في اسطنبول بمساعدة فتاة سورية جميلة، أخفته حينذاك في منزلها. وكان ذلك قبل وقت قصير من الانهيار التركي، وفضل نيوكمب الحياة متخفياً في اسطنبول بما فيها من إثارة على الحياة الرتيبة التي يمكن أن

يعيشها بعد هروبه التام من تركيا، فبقي في اسطنبول لكي يبدأ بإقامة مكتب سري للدعاية تماماً في قلب أرض العدو. وكان ناجحاً جداً في ذلك، ذلك أنه في نهاية الأمر استطاع الاتصال بشخصيات تركية بارزة كانت تعارض السياسة الموالية للألمان التي كان يتبعها كل من طلعت وأنور، حتى أنه ساعد هذه الشخصيات على ترتيب معاهدة هدنة مما نجم عنها خروج تركيا من الحرب. ومن ثم، وكأي بطل ولد ليقوم بعمل ميلودرامي فسيكون متوقعاً منه بلوغ الذروة في موهبته الرومانسية، فقد تزوج نيوكمب من الفتاة السورية الجميلة التي ساعدته على الفرار من السجن، ونأمل أن يكون قد عاش حياة سعيدة بعد ذلك.

من بين الرجال الذين انخرطوا بشكل نشط في ترتيب المساعدة البريطانية للعرب وفي تقديم المشورة والنصيحة لهم في الأمور العسكرية كان كل من الكولونيل سي. ي. ويلسون، الكولونيل ك كورنواليز، الليفتينانت كولونيل ألن داوناي، والقائد د. ج. هوغارث. كان الكولونيل ويلسون حاكماً لإقليم البحر الأحمر من السودان عندما قام الشريف حسين وأبناؤه بالثورة على الترك في مكة المكرمة، فهندس ورتب إرسال شحنات الأسلحة بشكل سري وبارز للحفاظ على إبقاء الثورة حية إلى أن يأتي الوقت الذي يقرر فيه الحلفاء رسمياً مساعدة العرب. فقد أفرغ الكولونيل ويلسون شحنات من الأسلحة والذخيرة من سفن بريطانية في بور سودان ومن ثم نقلها بواسطة سفن شراعية عبر البحر الأحمر. ومن ثم رست هذه السفن الشراعية وبها شحنات الأسلحة والذخيرة بصورة سرية على طول ساحل الجزيرة العربية، حيث وزعت على البدو. ولكن بعد سقوط مكة وجدة، ترك ويلسون عمله الإداري في السودان وأبحر إلى جدة، حيث ظل هناك مسؤولاً عن الأنشطة البريطانية في جنوب الحجاز وكمستشار للشريف حسين حتى انتهاء الحرب.

وفي الحقيقة فقد كان الكولونيل ويلسون، بمساعدة كل من الجنرال كلايتون ورونالد ستورز، السكرتير الشرقي للمندوب السامي البريطاني في مصر، هم الذين أول من فتح باب المفاوضات ما بين بريطانيا وقادة الثورة العربية. وبالرغم من اعتلال صحته، فقد قام ويلسون بعمل رائع.

وأمضى كل من كورنواليز، داوناي، وهوغارث معظم أوقاتهم فيما كان يعرف بالمكتب العربي في القاهرة. وكان الكولونيل كورنواليز، الذي أرسل بعد الحرب إلى العراق كواحد من المستشارين البريطانيين الرئيسيين لفيصل عندما أعلن ملكاً على العراق، كان مسؤولاً وقتذاك عن المكتب العربي. وكان يشرف شخصياً على الجانب السياسي في ملف التعاون مع العرب الذي كان يستلزم إجراء مفاوضات رسمية ما بين بريطانيا وحكومة مملكة الحجاز العربية الناشئة وقتذاك، كما كان يشرف على المساعدة المالية التي كانت تمنح للشريف حسين لتمكينه من مواصلة ثورته. إضافة إلى أن الكولونيل كورنواليز كان يشرف على عمل مهم آخر وهو تزويد الجيش العربي بالمقاتلين الذين كانوا ضمن القوات العثمانية من أبناء العرب الذين كانوا يخدمون فيها ومن ثم تم أسرهم وسجنوا في معسكرات في كل من سوريا، فلسطين، مصر، والعراق. وغالباً ما كان لورنس يشير إلى كورنواليز بالعبقري وبدا وكأنه يعتبر أن لا غنى عنه لنجاح العرب في ثورتهم.

وكان هناك ضابط لامع آخر وزع وقته ما بين المكتب العربي في القاهرة، والصحراء، ومقر قيادة اللنبي في فلسطين، وهو الليفتينانت كولونيل (المقدم) ألن داوناي من قوات حرس كولد ستريم (الجدول البارد). ومع انه كان مسؤولاً عن وضع (الثورة العربية) على قاعدتها الحقيقية والعسكرية الفاعلة بالنسبة لأفرادها وخدمات التموين، إلا أن مهمة داوناي الرئيسية كانت إبقاء كل من الأمير فيصل والكولونيل لورنس وغيرهم من الزعماء والقادة في الجزيرة العربية على اتصال مستمر مع اللنبي. وكان هو ولورنس صديقين حميمين وعملا معاً بانسجام تام. وعمل داوناي ما بوسعه لتدبير وإيصال المعدات والسلاح وكل ما كان يطلبه لورنس. وكان يعتبر أن زياراته للجزيرة العربية تتيح له وقتاً كافياً للمشاركة في إغارة أو إغارتين، حيث أنه كان أيضاً متحمساً جداً لزرع الألغام والديناميت.

إلا انه كان مقتنعا بأن طبيعة حرب الصحراء كانت تتطلب عبقرية دبلوماسية لرجل واحد على الأقل ليعمل بدور الوسيط ما بين الجزيرة العربية والحكومة الملكية في لندن. فهذه المهمة الحساسة تركت لرجل خبير وذي شهرة عالمية بهذا المجال، وكانت

مقترحاته تؤخذ بالاعتبار حتى من قبل رئيس الوزراء وحكومته الحربية. فالسير جيلبرت كلايتون أثبت هنا ثانية أنه عبقري في اختيار الرجال باختياره د. ج هوغارث رئيساً لمتحف اشموليم في أكسفورد، ولم يجد في هوغارث رجلاً مشهوراً كعالم آثار وإنما أيضاً وجد فيه ما كان يبحث عنه منذ وقت طويل كشخص على رأس سلطة حية في الجزيرة العربية. وهنا ثانية كان لورنس محظوظاً بكونه مترافقاً مع شخص يمكن أن يكون من أكفأ القادة وهو هوغارث (الذي منح تكريم لجنة بحرية لزيادة هيبته الرسمية) الذي عرف لورنس منذ طفولته وساعده ليبدأ في مجال علم الآثار.

طوال فترة الحملة كان القائد هوغارث ينظر للورنس وزملائه على انه مستشارهم، وفيلسوفهم ووسيطهم، ومهمته الحساسة كانت تبرير الخطوات المختلفة التي كانت تتخذ في الجزيرة العربية أمام هيئة الأركان البريطانية العامة وحكومة الحرب. كما أنه كان يحرر مطبوعة سرية في مقر القيادة البريطانية في القاهرة تدعى «بالنشرة العربية» حيث كان يطبع منها أربع نسخ فقط من كل عدد منها؛ نسخة للويد جورج (رئيس وزراء بريطانيا آنذاك) وحكومته، ونسخة للماريشال اللنبي وأركان قيادته، ونسخة للورنس وزملائه في الصحراء، ونسخة للملف الموجود في المكتب العربي.

* * *

27
جويس ورفقاؤه وفرسان الجو في الجزيرة العربية

تكونت قوات ملك الحجاز من قوات نظامية وغير نظامية؛ وكانت القوات غير النظامية تتألف من البدو الممتطين الجمال والجياد، في حين أن القوات النظامية تألفت من الفارين من الجيش التركي من أبناء العرب الذين كانوا يخدمون في الجيوش العثمانية وبعد ذلك أسروا من قبل القوات البريطانية في فلسطين والعراق.

كان هناك حوالي عشرين ألفاً من القوات النظامية المدربين بشكل خاص كقوات مشاة لمهاجمة تلك المواقع الحصينة التي لم يكن بالإمكان أن يتم الاستيلاء عليها من قبل القوات غير النظامية. وكانت القوات النظامية بقيادة الليفتينانت كولونيل (المقدم) ب. س. جويس، الذي كان مثل لورنس، ايرلندي الأصل، والذي من المحتمل أن يكون قد لعب بعد لورنس دوراً أكثر أهمية من أي شخص آخر في (الثورة العربية).

وعلى العكس من لورنس، كان جويس جندياً محترفاً، وضابطاً في قوات حرس كونوت مع سجل رائع بالخدمة في حرب البوير وفي مصر والسودان. ومن الناحية الجسدية كان هناك اختلاف كبير بينهما، فبينما كان طول لورنس يبلغ خمسة أقدام، فقد كان طول جويس أكثر من ستة أقدام. ولم تكن سوى سفينة صحراء ضخمة يمكنها أن تبحر تحت جثة جويس، فهو لذلك نادراً ما كان يركب جملاً. ولكنه عندما كان يفعل ذلك كان يبدو كمثل جبل يجلس على قمة جبل آخر.

أمضى جويس حوالي سنة وهو يعد جيشاً ليرسله لمهاجمة الحامية التركية الحصينة للمدينة المنورة. وكان ذلك الجيش بقيادة الأمير علي. وفي النهاية، عندما بدا الأمر بفضل من الله أن كل شيء أصبح مهيئا، جاء رسول من طرف الأمير علي وسلم رسالة إلى جويس لترسل إلى جلالة الملك في مكة بالسرعة الممكنة. وجاء في الرسالة:

«يا رب الرحمة وسيد الأرض، لك تحيات من ولدكم، إن جيشكم البطل لا ينتظر سوى الأمر لتحقيق تقدمه الظافر على الترك. ولكن لسبب واحد فحسب فقد أخرنا ذلك. فقد أقسم ضباطنا البواسل بأنه سيكون لا جدوى بالنسبة لهم أن يتقدموا من دون سيوف. لذلك فإنني أتوسل إليكم إرسال ثلاثين سيفاً دمشقياً مع أغمادها مرصعة أو مضروبة بالذهب لكي يمكن إرضاؤهم بذلك». «خادمكم».

ولكن لحسن الحظ فقد أثبت الكولونيل جويس قدرة على التعامل والتغلب على مئات الصعوبات والمشكلات غير المتوقعة التي تنشأ، ذلك أنه بالإضافة لقدرته على تكلم العربية، فقد كانت لديه أيضاً مؤهلات وخواص قيمة. فهو على سبيل المثال كان لبقاً وذا أعصاب باردة ورابط جأش وهادئا تماماً، ولا يمكن أن يكون مستعجلاً أو متهوراً تحت أي ظرف من الظروف، وكان مجتهداً ومكداً، وفوق كل ذلك، كان صبوراً إلى حد غير عادي من الصبر كما يمارس ذلك في الغرب.

لذلك فبينما كان لورنس يمضي وقته مع حشده من البدو، كان جويس يظهر قدرته العسكرية بإنشاء وبناء قوة إضافية مساعدة من الجنود النظاميين من خليط من سوريين، وفلسطينيين، وعراقيين كانوا متأثرين بشعار الثورة العربية. إلا أنه كان أيضاً حينذاك يجد وقتاً للانضمام إلى لورنس في إغارة ما أو قيادة حملة تدمير خط سكة حديد أو قطار. وفي الحقيقة، فإنه في واقعة واحدة فقط دمر سبعة جسور صغيرة ونسف أكثر من ألفي قضيب سكة حديد على سكة الحديد التركية الواقعة ما بين محطة الطويرة ومحطة هيديا.

كان هناك أيضاً عدد من الضباط الآخرين الذين حاربوا مع العرب وشاركوا في لعبة زرع الألغام والديناميت الرائعة ونسف السكة الحديد التركية. وكان من بين هؤلاء أيضاً الليفتينانت كولونيل ف. ستيرلنغ، الميجور ب. ج. مانيارد من كتيبة الرماة الايرلندية،

وكان أيضاً يعمل قاضياً في مكان ناء من السودان، والميجور (الرائد) هـ. يونغ، الميجور ي. مارشال، الكابتن (النقيب) ي. سكوت هيجنز، الكابتن هـ. س. هوربني، والملازم هـ. جيرالند، الذي علم العرب كيفية نسف وتدمير السكة الحديد. وتقريباً فإن جميع الرجال الذين حاربوا وقاتلوا في الجزيرة العربية والبلاد العربية الأخرى قد حصلوا على خبرة وسمعة عسكرية طويلة قبل أن يتم اختيارهم للعب دور في الحرب في أرض ألف ليلة وليلة ولكن لا أحد منهم كان سخيا بقدر ستيرلنغ، الذي لم يكن محارباً مخضرماً فحسب حارب في جنوب إفريقيا وإنما أيضاً وجد وقتاً ليخدم مع قوة مميزة بشكل ممتاز في سلاح الطيران الملكي (البريطاني) قبل أن تتحطم طائرته ويفقد حياته تقريباً بينما كان يقوم بتحليق استطلاعي فوق مناطق وزوايا الجزيرة العربية قاسية المناخ.

ثم قدر له أن يخدم ما تبقى من الحرب على الأرض، فقد اختير كرجل مناسب للمشاركة في ثورة الحجاز (الثورة العربية).

فقد انضم للعرب عندما كانوا على وشك الدخول إلى سورية وكان مع لورنس عندما دخل دمشق. أما يونغ، الذي كان يعمل سابقاً في إدارة الاستخبارات في العراق، فكان واحداً آخراً من الذين كانوا يجدون متعة بالغة في القيام بتفجيرات كبيرة. وتولى خلال المرحلة الأخيرة من الحملة القيام بعمل مهم جداً وذلك بتنظيم نظام نقل ومواصلات، ولكن من بين إنجازاته العديدة، ذلك النجاح الذي حققه في إطلاق لحية حريرية كانت سبباً في حسده من قبل زملائه ومما حوله إلى شيخ نموذجي.

ولعل الشخص الذي كان محبوباً أكثر بشكل تام، سواء من قبل البريطانيين أو العرب على حد سواء، ومن جميع الأوروبيين أيضاً، والذي في حرب الصحراء، وكان رفيق لورنس في خيمته وصديقه الحميم، هو المتفائل سكوت من سلاح الخدمات الطبية الملكية للجيش البريطاني، ذو اللهجة الايرلندية، الذي قسم وقته وميوله ما بين المعالجات الطبية وزرع الألغام. وكان يساعده في ذلك رجلان طيبان، هما الكابتن رامساي ومكيبين. إلا أن الميجور مارشال، ومع أنه كان هادئاً وخجولاً ورجل علم وكرس حياته كلها لعالم أنابيب الاختبارات، والمجاهر (الميكروسكوبات)، والبحث عن الميكروبات

الغامضة في الأدغال الاستوائية الإفريقية، إلا أنه أثبت نفسه تماماً كجندي وحصل بالتالي على وسام الصليب العسكري في معركة السوم وفي معارك مشرفة أخرى في البلاد.

وعندما كان بعيداً عنه يقوم بإغارة أو حملة عسكرية، كان مارشال يحول خيمتها إلى عيادة طبية لمعالجة بكتيريا الكوليرا والتيفوئيد والجدري وكان غالباً ما يدبر ويعالج وبمحض الصدفة معظم الأمراض، ويحل الأشكال الغامضة منها. ومن ثم عندما كان يقوم برحلة في الصحراء فإنه كان يملأ نقالاته بالمتفجرات والألغام عالية التفجير، وبعد انتهاء الإغارة يرمي ما تبقى من الديناميت ويعالج الجرحى. وإذا ما حدثت إصابات بين الأتراك كان يعالجهم أيضاً ويضمد جراحهم. لذلك فقد كان ناجحاً جداً إذ أنه جمع ما بين الضابط الطبي (الطبيب) والجندي المحارب، ذلك أنه بعد انتهاء الحرب عين مستشاراً لملك الحجاز، وبقي عدة سنوات في جدة كمقيم بريطاني هناك.

إلا أنه من بين جميع زارعي الألغام والديناميت لم يكن هناك بالتأكيد واحد أجرأ من الكابتن هـ. س. هورنبي، الذي كان مثل نيوكمب، مهندساً. وقد تلقى دروسه الأولية في المغامرة في منطقة الساحل الذهبي، في قلب وسط الكونغو، وفي مناطق وزوايا أخرى من العالم، وكان متهوراً وطائشاً إلى حد كبير حتى أن أشرس البدو كانوا يعتبرونه مجنوناً تماماً. بيد أن موهبته كزارع ديناميت ومفجر قطارات اختتمت بنهاية مبكرة عندما انفجر جزء من لغم في وجهه، تاركاً إياه أصم وشبه أعمى. ولقي العرب الذين كانوا معه صعوبة كبيرة في إعادته إلى العقبة حياً، ومنذ ذلك الحين أمضى وقته في عمل إداري.

كان يتواجد في قاعدة العقبة ضابطان، هما الميجور ت. هـ. سكوت، والكابتن ريموند غوسليت. كان سكوت مختصاً في المرح والمال، بينما كان غوسليت يوزع كل شيء ابتداء من الأبواط (الأحذية) إلى الطحين. وكان يوجد في خيمة سكوت صناديق من الجنيهات الذهبية، ذهب مصادر من كل زاوية من الإمبراطورية البريطانية للمساعدة في إثارة الحماس في صدور البدو المزاجيين أينما تواجدوا فضلاً عن أولئك المدنيين المتقلبين الذين بدأ حماسهم يفتر. وكان الحارس الوحيد لكل هذه الصناديق من الذهب (أو العفاريت كما كانوا يطلقون عليها) كلب يبلغ حجمه كحجم السنجاب، كما كان الميجور

سكوت يدعو كلبه البلغاري بالماكر. وكان زميله الكابتن غوسليت قيصر التموين والضابط المسؤول عن مؤن المعسكر؛ باستثناء عندما كان عوده أبو تايه أو بعض من رجال لورنس الآخرين الذين لم يكن بإمكانهم أن يمكثوا أو يقاوموا طويلاً إغراء نهب مخازن معسكرهم.

ثم كان هناك ضباط في قيادة العربات المصفحة والمدفعية الخفيفة المتحركة؛ مثل الكابتن جيلمان، داوست، برودي، والملازمين جرينهل، ويد، وباسكو. ومع أنهم كانوا غير قادرين على الحركة لعدم معرفتهم بالطرق، إلا أنهم كانوا يتدبرون أمرهم بتسلق الجبال الجرداء ويدخلون في عمليات في كثير من المناسبات، كما أنهم اشتركوا في مغامرات جريئة خلال المراحل الأخيرة للحملة.

أما الأعمال غير السارة، فقد كانت مهمات الطيارين الذين أرسلوا إلى الجزيرة العربية لإرضاء العرب، الذين أصروا بأن يكون جيشهم مثل الجيش التركي لديه طيور (طائرات) تصنع وترمي بيضا متفجرا، وتكون محسودة على الأقل. ومن العقبة التي كانت كقاعدة لهم كانوا يطيرون قدماً لتحديد مواقع الدوريات التركية المتحركة وأيضاً قصف الحاميات التركية الواقعة على طول خط السكة الحديد دمشق- المدينة. وأينما كانوا يتجهون بطائراتهم فقد كانت تحيط بأولئك الطيارين أخطار عظيمة، باستثناء شرق إفريقيا والجبهة الأفغانية. فعندما كانت الطائرة تغادر العقبة كان الطيار ومساعده يعرفان تماماً أنهما إذا ما واجها متاعب بمحرك الطائرة فإنهما سيهلكان لا محالة، لأنهما كانا يطيران باستمرار فوق مناطق وتضاريس غير مستكشفة ونائية ووعرة جداً كمثل جبال القمر. وفي مناسبة ما، عندما كنا نشق طريقنا عبر جبال إيدون إلى مدينة البتراء الوردية، سمعنا أزيز طائرة حربية تطير فوقنا، وعندما كنا نحدق في ذلك المشهد غير الودي، مع سماء الصحراء العربية الزرقاء المتخللة في كل مكان بجبال اللافا البركانية الحادة، ازداد إعجابنا بأولئك الطيارين البريطانيين المغامرين، الذين يحلقون على ارتفاع آلاف الأقدام فوقنا بشكل يدعو للتقدير.

كان شيوخ الجو هؤلاء أولاً بقيادة الكابتن هارولد فونيس ويليامز، مع أنه خلال المراحل الأخيرة من الحملة، أصبح القس المبتدئ، الكابتن فيكتور سيدونس، قائداً

للسرب هناك. وفي مناسبة ما طار فورنيس ويليامز من مصر إلى الجزيرة العربية عبر صحراء سيناء. وكان يحمل معه الماء الذي زملاؤه بحاجة إليه حيث كانوا يعانون من العطش. ولكن تحت أعين أصدقائه المنتظرين قام ذلك الطيار غير المحظوظ بهبوط سيء، وانقلبت الطائرة، وتحطمت جميع زجاجات المياه. فقالوا له بأنه كان بودهم أن يروا قريباً جداً دماءه تنسكب على رمال الصحراء من أن يروا ذلك السائل النفيس يضيع هباءً.

أمضى الكابتن فورنيس ويليامز وزملاؤه جزءاً من أوقات فراغهما في أخذ الشيوخ العرب في رحلات استمتاع جوية. فمرة أخذوا عودة أبو تايه في أول «رحلة جوية» له، وقد صرخ ذلك الشيخ كبير السن الفرح، الذي كان أعلن حينذاك بشجاعة من أنه تزوج ثمان وعشرين امرأة، وبروح شاعرية فطرية صحراوية عند عودته إلى الأرض من انه ندم وأسف بشكل عميق لأنه أخفق في أن يأخذ معه بندقيته لتحلق معه عالياً. ولم يقل أبداً، إنه سنحت له فرصة رائعة لأن يقوم بإطلاق النار على جميع «أصدقائه» في العقبة.

وكان من بين فرسان جو الصحراء العربية أيضاً الملازمون ديفرز، ماكينز، أولدفيلد، سيفي، وآخرون عديدون، ولكن الوحيد فقط الذي ذهب مباشرة مع قوات الثورة إلى دمشق كان الملازم جونور، الذي كان يسقط القنابل خلال كل معركة، وبقي ليلعب دوراً مشابهاً على الجبهة الأفغانية الصعبة على نحو موازٍ في الهند، بعد انتهاء الحرب العظمى بمدة طويلة.

وفي المنطقة الجنوبية كان هنالك عدد آخر من الضباط الذين رأيتهم لمدة قصيرة أو الذين لم أرهم: رجال مثل الكولونيل أ. سي. باركر، وهو ابن أخت كيتشنر، الذي عمل على ساحل البحر الأحمر لمدة ومن ثم عين حاكماً لمنطقة شبه جزيرة سيناء، وهي منطقة صحراوية وجبلية واسعة، حيث تاه هناك بنو إسرائيل لمدة أربعين عاماً. وهناك أيضاً كان يعمل الليفتنانت كولونيل ج. ر. باسيت، ومن ثم نقل إلى الجزيرة العربية من قبل وزارة الحربية البريطانية في لندن، والذي كان نائباً للكولونيل ويلسون في جدة؛ وقد وصف الميجور هـ. ج. غولدي مقر قيادته في جدة بأنه كان حارا جداً بحيث لا يمكن لأي شيء أن يعيش هناك سوى البشر، ولا يمكنهم سوى أن يلهثوا من الحر. وكان جيش الأمير

عبد الله يحاصر المدينة المنورة ويجعل الأمور قلقة بالنسبة للحامية التركية الكبيرة هناك، حيث كان يتواجد مع هذه القوات اثنان من خبراء التفجير، هما الميجور أ. دافينبورت والميجور ج. جارود.

إلا أن هذا السرد القصير والمختصر للأوروبيين الآخرين الذين لعبوا دوراً في حرب الصحراء سوف لن يكون كاملا من دون الإشارة إلى الفرنسيين. ففي وقت مبكر من شهر أيلول 1916، أبرز الفرنسيون دورهم في القضية العربية بإرسال بعثة إلى جدة بقيادة الكولونيل بريموند. وكان الفرنسيون غير مفيدين أو فعالين جداً في هذا المجال لأن حكومتهم لم تستطع أن تمنحهم دعماً وافياً، وكان على البريطانيين أن يوفروا لهم كل شيء تقريباً. مما جعل من الصعب بالنسبة لهم بأن يتعاملوا مع العرب، لأن الأخيرين كانوا واعين ومدركين للظروف. بيد أن الكابتن بيزاني، الذي كان يقود الكتيبة الفرنسية المؤلفة من جنود جزائريين طوال الحملة، كان لديه خبرة غير محددة في الصحراء المغربية وأدى هناك عملاً رائعاً ضد خط السكة الحديد التركية عام 1917، ومرة ثانية خلال العمليات النهائية التي جرت حول درعا عام 1918.

والأجانب الآخرون في الحجاز كانوا بعض الخليط من القوات المصرية ومجموعة من الهنود المسلمين من المدفعيين.

وكانت واحدة من أعظم الإنجازات خلال الحرب في الشرق الأدنى صادرة المسؤول المدني البريطاني جون فيلبي، الذي لم يلعب دوراً في الثورة العربية، إلا أنه فاجأ الملك حسين يوماً ما بلباسه العربي وعاداته البدوية في عاصمته الصيفية في الطائف. فقد أرسل فيلبي في مهمة سرية إلى بلاط ابن سعود في قلب الجزيرة العربية من الخليج العربي إلى البحر الأحمر عبر منطقة غير معروفة. وكان لورنس متأثراً جداً بإنجازات فيلبي ومهارته في التعامل مع البدو، ذلك أنه بعد انتهاء الحرب كان له يد في تعيين فيلبي مستشاراً لأمير شرق الأردن.

وربما كان أعظم شخص من جميع الأوروبيين الآخرين ويبدو كقاطع طريق حقيقي وحارب مع الثورة العربية هو الإيرل (لقب إنجليزي) ونيتيرتون. وقد ربى لحية ضخمة

وارتدى الكوفية والعقال، وكان يمتطي جمل سباق طويل القامة مزينا بزخارف رائعة. وتحول اللورد ونيترون ليكون محباً للمنازلة في الميدان عندما رجع للوطن (بريطانيا) وانتخب في مجلس العموم. وفي إحدى المناسبات عندما قاطعه عضو من مقاطعة وايتشابل بينما كان يلقي كلمة في المجلس، التفت إليه ووجه نظره إليه وصاح قائلاً: «هدوء في الفيتو» فانفجرت قاعة المجلس بالصراخ احتجاجاً على قوله.

في الصحراء، كان الإيرل النبيل مدبراً أمره ليبدو ضالعاً ما أمكن، وكان ناجحاً في مظهره كرجل شرس مثل عوده أبو تايه ذاته. في أحد الأيام جاء وينترتون وهو يرتدي زي شيخ عربي ويركب جملاً قادماً من يافا إلى قصر قيادة اللنبي بالقرب من الرملة. وكان هناك امتداد للطريق ما بين تلك المدينتين الفلسطينيتين، ولكن خلال مدة الحرب كان على جميع السكان الممتطين الجمال والحمير أو المترجلين أو الماشين على الأقدام أن يفسحوا الطريق ويمشوا على جانبه لتمر الشاحنات والعربات العسكرية عليه. فعلى هذا الطريق وفي وسطه مباشرة والذي كان معدا لسير المركبات العسكرية جاء اللورد وينترتون وهو يسير ويزهو بجمله على طول الطريق في مهمة كلف بها من قبل الجيش العربي إلى اللنبي.

ورآه رقيب من الشرطة العسكرية كان مكلفاً بمهمة تنظيم السير على الطريق وقتذاك، فصاح به قائلاً: «تنحى عن الطريق أيها الأسود عديم الذوق». إلا أن وينترتون واصل سيره على الطريق، فلم يكن معتاداً على أن يخاطب بمثل هذا الطيش، وافترض أن الرقيب كان يتحدث لشخص آخر. بيد أن الشرطي صاح ثانية: «أقول لك أنت أيها المتسول الأسود، ألا يمكنك أن تسمعني أنني أتحدث إليك؟ لقد قلت لك اخرج عن الطريق إلى جانبه».

عند ذلك أوقف ونيترتون ناقته وأجاب كما يجيب شخص حسب موقعه الاجتماعي: أقول لك بوضوح أيها الفتى الكبير، ألا تعرف من أنا. إنني رائد في الجيش، وعضو في البرلمان، وإيرل». عند ذلك انهار الرقيب تقريباً، إلا أنه تدبر أمره ليؤدي التحية له بشكل واهن وضعيف قائلاً «تابع يا سيدي.. تابع».

كان معظم الضباط العاملين في الجزيرة العربية إما برتبة كولونيل (عقيد)، أو ليفتنانت كولونيل (مقدم) أو ميجور (رائد). بيد أن الرتب لم يكن لها سوى تأثير ضئيل،

فقد كان هناك تعاطف ومشاركة وجدانية بينهم لم يكن يوجد مثله في أية جبهة أخرى. فقد كانت التحية العسكرية محرمة، وعند مخاطبتهم لبعضهم البعض كانت الألقاب تتلاشى بينهم. ولو أن لورنس كانت له فرصة لأن يصبح جنرالاً فإنه سيهمل شرف هذه الرتبة ويقدم تبريره على انه لا يفضل أن يرقى في الرتبة ويعلو على زملائه نتيجة ذلك. فكل رجل كانت له مهمته الخاصة وسار في طريقه الخاص وفقاً لذلك. وكل واحد كان حراً طليقاً ويتدبر أمره إلى حد كبير بحرية كما كان يفعل الفرسان في العصور القديمة.

وفي رسالة أرسلها للوطن من الجزيرة العربية خلال المرحلة الأخيرة من حرب الصحراء، قال الكولونيل ر. ف. روبين بوكستون، قائد سلاح الهجانة، الذي أرسل من فلسطين للتعاون مع القوات العربية، قال عن لورنس: «إنه من أروع الزملاء، وكان مرشدنا، وفيلسوفنا وصديقنا. ومع أنه كان يبدو في ملامحه شاباً يافعاً، وهادئاً تماماً في أسلوبه، إلا أنه كان معروفاً لكل عربي في المنطقة بأعماله البطولية الجريئة. وكان يعيش تماماً معهم، ويرتدي ثيابهم، وينتعل ويرتحل دوماً بملابس عربية بيضاء صافية، ويأكل طعامهم فقط، وفي الحقيقة فإنه يذكر الواحد بالنبي. وكان متحمساً بشكل عجيب وبدأ جميع خطواته وتحركاته بشكل عملي.

* * *

28

الأمير فيصل ولورنس في معركة باريس

بعد سقوط دمشق بأيدي القوات العربية وإتمام الإطاحة بالجيوش التركية، وبعد أن ساعد في إنشاء حكومة مؤقتة للأمير فيصل، وضع لورنس سيفه الذهبي المعقوف جانباً، ثم طوى أثوابه البيضاء وكوفيته المزخرفة، والتي تلقى من خلالها كامل الاحترام والتقدير كشريف عربي، وأسرع إلى لندن. فقد أصبح تركيزه منصباً على هدف صنع المنظور المستقبلي، بما فيها الإمبراطوريات والسلالات الحاكمة والتوازن الجديد للقوى في الشرق الأدنى. فقد أنجز المستحيل على ما يبدو؛ ووحد القبائل الصحراوية التي كانت معادية لبعضها البعض؛ واستطاع أن يكسبهم إلى جانب قضية الحلفاء، وأن يساعد اللنبي، ويضع حداً للمطامح الألمانية والتركية من أجل فرض سيادتهم على الشرق الأدنى.

إلا أن لورنس أدرك بأن عمله لم ينته بعد. فقد كان يرى بأن القوى العظمى يجب أن لا تنسى الوعود التي قطعتها لحلفائها العرب. فمعركة مؤتمر السلام كانت لا تزال تحارب. لذلك فقد رجع لورنس إلى أوروبا للتحضير من أجل وصول الوفد العربي.

ووقعت حادثة طريفة عندما مر لورنس عبر مرسيليا، حيث نزل هناك ليستأنف رحلته إلى لندن. فذهب إلى مقر قيادة سكة حديد نقل الضباط في المحطة ليستعلم عن موعد القطار التالي إلى لو هافريه. وكان يوماً ماطراً، وكان لورنس يرتدي معطفاً ثقيلاً داكناً، من دون شارات عسكرية على لباسه العسكري. ومع أنه كان عقيداً في ذلك الوقت

إلا أنه كان لا يزال يبدو كأنه ملازم. وصدف بأن ضابط المحطة كان برتبة مقدم، وكان ضخماً وله شارب غليظ. وعندما سأله زائره بهدوء عن موعد القطارات نظر إليه الضابط بلا مبالاة وقال له بتبجح بأنه مضجر ولا يمكنه أن يأمل مساعدته. ومن دون أن ينبس بكلمة سار لورنس خارجاً، ولكن في الغرفة التالية خلع معطفه، ومن ثم عاد إلى مكتب الضابط ثانية، وقال في هذه المرة بهدوء أكثر من قبل، «ما هو الوقت الذي قلته عن مغادرة القطار القادم إلى لو هافريه؟» وللحظة نظر الضابط كما لو أنه يريد أن يدق عنق لورنس، إلا أنه لاحظ بنظره التاج والنجمتين على كتف لورنس، فقفز على قدميه، وأدى التحية وقال متلعثماً: «المعذرة يا سيدي، المعذرة يا سيدي.»

لم يكن أي شيء ليسر لورنس أكثر من أن يضع إسفيناً أو اثنين أمام رجل متبجح. فلم يكن لديه أي اهتياج وغضب شديد أو تباه في تركيبته الذاتية أو الشخصية، وكان مما يسره ويعجبه عندما يلتقي من فترة لأخرى شخصا مهتاجا ومتباهيا يحاول أن يلعب ويقفز عن مستواه ليواجهه ويوقفه عند حده.

سافر الأمير فيصل وأعضاء وفده عبر البحر الأبيض المتوسط على متن السفينة جلوسستر كضيوف على جلالة ملك بريطانيا. وكان الفرنسيون منزعجون بشكل كبير عندما سمعوا بأن الوفد العربي كان في طريقه إلى مؤتمر السلام، واعترضوا على تشكيله ووجوده. وكانوا يطمعون باحتلال سوريا وأدركوا بأن الأمير فيصل ومساعده الشاب البريطاني (لورنس) كانا يحاولان إحباط ذلك. إلا أن الأمير فيصل توجه إلى باريس بالرغم من هذا البرود الفرنسي.

ومثله كمثل جميع المسلمين الملتزمين فإن الأمير فيصل لم يشرب أو يلمس في حياته أبداً المسكرات، إلا أن التعقيدات كانت محدودة على متن السفينة جلوسستر بهذا الشأن بسبب حقيقة أن عدة أعضاء من الوفد كانوا غير ملتزمين بذلك. ومع انهم لم يكونوا ليظهروا أنفسهم خشية من الأمير وغضبه، إلا أنهم كانوا يمضون نصف ساعة تقريباً في جناح الضباط في السفينة قبل موعد الغداء لهذا الغرض، كما أن الجنرال نوري بيك، المساعد الاستراتيجي الأول للأمير فيصل إبان حرب الصحراء، كان لا يتجرأ على وضع

كأسه على الطاولة، فقد كان يخفي كأسه بذكاء خلف زجاجة ماء بحيث لا يمكن للأمير أن يلاحظ ذلك وهو يجلس في الجهة المقابلة.

كان يرافق الوفد العربي على متن السفينة جلوسستر من ميناء الإسكندرية إلى ميناء مرسيليا الفرنسي الميجور مارشال، الذي كان زميلاً للورنس في خيمته إبان الثورة العربية، والذي كان يتساءل كيف يمكن للفرنسيين أن يتقبلوا مثل هذا التحدي عند وصولهم إلى فرنسا. وعندما رست السفينة في ميناء مرسيليا كان هناك وفد رسمي فرنسي متواجد على رصيف الميناء لاستقبال الوفد العربي، إلا أنه لم يكن هناك ممثلون عن بريطانيا، وبين الفرنسيون موقفهم لمارشال من أنه لم يعد هناك مصلحة بريطانية تخص فيصل في سوريا وأن كل شيء يتعلق بسوريا سيكون شأناً فرنسياً تماماً. لذلك فقد أرسل مارشال رسالة إلى السفارة البريطانية في باريس يستعلم عن الأمر، وبعد بضع ساعات حضر لورنس. وكعادته فقد تجنب الاحتكاك بالفرنسيين واستقرض كوفية وعقال مارشال وانضم إلى وفد الأمير فيصل كعضو في الهيئة الشخصية للأمير وليس كضابط بريطاني.

وعندما تم لم شمل الوفد العربي في باريس اتخذ الأمير فيصل مقراً له في فندق كونتننتال الواقع في شارع ريفولي. وأينما كان يذهب الأمير، سواء كان لحضور اجتماع رسمي أو لمؤتمر رسمي، فقد كان غالباً ما يرافق بشاب ضعيف البنية يبدو ضئيلاً في لباسه العسكري البريطاني الذي يشير إلى رتبة كولونيل. ومع ذلك، فإن قلة من الناس فقط كانوا يدركون بأن هذا الشاب قد ساهم بفعالية في صفوف القوات العربية خلال الحرب وكان شخصية مهمة في الوفد العربي.

كان الأمير فيصل مهيباً جداً في باريس. ففي ملابسه العربية ودشداشته كان ملفتاً للأنظار أينما ذهب، وكان يلاحق باستمرار من قبل الرسامين والمصورين والكتاب. إلا أن الشهرة والأضواء كانت غير مستساغة لدى فيصل كما هو الأمر أيضاً للورنس، لذلك فقد كانا يصحوان عند السادسة صباحاً وينطلقان مسرعين إلى المؤتمر، لكي يتفاديا الجموع المتطفلة، التي كان يجذبها مشهد الملابس العربية والشخصية الرسمية للأمير العربي الذي يتبعه دوماً أعضاء وفده.

ومهما كان يحاول الاختفاء أو التخلص إلا أنه سرعان ما كان ينكشف. ففي مناسبة ما وبعد مأدبة أقيمت في فندق دي فيل، أطرى على الأمير ومدحه رجل فرنسي بارز يدعى م. دوبوست في كلمة ألقاها. وعندما انتهى من كلمته سأل مترجم مغربي الأمير، هل أحب ذلك. فكان جواب فيصل فقط «أليس لديه أسنان جميلة؟»

لإغراء العرب لخوض الحرب والقتال إلى جانب الحلفاء في الحرب العظمى، فقد قطعت بريطانيا وأعطت وعوداً معينة لهم مما جعل المصالح الفرنسية صعبة التحقيق. بيد أنه خلال مؤتمر السلام فعلت اللباقة والتألق الشخصي للأمير فيصل مفعولها إلى حد كبير لكسب الأصدقاء والمناصرين للقضية العربية في باريس. فلا أحد كان يذهب أو يخرج من عنده وهو غضبان أو منزعج. في إحدى المناسبات، خلال اجتماع مجلس العشرة، أشار الفرنسي م. بيشون إلى مطالب فرنسا في سوريا، حيث قال بأنها كانت مستندة على حروب صليبية. واستمع الأمير فيصل إليه باحترام، وعندما أنهى المسؤول الفرنسي خطابه التفت نحوه مستفسراً بأدب، «انني لست متعمقاً في التاريخ، ولكن هل تسمح أن تقول لي أي واحد منا هو الذي شن الحروب الصليبية؟»

كان موقف لورنس الشخصي فيما يتعلق بمؤتمر السلام بسيطاً ومستقيماً وهو:

إذا لم تف بريطانيا العظمى بوعودها لضمان استقلال العرب، وإذا ما افترض بأن تتركهم في أيدي الفرنسيين حيث كانت تطلعات وطموحات السوريين واضحة جداً في هذا الصدد، فإنه من جانبه قد عقد العزم على تكريس كامل طاقاته ومواهبه وذكائه لمساعدة العرب رفاقه في السلاح ومواجهة وإحباط الادعاءات الفرنسية والحصول على الحقوق التي حاربوا وقاتلوا ببسالة من أجلها.

خلال الحرب (العالمية الأولى) تعهدت بريطانيا بدعم الثورة العربية من أجل نيل الاستقلال عن الدولة العثمانية. إلا أن الفرنسيين، من جهة أخرى، أرسلوا فحسب كتيبة صغيرة إلى الجزيرة العربية، ولم يكن لها أن تستمر وتبقى لولا المساعدات والإمدادات التي كان يقدمها لها لورنس وزملاؤه البريطانيون. إلا أنه مما يذهل أنه كان هناك اتفاق بين بريطانيا وفرنسا تقرر فيه سابقاً بأن تستولي فرنسا على سوريا كمجال لنفوذها. وكان

الأمير فيصل والكولونيل لورنس يشعران أنه إذا ما تم تطبيق هذا الاتفاق في وجه المطالب العربية، فإن سوريا ستصبح مستعمرة فرنسية بالرغم من حقيقة أن غالبية سكانها لا يريدون الهيمنة الفرنسية ولا التعاون مع فرنسا على حد سواء.

وفي تقديم القضية العربية وتزويد الأمير فيصل بالمعلومات عند مقابلة الوفود المشتركة في المؤتمر، فقد كان لدى لورنس الكثير كأي دبلوماسي في مؤتمر السلام يريد أية معلومات بهذا الصدد. فقد كان لديه معلومات جغرافية عن الجزيرة العربية، وسوريا، وفلسطين. فقد عاش مع النصيريين، واليزيديين، والإسماعيليين، والمتاولة والمسيحيين الموارنه في لبنان. وقد اقتسم الخبز والطعام مع الدروز وجلس حول مواقد قهوة جميع القبائل والعشائر العربية تقريباً في الصحراء. وكان بإمكانه أن يمضي إلى حد بعيد ولعدة ساعات وهو يبحث ويناقش العلاقات السياسية المعقدة، والأديان، والعدوات والمشاحنات القبلية للعرب وجيرانهم. وكانت المدن السورية مألوفة ومعروفة بالنسبة له كمثل لندن وأكسفورد. وكان وهو جالس في غرفة بالفندق الذي كان يقيم فيه في باريس، يجعل المدن القديمة في الشرق تحيا من جديد وهو يحدث الشخصيات الأوروبية عنها وهم الذين لم يعرفوا سوى الشوارع المستقيمة لعواصمهم.

كان لورنس يعترف بأن بيروت، التي كانت تعتبر البوابة الأجنبية لسوريا، فرنسية في شعورها ولغتها، بالرغم من مينائها الإغريقي وجامعتها الأمريكية الكبيرة. إلا أنه أصر بأن دمشق، المدينة التاريخية السورية، كانت منذ زمن طويل مركزاً للحكومة ومركزاً دينياً، وكانت عربية صافية، وشيوخها ملتزمين ومستقيمين، ميولهم «مكية» في آرائهم، لذلك فقد كان مهتماً بأن تكون حرة وبعيدة عن حكم أجنبي غريب. كما أنه علل بأن المدن الصناعية الكبيرة مثل حماه وحمص وحلب كانت غيورة جداً في وطنيتها السورية الأصلية وأكثر من أية مدن أو مراكز سورية أخرى.

وأكد بأن القضية العربية كانت تستند على أربع وثائق مهمة، والتي وصفها كما يلي:
أولاً: لقد وعدت الحكومة البريطانية وتعهدت للشريف (الملك) حسين في شهر تشرين الأول 1915 بأن تعترف «باستقلال العرب»، باستثناء إقليمي بغداد والبصرة العراقيين، وباستثناء أيضاً عدم إضرار بريطانيا العظمى بالمصالح الفرنسية.

ثانياً، قسمت اتفاقية سايكس بيكو، التي عقدت بين بريطانيا وفرنسا في شهر أيار 1916، الأقاليم العربية التي كانت تحت السيطرة أو الحكم التركي إلى خمس مناطق تقريباً: (أ) فلسطين، باستثناء الأردن، وحتى البحر الأبيض المتوسط لتكون دولية؛ (ب) حيفا والعراق بالقرب من تكريت وحتى الخليج لتكون «بريطانية»؛ (ج) الساحل السوري من صور إلى الإسكندرية، وسيليسيا وغالبية جنوب أرمينيا من سيفاس وحتى ديار بكر لتكون «فرنسية»؛ (د) المناطق الداخلية (بشكل رئيس) أقاليم أو مناطق حلب، دمشق، أورفه، دير الزور والموصل لتكون مناطق عربية مستقلة. وتحت ظل نفوذين: (1) المنطقة الواقعة ما بين خطوط العقبة - الكويت وحيفا - تكريت، لا يسعى أو يطالب الفرنسيون «بنفوذ سياسي» عليها، ويكون للبريطانيين أفضلية اقتصادية وسياسية، والحق في تزويدها بالمستشارين مثلاً بناء على رغبة العرب؛ (2) المنطقة الواقعة ما بين خط حيفا- تكريت والحافة الجنوبية لأرمينيا الفرنسية أو كردستان، فلا تسعى أن تطالب بريطانيا العظمى بأي نفوذ سياسي فيها، ويكون للفرنسيين الأفضلية الاقتصادية والسياسية فيها والحق بتزويدها بما تحتاجه من خبراء مثلاً وعند رغبة العرب بذلك.

ثالثاً: أكد البيان البيرطاني الذي صدر في القاهرة في «حزيران، 1917 بأن الولايات السورية العربية التي كانت متواجدة ما قبل الحرب والمناطق العربية التي حررت أو تحررت بواسطة العمل العسكري من قبل سكانها خلال الحرب يجب أن تبقى مستقلة كلياً.

رابعاً: لقد وافق الإعلان البريطاني - الفرنسي الذي صدر في 9 تشرين الثاني، 1918، وبموافقة كل من بريطانيا وفرنسا، على تشجيع الحكومات المحلية في كل من سوريا والعراق دون فرض أي شيء عليها لتأكيد العمل السيادي لمثل هذه الحكومات والتي يجب أن يعتمدها سكانها هناك.

فهذه الوثائق جميعها قد صدرت تحت ضغط الطوارئ العسكرية لإغراء العرب بالقتال إلى جانبنا «ولا يمكنني أن أجد أي عدم ترابط أو تناقضات في هذه الوثائق الأربع» كما قال لورنس، «ولا أعرف أيضاً أي واحد آخر يمكنه أن يدعي ذلك». وقد

يسأل حينذاك، «ما هي إذن مسألة الصعوبات بين كل من البريطانيين، والفرنسيين، والعرب؟

إنها بسبب اتفاقية عام 1916 بشكل رئيس، فالوثيقة الثانية، اعتبرت غير عملية ولا تلبي رغبات أو لم تعد تلبي رغبات الحكومتين البريطانية والفرنسية. ومع ذلك، فكما هو في المعنى، فإن «الميثاق» الذي أعطي للعرب، منحهم كلا من دمشق، حمص، حماه، حلب والموصل كلية، ومع مثل أولئك المستشارين والخبراء الذين خمنوا أنهم بحاجة إليهم، فإنه من الضروري تنقيح هذه الاتفاقية كأمر دقيق، ويمكن أن يكون من الصعب وفقاً لذلك أن يرضي بريطانيا وفرنسا من دون إعطاء وزن وأهمية أيضاً لرأي مصلحة الطرف الثالث - وهم العرب - لماذا أوجدت هذه الوثيقة.

فقد كانت المشكلة، في الحقيقة، دقيقة ومعقدة ويصعب معالجتها أو حلها. فقد دخلت بريطانيا العظمى في اتفاقيات معينة مع فرنسا، وأعطت وعوداً محددة للعرب في نفس الوقت، ووعوداً أخرى أيضاً للصهاينة. وكان الأمير فيصل معارضاً للفرنسيين بشكل صريح. وطالب بأنه يجب أن تكون الدولة العربية الجديدة متضمنة كافة أجزاء سوريا، والعراق وفلسطين. أما فرنسا فبكل الرسميات الدبلوماسية القديمة، فقد اعتبرت بأن لها حقوقاً خاصة لا تنافس أو غير قابلة للنقاش في سورية، تعود إلى أيام الحكم الصليبي هناك. وأنشأ الفرنسيون المعاهد التعليمية في جميع أرجاء البلاد، ومولوا إنشاء خطوط حديدية، وانخرطوا في مناح وأشكال أخرى من الأنشطة وتغلغلوا فيها بشكل عام. واعتبروا أنفسهم كحماة تاريخيين للمسيحيين في سوريا. وكان الصهاينة أيضاً يتطلعون قدماً لإنشاء دولة في فلسطين تحت الحماية البريطانية. فجميع هذه الأمور تعددت واختلطت في بعض الحالات بالمصالح المتصارعة، وكان يجب أن تعتبر مرضية، إذا ما أمكن تحقيقها.

أصر الأمير فيصل، مدعوماً من لورنس، أن لا تشمل الدولة العربية الجديدة منطقة الحجاز فحسب وإنما تتضمن أيضاً كلا من العراق، سوريا، وفلسطين. ولم يكن الأمير فيصل ينصت أو يسمع لأي عرض أو اقتراح بأن تصبح فلسطين دولة يهودية. ومن هذه

النقطة أو وجهة النظر فإنه كان يمثل رأي الجميع في الوطن العربي، فلا يمكن أن ينظر إلى فلسطين على أنها بلد منفصل عن العالم العربي، وإنما يجب أن تكون كجزء أو كإقليم منه ومن سوريا الكبرى. وأكد الأمير فيصل، أنه طالما لا توجد هناك حدود طبيعية ولا حدود سياسية بين سوريا وفلسطين والعراق، وما يؤثر على واحدة منها يؤثر على الأخرى، وأنها من وجهة النظر الجغرافية والعرقية، فإنها واحدة غير منفصلة. وبنفس الوقت، فإنه لم يعترض على الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وأن يسمح لليهود بأن يشرفوا تماماً على مدارسهم، وأن ينشئوا مركزاً ثقافياً، وأن يشاركوا في حكومة فلسطين.

وقال الأمير فيصل: «إن اليهود مثلنا، فهم من العرق السامي. وبدلاً من الاعتماد على القوى العظمى، فيجب علينا التعاون نحن والشعب اليهودي للمساعدة في بناء دولة سامية كبيرة. وأنا أقدر تماماً التطلعات الصهيونية، حتى التطلعات الصهيونية المتطرفة. وأتفهم رغبة اليهود في أن يكون لهم وطن خاص بهم. إلا أنه من البعيد جداً أن تكون فلسطين معنية بالأمر، فإذا ما أصروا على أن تكون دولتهم في فلسطين وليس في مكان آخر، عندئذ يجب أن تكون فلسطين خاضعة لحقوق وتطلعات مالكي أرضها الحاليين. فلا زالت فلسطين أرضاً عربية وللعرب ويجب أن تبقى جزء لا يتجزأ من الدولة العربية».

لقد اتخذ الأمير فيصل وجهة نظر ورأيا متفقا مع الحقوق الإقليمية والتطلعات والطموحات السياسية العربية. فقد كان معنياً بشكل شخصي بإنشاء دولة عربية وبكل المشكلات والمصاعب التي يمكن أن تهدد نجاحها. بيد أن لورنس، بحواسه الستة وفهمه التصوري لنشأة وسقوط الإمبراطوريات، كان يقدر الأحداث فيما يتعلق بالفترات أو المدد المتعاقبة بدلاً من السنوات. فالمسألة العربية، والمسألة الفلسطينية، والمسألة السورية، ينبغي أن تفحص وتدقق جميعها وتتغير مع مرور الوقت.

وبالرغم من جميع التعقيدات الدبلوماسية، إلا أن الأمير فيصل استقبل رسمياً في باريس وحسب البروتوكول الرسمي.

كان الأمير حاد الذكاء، ورويت العديد من القصص حول ردوده وإجاباته على الأسئلة والاستفسارات في مؤتمر السلام في باريس. وبعد بضعة أسابيع بعد انتهاء مؤتمر

السلام، سئل بأن يبدي رأيه في رجال وزعماء الدول الحديثين كنتيجة لما رآه بهم. فأجاب: «إنهم كمثل رسومات وصور حديثة. فيجب أن يعلقوا في قاعة أو رواق وينظر إليها من على بعد».

كانت النتيجة النهائية لمعركة السلام نصراً جزئياً للأمير فيصل والكولونيل لورنس. فهما لم يحصلا على كل ما طلباه، ولا كانا أيضاً يتوقعان ذلك. فقد منحت فرنسا سيطرة على بيروت والساحل السوري، وتمت الموافقة على الانتداب البريطاني على فلسطين، إلا أن العرب حصلوا على السيطرة على المنطقة الداخلية لسوريا وأن يجعلوا دمشق الحبيبة عاصمة لدولتهم الجديدة.

* * *

29

نجاة لورنس بصعوبة من الموت

خلال فترة الهدوء في الحصار الطويل داخل غرف وقاعات مؤتمر السلام في باريس، كان للورنس مغامرة أخرى. فقد ترك كتابة يومياته وكافة أوراقه المهمة تقريباً المتعلقة بالحملة في الجزيرة العربية (الثورة العربية الكبرى) في القاهرة، لأن البحر الأبيض المتوسط كان لا يزال تحت خطر الغواصات الألمانية عندما وقعت معاهدة الاستسلام التركية وعندما عاد من الشرق الأدنى (الشرق الأوسط). لذلك فبعد انتهاء العمل التمهيدي لمؤتمر السلام، وجد لورنس نفسه بحاجة لملاحظاته وأوراقه.

وسمع بأن هناك عشر طائرات بريطانية عملاقة، وبعد أن أغارت عدة غارات ليلية على ألمانيا، كانت تنوي الاستعداد للتوجه إلى مصر، فرتب لورنس بسرعة ليرافقها. بيد أن هذه الطائرات كانت قديمة وبالية تقريباً، وكان طياروها من الأبطال الجريئين الذين يمزقون طائراتهم من كثرة الاستخدام. وفي الحقيقة فإن بعضهم لم يحلق مطلقاً بطائرة من طراز هاندلي - بيج ذات المحرك الرولزرويس. فقد اضطرت وهي في طريقها من كولون في ألمانيا إلى ليونز في إنجلترا أن تهبط خمس مرات. فهذه الطائرات قد أعيد بناؤها عدة مرات خلال رحلتها إلى مصر.

وحركت وزارة الطيران في لندن هذا السرب من الطائرات إلى مهبط للطائرات يقع في روما. إلا أن هذه الطائرات تعثرت في الهبوط في عدة مناطق.

وكان طيار الطائرة التي تواجد فيها لورنس قد رأى مهبطاً اعتقد أنه ملائم. إلا أنه عندما اقترب من الأرض اكتشف بأنها منطقة حجرية وحاول الصعود والطيران ثانية، إلا أنه لسوء الحظ كان غير قادر على الصعود ثانية بطائرته والتحليق بسرعة. فسقطت الطائرة على حافة رجم الحجارة وحطت على شجرة.

كان لورنس يجلس في مكان المدفع الرشاش في الطائرة. وكان الذين في الطائرة ليس لديهم انطباع أو تخيل كيف أن الشجرة جاءت أمامهم وهم منطلقون بأقصى سرعة بالطائرة. وسمع فجأة صوت يشبه قرقعة أو صوت مدفع رشاش.

ففي ومضة ثانية من الوقت سقطت طائرة عملاقة ثانية على مقدمتها وجناحها الأيمن وتناثر حطامها على الأرض. أما الطائرة التي تواجد فيها لورنس، فقد قتل طياراها الاثنان فوراً، أما المدفعيان اللذان كانا يجلسان مع لورنس في المؤخرة، فقد عانى واحد من ارتجاج بالدماغ نتيجة ارتطام الطائرة، والآخر كان غائبا عن الوعي فحسب. وعندما استعاد وعيه بدأ بمحاولة الخروج من الحطام. وكانت إصابة الكولونيل لورنس كسورا في الكتف والأضلاع. وأثناء عملية التنقيب في الطائرة المحطمة والتي استغرقت عشر دقائق، صاح المدفعي الذي أخرج لورنس من الطائرة بأنها يمكن أن تنفجر وتحترق في أية دقيقة، فأجابه لورنس، «حسناً إذا ما فعلت ذلك، فإنني عندما أصل إلى العالم الآخر فقد أجد هناك زمهريراً.»

ومع ذلك، وبالرغم من هذا الحادث، فقد قفز لورنس إلى طائرة أخرى بعد بضعة أيام وواصل رحلته إلى مصر. وأخبرني بعد ذلك عندما كنا في باريس عن ذلك الحادث بقوله «كان شعورنا الأغرب هو تناول طعام الإفطار في جزيرة كريت وتناول الغداء بنفس اليوم في القاهرة، التي تقع على بعد سبعمائة ميل». وبعد أن جمع أوراقه التي كانت موجودة في القاهرة، رجع إلى مقاعد مؤتمر السلام في باريس.

وفي ختام المؤتمر، زار الأمير فيصل وأعضاء وفده لندن ومن ثم قاموا بجولة في الجزر البريطانية. وكان لورنس مسروراً برؤية أصدقائه العرب وهم حوله. وكل شيء كان جديداً بالنسبة للشيوخ العاديين الذين وصلوا من البلاد العربية، وكان الواحد يتوقع

أن يراهم منبهرين بالأنفاق تحت الأرض المخصصة للمركبات والقطارات، وعجائب عاصمة الإمبراطورية البريطانية التي لا تحصى. بيد أن هذه الأشياء أسعدت فحسب الشيوخ الشامخين، الذين يحبون الابتسام فحسب. وكانوا متشامخين جداً لإظهار أية علامات للدهشة والاستغراب، باستثناء مناسبة واحدة في غرفهم بالفندق المقيمين فيه. فقد ذهلوا عندما فتحوا صنابير الماء ليجدوا أن حنفية تنزل ماءً ساخناً والأخرى بارداً.

فقد قالوا إن القرآن الكريم ذكر أنه توجد في الجنة أنهار من حليب وعسل، إلا أنهم لم يسمعوا مطلقاً عن مثل هذه النوافير من مياه باردة وساخنة، كما هو موجود في فندق رتيز الذي كانوا يقيمون فيه. وبعد أن تم إقناعهم بأنهم ليسوا في حلم، قالوا للورنس إنهم يريدون أن يأخذوا معهم بعضاً من هذه الحنفيات أو صنابير المياه العجيبة إلى الجزيرة العربية بحيث يمكنهم أن يحملوها معهم على سروج جمالهم لتزودهم بالماء الساخن والبارد بينما هم يعودون ويدبون بجمالهم عبر الصحراء.

في إحدى المناسبات زار الامير فيصل جلاسجو واقيمت له هناك مأدبة انخاب على شرفه، ومن ثم كان عليه أن يلقي كلمة لم يستعد لها. وكان الشخص الوحيد الموجود هناك والذي يمكنه فهم اللغة العربية هو الكولونيل لورنس، الذي كان جالساً بجانبه ويقوم بدور المترجم؛ لذلك فقد مال إليه الأمير فيصل وهمس في أذنه قائلاً: «ليس لدي شيء أقوله لذلك فإنني سأكرر آية من القرآن الكريم من سورة البقرة. وعندما تنهض لتترجم ذلك فيمكنك أن تقول لهم أي شيء تريده.» وصدف أن الفقرة التي قرئت من سورة البقرة كانت رخيمة ورنانة جداً بحيث أثرت جداً على رجال أعمال جلاسجو وبليغة جداً وهي تتدفق من بين شفتي أمير شرقي. وقبل وقت قصير من عودته إلى الشرق الأدنى (الشرق الأوسط) دعي الأمير فيصل إلى مأدبة في لندن، وحاول اللورد بلفور خلال الحديث مع الأمير معرفة ما يفكر به الأمير فيصل بشأن الحكومة البريطانية. فأجاب جورج واشنطن الجزيرة العربية (الأمير فيصل) «إنها تذكرني بقافلة في الصحراء. فإذا ما رأيت القافلة من بعيد، واقتربت من مؤخرتها، فإنها ستبدو مثل جمل واحد. ولكن عندما تجتازها، فإنك سترى كل جمل مربوطا بجمل آخر أمامه، وهكذا حتى تصل إلى

أول رأس القافلة، حيث ستجد حماراً صغيراً يقود سلسلة الجمال وراءه.» وكان اللورد بلفور مستغرباً مما كان يشير إليه الأمير.

عندما عاد الأمير فيصل إلى سوريا رحب به الناس هناك ثانية كمحرر لهم، وبعد بضعة أسابيع نصبوه ملكاً على سورية وعاصمتها دمشق. إلا أن هذه الدولة الجديدة كان عمرها قصيرا، لأنه من دون تعاون خارجي لمساعدته مالياً لتمويل حكومته فسرعان ما أصبح استمرار ملكه مستحيلاً خاصة بعد أن استخدم ماله الخاص في محاولة عابثة لحفظ النظام والخروج من الاضطراب، لذلك فقد كان عليه أن يغادر دمشق، وعلى الفور احتل الفرنسيون بشكل استبدادي كافة أرجاء سورية. وبدا للوهلة الأولى كما لو أن آمال فيصل قد تلاشت. بيد أن لورنس وغيره من القادة الإنجليز الذين ارتبطوا بالثورة العربية كان ما يزال بيدهم ورقة يلعبونها.

وخلال هذه الأيام المضطربة كان والد الأمير فيصل الملك حسين مستمراً في تقوية موقعه في الحجاز. فكان يعدو بدابته خارجاً من مكة في ظل شفق الجزيرة العربية الرائع، وغالباً ما كان ذلك الشخص النحيل يرى من قبل بدو الصحراء، لقد كان ملكهم، الحسين بن علي، وهو في رحلة ليلية إلى جدة، التي تبعد أربعين ميلاً عن مكة. ولم تكن هناك موسيقى أو حرس شرف يسبقه أو يمشي أمامه، ولا مراسم رسمية، فقد كان يعدو لوحده على ظهر دابته.

ولغاية ما أطيح به في عام 1924، من قبل مقاتلين متعصبين تابعين لابن سعود قدموا من واحة تقع في وسط الجزيرة العربية، فإن الشريف الكبير السابق لم يكن يحكم على أنه ملك الحجاز، بل إنه حمل لقب الخليفة، أو الزعيم الديني لأكثر من مائتي مليون مسلم. وكان ملكاً ذا ميول بسيطة، حتى أنه كان يفضل ركوب البغال على أية وسائل نقل أخرى. وكان خبيراً بأنواع الجياد الأصيلة التي كانت تجلب من أمريكا الجنوبية، وأستراليا، والحبشة، إلا أن أفضلها بالنسبة للملك حسين كانت الجياد التي تجلب من ولاية ميسوري الأمريكية والتي كان نوعها جيداً ذات «الذيل القاسي».

كان الملك حسين بسيطاً، إلا أنه شديد في ميوله، وكان صارماً في تنفيذه لأحكام القرآن الكريم. فبعد النجاح الباهر في حملة تدمير السكة الحديد، ذهب اثنان من الضباط

العرب إلى مكة في إجازة تستغرق أسبوعاً، آخذين معهما في حقائبهم شيئا ما من الشراب أقوى من ماء الورد ليتمتعا هناك. وتناهى إلى إسماع الملك ذلك الأمر، فأمر بجلد الضابطين علناً أمام الناس. وبعد ذلك لا أحد كان يختار مكة كمكان للاحتفال.

كان العرب مغرمين جداً وبشكل غامر بأجهزة الحاكي أو الفونوغراف، بيد أن الملك حسين حرمها في مكة، معتقداً أنها لم تكن من اختراع أديسون وإنما من اختراع الشيطان. ومع أنه هو نفسه كان يفضل الحياة البدوية، وتعاطفه الحقيقي كان مع البدو، إلا أنه كان أكثر شدة مع رجال القبائل الذين يسكنون الخيام السوداء (بيوت الشعر) مما كان مع أبناء المدن العربية.

كان في أحد الأيام جالساً يستريح في مكان بارد تحت أشجار نخيل في واحة ويجلس حوله رجال بدو جالسين القرفصاء على سجاجيد صلاتهم. ولاحظ بطرف عينه واحداً من هؤلاء العرب يدخل كوفية تخص رجلا بجواره بين ثنايا ثيابه. وبعد لحظة عاد صاحب الكوفية وافتقد كوفيته الأنيقة. ونفى كل واحد أنه رآها، بمن فيهم السارق. فنهض الملك حسين، وهو غاضب جداً واتجه مباشرة نحو الرجل السارق وسأله غاضباً: «أيها اللئيم، أين كوفية أخيك؟»

فأجاب الرجل مذعوراً: «لا أعرف عنها شيئاً يا سيدي.»

فقال له الملك: «إنك كاذب» وتناول هراوة من بين أشيائه وضرب الرجل ضربة عنيفة على أضلاعه. وانهار اللص ومات في اليوم التالي.

كان الحسين، كشريف مكة الأكبر، يمثل السلالة الثامنة والستين لأشراف مكة. وكملك فقد كان الأول. وكخليفة للمسلمين وللعالم الإسلامي فقد حاول إحياء مجد قبيلته القديمة، قريش، والتي انحدر منها الرسول نفسه (ﷺ). وقد أظهر نفسه ليكون رجلاً حاد الذكاء، وعرف أولئك الذين كانوا يعرفونه جيداً بأنه كانت لديه موهبة طبيعية في الدبلوماسية. بيد أن تقدمه في العمر جعل من الصعب كثيرا بالنسبة له الإبقاء على الوضع الصعب كخليفة على عالم إسلامي مجزأ ومهلهل. ولم يعترف العديد بذلك. وفي

الجزيرة العربية ذاتها كانت هناك الحركة الوهابية المنقسمة. وفي الحقيقة استطاع ابن سعود، سلطان الصحراء العربية الوسطى، وزعيم الوهابيين المتزمتين الإطاحة به وإجباره على التنازل عن الملك لابنه علي.

وفي وقت مبكر من الحرب، وفقاً لما قاله جون فيلبي، فإن السير بيرسي كوكس، الذي رافق الحملة العسكرية على العراق كضابط سياسي رئيس، أرسل الكابتن (النقيب) شكسبير ليبحث ابن سعود للقيام بعمليات نشطة ضد الترك وحليفهم الطبيعي، ابن رشيد. وشنت الحملة في كانون الثاني 1915، وكنت أعتقد دوماً، أنه لو لم يكن ذلك الحادث المشؤوم الذي أدى إلى موت النقيب شكسبير في المعركة الأولى بين القوى المتحاربة، لكان من الممكن أن لا تكون هنالك فرصة للقيام بتنفيذ الحملات الرائعة التي ارتبطت باسم لورنس، والتي كانت نتيجتها دخول دمشق مع الجيش العربي المنتصر.

وتبع جون فيلبي النقيب شكسبير إلى منطقة الصحراء الوسطى التي كان يحكمها ابن سعود، وقد أعجب بشكل كبير بذلك الحاكم. ولكن في الوقت الذي أرسل فيه فيلبي إلى منطقة الوهابيين، كانت ثورة الحجاز في أوجها وكان الكولونيل لورنس يستعد ويشق طريقه باتجاه دمشق. وقام فيلبي برحلة غير عادية وعبر من خلال قلب الجزيرة العربية المجهول وتحول بشكل غير متوقع ووصل إلى العاصمة الصيفية للملك حسين (الطائف) الواقعة على الجبال بالقرب من مكة. ودعي الملك الكبير خلال ترحيبه بالمستكشف فيلبي على أنه لورنس نجد.

في المذهب الوهابي يمكن للأبناء أن يقتلوا الآباء أو للآباء أن يقتلوا الأبناء الذين لا ينضمون إليهم. ويمكن للعديد أن يفقدوا رؤوسهم من أجل تدخين سيجارة. وأراد هؤلاء المتزمتون أن يلغوا الحج إلى مكة ويلغوا جميع الأضرحة والمقامات الدينية. وكان ابن سعود قائداً لقوة قوية من المقاتلين، واستولى بعد انتهاء الحرب العظمى على مدينة حايل، التي كانت عاصمة ابن رشيد عدوه اللدود، وبذلك أصبح يحكم كافة وسط الجزيرة العربية.

كما كان للملك حسين منافسون آخرون. منهم أمير مراكش، الذي أعلن نفسه أمير مؤمنين وأنه كان ينحدر من فرع آخر من قبيلة قريش الشهيرة. وأعلن الأتراك الجمهورية،

وأمل الغازي مصطفى كمال (أتا تورك) أن يستولي على السلطة من العثمانيين وأن يصبح ولو اسمياً الحاكم الأعلى للمسلمين. وكان الهنود في الهند مذهولين مما يجري، ولم يُفتِ علماء الأزهر بمسألة إعلان خليفة المسلمين.

وكانت هنالك أمور كثيرة تسير من وراء الستار من دون شك. وكنا نحن في الغرب ميالين لسوء تقدير مدى أهمية الدين الإسلامي أو العقيدة الإسلامية، وربما يكون هناك يوم صحوة ويقظة جديدة، لنتوجه نحو هذه العقيدة التوحيدية في العالم وعقيدة نشطة للمهتدين حديثاً، وتجعل الناس يتحولون إليها في لندن وفي المناطق الاستوائية أيضاً. تماما كمثل موجات الاضطراب والتوهج والاتقاء الديني والأمل الغريب الذي سرى من خلال المسيحية في زمن الصليبيين، وهذا ما يحدث الآن، من السودان إلى سومطرة، توجد هناك إشارات وعلامات حركة أخرى أعمق، ورجال يدمدمون قائلين: «من غير ريب، أولئك الذين لا يؤمنون بإشاراتنا فإننا سنلقي بهم بالتأكيد في أتون الجحيم؛ وكلما احترقت وذابت جلودهم فإننا سنعطيهم جلوداً أخرى بدلاً منها، ذلك حتى يمكن أن يذوقوا عذابا أشد، من أجل أن يؤمنوا بالله العظيم والحكيم. إلا أن أولئك الذين يؤمنون ويقومون بالشيء الصحيح، فإننا سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار».

كان الوقت صعباً بالنسبة لحاكم في الإسلام، ولكن لا أحد أكثر من الملك حسين كانت لديه أحقية في المطالبة بالوراثة الكبرى والتي كان يهلل لها شعبياً ولكن عبثاً في بغداد.

ومع أنه كان ذا قامة قصيرة نسبياً، إلا أن تأثيره القانوني كان لا يعطي أية فكرة خاطئة عن نسبه القديم وطموحه الأسمى. وهو في الستين من العمر كان لا يزال رجلاً ذا نشاط غير عادي، مع أن ذلك لم يكن أمراً شائعاً في رجال من سنه يعيشون في صحراء جنوب الجزيرة العربية. كانت يداه دقيقتان وجميلتان كموسيقى تجعل الواحد يندهش بشعور القوة والرقة لديه.

وكان الأمير فيصل، كمثل والده، رجلاً ذا شجاعة شخصية عظيمة. ولو لم يكن كذلك، لما تمكن أبداً من توحيد أتباعه الجاهلين والمتطرفين في أخوة مشتركة. وكان في

الأيام الأولى للثورة، رجلاً مسلحاً أولاً، ومن ثم قائد كتيبة، وقائد جيش. وكان البدو هم الرجال الوحيدون فقط تحت إمرته، وكانوا يواجهون نيران المدفعية لأول مرة في حياتهم ولم يحبوا ذلك مطلقاً. وكان على فيصل أن يقودهم وهم يركبون الجمال، ويحمي مؤخرتهم عند الانسحاب ويدافع عن الأماكن الضيقة الواقعة بين الجبال ببندقيته. وفي الوقت الذي لم يكن لديهم سوى بضع بنادق ولم تكن لديهم مخازن ذخيرة، كشف لورنس حقيقة من أنه لما أراد أن يحافظ على الروح المعنوية للرجال ليجعلهم يظنون بوجود جوائز عينية أو مالية من أجل تشجيعهم، فقد كان يملأ صندوق خزنته بالحجارة ويحمله بتباه وتفاخر على جمل.

كان لورنس يعتقد بأن الأمير فيصل لديه ارتباط بخاصيات تلائمه بشكل يدعو للإعجاب لتولي قيادة دولة عربية جديدة يمكن أن تنشأ على أنقاض الإمبراطورية العثمانية البائدة. وكان رأي لورنس بأن فيصل سيدخل التاريخ كما دخله من قبل صلاح الدين الأيوبي، كأعظم شخصية عربية. فقد كان يمثل روح الثورة العربية. وكان يعيش فقط من أجل مثالياته وبلاده. وتفكيره الوحيد كان من أجل مستقبل البلاد العربية. ذلك أنه هو ووالده كانا متحرري الفكر تماماً ليستفيدا من القدرة الفريدة والذكية الأوروبية، وهما لا يزالان شابين يقومان بعمل خارق لا يمكن أن يقوم به أي مسلم في الشرق الأدنى، لأن معظم العرب المسلمين يعتبرون الغربيين كالكلاب؛ بيد أن الملك حسين وابنه المتنور (فيصل) ذهبا حتى إلى أقصى حد بقبولهما المستشار البريطاني كأمير عربي تابع ومنحاه لقب شريف مكة الفخري، وهو لقب حفظ دوماً في الماضي للمنحدرين من سلالة الرسول (ﷺ) مباشرة، ولم يمنح لأي شخص من قبل أبداً سواء كان مسلماً أم مسيحياً كما لورنس.

* * *

30

لورنس يفر من لندن، وفيصل يصبح ملكاً على العراق

بعد انتهاء مؤتمر السلام في باريس، وبعد عودة الأمير فيصل إلى دمشق، اختفى لورنس من على المسرح. وظن معظم أصدقائه بأنه عاد إلى الجزيرة العربية أو البلاد العربية ليواصل دور الرجل الغامض. إلا أنني شككت بذلك، ذلك أنني عندما تحدثت معه آخر مرة في باريس سألته إذا ما كان ينوي العودة إلى الشرق لكي يساعد العرب على بناء دولتهم الجديدة. فكان جوابه نفياً مؤكداً لذلك، حيث قال: «إنني لن أعود إلى هناك لبضع سنوات - وربما لن أعود أبداً. فلن يكون من الجيد للعرب أن أكون هناك».

وفي الحقيقة فليس لدي أدنى فكرة ماذا سأفعل. فالحرب قد أفسدت حياتي تماماً ذلك أنه يلزمني عدة سنوات لأجد نفسي. في غضون ذلك فإنني آمل أن أجد زاوية منعزلة في أي مكان في انجلترا بعيداً عن الحرب، والسياسة، والدبلوماسية، حيث أستطيع أن أقرأ هناك قليلاً من كتب الإغريق من دون إزعاج».

لقد بدا لي موقفه فيما يتعلق بالرجوع إلى الشرق الأدنى وكأنه مؤتمر آخر لبعد نظره. فخلال حربهم التحريرية، اتبع العرب لورنس بسبب شخصيته بشكل جزئي ولكن بشكل رئيسي بسبب أنه قدم لهم بديلاً عن الاضطهاد التركي. وكان يعرف جيداً أنه حالما تنتهي الحرب وتضع أوزارها فإن سلطته عليهم ستتلاشى. فماذا كان سيحدث فيما لو عاد لورنس إلى الشرق الأدنى؟ وماذا ستكون النتيجة إذا ما حصل على مركز أو منصب

سياسي مواز لموقعه العسكري الذي احتله سابقاً في الجزيرة العربية؟ ومن الممكن تصور أو تخيل ذلك، فبسبب تأثيره الكبير على العرب خلال الحرب، فمن الممكن في البداية أن يكون لديه نفوذ كبير. ولكن بعد بضعة أشهر فإن شخصا ما سيطلق صرخة قائلاً: «أخرجوا هذا الكافر». وإذا ما رجع إلى دمشق كمستشار لفيصل ببساطة، فذلك لوحده سيقلص من سلطة الأمير على شعبه. فالعرب غيورون، متقلبون، وشاكون، وسيتهمون فيصل بأنه دمية فحسب. وإذا ما تاق لورنس للسلطة فمن الممكن أن يجعل من نفسه ديكتاتورياً عربياً وذلك باعتناقه الإسلام. إلا أنه لا شيء يمكن أن يكون أبعد من هذا التفكير. فهو لم يعد ويشارك العرب في قتالهم من أجل طموح شخصي. فقد كان حافزه الوحيد هو هزيمة الأتراك والألمان. وليساعد أصدقاءه العرب في نفس الوقت على نيل حريتهم.

عندما كان مؤتمر باريس للسلام منعقداً في جلساته، فإن العديد من الأشخاص قالوا لي بأن الشاب لورنس كان يعتبر أفضل شخص مهيأ ليمثل بريطانيا العظمى في الشرق الأدنى (الشرق الأوسط)، ولذلك فإنه بدون شك سيرجع إلى سوريا والجزيرة العربية في منصب رسمي. إلا أن طموح لورنس الوحيد كان بأن يخلع ملابسه العسكرية، ويهجر الحياة السياسية والعسكرية، ويعود إلى دراساته الآثارية.

لقد سألت نوري (السعيد) باشا، وكان واحداً من جنرالات الأمير فيصل وعضو وفده في باريس، كيف ينوي العرب أن يجازوا أو يكافئوا الكولونيل لورنس لقاء خدمته العظيمة لبلادهم. فأجاب قائلاً: «لقد قدمنا له كل شيء لدينا، إلا أنه رفض قبول أي شيء. ولكن إذا ما وافق فإننا نرغب بأن نمنحه حقوق أثرية استثنائية أو خاصة بالنسبة لكافة المدن القديمة الدفينة في الجزيرة العربية وسوريا». ومع ذلك، فقد كانت للورنس خطط أخرى.

ولعدة شهور بعد انتهاء مؤتمر السلام في باريس، لم يعرف حتى أقرب أصدقائه أين أصبح أو أين هو.

في غضون ذلك رجعت إلى أمريكا وبدأت جولة في القارة الأمريكية كنت أقدم فيها تسجيلات مصورة لحملات ومعارك الحلفاء كنت قد أعددتها أنا والسيد شاس بيد أننا

دعونا بشكل غير متوقع لنظهر في موسم دار الأوبرا الملكية في لندن، وهو شيء لم نكن نحلم أن يحدث أبداً، لأن مادتنا المعروضة كانت مخصصة للعرض في أمريكا فقط. وطبيعياً فإن أول شيء فكرت وحاولت أن أقوم به عند وصولي إلى إنجلترا كان إيجاد الكولونيل لورنس. فقد أردت أن أريه كيف كان يبدو عوده أبو تايه وبقية الفرسان العرب على الشاشة المتحركة. إلا أنه لا أحد كان يعرف سواء في وزارة الحربية أو وزارة الخارجية أين كان لورنس. فقد كان مختفياً على ما يبدو في السماء كما اعتاد أن يفعل في الصحراء. ولكن بعد أسبوعين تلقيت منه ملاحظة.

كان كل ما جاء فيها: «عزيزي لويل ثوماسي، لقد شاهدت عرضك الليلة الماضية. وأشكر الله أنه لم تكن هناك أضواء».

ثوماس ادوارد لورنس

واكتشفت أن هذا الرجل، الذي كانت لندن ستسعد بتكريمه، كان يعيش متستراً في غرفة مفروشة متواضعة في شارع فرعي متفرع عن محطة شارع دوفر في لندن. فحتى صاحبة الغرفة لم يكن لديها أي شك بهويته. إلا أنه لم يكن بوسعه أن يبقي ذلك سراً لمدة أطول. فبعد بضعة أيام جاء ليحتسي الشاي معنا. وعندما اكتشف بأنني قد تزوجت وأن زوجتي كانت ترافقني، بدا مرتبكاً جداً واحمر وجهه كلياً. وتوسل إلي بأن أتوقف عن الحديث أمام الجمهور حول أعماله البطولية وأن أعود إلى أمريكا. فقد قال إنه إذا ما بقيت في لندن أكثر من ذلك، فإنه لن يستطيع العيش هناك، لأنه نتيجة لذلك ولعرضي الشريط السينمائي في حديقة الأمير الملكية فإنه سيكون مطارداً ليلاً نهاراً من قبل المصورين المتطفلين، ومراسلي الصحف والمجلات، وناشري الكتب، وممثلي الجنس اللطيف، الذين كان يخشاهم أكثر من القوات التركية سابقاً. فقد قال لي إنه نتيجة لأسبوعين تكلمت فيهما عنه في لندن، فقد تلقى حوالي ثمانية وعشرين عرضاً للزواج، وإن هذه العروض وصلت عن طريق البريد، معظمها عبر بريد أكسفورد.

عندما جاء بزيارة قصيرة ليدعوني، لاحظت أنه كان يحمل كتابين في يده. مجلد عن الشعر الفارسي ومجلد آخر، يحكم عليه من عنوانه، كان عن كتاب أو عن آخر كتاب

يمكن أن تتوقعه في العالم من هذا الشاب أن يقرأه هذا الرجل الذي كان يدعى الملك غير المتوج، والذي أنجز أعمالاً لا يستطيع أن ينجزها أي سلطان في أكثر من خمسمائة سنة، والذي رفض أعلى التكريمات من قبل أعظم الحكومات في العالم، والشخص الذي سيعيش في التاريخ على أنه واحد من أعظم الشخصيات الرومانطيقية الرائعة في كل الأوقات، كان يحمل كتاب «يوميات رجل مُخيب الظن».

ولكن عندما عرف لورنس أنني سأغادر إلى أمريكا بعد وقت قصير، وعندما اكتشف بأنه كان يلاحق من قبل كونتيسة إيطالية، كانت تضع ساعة في رسغها فر من لندن.

ولم يمض وقت طويل بعد ذلك عندما فقد الأمير فيصل العرش في سورية، وكانت هناك حملة دعائية فرنسية ضخمة تجري من قبل الفرنسيين لتشجيع البريطانيين على عدم ضمان أو مساندة القضية العربية.

هذا وبالرغم من حقيقة أنه قد تقاعد وأنه كان يحاول الابتعاد عن الأمور السياسية، إلا أن لورنس، لم يكن ليتخلى عن الدفاع عن فيصل. ومن دون أن يظهر شخصياً، فقد بدأ يكتب مقالات ومواد في الصحف اللندنية عارضاً القضية العربية المثيرة للجدل. وسأقتبس مقالة أو مقالتين لأنها تعطي فكرة عن سهولة أسلوب هذا الشاب، الذي يمكنه استخدام القلم بمهارة أو بنفس المهارة التي كان يقود فيها مقاتلين، كتب لورنس يقول: «يوجد هناك شعور في إنجلترا من أن الاحتلال الفرنسي لدمشق وإبعاد فيصل عن العرش الذي انتخبه السوريون الممتنون له ليكون ملكاً عليهم، وبعد كل ذلك الذي قام به، يكون مثل ذلك الرد الضعيف لعطايا فيصل لنا خلال الحرب: وان فكرة السقوط القصير لصديق شرقي كان سخياً معنا ولم نرد له الجميل.

فشجاعة فيصل وسياسته الحكيمة جعلت ثورة مكة تنتشر إلى ما وراء المدن المقدسة، إلى أن أصبحت نشطة وفعالة جداً مما ساعد قوات الحلفاء في فلسطين ودعمها. وتطور الجيش العربي في الميدان وتنامى من مجرد رعاع من البدو إلى جيش نظامي مجهز جيداً. واستطاعت قوات هذا الجيش أسر (35) ألف جندي تركي، والاستيلاء على

(150) مدفع وآلاف الأميال المربعة من الأراضي العثمانية سابقاً. وكانت هذه أعظم خدمة كنا نحتاجها بشكل ملح، وشعرنا بأننا مدينون للعرب وعلينا مكافأتهم، وبالنسبة لفيصل، زعيمهم، فنحن مدينون له مضاعفة للولاء الذي قدمه من خلال ترتيب وتنظيم نشاط عربي رئيس عندما كان يطلبه اللنبي وحيثما كان.

ومع ذلك فإننا في الحقيقة لم نكن حتى أكفاء في هذا الأمر حتى لانتقاد الفرنسيين بما قاموا به. فإنهم لم يقدموا سوى عمل متواضع في مجال سورية، كما هو الأمر الذي وضعناهم فيه في العراق. وتسيطر بريطانيا على تسعة أجزاء من عشرة في العالم العربي. لذلك فعلى الفرنسيين أن يتبعونا في سياستنا. فإذا ما اتبعنا سياسة عربية، فعليهم إتباع ذلك. وإذا ما حاربنا العرب، فيجب عليهم محاربتهم. وتركناهم يستولون على سورية بسهولة وأن يسقطوا الحكومة السورية المستقلة، بينما كنا نحن نخوض المعارك بالقرب من بغداد، ونحاول أن نجعل للعراق حكومة عاجزة وذلك بسحق كل من كان يحاول أن يرفع رأسه فيها».

كانت بريطانيا تواجه وضعاً حرجا تماماً في العراق حينما أبعد الفرنسيون فيصل عن سوريا. فشعر لورنس بأن هنالك طريقة ما لاستخدام مواهب وقدرات فيصل في العراق، وتبين المقالة التالية طريقة لورنس الدبلوماسية في تقديم خطة تطورت وتم تبيينها فيما بعد.

وتابع لورنس قائلاً: «بعد بضعة أسابيع طلب من رئيس ممثلينا في بغداد بأن يلتقي بعض الوجهاء العرب العراقيين الذين أرادوا إثارة قضيتهم من أجل الحصول على حكم ذاتي جزئي.

فجهز قائمة فيها بعض المرشحين من جانبه، وفي رده عليهم، أبلغهم بأنه سيكون هنالك وقت طويل حتى يكونوا ملائمين لتحمل المسؤولية. كانت كلمات شجاعة- إلا أنها كانت ثقيلة على البريطانيين حينذاك. فاتخذت شكل انتفاضات منظمة وكان هناك نجاح عربي أولي بهذا الصدد، ومن ثم مضت تعزيزات البريطانيين لتصبح قوة عقابية. فشقوا طريقهم بقوة وكانت خسائرهم طفيفة، أما خسائر العرب فقد كانت فادحة

لتحقيق أهدافهم، فتعرضوا في غضون ذلك للقصف المدفعي ومن الجو بواسطة الطائرات أو السفن الحربية. أخيراً، ربما كان يتم إحراق قرية هناك أو إبادة حي لقمع الثورة. وكان شيئاً شاذاً أننا لم نستخدم الغازات السامة ضد هذه الانتفاضات فقصف المنازل يكون شيئاً ناقصاً للوصول إلى الرجال والنساء والأطفال الثائرين، مما يكلف مشاتنا خسائر كبيرة دائماً في سبيل إطلاق النار على العرب. ولكن باستخدام الغاز في الهجمات فإن كافة أبناء الأحياء يمكن إبادتهم تماماً؛ وكأسلوب حكومي فإنه لن يكون غير أخلاقي أكثر من النظام الحالي هناك.

«لقد أدركنا مدى العبء على جيشنا في بلاد الرافدين وعلى خزينة الحكومة أيضاً، ولكننا لا نرى بوضوح العبء الذي نشكله على العراق. فعليه أن يطعم أبناءه»، كما أن جميع بهائمه تريد أن تطعم. وبلغت قواتنا المحاربة هناك الآن 83 ألف مقاتل، إلا أن نسبة العاملين مع هذه القوة يبلغ ثلاثمائة ألف شخص. ويوجد هناك ثلاثة عمال لكل جندي، ليخدمه ويزوده بما يحتاج. وواحد من عشرة من العراقيين اليوم يعمل مع جيشنا هناك. وخضار البلاد هناك استهلكته قواتنا، والعملية العسكرية هناك ليست في نهايتها بعد. وليتأكدوا من ذلك فهم يطلبون بأن نضاعف حاميتنا وقواتنا العسكرية هناك. وأنهكت الموارد المحلية، فزيادة هذه القوات سيزيد من الكلفة إلى حد كبير.

وهذه القوات مهمتها فقط من أجل العمل البوليسي أو الشرطي لحفظ الأمن، وقد أبلغ مجلس اللوردات قبل أسبوعين بأن هذه القوات ستبقى طويلاً في العراق وتواصل وجودها هناك. لا أحد يتصور ماذا ستكون حالة قواتنا هناك إذا ما أراد أحد من جيراننا الحاقدين مهاجمتها من الخارج، حيث يوجد بينهم أيضاً فئات مناوئة لحكوماتها. واتصالاتنا هناك سيئة جداً، ومواقعنا الدفاعية مكشوفة معرضة جميعها للقصف الجوي، ويبدو أنه وقع هناك حادثان مؤخراً بهذا الصدد. فنحن الآن لا نثق بقواتنا كما كنا سابقاً إبان الحرب.

ومن ثم فهناك الأعمال العسكرية. فيجب أن تبقى هناك الثكنات الضخمة والمعسكرات، ومئات الأميال من الطرق العسكرية. وأيضاً بناء جسور ضخمة لمرور

الشاحنات عليها، ولتتواجد في المناطق النائية، حيث أن وسائل النقل المحلية الآن هي الدواب. والجسور المتواجدة الآن مصنوعة من المواد المعدنية بشكل مؤقت، لذلك فهي معرضة للتلف والانهيار. وهي عديمة الفائدة للحكومة المدنية، والتي عليها أن تبقيها فعالة بدرجة عالية، لذلك فقد بدأت الدولة الجديدة عملها بالاستدانة الإجبارية.

إن المسؤولين الإنجليز ابتداءً من رئيس الوزراء فنازلاً يذرفون الدموع بسبب العبء الضخم علينا جراء احتلال العراق. فكما قال اللورد كورزون أنه «إذا ما استطعنا إنشاء جيش محلي في العراق، وإيجاد أشخاص عرب أكفاء لاحتلال وتولي المناصب التنفيذية، فإن المشكلة ستحل».

«لذلك فبسبب هذه الندرة في إيجاد موهبة محلية لتولي زمام الأمور فإننا يمكن ان نستنير بما حدث في سورية. فالأمير فيصل لم يجد صعوبة في إنشاء جيش هناك، مع انه واجه صعوبة ضخمة في إيجاد رواتب لأعضائه. ومع ذلك فالوضع ليس مشابها في العراق، إذ يمكن تدبر ذلك من عائدات الجمارك. ولن يجد فيصل صعوبة في إنشاء إدارة حديثة في العراق، حيث يوجد معه خمسة رجال قياديين جميعهم من أبناء بغداد الأصليين. ولن تكون إدارة جيدة تماماً، إلا أنه في الشرق فإن الناس يكونون أقل اهتماماً بذلك مما هو عندنا. حتى في أثينا فسولون لم يعطهم أفضل القوانين، إلا أنها كانت الأفضل ليقبلوها.

«ولا يمكن للبريطانيين في العراق أن يجدوا هناك شخصاً كفئاً للقيام بذلك الآن، إلا أنني أؤكد بأن ما حدث في الأشهر القليلة الماضية أظهر إفلاسهم السياسي، وإن رأيهم لا يجب أن يقيم من قبلنا أبداً. إنني أعرف عشرة مسؤولين بريطانيين لديهم سمعة وتجربة طيبة ومشرفة، في السودان، سيناء، الجزيرة العربية، وفلسطين، وكل واحد منهم يمكنه إنشاء حكومة عربية تقارن بحكومة فيصل في العراق، في الشهر القادم. ومع أنها أيضاً لن تكون حكومة كاملة، إلا أنها ستكون أفضل من حكومة فيصل، إذا لم تقدم لها المساعدة، حيث أن هذا الرجل المسكين قد حرم من المستشارين الأجانب.

فالجهد الذي سيبذل في العراق يجب أن يكون مدعوماً من الحكومة البريطانية ومساندتها، حيث ستكون حكومة ناشئة، كمثل صبي يلعب ويسعى وراء رجل متزن

وقور، وسيسعى طويلاً كممثل كرومر في مصر، وليس كممثل مصر المحمية. فكرومر يهيمن على مصر، ليس لأن إنجلترا منحته القوة، أو لأن مصر تحبه، أو لأي سبب خارجي آخر، وإنما بسبب أنه رجل جيد. فإنجلترا مليئة بالرجال رفيعي المستوى.

وآخر شيء يمكن أن تحتاجه هناك هو العبقرية. وما هو مطلوب هو معالجة ومعاملة ما نريده تماماً، والبداية ثانية مع وجود سلسلة من المستشارين والخبراء. فليس من الجيد التماشي مع النظام والوضع الحالي. والتنازل للشعور المحلي أو المشاعر المحلية يعتبر أمراً بدائياً وتنازلات ضعف تحفز على المزيد من العنف. فنحن كبيرون تماماً لتقبل الخطأ ونقلب الصفحة؛ وعلينا أن نفعل ذلك باستهجان ممتع، لأنه سيوفر لنا مليوناً من الجنيهات أسبوعياً.»

حتى بينما كان القتال لا زال دائراً في الصحراء، فقد كان لورنس ينبذ التعقيدات التي كانت ستنشأ بعد انتهاء الحرب، وكما لوحظ من قبل، في تقدمه نحو دمشق، فقد كان قلقاً إلى حد بعيد من أنه يجب أن يدخل رجال فيصل أولاً إلى المدينة قبل دخول القوات الإنجليزية والفرنسية، لأنه كان يدرك بأن ذلك سيعقد الموقف ويجعل من الصعب على الحلفاء أن لا يأخذوا أصدقاءهم العرب بعدم مبالاة عندما ينتهي الضجيج والصراخ.

وقد أوضح اللورد وينترتون الذي كان مع القوات العربية أثناء القتال حول دمشق في مقالة كتبها في مجلة «بلاك وود» البريطانية، حيث امتدح لورنس ببلاغة، وأخبرنا كيف كان لورنس يفكر دوماً في الأحداث المقبلة لمشكلة يمكن أن تنشأ. وقال، «في رأي، أننا كنا مدينين بالكثير في تلك الأيام، قبل أن نتصل بالقوات البريطانية إلى القيادة الجيدة التي تولاها الجنرال نوري (السعيد) المدعوم بمشورة ونصيحة لورنس من أجل التفكير قدماً فيما قد يحدث مستقبلاً». وفي زاوية أخرى يقول اللورد ونتيرتون «لم يكن لديه (لورنس) أية نية أو قصد من أن العرب يجب أن يأخذوا مكاناً أو موقفاً خلفياً في القضاء النهائي على الجيش التركي. وكانت هنالك اعتبارات سياسية وعسكرية أيضاً موجودة على المحك، حيث أن العرب عزموا على ذلك جيداً، وكان لورنس اللاعب الوحيد الذي يلعب على آلة عالية الوتيرة. وقد أثر لورنس بنا جميعاً بكل ما كان لديه من حماس، وبدأت أشعر

بالرغم من المزاجية غير الراضية لمغامرة إثر مغامرة، بأنه سيكون شيئاً وحشياً عندما يتحطم وينهار الثعلب التركي، فإن البريطانيين سيحصلون على جسده، ورأسه، وذيله، وان العرب، الذين ساعدوا في اصطياده لمدة ثلاث سنوات ونصف، سيحصلون فقط على كسرة صغيرة جداً منه. وإذا ما كنا نتكلم بصدد تحطيم العسكرية التركية «والثعلب التركي»، فإنه سيكون من الصعب جداً رفض إعطاء العرب حصة كبيرة من النتائج عند تحقيق النصر».

خلال سبع سنوات، كان متجولاً فيها عبر الصحراء، وهو يرتدي الملابس العربية كمثل واحد عربي، ويعيش مع العرب في خيامهم، ويلاحظ عاداتهم، ويتحدث إليهم بلهجاتهم، ويمتطي جمله أو ناقته عبر مساحات شاسعة من الصحراء وحيداً لا أحد يعترضه سوى خط أرجواني طويل من الأفق، ويتمدد وينام على الأرض عند حلول الليل لينام تحت قبة السماء الساكنة المليئة بالنجوم، إنه توماس ادوارد لورنس، الذي شرب من كأس الحكمة العربية واستوعب روح البداوة وأناسها. وقليل جداً من الغربيين كان لديهم تأثير ضخم أو كبير على الشعوب الشرقية. أما لورنس فقد وحد القبائل المبعثرة في الجزيرة العربية، كما أنه أقنع زعماء القبائل الذين كانوا أعداء الداء لعدة عقود، بأن ينسوا نزاعاتهم وخلافاتهم ويقاتلوا جنباً إلى جنب من أجل نفس القضية المشتركة. وبسبب عبقريته ومشورته بشكل كبير، فقد استطاع الأمير فيصل وأتباعه أن يحرروا الجزيرة العربية من القمع التركي. فقد ساهم لورنس بضخ حياة جديدة وروحاً جديدة في حركة الثورة العربية من أجل الاستقلال العربي.

وقدر للنتائج البعيدة المدى للحملة العسكرية الناجحة أن تلعب دوراً مهماً في التسوية النهائية لشؤون الشرق الأوسط، كما أن «إجراءات نصف الطريق» لم تجعل همة لورنس تفتر في وقت السلم كما لم تفتر في وقت الحرب.

في اتصالاته الأخرى مع الصحافة، عندما كان يحاول إبداء رأيه العام لصالح العرب، فإننا نعرض لمحة عن آرائه ووجهات نظره، حيث قال في رسالة له لصحيفة التايمز اللندنية «لقد ثار العرب ضد الأتراك، ليس لأن الحكومة التركية كانت سيئة

بشكل ملحوظ، وإنما لأنهم أرادوا الاستقلال. وأنهم لم يعرضوا حياتهم للخطر من أجل معركة لتغيير سيد بسيد آخر، ليصبحوا أدوات بريطانية أو مواطنين فرنسيين، وإنما ليحصلوا على كيانهم الذاتي. وسواء كانوا ملائمين للاستقلال أم لم يكونوا ففي كل الأحوال لا يجب أن ينتظروا. فاستحقاق الحرية ليس له تأهيل من أجلها. فالبلغار، الأفغان، والتاهيتيين حصلوا على ذلك. فالحرية تتمتع بها عندما تكون مسلحاً جيداً، أو هائجاً جداً، أو أن تسكن في بلد شائكة جداً بحيث أن تكلفة احتلال جارك لك تكون أكبر من فائدتها».

بيد أن الكولونيل لورنس لم تكن لديه شك في قدرة وطاقة العرب على التنظيم وإدارة دولتهم. فقد كان يقدر تماماً بأن هذه المميزات لم تكن قوية لديهم. إلا أنه كان يثق فيهم ويعتقد بأن لديهم رسالة سيقدمونها للغرب.

قال لي مرة: «إن التاريخ ضد إمكانية إنشاء دولة أو إمبراطورية عربية. فالعقل السامي لا يميل باتجاه النظام أو التنظيم. ومن المستحيل من الناحية العملية أن تمزج العناصر المختلفة بين الساميين مع عناصر حديثة، لتنسج أو تنشئ دولة بإحكام. من جهة أخرى، فإن الساميين يكونون خصبين جداً في الأفكار أكثر من أية شعوب أخرى. لقد قدمت الثورة العربية نفسها لي كتعبير أخير لمدى تأثير الصحراء على الشعوب الأخرى المستقرة والمستوطنة؛ فالروح السامية جربت تأثيرها ثانية على حوض البحر الأبيض المتوسط. وحملة الأمير فيصل من أجل استقلال العرب، والتي جعلت خمسة ملايين شخص من بين الشعوب التي تتكلم اللغة العربية في الشرق الأدنى يلتفون حوله، هي من دون شك أقل تلك الإلهامات التي أثر بها الساميون بشكل عميق على العالم الغربي.

«ويمتاز الساميون بفن العمارة، والفلسفة ويوجد هناك بضعة فنانين وفلاسفة من اليهود. بيد أننا نجد خصوبة عجيبة بين الساميين في خلق العقائد والأديان. فهناك ثلاثة عقائد أو ديانات سماوية حسب الترتيب: اليهودية والمسيحية والإسلامية أضحت ديانات عالمية ضخمة. وتوجد هناك بقايا وشراذم عدد لا يحصى من الديانات الأخرى الفرعية أو غير السماوية أثبتت فشلها على حواف الصحراء.

«وتبدو الصحراء صالحة لتنتج فكرة واحدة فقط، وهي وحدانية الله. فنحن الذين ذهبنا لنستكشف معنى الصحراء، وجدنا الفراغ فقط؛ ولا شيء سوى الرمال، الرياح، التراب، والفضاء الفارغ.

إن البدو يتركون وراءهم كل وسيلة راحة ويمضون ليعيشوا في الصحراء، وليعيشوا في أحضان الجوع، وبذلك يمكن أن يكونوا أحرارا. فالصحراء تتطلب ثمناً لقاء سريتها. ولم يكن هناك نبي بدوي من قبل كما لم يكن هناك نبي سامي، لم يذهب، قبل نشر رسالته، إلى الصحراء ويأخذ من سكان الصحراء التفكير والتأمل وانعكاس اعتقاداتهم.

وأن فكرة عدم الجدوى المطلقة للعالم الحالي هو أن مفهوم الصحراء الصافي أو الطاهر يكمن في أصل أو جذر كل دين سامي، الذي لا بد وأن يصفى من خلال غربال كل نبي غير سامي قبل أن يمكن قبوله من الناس.

بخياله الخصب الوافر وأفقه وصوره الذهنية عبر القرون، فقد كان من السهل على لورنس أن يرمي بنفسه قلباً وقالباً في حركة الثورة العربية. وأن يتصور عندما كانت الإمبراطورية العربية تسيطر على معظم حوض البحر الأبيض المتوسط، وعندما كان فلاسفتها وشعراؤها، وعلماؤها يغنون ثقافة أوروبا.

«يوجد هناك بعض الناس الذين يحلمون في الليل ويستيقظون ليجدوا جميع أحلامهم فاسدة أو واهمة. وهناك آخرون يحلمون في أثناء النهار، وأحياناً تصبح أحلامهم حقيقة». قال لي ذلك مرة في أحد الأيام ونحن في لندن. إنه اقتناع لورنس بأن العرب كانوا وما يزالون لديهم شيء ما ليقدموه للعالم، شيء ما لعالم غربي يعتبر مادياً بشكل كامل، وله متطلبات كثيرة إلى حد بعيد. وكأنه كانت لديه عبقرية ليجعل هذه الأحلام تصبح حقيقة.

ويجب أن أستخدم كلمات لورنس في تعريف معنى الحركة العربية تماماً. حيث قال لي: «لا يوجد هناك سبب لكي نتوقع من الحركة العربية أي تطورات جديدة بالنسبة للقوانين والاقتصاديات. إلا أن فيصل قد نجح في إحياء معتقدات الساميين الحيوية

وبخاصة تجاه العالم الآخر (الغرب) بشكل قوي، وسيكون لمثالياته تأثير عميق على الحركات الوطنية في سورية، وبلاد ما بين النهرين (العراق)، والجزيرة العربية، وفلسطين، والتي هي الأوطان الحالية للحياة السياسية السامية.

إنها كمثل مشاهدة أمواج المحيط الأطلسي تأتي وتتلاطم على الصخور الصوانية للساحل الغربي لايرلندا. وبالنظر إليهم فإنك ستقول بأن الصخور مصنوعة من الحديد، وأن الأمواج لا جدوى من تأثيرها على هذه الصخور تماماً. ولكن عندما تتأمل الأمر جيدا فإنك ترى بأن كامل الساحل يبدو وكأنه رداء مفتوح أمام البحر، ثم تتأكد بأنه مجرد وقت فحسب قبل أن تصبح مسألة ايرلندية. وبنفس الطريقة فإن الاحتجاجات السامية بالنسبة للعالم المادي قد تبدو ببساطة مضيعة للجهد، إلا انه في يوم ما فإن الاقتناع السامي بالعالم الآخر (الغرب) يمكن أن يمر من دون تدقيق حول المكان الذي كان فيه هذا العالم.

«إنني أصنف تحركات فيصل على أنها أكثر من احتجاج ضد عدم جدوى الأشياء المادية. وكنت أحاول فقط المساعدة لجمع الموجة، والتي بلغت ذروتها عندما استولينا على دمشق. وكانت فقط لجمع العرب بجهد ضخم وضم وتوحيد الأمة برمتها سوية في السعي من أجل تحقيق شيء مثالي لم يكن له شكل ولا قيمة عملية. وقد كنا نعبر عن ازدرائنا واحتقارنا الكامل للملاحقات والسعي المادي المستمر من قبل الآخرين من جمع المال إلى صنع النصب والتماثيل».

وعبر لورنس عن اقتناعه بأن الحركة العربية هي ليست أكثر من احتجاج ضد التدخل الأجنبي. وكان الاحتجاج في ذلك الوقت موجها ضد تركيا، ولكن في المرة الثانية فإنه سيكون موجها ضد كل من فرنسا، إيطاليا، بريطانيا، أو أية دولة غربية تحاول التصدي للطموحات والنزعات القومية لشعوب المنطقة.

وقد قال لي لورنس مرة ونحن في الصحراء: «عندما يمكنك فهم وجهة نظر عرق آخر، فإنك ستكون كائنا متحضرا، وأعتقد بأن إنجلترا كانت أقل من مذنبة في اتصالاتها من الدول الأخرى. فنحن لا نريد للشعوب الأخرى أن تكون مثلنا، أو أن تطابق وتماثل عاداتنا. لأننا نعتبر تقليدنا شيئا مجحفا بحقنا».

وبعد ذلك، في باريس، لخص لي لورنس الوضع في الشرق الأدنى ببضع كلمات، فقد كان رأيه بأن فرنسا، في توليها الانتداب على سوريا، لا تهدف سوى لمجرد الحصول على السيطرة ولفترة مؤقتة على الحركة العربية.

«وستستوعب منطقة الحجاز في بضع سنوات من قبل دولة عربية وحتى شمالها. وكانت دمشق دوماً مركزاً للحكم الذاتي العربي، بيد أن سوريا بلد صغير وفقير جداً لتتطلع قدماً لتكون دولة زراعية أو صناعية كبيرة. وأنها تقوم فحسب بدور البوابة الأمامية لكل من كردستان، أرمينيا، والعراق. وعندما يرغب الغرب بإعادة أو استرجاع حضارة الأشوريين والبابليين إلى مستواها السابق من الازدهار الزراعي، وعندما يستفاد من منارة الثورة الأرمينية والنفط الرخيص لبلاد ما بين النهرين؛ فعندئذ سيكون من المحتم نقل المركز العربي من دمشق إلى جهة الشرق إلى الموصل أو بغداد، أو إلى عاصمة جديدة ما. إن مساحة الأرض الزراعية أو القابلة للزراعة في بلاد ما بين النهرين تعادل ثلاث مرات الأراضي الزراعية في مصر. وأصبح عدد سكان مصر حالياً أكثر من ثلاثة عشر مليون نسمة، في حين لا يوجد هناك سوى خمسة ملايين نسمة في بلاد ما بين النهرين. وفي المستقبل القريب فإن عدد سكان بلاد ما بين النهرين سيزداد ليبلغ أربعين مليون شخص، وإن سورية التي يبلغ عدد سكانها حالياً ثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة، سيصبح خمسة ملايين مستقبلاً. إنها وجهة نظر سيئة تجاه سورية نوعاً ما. ولكن ذلك غير مهم حيث من الممكن أن يتغير مركز الثقل العربي، إلا أن ذلك لا يمكن أن يغير من الصحراء العربية ومثاليات سكانها».

بالرغم من رغبة لورنس في أن يعيش حياة تقاعدية، ويكون مع كتبه كرفقاء له، إلا أن أبناء وطنه لم يستجيبوا لذلك. فعندما تولى ونستون تشرتشل وزارة المستعمرات في الحكومة البريطانية آنذاك، فإن أول شيء فعله كان إجبار لورنس على الالتحاق بوزارته ليساعد الحكومة في تسوية الأمور المعقدة والشائكة في الشرق الأدنى (الشرق الأوسط). فعين لورنس مستشاراً لشؤون الشرق الأدنى في وزارته، إلا أن لورنس وافق على مضض على يبقى في وزارة المستعمرات لمدة عام فقط. وخلال تلك الفترة حلت مشكلة بلاد ما

بين النهرين وفق الخطوط التي اقترحها لورنس مبدئياً، فدعي الأمير فيصل إلى بغداد ونصب ملكاً على العراق، وأصبح الخلف الحديث للخليفة العظيم هارون الرشيد الذي اشتهر عهده بقصص ألف ليلة وليلة. وهكذا، فبالرغم من حقيقة أن فيصل قد فقد عرش سورية، إلا أنه أصبح مؤسساً لسلالة حاكمة في العراق وحاكماً لدولة أكثر أهمية من سوريا.

وبذلك تحقق طموح لورنس تماماً في رؤية الأمير فيصل يكافأ على الدور الذي لعبه في هزيمة الأتراك وألمانيا.

* * *

31

سر نجاح لورنس

من بين مئات الأسئلة التي وجهت إلينا بشأن الكولونيل لورنس من قبل الصحافة والرأي العام في كل جزء من العالم، وأكثرها تكراراً كانت: ما هي المكافأة التي تلقاها لورنس؟ وهل ينوي تأليف كتاب عن أعماله؟ وأين هو الآن؟ كيف يكسب معيشته؟ ما هي هواياته؟ هل تزوج؟ هل هو إنسان عادي ولديه شعور بالدعابة؟

فما هو السر الحقيقي وراء نجاح لورنس، وكيف استطاع شخص مسيحي وأوروبي أن يحصل على مثل هذا التأثير على العرب أو المسلمين المتشددين؟

بالطبع توجد هناك عوامل عديدة ساهمت في نجاحه، وأكسبته تأثيره أو نفوذه، ومكنته من أن لا يكسب احترام العرب فحسب وإنما أيضاً إعجابهم وحبهم الشديد. فقد احترموه بالرغم من كونه مجرد شاب صغير، وبدا أنه موهوب من وجهة نظر حكمائهم. وأعجبوا به بسبب شجاعته وبسالته الشخصية، ولقدرته على التفوق عليهم بأشياء كانوا متفوقين فيها، مثل ركوب الجمل وقيادته والإطلاق من فوقه، ولشجاعته وتواضعه أيضاً.

وغالباً ما كان يقودهم في المعارك، وكان شجاعاً تحت إطلاق النار إلى حد بعيد. وجرح عدة مرات، ولحسن الحظ، لم تكن جروحه خطرة أبداً بحيث لم تجعله ينأى بنفسه عن العمل العسكري. وغالباً ما كان بعيداً عن قاعدته التي كان يمكن أن تؤمن له عناية

طبية، لذلك فقد كانت جراحه ملزمة لأن تلتئم بنفسها. وأصبح العرب مخلصين له لأنه ساعدهم على تحقيق الانتصارات إلى حد كبير ومن ثم فقد منح كل جهوده لرفاقه بلباقة. ولأنه مسيحي فإنهم اعتبروا ذلك من سوء حظه، وقرروا بأن ذلك كان صدفة وبطريقة غامضة «أنها إرادة الله». بيد أن بعضهم اعتبروه كمن أرسل إليهم من السماء ليساعدهم على التحرر من الترك.

يمكن للغرب أن يتصادق مع الشرق بشكل مهذب، إذا ما كان ذلك بشكل منسجم، فالوصول لمدن الجزيرة العربية وسورية يكون بسهولة بالنسبة للغرب، فإن لديه المال لينفقه، والشرق جشع وبحاجة لهذا المال. غير أن الأمر يختلف في الصحراء والبراري، فالبدو، الذين طافت سلالاتهم البلاد لأربعة آلاف عام أو أكثر، يقاومون العيون الفضولية للأجانب الذين لم يبرهنوا على أنهم أصدقاء. وهم لا يزالون يعتبرون الأوروبيين من الضالين ومشكوك فيهم ومعادين، وأنهم أشخاص جاؤوا لينهبوا. بيد أن اهتمام لورنس ومعرفته بعاداتهم الصعبة المعقدة وإتقانه الكامل للقرآن والشريعة الإسلامية جعلهم يعاملونه بتسامح واحترام. وكان لمعرفته بعاداتهم وقوانينهم أهمية بالغة في تمكينه من تسوية النزاعات والخلافات بين القبائل والجماعات.

ولتحقيق أهدافه فقد كان من الضروري بالنسبة للورنس أن يكون ممثلاً تاماً. فقد كان حريصا تماماً على حجب نموذجه الأوردي في المعيشة حتى عندما كان يتعرض للنقد والاستخفاف من قبل أبناء بلده، بظهوره في مدن مثل القاهرة، حيث يجتمع الشرق بالغرب، وهو بملابس شرقية. وقابل منتقدوه بأنه كان يفعل ذلك لتحقيق الشهرة فحسب. بيد أنه كان هناك سبب أعمق من ذلك. فقد عرف لورنس بأنه كان يشاهد بل ويراقب دوماً وباستمرار من قبل الأشراف، الشيوخ ورجال القبائل، وعرف بأنهم سيقدرون ما يقوم به تقديرا كبيرا جداً، لذلك فحتى بين أبناء بلاده كان يرتدي ملابس أهل الصحراء. وخلال تلك الأيام التي أمضيتها مع لورنس في القدس، فإنه لم يكن يرتدي سوى الملابس البدوية. ولم يكن يهتم بالنظرات الفضولية التي كانت تراقبه وهو في لباسه هذا يتجول في شوارع المدينة المقدسة، حيث أنه كان دائماً حريصا على أن يبدي

انطباعاً واحداً بأنه كان مستغرقاً في أفكاره، التي كانت تذهب بعيداً مئات الأميال أو إلى مئات القرون. وعندما كان يزور فلسطين ومصر في المناسبات وهو في لباسه العربي، كان يحرص على أن يأتي إلى الرملة أو القاهرة مباشرة من إحدى حملاته الصحراوية. وكان حريصا تماماً على أن يذهب إلى مقر القيادة وهو يرتدي «ملابس العمل» من دون أن يضيع أياماً قيمة تتطلب منه قطع كامل الطريق جنوباً إلى معسكر قاعدته في العقبة من أجل أن يرتدي الملابس الرسمية.

وعندما يكون في الصحراء، فإنه لم يكن يرتدي سوى الملابس العربية، كما أنه لم يكن بإمكانه النجاح بمثل هذه الطريقة المذهلة فيما لو أنه سبب أذى للعرب بارتدائه الثياب الأوروبية. وعندما كان يدب بناقته عبر الصحراء في مهمة ما، فإنه لم يكن ملائماً بالنسبة له أن يحمل ملابس في جيوب سرج ناقته. فقد كانت السرعة في العدو تلزمه بأن يسافر خفيفاً بناقته. وفي الحقيقة، فقد كان في الغالب لا يحمل سوى قطعة من الخبز غير المخمر، وقطعة صغيرة من الشوكولاته، وصندوق أدوات طعامه، وحبوب الكلور، فرشاة أسنان، بندقية، مسدس وذخيرة وجملد صغير لأريستوفانس (الفيلسوف اليوناني).

إن البندقية التي كان يحملها طيلة الحملة كان لها تاريخ ملون متنوع. فقد كانت بندقية عادية من بين أسلحة الجيش البريطاني التي غنمها الأتراك في الدردنيل، ومن ثم زينها أنور باشا بتلبيسها بالذهب ونقش عليها «إلى فيصل مع تحيات أنور». فقد منحها أنور باشا إلى الأمير فيصل في أوائل عام 1916، قبل اندلاع الثورة العربية، كدليل على أن الأتراك قد ربحوا الحرب آنذاك. وفيما بعد أعطاها الأمير فيصل إلى لورنس فرافقته في جميع إغاراته.

وكان كلما قتل تركياً يضع علامة أو شخصاً عليها، فإذا ما كان ضابطاً عمل خطاً كبيراً، وإذا ما كان جندياً عمل خطاً صغيراً عليها. وتوجد البندقية الآن في حوزة ملك بريطانيا.

لم يكن لورنس كثير الحديث. فهو نادراً ما كان يقول أي شيء لأي شخص ما لم يكن ضرورياً، كأن يعطي أوامر مثلاً أو يطلب نصيحة أو يجيب على سؤال. وحتى عندما

يكون في خضم المعركة أو الإغارة فقد كان يلتمس العزلة أو الوحدة. وغالباً ما وجدته في خيمته يقرأ في مجلة دورية آثارية أو متخصصة في الآثار أو يكون منشغلاً في أموره.

وكان خجولاً جداً ذلك أنه عندما كان الجنرال كلاتيون، أو بعض الضباط الآخرين يسعون لتحيته فإنه كان يحمر خجلاً وكأنه طالب في مدرسة وينظر أسفلاً إلى قدميه.

قبل عدة سنوات، في كالكوتا بالهند، سألني الكولونيل رويرت لورين، الممثل والطيار: «إذا ما كان لورنس متواضعاً وخجولاً جداً، فكيف التقطت له كل هذه الصور العديدة؟» ولإنصاف لورنس يجب أن نوضح ذلك: فنحن كنا نرى لورنس كثيرا في الصحراء، ومع أنه كان يرتب لنا لكي نلتقط صوراً ثابتة ومتحركة على حد سواء لكل من الأمير فيصل، وعوده أبو تايه، وقادة عرب آخرين، إلا أنه كان يدير بوجه أو يبتعد عندما يشاهد عدسات الكاميرات توجه نحوه. وقد التقطنا صوراً عديدة لكوفيته من الخلف أكثر مما التقطنا لوجهه. ولكن بعد أن استخدمنا كافة الحيل والخدع التي تعلمناها كمراسلين لصحيفة كبيرة، فقد ناورنا خلال ملاحقته والتقطنا له صوراً ثابتة في مناسبتين، التقطهما المصور شيس. فعندما كنت أثير اهتمام الكولونيل لورنس بالأسئلة المتعلقة برحلتنا المفترضة إلى «المدينة المفقودة» (البتراء) والتي اعتقد بأنها كانت تشكل الموضوع الرئيس لزيارتنا للجزيرة العربية، قام المصور شيس بسرعة بالتقاط عشرات الصور من عدة جهات وزوايا مختلفة للورنس وفي وقت أقصر مما كان يستغرقه عادة مصور في أستوديو. والمطلع على طرق وأساليب مصوري الصحف سيقدر مدى بساطة هذا العمل حينما تكون خارج الأستوديو أو تقوم بعمل خارجي تحت ضوء شمس جيد. وتحققت بأن لورنس كان واحداً من الشخصيات الأكثر رومانسية في الحرب، وأنه أصبح لدينا صيد عظيم بذلك. لذلك فقد عزمت على أن لا نغادر الجزيرة العربية إلى أن نحصل على الصور التي كنا نريدها.

وغالباً ما كان المصور شيس يختلس صوراً للورنس من دون معرفته. أو في اللحظة التي يستدير بها نحو عيون الكاميرا ليجد نفسه وجهاً لوجه أمامها ويكتشف خيانتنا. وعندما كان صيادوا التصوير الخبيرون يبدأون اللعبة، فإن واحدا منهم كان يقوم بدور

الطعم والآخر يقوم بدور التقاط الصور، وبذلك لا تبقى للضحية فرصة للهروب من عين الكاميرا.

ولكن لنعد إلى موضوع كيف أن لورنس نجح في تحقيق مثل هذا الاندماج العجيب مع العرب بارتدائه الزي العربي مثلهم وبراعته في إتباع أصغر التفاصيل لحياتهم اليومية؟ فنقول إن ذلك كان بشجاعته وتواضعه وبراعته الجسدية وحكمته الناضجة التي لم يكتسب من خلالها ثقة أولئك المنحدرين من سلالة الرسول (ﷺ) من الأشراف الذين كانوا يحكمون المدن المقدسة فحسب، وإنما أيضاً ثقة القبائل البدوية في الصحراء، الأمر الذي سيعتبر من قبل المؤرخين مستقبلاً من أعظم الإنجازات الشخصية المذهلة في هذا العصر.

إن القيمة الاستثنائية لإنجازه يمكن أن تقيم بشكل أدق إذا ما عرفنا أنه لمدة ألف وثلاثمائة عام تقريباً، منذ أيام الرسول محمد (ﷺ)، فإن بضعة أوروبيين فقط استطاعوا استطلاع الجزيرة العربية وحول الأراضي المقدسة، وهم أقل بكثير من الذين استطاعوا التغلغل في أراضي التيبت ووسط إفريقيا. فالمسلمون المتعصبون الذين يعيشون حول المدن المقدسة وخاصة مكة والمدينة منعوا المسيحيين واليهود وغيرهم من غير المسلمين من تدنيس تلك الأرض المقدسة، وأن غير المسلمين الذين يغامرون بالدخول إلى هذا الجزء من الجزيرة العربية يكونون محظوظين فعلاً إذا ما خرجوا منها أحياء. لذلك فإن إنجاز لورنس اعتبر استثنائياً وغير عادي إلى حد كبير عندما نتذكر بأنه كان يقر جهراً بأنه كان مسيحياً. حتى عندما كان يرتدي الأثواب أو الثياب العربية والعباءة الشريفية، فإنه كان يبدو فعلياً شخصا شرقيا، وحينما كان يتسلل من خلال الخطوط التركية وهو يرتدي الحجاب والنقاب فإنه كان يبدو كامرأة عربية أصلية.

بالطبع فقد كانت الهبات والإمدادات التي لا تنضب من الذهب الذي كان يدفعه لقواته على جانب كبير من الأهمية. ورغم أن الألمان والأتراك حاولوا أيضاً استخدام الذهب إلا أنهم فشلوا بذلك لأنهم «لم يكن لديهم مثل لورنس»، هذا ما قاله جون فيلبي، الذي مثل بريطانيا في الصحراء الوسطى للجزيرة العربية.

لقد لعب الكولونيل لورنس دور رجل غامض موهوب قادر على القيام بكل ما هو خارق نسبياً وبشكل جيد، وغير مسبوق، وكان يحاول التشبه بالعرب في كل شيء، ابتداء من الشؤون الرسمية إلى ركوب الجمل، بل وحتى في استخدام أدق لهجات لغتهم. وقد بدا أن اللغة كانت سهلة بالنسبة له. فإضافة إلى لغته الأم، فقد كان يتحدث الفرنسية، الإيطالية، الإسبانية، والألمانية وشيئاً من اللغات الهولندية، النرويجية، والهندوستانية، وكان بارعاً في اللغتين القديمتين اللاتينية والإغريقية كما كان يمكنه إتقان العديد من اللهجات العربية في الشرق الأدنى.

كان لورنس حريصاً بشكل كبير على أن لا يدخل أبداً في تنافس مع البدو ما لم يكن متأكداً تماماً من أنه سيتفوق عليهم. كما أنه اكتسب سمعة كرجل مآثر ومبادئ بدلاً من الكلام، وهذه الصفات كانت تؤثر بشكل كبير على سكان الصحراء، الذين كانوا يحبون الثرثرة (الهرج) باستمرار كمثل صراخ وضجيج الهنود. وعندما كان يتكلم كان يوجد لديه شيء مهم ليقوله وكان يعرف متى يتكلم. ونادراً ما كان يرتكب أخطاء، وحتى عندما كان يرتكب أخطاء كان يحرص على أنه يجب أن يعتبر العرب ذلك كنجاح بشكل مطلق. وكان لا يعرف التعب ويعمل حتى تحت أوضاع لا يمكن أن تطاق، ويمكنه العمل إلى وقت طويل جداً في الليل بينما يكون زملاؤه العرب نائمين. وكان في وقت متأخر من الليل، أو حينما كان يعدو ويقطع الصحراء متمايلاً على سرج جمله، يخطط لسياسته بعيدة المدى. وكان حجمه صغيراً ونحيلاً، لكنه كان قوياً، ويبدو وكأنه مصنوع من الفولاذ. بيد أن حرب الصحراء تركت آثارها عليه بطرق عديدة، فقد أسر إلى أحد أشقائه بأنه بعد أن عاد من الجزيرة العربية كان يعاني من إجهاد شديد في القلب.

كان عوده أبو تايه صادقاً دائماً في حكمه على الأشخاص، فقد قال لي مرة: «إنني لم أر أبداً شخصا لديه مثل هذه الطاقة في العمل، وهو يعتبر أفضل من امتطى جملاً وعبر به الصحراء». وأضاف عودة قائلاً: «والله إنه يبدو أكثر من كونه رجلاً».

* * *

32

فن التعامل مع العرب

وثق الكولونيل لورنس بالعرب كما وثق العرب به، بيد أنهم لم يكونوا ليثقوا به هكذا عشوائيا ودون أن يتقن تماماً عاداتهم ويتقن كافة مظاهر حياتهم العربية الظاهرية أو الخارجية. وسألته مرة، عندما كنا نشق طريقنا عبر الصحراء، ما هي أفضل طريقة للتعامل مع بدو عنيفين في هذا الجزء من العالم. وكان حافزي في ذلك محاولة جعله يخبرني بطريقته الخاصة شيئاً ما عن الأساليب والطرق التي مكنته من تحقيق ما لم يستطع سوى بضعة رجال تحقيقه. كنت واثقاً أنه ظن بأنني أريد معلومات لكي أستخدمها بشكل فوري بهدف التعامل مع البدو الذين كنا نعيش بينهم. فلو أنه شك بأنني كنت أحاول جعله يتحدث عن نفسه، فإنه كان سيحول الحديث إلى قنوات أخرى. كان جوابه، «يمكن أن يطلق على التعامل مع العرب على أنه فن، وليس علما، مع عدة استثناءات ولا توجد قواعد وأحكام لذلك، فالعربي يبني حكمه على الظواهر التي نجهلها، لذلك فإنه يجب على الغريب مراقبة كل خطوة أو حركة يقوم بها، وكل كلمة يقولها خلال الأسابيع الأولى من وجوده مع قبيلة ما.

ولا يوجد أي مكان في العالم يمكن أن يكون صعباً جداً للبدء في التعامل كالتعامل مع البدو. ومع ذلك، فإذا ما نجحت في الوصول إلى الدائرة الداخلية لقبيلة ما وحصلت على ثقتها فعلياً، فحينها يمكنك القيام بأشياء بارعة عديدة تسرهم وبنفس الوقت تقوم بأشياء عديدة تجعلهم يعتبرونك كمنبوذ. وعليك دوماً أن تحفظ نفسك؛ ولا تتحدث أو

تتكلم إلا بما هو ضروري؛ وتراقب نفسك ورفقاءك باستمرار؛ وتسمع كل ما يمر من حديث؛ وتبحث عما هو جار تحت السطح؛ وتقرأ وتعلم عن شخصيات العرب، واكتشاف مواطن قوتهم وضعفهم، والاحتفاظ بكل شيء تكتشفه لنفسك. ودمج نفسك في البوتقة العربية؛ ولا يكون لديك أفكار ولا اهتمام ما عدا العمل، وبذلك فإنك تبرع بدورك تماماً بشكل كامل فتتجنب أية زلات يمكن أن تعترض وتواجه العمل المضني لأسابيع، وسيكون نجاحك متناسبا مع جهدك العقلي».

لتوضيح الأهمية التي يعلقها البدو على المظاهر، قال لي لورنس إنه في إحدى المناسبات حل ضابط بريطاني ضيفاً على شيخ قبيلة الحويطات، وجلس على سجادة ضيوف الشرف ومد قدميه للأمام ولم يضعهما تحته كعادة العرب. لذلك فلم يكن ذلك الضابط محبوباً من الحويطات. فبالنسبة للبدو فإنه يعتبر أمراً عدوانياً عرض أقدامنا بشكل متباهٍ أو متفاخر كما لو أننا نضع أقدامنا على طاولة العشاء. وكان على مسافة قصيرة خلفنا في القافلة التي كنا نسير فيها زعيم قبيلة عرب الشمر الذي كانت توجد ندبة أو أثر جرح مندمل على وجهه. فأضاف لورنس قصة متعلقة بهذا الرجل فقال: «بينما ذلك الرفيق كان يتناول العشاء مع ابن رشيد، حاكم شمال وسط الجزيرة العربية، حدث أنه تشردق أثناء الأكل. فشعر بان ذلك كان مذلاً كثيراً فتناول سكينه وشق فمه لغاية الشريان السباتي في خده، ليرى مضيفه فحسب بأن قطعة لحم قد علقت بين أسنانه الخلفية، لذلك قذف الطعام من فمه.

فالعرب يعتبرون أنها إشارة سيئة جداً في الأكل بالنسبة لرجل أن يقذف الطعام من فمه. فلا يظهر ذلك فقط على أنه جشع، وإنما يعتقد بأن الشيطان قد سيطر عليه. وهناك خاصيات أو ميزات معينة أخرى لآداب تناول الطعام يتقيد بها البدو فهم لا يستخدمون الشوك والسكاكين في الأكل، وإنما يتناولون الطعام من الأطباق المختلفة على المائدة بأيديهم. وعلى سبيل المثال، فإن من المعيب جداً لأي واحد أن يتناول الطعام بيده اليسرى.

إن البدوي المخلص، وعند إبداء حكمه على شخص أجنبي أو غريب، لا يتسامح تجاه تجاهل عادات وتقاليد الصحراء. فإذا لم تكن بارعاً ومتقناً لآداب المعاشرة

الصحراوية، فإنك ستعتبر شخصاً غريباً وربما دخيلا أو معاديا. ففهم لورنس للعرب وقدرته على التصرف الصحيح وفي اللحظة المناسبة كان أمراً رائعاً وغريباً، وبالطبع فإنه لم يكن ليستطيع أن يعيش كعربي في الجزيرة العربية إذا لم يكن يعرف تاريخ قبائل جميع الأشخاص البارزين في الصحراء. وكان ينبغي أن يعرف أن والد رجل معين قد شنق أو أن والدته قد طلقت أو أنها زوجة مطلقة لزعيم أو شيخ قبيلة مشهور. وسيكون من غير المناسب أو الملائم الاستعلام عن والد شخص عربي إذا ما كان مقاتلاً مشهوراً إذ أن الأمر سيبدو كما لو أنك تقوم بتعريف امرأة مطلقة على زوجها السابق. وإذا ما رغب لورنس بالحصول على أية معلومات عن شخص ما فإنه كان يعرفها بوسائل غير مباشرة وبواسطة المبادرة بمحادثة بطريقة ذكية حول الموضوع المهتم به، ولا يوجه أسئلة مطلقاً بهذا الشأن. ولحسن الحظ بالنسبة للحركة القومية وللحلفاء، فقد كان لورنس متجاوزا لمرحلة ارتكاب الأخطاء قبل الحرب، وكان بنفس الوقت فعلياً شيخاً لقبيلة في بلاد ما بين النهرين.

«إنه من المهم بشكل حيوي بالنسبة لأي واحد يتعامل مع أبناء الصحراء أن يتكلم بلهجاتها المحلية، وليس بالعربية الحالية كما هو الحال في بعض أجزاء الشرق الأخرى» كما أعلن لورنس، وأضاف قائلاً: «إن أسلم خطة هو أن تكون رسمياً نوعاً ما في البداية، وتتجنب الانخراط في النقاش والمحادثات بشكل عميق أيضاً».

وتقريباً فإن جميع الضباط الإنجليز الذين تعاونوا مع العرب إبان الثورة العربية كانوا يتكلمون اللهجة المصرية - العربية. وكان العرب لا يحبذون ذلك، لذلك فإن معظم الأوروبيين الذين أرسلوا من قبل الحلفاء للتعاون مع أبناء الحجاز وجدوا أنفسهم يعاملون ببرود ونجح الحلفاء في كسب دعم العرب لأن لورنس كان قادراً على بلورة الفكرة العربية للحصول على تقدير غير عادي من قبل معظم قبائلهم.

اعتقد لورنس بأن أفضل طريقة لتوحيد أبناء الصحراء وإزالة كافة نزاعاتهم الدموية يكون بإنشاء أرستقراطية عربية. فلا شيء من هذا القبيل كان موجوداً في الجزيرة العربية من قبل، لأن بدو الشرق الأدنى كانوا شعوباً أكثر تحرراً على الأرض ويرفضون الاعتراف بأية سلطة أعلى من سلطتهم.

ومنذ البداية، فإن شيوخ قبيلة ما لم يكن لديهم أي نفوذ مطلقاً على أعضاء أو أفراد قبائل أخرى. كما واعترف بالأشراف الذين لم يكونوا ينتمون لأية قبيلة، على أنهم زعماء كبار فقط من قبل أبناء كل من مكة والمدينة والمدن الكبيرة الأخرى. وكلمة شريف باللغة العربية تعني الشرف والنبل، ويفترض بالشريف أن يظهر الصدق والأمانة. وفي المدينتين المقدستين، مكة والمدينة، كان للشريف حسين وأبنائه تقدير واعتبار عالٍ من قبل السكان، الذين اعتادوا أن ينادونهم بكلمة «سيدي» أو «لورد» بالإنجليزية. أما أبناء البدو في الصحراء، فبعكس أولاد عمومتهم في المدن، كانوا يخاطبونهم بأسمائهم المجردة «حسين» و «فيصل»، الخ. ومن دون أية ألقاب. بيد أن لورنس، بقواه التحفيزية والإلحاحية، أقنع حتى البدو بأنهم يجب عليهم استخدام عبارة «سيدي» في مخاطبة كافة الأشراف. ونجح في ذلك نجاحاً كبيراً، ذلك أنه خلال بضعة أشهر، وبالرغم من حقيقة أنه كان أجنبياً ومسيحياً، فإنهم شرفوا حتى لورنس بهذا اللقب لإعجابهم العميق بعبقريته.

ويقدم لنا المقدم سي. فايكري، من الجيش النظامي، الذي لعب دوراً بارزاً في الحملة وعمل فيها بعد ممثلاً لبريطانيا في جدة، لمحة قوية فيما يتعلق برسمية الحياة اليومية للشريف. وكان فايكري واحداً من الأوروبيين القلائل الذين زاروا الطائف، التي كانت العاصمة الصيفية للحجاز، وهي ليست قريبة جداً من مكة والمدينة، ومع ذلك فإنه لا يعرف عنها سوى القليل وقتذاك من قبل العالم الخارجي.

«كان الوقت ليلاً تماماً عندما وصلنا إلى مكان بارد جداً. وطلب منا التوجه إلى غرفة الضيوف – وهي شقة جميلة، ارضيتها مغطاة ومفروشة بالسجاد العجمي الثمين محاطة بالوسادات الوفيرة والمريحة. وبشكل ودي، تحول إلينا مضيفنا واحتضن وقبل كل واحد منا، ودعا الله أن يباركنا وتمتم مرحباً بنا وأننا يجب أن نعتبر أنفسنا في منزلنا. وجلسنا نحو ساعة في تلك الغرفة نشرب القهوة والشاي المحلى جداً ونحن ندخن، وبينما كنا نشاهد المشهد الشرقي الذي لم يتغير عبر القرون. فقد كان الشريف غائباً طيلة ذلك اليوم، ولكن هذه هي آداب الضيافة (الإتيكيت) في الشرق، وما كان عليهم جميعاً إلا أن يقدموا له احتراماتهم بعد عودته السالمة من الرحلة التي قام بها. ومن وقت لآخر يدخل من خلال الباب أقارب وأصدقاء وخدم. ويخلع جميعهم خفافهم وأحذيتهم ويدخلون

من خلال الباب المفتوح. فيدخل الخدم والعبيد بسرعة وينحنون ويقبلون طرف اليد الممدودة إليهم ثم ينسحبون بسرعة. ويدخل الأتباع ببطء أكثر ويقبلون يد الشريف، ثم يديرونها ويقبلون الجزء الواقع ما بين الإصبع الأول (السبابة) والإبهام ومن ثم ينسحبون بهدوء ويأتي الأصدقاء، وعندئذ ينهض الشريف، ويظهر معارضة ضعيفة عند تقديم يده لتقبيلها، ويقبلهم من جانبي وجوههم وهو يتمتم بكلمات الترحيب. وبالنسبة للأقارب، فإنه ينهض ويسمح بتقبيل يده بمعارضة ظاهرة، ومن ثم يقبلهم بحرارة ويحتضنهم متمتماً بكلمات ترحيب وتمنيات عديدة وبطول العمر والسعادة».

لقد تطور احترام الأشراف والشعور بمسؤوليتهم ومنزلتهم الرفيعة من قبل سكان المدن والقرويين بشكل خاص منذ وقت طويل في المدن والقرى العربية. وذلك بالطبع، كان مساعداً كبيراً للورنس في إنشاء وخلق أرستقراطية عربية. وفي الحقيقة، فإنه كان استخداماً ذكياً لهذه المسؤولية الشخصية من قبل لورنس وزملائه الذين كانوا يسعون لتوحيد القبائل المتنازعة وتطوير قدرة الرجال ليعملوا كقادة مساعدين تحت قيادة الملك حسين وفيصل وأشقائه الآخرين.

كان الملك حسين يعتمد كلية في قوته وقدرته العسكرية على ولاء القبائل. وكان اعتماده بشكل كبير وأساسي على القبائل الأكثر عدداً في الصحراء، مثل قبيلتي حرب وعتيبة، مع قبيلة أخرى أدنى مرتبة، وهي قبيلة جهينة. فهذه القبائل الثلاث كانت تحتل مساحة واسعة من أراضي الحجاز تقدر بثلاثة أرباعها مع شريط غربي لنجد. وجنوب وغرب هذه المنطقة، ولكن كانت تسكن ضمن حدود الحجاز خمس أو ست قبائل صغيرة هي قبائل: الهديل، بني سعد، بقوم، مطير، ثقيف، وجهادله. وإلى أقصى الجنوب كانت هناك مجموعة من القبائل القوية وهي؛ الضهور، مسان، غاميد، زهران وشهران، وكانت لديها وسائل مادية ومصادر قوية جداً تفوق ما يمكن أن تقدمه الحجاز لنفسها. وأرسلت جميعها رجالاً ودعماً لمساعدة الملك حسين. ومن الشمال فقد حصل على تعزيزات من ثلاث قبائل أصغر من قبائل عنيزه. وهي قبائل بيلي وعطية والحويطات. وقبيلة الحويطات الكبيرة تنتشر في المنطقة ما بين رأس خليج العقبة وإلى أدنى نهاية البحر الميت ووسط الجزيرة العربية، وكان لها أعداء كثيرون، مما سبب لها مشاكل ومتاعب عديدة،

وتورطت في نزاعات دموية وثأرية أكثر من أية قبيلة أخرى. ورجالها أشداء لا يعرفون الخوف. وكان الحويطات يرون أنه من المستحيل أن يتحدوا فيما بينهم حتى عندما يهاجمون من الخارج. والشيء الوحيد الذي كان يوحدهم ويشتركون به هو الجراح ونفس العلامات أو السمات القبلية على جمالهم. وكان لهذه القبيلة الكبيرة فرعان (فخذان) أو قسمان، هما: فرع ابن جازي وفرع أو فخذ أبو تايه، ومنه عوده أبو تايه (روبن هود البدوي) وكان زعيمها. بيد أن عوده كان زعيماً لمنقبته بالجرأة والبسالة فحسب، ذلك أنه ولا رجل في تلك المجموعة أو القبيلة الجريئة يهمه أو يهتم بأن ينحني أمام سلطة أي شيخ كان.

ولمدة خمس عشرة سنة ظلت الحرب مستمرة بين قسمي القبيلة بشكل لا هوادة فيه إلى أن نجح (الشريف) لورنس في جعلهما تتحدان وتنضمان للقتال إلى جانب الملك حسين والأمير فيصل لإخراج الترك من الجزيرة العربية. ولكن حتى عندئذ فقد وجد لورنس أنه من الحكمة بأن يبقى قسما القبيلة ملتحقين بأجزاء مختلفة من الجيش العربي بحيث يمكن إبعادهما عن بعضهما البعض حتى لا يتقاتلا فيما بينهما. وكان كلاهما راغبين بإطاعة أوامر لورنس ما داما متفرقين عن بعضهما، ولكن إذا ما حدث والتقيا فإنهما يعتبران أنفسهما في عهد شرف.

وكان عوده أبو تايه وجماعته على عداء شديد ودموي مع الدروز بسبب ثارات قديمة، إلا أن لورنس كان يمنع أي اشتباك بينهم بدلاً من الاشتباك مع الأتراك. إلا أن ذلك لم يمنع في عام 1912، مجموعة من مقاتلي الحويطات من أسر ثمانين فارساً من الدروز في معركة جرت بينهم، مما أظهر مقدر مقاتلي الحويطات العالية. وأصبح الحويطات بقيادة عوده أبو تايه أقوى قوة مقاتلة في غرب الجزيرة العربية، واعتبرهم لورنس العمود الفقري لقوات الصحراء الأشداء.

ربما كان نسف القطارات أفضل متعة أو عمل للورنس، بيد أنه لا شيء كان أكثر أهمية مما قام به من ترسيخ الوفاق بين القبائل العربية. ومعهم كان يغير على الجيران المعادين (الأتراك).

وكان إحضار شيخين عدوين إلى خيمة الأمير فيصل ليؤديا قسم الصداقة والولاء بعد عداءات بسبب خيول وجمال مسروقة كمن يطلب من أحد أقطاب «وول ستريت» بأن يحول ثروته إلى الشيوعيين.

ولكي نوضح دقة المشكلة التي عالجها لورنس، دعونا نقدم مثالاً معيناً. ففي شهر حزيران، 1917، كنا نحضر مؤتمراً في باحة قصر الأمير فيصل في العقبة، وكان مؤلفا من طابق واحد مجمع التركيب، مع وجود باحة داخلية واسعة، ومزرعة إسبانية. وكان القصر يقع في بلدة صغيرة، تقع عند حافة أشجار النخيل، وهي المنطقة الخضراء الوحيدة المتلاطمة الألوان في هذا الامتداد الرملي، الذي كان في يوم من الأيام الميناء العظيم للملك سليمان. وفي حلقة التفت حول الأمير كان يجلس نحو ثلاثين من الأشراف والشيوخ، وجميع رؤساء القبائل البارزين وكان بينهم ستة شيوخ من حويطات ابن جازي. وكان ما فاجأني هو ذلك التغير السريع الذي أصاب الشاب الإنجليزي الهادئ، لورنس، الذي نهض على قدميه، وانسل بهدوء إلى ممر بوابة الباحة. ورأيته يتكلم مع مجموعة من العرب كانوا على وشك الدخول ومن ثم قادهم إلى اتجاه آخر. وفيما بعد عندما سألته عن سبب سرعة خروجه من الاجتماع مع الأمير فيصل، أبلغني بأن المقاتلين الذين كانوا عند البوابة لم يكونوا سوى عوده أبو تايه وابن عمه، محمد، وبعض المقاتلين الآخرين من رجال عوده. وأضاف، أنه لو كان عوده ورجاله قد دخلوا باحة القصر، لحدث قتال دموي يمكن أن يندلع حتى أمام الأمير فيصل، ومن المحتمل أن ينجم عنه تمزق كامل للقوات العربية.

وإلى أن أصبح قائداً بلا منازع، فقد حافظ لورنس على اتصال مستمر مع ملك الحجاز وأبنائه الأربعة، وبشكل رئيس الأمير فيصل. وكان يعيش مع القادة، ويكون معهم عندما كانوا يتعشون أو يتغدون ويحضر مجالسهم في خيمهم. وكانت نظريته بأن يعطي أو يقدم النصيحة أو المشورة المباشرة والرسمية والتي لم تكن فعالة أكثر من تقديم الأفكار في الاجتماعات. وكلما أراد لورنس أن يقوم بتحرك جديد، أو يبدأ بإغارة، أو الاستيلاء على بلدة، كان يطرح سؤالاً عشوائياً وغير مباشر، وقبل أن تمر نصف ساعة غالباً ما كان ينجح في حث واحد من الشيوخ البارزين ليقترح خطة ما. ومن ثم ينتهز

لورنس الفرصة للاستفادة منه، وقبل أن تفتر حماسة وهمة الشيخ، فإنه كان يدفعه قدماً لتنفيذ الخطة.

في إحدى المناسبات، كان لورنس يتناول العشاء مع الأمير فيصل وبعض قادته، في مكان ليس ببعيد عن العقبة. وفكر القادة العرب بأنه ستكون خطة رائعة لو تم الاستيلاء على درعا، وكانت محطة التقاء سكة حديد مهمة تبعد مئات الأميال إلى الشمال، وإلى الجنوب من دمشق مباشرة. وكان لورنس يعرف بأنه يمكن الاستيلاء على درعا، إلا أنه كان مدركاً أنه في تلك المرحلة لا يمكن الاستيلاء عليها لفترة طويلة من الوقت، لذلك فقد قال: «أوه، نعم تلك فكرة رائعة، ولكن دعونا أولاً ندخل في التفاصيل». وعقد مجلس حرب كبير، ولكن كلما كان بحث أمر ما يطول أكثر كان الحماس يفتر أكثر، حتى أصبح القادة العسكريون العرب غير متحمسين لذلك، إلى أن اقترحوا التراجع أو الانسحاب من الموقع الذي احتلوه في تلك اللحظة. عندئذ بين لورنس بشكل دقيق بأن مثل ذلك الانسحاب سيغضب الملك حسين كثيراً، ومن ثم رويداً رويداً أقنعهم بأن يمضوا بخطتهم الأصلية من أجل الاستيلاء على العقبة، والتي كانت هدفه الأول. وكما قال لي لورنس مرة عندما كنا نحضر مجلس استشارة لقادة عسكريين عرب: «كل واحد يعتبر نفسه جنرالاً في الجيش العربي في الدوائر أو المجالات العسكرية البريطانية فإنه يسمح للجنرال بان يعمل مجموعة من الأشياء بنفسه، بينما هنا في الجزيرة العربية فكل رجل يريد أن يكون له يد في كل شيء».

كان الأشراف والشيوخ العرب ذوي ذهن حاد وقوي ومستقلي الفكر وعنيدين. ولا شيء يؤذيهم أكثر من أن يبين أو يظهر لهم شخص ما أخطاءهم. فإذا ما قلت «هذا هراء» لشخص عربي فإنه سيدير لك ظهره ولن يساعدك فيما بعد أبداً. لذلك كان لورنس لا يرفض أبداً أن يأخذ بالاعتبار أية خطة توضع، مع أنه كان يمكن له أن يفعل ذلك. وبدلاً من الرفض، فإنه كان دوماً يوافق على الخطة ومن ثم يدير حديثاً ونقاشاً مباشرا وبمهارة حولها بحيث يجعل العرب أنفسهم يقومون بتعديلها بالشكل الذي يلائمه، عندئذ كان يعلن للقادة الآخرين وأمام الذين قاموا بالتعديل بأن الخطة تغيرت. وكان كل

ذلك يعالج بطريقة دقيقة بحيث لا يمكن للعرب أن يدركوا ولو لدقيقة واحدة أنه كان يعمل تحت ضغط ما.

ولو كان لورنس وزملاؤه البريطانيون يعملون من وراء ظهور الأشراف لما أمكنهم أن يحققوا أهدافهم بنصف الوقت، ولكن لورنس قام فعلياً بدور القائد وبموافقة طوعية من العرب أنفسهم، لأنه كان يعتبر من وجهة نظرهم رجلا خارقا، فقد كان حكيماً تماماً ولم يصدر أبداً أوامر مباشرة. حتى اقتراحاته ونصائحه للأمير فيصل كان يحتفظ بها إلى أن ينفرد به. ومنذ بداية الحملة تبنى لورنس سياسة عدم محاولة القيام بشيء كثير جداً بنفسه، فكان يتذكر دوماً بأنها حرب العرب. وفي بعض الأوقات وعندما كان يبدو ذلك ضرورياً، فإنه كان يقوي مكانة وهيبة القادة العرب ومعهم مساعديهم على حساب موقعه.

لقد كان فشل كل من الأتراك والألمان، عائدا جزئياً إلى حقيقة أنهم كانوا مندفعين على العرب بشكل أعمى، وكانوا يحاولون التعامل معهم بطريقة وحشية مباشرة.

وكلما حضر شريف جديد أو شيخ لأول مرة لتقديم خدماته للملك حسين، كان لورنس وغيره من الضباط البريطانيين يغادرون خيمة الأمير فيصل إلى أن تتم مراسيم حلف اليمين والولاء على القرآن وتقبيل يد الأمير فيصل. وكانوا يفعلون ذلك لئلا يتشكك الشريف الغريب والجديد إذا ما انكشف تعبيره الأول أمام أجانب بثقة وحضور الأمير فيصل. وبنفس الوقت فقد كان من سياسة لورنس دوماً بأن يكون اسمه مرتبطاً بأولئك الأشراف.

وفي كل مكان كان يذهب إليه فقد كان يعتبر ناطقاً باسم الأمير فيصل. «أن تلوح باسم شريف أمامك كمثل شعار يخفي فكرك وشخصك تحته» كانت تلك الحكمة لهذا الطالب الذي كان يعتني بالتكتيكات البدوية. إلا أن لورنس كان حريصاً على أن لا يظهر لوقت طويل مع أي من شيوخ القبائل، لأنه لم يكن يريد أن يفقد هيبته فيظهر وكأنه مرتبط بقبيلة معينة وبصراعاتها أو نزاعاتها. فالبدو غيوريون إلى حد كبير. وعندما كانوا يذهبون في حملة ما كان لورنس يسير مع كل واحد منهم ويروح جيئة وذهاباً على طول الطابور بحيث لا يمكن لأحد أن ينتقده أو يتهمه بإظهار المحسوبية لأي كان.

وقد استخدم لورنس معرفته بالصحراء ليستفيد إلى أقصى حد ممكن. فقد كان - على سبيل المثال - بحاجة مستمرة إلى معلومات مفصلة فيما يتعلق بطبوغرافية المنطقة التي تسير عليها قوات الثورة العربية؛ بيد أن البدو كانوا يعارضون كشف مواقع آبارهم، وعيون مياههم، ونقاط ضعفهم وقوتهم. فأقنعهم لورنس بأن عمل الخرائط يعتبر إنجازاً لكل رجل متعلم. وأصبح عوده أبو تايه والعديد من الشيوخ الآخرين مهتمين جداً بالخرائط التي غالباً ما كان لورنس يحفظها طيلة الوقت أو طيلة ساعات النهار، وكان يساعدهم في إنجازها رغم أنها كانت على جانب ضئيل من القيمة والأهمية العسكرية.

* * *

33

لورنس الإنسان

مع أن لورنس كان موضع تقدير كل من الحكومتين البريطانية والفرنسية من خلال الأوسمة التي منحت له، إلا أنه فر منها وتجنبها بإصرار.

لقد أرسلت الحكومة الفرنسية أمراً إلى قواتها في الجزيرة العربية لتمنح تقديراً للكولونيل الجريء كرويكس دي غور. وكان الكابتن بيزاني قائد القوة الفرنسية في العقبة حريصاً على أن يحدث الاحتفال انطباعاً ما. فأراد أن يخرج جميع القوات البريطانية، والفرنسية والعربية في عرض عسكري بحيث يمكنه أن يلقي خطاباً ملائماً بهذه المناسبة، وأن يقدم وساماً للورنس ومن ثم يقبله على خديه. بيد أن لورنس سمع عن تلك الخطة، فاختفى في الصحراء. وقد تجنب إلحاح بيزاني عدة مرات. وبعد أن ييس بيزاني ذهب إلى الميجور مارشال، زميل لورنس في خيمته وطلب منه بأن يطوق خيمة لورنس في صباح يوم ما عندما يكون في العقبة ويأخذه على حين غرة. لذلك فقد انتظر بيزاني وكتيبته إلى أن عاد لورنس، ومن ثم أحاط به تماماً، وقرأ أمامه وثيقة معبرة تتعلق بكيفية ذهابه في كل يوم من دون طعام وماء وكيف أنه خدع وهزم الأتراك.

عند نهاية الحملة، وعندما عاد لورنس إلى أوروبا وترك خلفه زميله مارشال في الجزيرة العربية، كتب له بأن يشحن له أشياءه من العقبة إلى القاهرة. ولم يكن لورنس يشرب الخمرة ولا يدخن، إلا أنه كان مغرماً بشكل غير عادي بالشوكولاته، حيث كانت

توجد في زاوية في خيمته عشرات العلب الفارغة منها مكومة جنباً إلى جنب مع الكتب، وقطع من أدوات قياس المساحة للأراضي، وسرج جمل، ولفائف من الخراطيش وقطع غريبة من مدافع رشاشة. ووجد الميجور في إحدى علب الشوكولاته الفارغة الوسام الفرنسي الذي قدمه بيزاني إلى لورنس. فوضعه في حقيبته الخاصة، وعندما حضر لورنس لمقابلة الأمير فيصل والانضمام للوفد العربي في مرسيليا، سحب الميجور مارشال حقيبته، وألقى كلمة أخرى مذكراً الكولونيل لورنس بعمله الرائع، ومن ثم قدم له وسام كرويكس دي غور مع ملحق ذي سعف.

عندما زار دوق كونات فلسطين ليقدم وسام الصليب الأكبر لفرسان القديس يوحنا للجنرال اللنبي، فقد نوى أيضاً تقديم وسام للورنس. وصدف أن لورنس كان مختفياً في ذلك الوقت، حيث مشغولاً بتدمير ونسف القطارات التركية. فأرسلت طائرات استطلاع للبحث عنه في الصحراء. كما أرسلت برقيات أسقطت بواسطة الطائرات على مواقع معسكرات عربية مختلفة تطلب من كل من يرى الشريف لورنس أن يخبره بأن يحضر إلى القدس. وفي يوم لطيف جاء لورنس يدب بقدميه من خلال خطوط سكة الحديد التركية مظهراً عدم مبالاته بالعدو. في غضون ذلك كان يجري احتفال في القدس لتقديم الوسام للنبي، ثم غادر دون كونات إلى مصر. ونجح زملاء لورنس في شعبة الاستخبارات البريطانية هناك في إغوائه بالحضور إلى القاهرة متذرعين بحجة ما. وعند وصوله إلى هناك، أخبره ملازم أول كان يجهل طبيعته وبشكل غير متعمد بما ينتظره من مفاجأة جميلة. ومن دون أن يتوقف ليأخذ زيه الرسمي وحقيبته من فندق شبرد، أسرع لورنس إلى مقر قيادة سلاح الطيران في هيلوبولس، وهي واحة تقع على بعد بضعة أميال من القاهرة، وقفز إلى داخل طائرة عائداً إلى الجزيرة العربية. ولم يكن غير مهتم بالأوسمة فحسب، وإنما كان يتجنب أيضاً وضع تلك الأوسمة والأوشحة التي كان يمتلكها. وقال عنه الكابتن فردنياند توهي في معرض حديثه عن المآثر والأعمال البطولية «للفيلق أو الجهاز السري»: لقد منح الكولونيل لورنس وسام الزمالة تكريماً لخدماته. كما أوصي به فعلياً لمنحه وسام صليب فيكتوريا، إلا أنه لم يمنح له ذلك الوسام الرفيع لأنه لم يكن هناك ضابط كبير الرتبة شهد مآثره وأعماله البطولية، وهو سبب واهٍ يظهر بأنه كان هناك دليل

أكيد على أن تلك المآثر والأعمال البطولية قد جرت بشكل حقيقي. ومع أن لورنس قد رشح النيل وسام صليب فيكتوريا، ونال وسام زمالة باث، إلا أنه لم يحضر أي احتفال يتعلق بتقديم واستلام هذا الوسام، كما طلب من أصدقائه بأن يتجنبوا أو يهملوا مسألة متابعة التوصية بوسام صليب فيكتوريا. كما أنه وقف جانباً عندما كانت هناك فرصة لأن يصبح جنرالاً عندما كانت قوته تقوم فعلياً بأداء دور الجناح الأيمن لجيش اللنبي، وعندما كان أيضاً يقوم فعلياً بشغل دور أو رتبة عميد. كما أنه رفض أيضاً قبول وسام الفروسية. وعندما سألته لماذا لم يرد أن يصبح فارساً، أجاب قائلاً: «حسناً، إذا ما أصبحت فارساً، فإن خياطي سيسمع بذلك وسيضاعف فواتير حسابي. فأنا لدي مشكلة كافية في دفع حساباتي له الآن».

ومن خلال معرفتي الدقيقة للورنس فقد كان هناك شيء واحد أراد أن يخرج به من الحرب، وكان هناك شيء ما لم يحصل عليه. سألته مرة إذا ما كان هنالك أي شيء يمكن أن يجلب بالمال ولم يكن يستطيع الحصول عليه، إلا أنه يحب أن يحصل عليه، فأجاب قائلاً: «كنت أحب أن أحصل على سيارة رولزرويس وإطارات كافية ووقود يكفيني مدى العمر».

والسيارة المعينة التي أحب أن يحصل عليها كانت تلك الرولزرويس التي تدعى «السديم الأزرق» والتي كان يستخدمها خلال بعض تفجيرات ونسف السكة الحديد والإغارات حول دمشق. ولكن بعد انتهاء الحرب أجريت عليها صيانة كاملة وأصبحت السيارة الخاصة للنبي في مقر سكنه بالقاهرة.

غالباً ما انتقد لورنس لرفضه النياشين والأوسمة التي منحت له. إلا أن حقيقة الأمر هي أنه رفضها لكونها غريبة وشاذة. فعلى سبيل المثال، قبل الحرب قدم له الوسام المجيدي من قبل سلطان تركيا لقاء إنقاذه أرواح بعض الألمان الذين كانوا يعملون على إنشاء خط برلين بغداد عندما هاجمهم رعاع من السكان المحليين.

وبعد ذلك، وقبل وقت قصير من اندلاع الثورة العربية، وبينما كان لا يزال ملازماً في القاهرة، فقد تلقى عدداً من الأوسمة بما في ذلك وسام «فيلق الشرف». إلا أنه رفض

الجوائز والأوسمة التي قدمت له لما قام به وأنجزه في الجزيرة العربية، لأنه كان يدرك من البداية تماماً بأن الحلفاء، عندما يحققون النصر، فإنهم سيجدون من الصعب ليس فحسب أن يوفوا بمطالب العرب، وإنما حتى أن يوفوا بالتزاماتهم تجاه قادة الحجاز. وأدرك تماماً بأن الفرنسيين كانوا مصممين على احتلال سورية، وأنه كان يعرف بأنهم لن يوافقوا أبداً على أن يحتفظ العرب ولو بدمشق لوحدها. لذلك فقد شعر لورنس بأنه غير معني بقبول أي شيء مقابل القيام بحملة ترتكز على وعود لا يمكن للحلفاء أن يفوا بها. وربما يكون قد شعر بطريقة أو بأخرى أن صديقه الأمير فيصل سيتوج ملكاً على بغداد بعد أن يفقد عرش سورية. ولكن في نهاية الحرب لم يكن أحد يحلم بأن فيصل كان ماضياً ليصبح مؤسساً لحكم جديد في مدينة هارون الرشيد بعد أن يخرجه الفرنسيون من دمشق.

إن التقدير الوحيد الذي قبله لورنس وربما كان عزيزاً جداً على قلبه أكثر من أي تقدير آخر، وهو زمالة كلية «كافة الأنفس» (أوول سولز) بجامعة أكسفورد. فهذه الزمالة تمنح عادة لرجال استثنائيين يحققون إنجازات فلسفية وعلمية. ولا يوجد سوى عدد قليل من الرجال الذين حصلوا على هذه الزمالة، وخصوصاً أولئك الرجال الذين أنجزوا أعمالاً تاريخية وأدبية وعلمية بارزة. وقد أبلغني لورنس مرة بأنه لا يوجد هناك سوى ثلاثة متطلبات من أجل الحصول على مرتبة الزمالة في كلية «أوول سولز»، هي أن تكون جيد اللباس، وأن تكون ماهراً في محادثة قصيرة، وأن تكون خبيراً في شرب الخمر، وأضاف: «إن الملابس تعتبر بغيضة بالنسبة لي، وكوني متحدثاً لبقاً فهذا بعيد جداً، وإنني لم أشرب الخمر مطلقاً، إذن فمجيء هذا الشرف والتقدير إلي هو أمر غامض».

بعد انتخابه لزمالة كلية «أوول سولز»، قسم لورنس وقته ما بين الكلية وبيت صديق له في ويست منيستر عرف «بالبيت ذي الباب الأخضر»، وفي بيته الريفي الصغير الذي كان يقع في غابة اينبيغ.

وقال بواب كلية «أوول سولز» إنه لم يكن يعرف أبداً أو يتوقع متى يمكن أن يأتي لورنس للكلية، ذلك أنه عندما يكون في السكن فإنه نادراً ما كان يراه يتناول الغداء أو العشاء مع زملاء آخرين، وأن النور في غرفته غالباً ما يكون مضاءً طيلة الليل. فلا شك

أنه كان ينشغل بقراءة كتاب عربي. إلا أنه كان ينجز جميع كتاباته في المنزل «ذي الباب الأخضر»، حيث كان يشغل غرفة جرداء كانت تستخدم كمكتب لمهندس. وأهداه أحد أصدقائه معطف فرو لطيار، كان يستخدمه عندما يحل برد لندن القارس، ويجلس في تلك الغرفة ليكتب قصة ما من تجاربه في بلاد العرب البعيدة.

وفي رحلاته المتكررة إلى أكسفورد كان يحمل معه مخطوطة في حقيبته سوداء صغيرة كمثل تلك التي يستخدمها مراسلو البنوك في لندن. وفي مناسبة ما، وبعد أن ذهب من خلال البوابة إلى رصيف محطة بادينغتون، وضع الحقيبة على الرصيف لبرهة وذهب ليستعرض عناوين بعض أنباء الصحف المعروضة على الرصيف. وعندما رجع لم يجد الحقيبة. ولم تكن تحتوي سوى على النسخة الوحيدة لمخطوطة مؤلف من مائتي ألف كلمة، كتبها جميعها بخط اليد، كما احتوت أيضاً على يومياته التي كان يدونها خلال الحملة في الجزيرة العربية، والعديد من الوثائق التاريخية الأصلية القيمة والتي لا يمكن أن تعوض أبداً. ورأيته بعد بضعة أيام من الحادثة، وقال وهو يسرد لي حادثة السرقة ضاحكا: «لقد تجنبت مشكلة كبيرة، وعلى كل حال فإنه من الجيد أن الحقيبة قد سرقت، فالعالم ببساطة قد استغنى عن كتاب حربي آخر». ولم تظهر الحقيبة أو يسمع عنها ثانية أبداً. وكانت وجهة نظر لورنس أنها ألقي بها في نهر التايمز من قبل لص خاب ظنه كان يأمل أن تكون بها ثروة جيدة. بيد أن أصدقاءه أقنعوه أخيراً أن يعيد كتابة كتابه؛ وفي هذه المرة ولكي يجد ملاذاً ومكانا بعيداً عن المعجبين المتطفلين الذين كانوا يضايقونه دائماً وباستمرار في كلية «أوول سولز»، ولكي يحمل معه وسائل حفظ الجسد والروح معاً، فقد تطوع في سلاح الجو الملكي تحت اسم مستعار «روس». إلا أنه حتى هناك لم يكن قادراً على إخفاء هويته، وما لبث أن رأى نفسه تحت الأضواء ثانية، حيث نشرت صحيفة لندنية خبراً عنه. وقبل ذلك ببضعة أسابيع وافق على بيع حقوق نشر كتابه لقاء مبلغ كبير، ولكن عندما ظهر هذا الإعلان غير المتوقع ألغى عقده مع دار النشر، وترك سلاح الجو، واتصل برؤساء تحرير صحف عديدة ومختلفة طالباً منهم أن يتركوه يعيش بسلام وأن لا ينشروا أخباراً عنه ومن ثم اختفى ثانية.

كان من إحدى هوايات لورنس طباعة الكتب باليد. ولم تكن لديه سوى بضعة أشياء فقط يحبها أكثر من شغفه بالكتب الشيقة، وكانت لديه مكتبة قيمة لمجلدات نادرة مطبوعة باليد. وعلى حافة غابة ايبينغ، التي تبعد حوالي عشرة أميال عن لندن، بنى لنفسه كوخاً صغيراً وألحق به مطبعة يدوية صغيرة. وعندما انتهى من كتابه عن الجزيرة العربية طبع منه ست نسخ. قدم معظمها لأصدقائه، وأرسل نسخة منه إلى مكتبة المتحف البريطاني على أن يغلق عليها أو توضع في غرفة مغلقة لمدة أربعين سنة، بحيث لا يمكن لأحد أن يجبره على أن يطلق سراحه من أجل النشر. وقرأ الكتاب كل من روديارد كيبلنغ، جورج برناردشو، وعدة أشخاص من أصدقاء لورنس الأدباء، وقد أعلن واحد من أعظم الكتاب شهرة في الوقت الحاضر بأنه يعتبر هذا الكتاب «هرماً في الأدب الإنجليزي».

كان للورنس قدرة أدبية عظيمة وأسلوب خاص به. فقد كان فريداً في كتابته وفي كل شيء كان يقوم به. وقد صدر له عدد من المقالات والمواد اللامعة المشهورة من نتاج قلمه منذ أن وضع جانباً سيفه الذهبي المعقوف الخاص بشريف مكة جانباً؛ وقد كتب مقدمة لكتابه المزمع نشره في نسخته الجديدة «الصحراء العربية»، والذي اتفق الجميع على أنها طبعة كلاسيكية قيمة.

كان تمكّنُ لورنس من اللغة الإنجليزية مذهلاً، وسبب ذلك، بالطبع، هو إتقانه للغات التقليدية ومعرفته بكل من اللغات القديمة والحديثة. وكانت مفرداته واسعة أكثر من معظم الأساتذة المتعلمين، وكانت لديه قوة وصف عظيمة.

وبالرغم من ازدرائه للمال في الحياة الخاصة، وافتقاره إليه أيضاً، إلا انه عندما كان في الصحراء كان لديه تقريباً حساب مفتوح وكان يمكنه أن يسحب من حكومته عدة مئات آلاف من الجنيهات. وكان غريبا ومشهداً غير عادي أن يرى وهو يختزن عشرة آلاف من الجنيهات الذهبية في جيب سرج جمله وفي الجيب الآخر من السرج يكون هناك أيضاً عشرة آلاف جنيه ذهبي. ومن ثم يمضي بها، يرافقه عشرة أو اثنا عشر رجلا من الحراس البدو. وفي مناسبة ما سحب لورنس مبلغا تافها قيمته ستمائة جنيه من الميجور سكوت

ليقوم بتسوق صغير. وحفظ الميجور سكوت صناديق الجنيهات الذهبية في خيمته في مركز القيادة بالعقبة. وسمع الميجور مينارد، الذي كان مسؤولاً عن بعض السجلات بذلك، فطلب إيصالاً بالمبلغ الذي أخذه لورنس. وعندما أبلغ سكوت لورنس بذلك ضحك بصوت عالٍ وقال «سيحصل على ذلك» واكتشف بعد ذلك أنه كان الإيصال الوحيد الذي وقعه لورنس. وبالنسبة للرسائل التي كان يتلقاها عندما كان في الصحراء، فغالباً ما كان يقرأها، ومن ثم يحرقها ولم يزعج نفسه أبداً بالإجابة عليها.

كان لورنس مغرماً بالسجاد الشرقي ويقتني الكثير وبخاصة النادر منه خلال ترحاله. فكان يوجد على أرضية خيمته في العقبة سجادتان جميلتان. كان لورنس ينام على إحداها، في حين كان يستخدم الأخرى زميله في الخيمة الميجور مارشال ويضعها على سريره. وإحدى هاتين السجادتين أرسلت إلى الليدي اللنبي، بينما أخذ مارشال السجادة الأخرى. وفي أحد الأيام أثناء وجوده في سوق جدة، رأى لورنس حلاقاً يجلس على سجادة صلاة أعجبته وكان فيها ثقبان مساحة كل واحد منها من ثلاث إلى أربع بوصات، وقدم الحلاق السجادة للورنس لقاء جنيهين، واشتراها لورنس. وعندما أخذها معه إلى القاهرة استحسنت من قبل أحد تجار السجاد الكبار في مصر، فقد وجد أنها تساوي حوالي سبعمائة جنيه بعد إصلاحها. لذلك فقد أرسل لورنس إلى الحلاق ورقة نقدية من خمسة جنيهات، تعويضاً له. وكان يوجد في منزل والدته في أكسفورد مجموعة من السجاد الشرقي وقطع السجاد الأخرى، كان غبار الشرق لا يزال عالقاً عليها. وحدث أن تزوج صديق للعائلة في وقت كان فيه لورنس غائباً فيه عن البيت، فأرسلت والدته واحدة من قطع السجاد كهدية زواج لذلك الصديق. وعندما عاد الكولونيل لورنس أخبرته والدته بذلك، وقالت له إنها افترضت بأن العريس كان لا يستحق أكثر من ذلك. فأجابها لورنس قائلاً: «إن السجادة التي أرسلتِها كلفتني 147 جنيهاً». إلا أنه مع ذلك لم يهتم أو يغتظ للأمر ونسيه تماماً.

وبعد مرور عام وخلال وعده أنه سيخدم كمستشار لشؤون الشرق الأدنى بوزارة المستعمرات البريطانية. وضع لورنس قبعته على الطاولة وغادر الوزارة. ومنذ ذلك الحين

فقد وجد عملاً مرهقاً جديداً لطاقته الزائدة. فقد قابل ضابطاً كانت لديه دراجة نارية ذات قوة عالية بحيث لا يقدر عليها ذلك الضابط. فاشتراها لورنس، وجاب بها أنحاء إنجلترا تماماً كما كان يفعل سابقاً حين كان يعدو ويسرح في صحراء الجزيرة العربية الشمالية بمركبة الرولزرويس «السديم الأزرق».

عندما تخرج في جامعة أكسفورد عقد هو وأحد زملائه اتفاقاً مهيباً أنه إذا ما قام أحد منهما بعمل أي شيء رائع أو استثنائي بشكل خاص فإنه سيبرق لزميله الآخر من أجل الاحتفال بذلك.

في عام 1920، أبرق لورنس إلى صديقه بما يلي: «احضر حالاً. لقد أنجزت شيئاً ما». وكانت ذلك أول اتصال تم بينهما منذ أن كان الاثنان في الكلية قبل الحرب. وعندما وصل صديقه، كان ما أنجزه لورنس واعتقد أنه جدير بالاحتفال هو أنه انتهى من بناء كوخه على حافة غابة ايبينغ، التي كان يحتفظ فيها ببعض البقر.

تعتبر غابة ايبينغ شبه محمية وطنية من نوع ما، وهناك قانون يمنع بناء أو إقامة أبنية ثابتة فيها. لذلك فإنه بعد أن فرغ من بناء كوخه حضرت الشرطة وبينت له بأنه قد خرق القانون بسبب بنائه منزلاً ثابتاً في الغابة. فما كان منه إلا أن اشترى بعض الطلاء ورسم أربع عجلات تمويهية على جوانب الكوخ. مما أقنع السلطات كثيراً وقالوا له: لا شيء يمس القانون بذلك. ولكن لم يمض وقت طويل حتى نشب حريق أزال كل شيء كان يملكه لورنس فيها.

وماذا سيحدث للورنس مستقبلاً فالله وحده يعلم ذلك. وهناك شيء مؤكد بأنه لن يسمح لبلاده أن تصبح بطلة من دونه. فصانع التاريخ تكون له فرصة أخرى ليصبح طالب تاريخ. ولكن قد يعيش لورنس ليرى تأثير الموجة التي امتدت عبر الصحراء ، في شكل قوة جديدة مهمة في الشرق. وكنتيجة لحرب التحرير العربية، والتي لم تكن حلماً غبياً على ورق، ونتيجة للحملة الساحقة لقوات اللنبي في فلسطين وسوريا، فقد نشأت هناك ثلاث دول عربية جاءت إلى الوجود؛ مملكة الحجاز تحت حكم الحسين الأول، دولة شرق الأردن المستقلة تحت حكم الأمير عبد الله، نجل الملك الحسين بن علي، والملك

فيصل على العراق، وهو الابن الثالث للملك حسين. وقد خلف الملك علي والده في الحكم في مكة.

ربما مرة في كل بضع مئات من السنين، يأتي شخص يمكنه أن يفهم عادات وأديان الشرق. رجال مثل ماركوبولو، والجنرال تشارلز جوردون. وهذا الرجل هو ثوماس ادوارد لورنس، الفارس العربي الحديث.

* * *

ملحق الصور

الكولونيل (العقيد) توماس إدوارد لورنس، رجل الجزيرة العربية الغامض.

لورنس العرب على شرفة مقر الحاكم البريطاني للقدس في أوائل القرن العشرين.

صحراء الجزيرة العربية.

لورنس عالم الآثار والشاعر الذي تحول إلى مقاتل.

لورنس في مقر القيادة العامة البريطانية في القاهرة.

شيخ مؤذن يدعو المؤمنين للصلاة.

لورنس على جمله السبّاق.

الأمير فيصل الذي أصبح ملكاً على العراق.
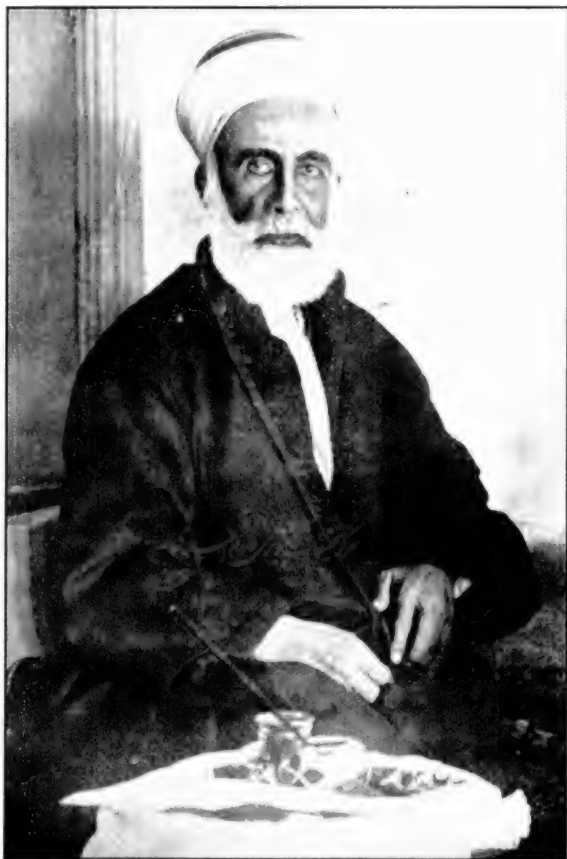
الحسين الأول بن علي ملك الحجاز وأمير المؤمنين، مؤسس الدولة العربية الحديثة.
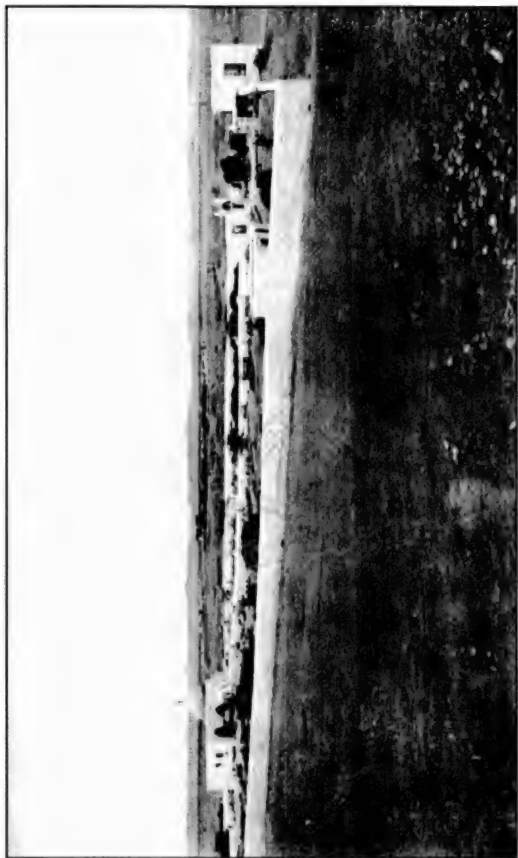
مقام أم البشر جميعاً حواء.
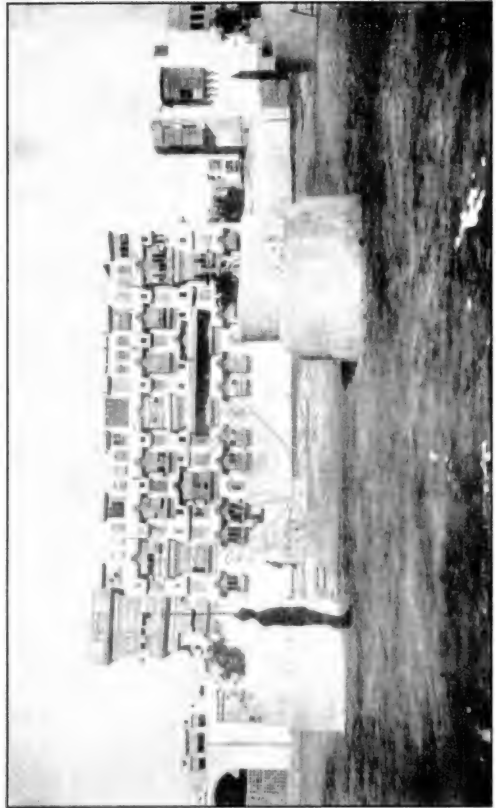
نُزل رسمي في الجزيرة العربية يحتوي على مائتي غرفة ويتسع لألف من الضيوف إلا أنه لا يحتوي على الخدمات الضرورية.

لورنس في زيه العربي.
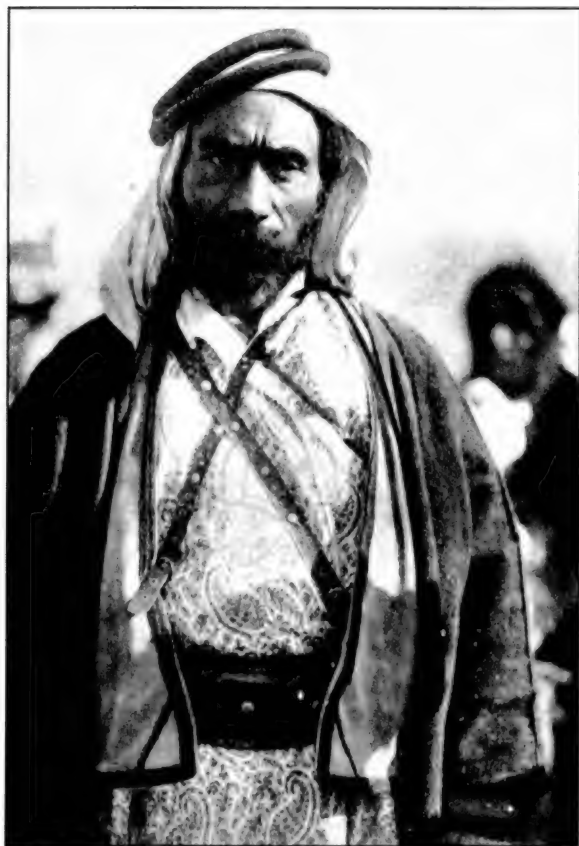
شيخ قبيلة عربي.

لورنس ومؤلف الكتاب.

لورنس خارج خيمته.
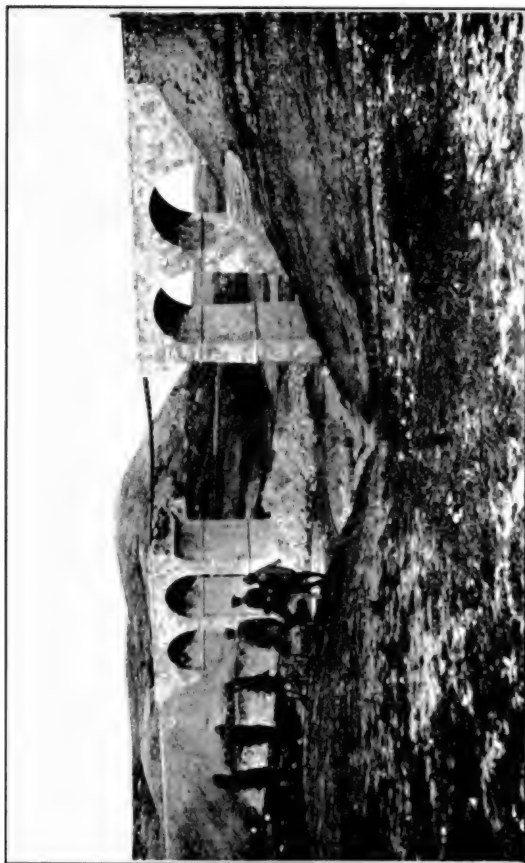
مدى تأثير انفجار على جسر خط سكة حديد تركي.

حطام طائرة في الصحراء.
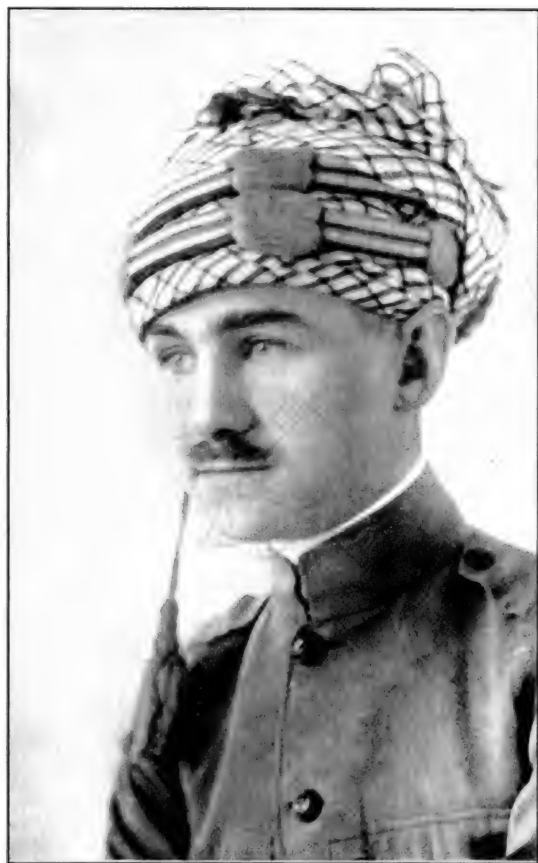
لويل ثوماس مؤلف الكتاب.
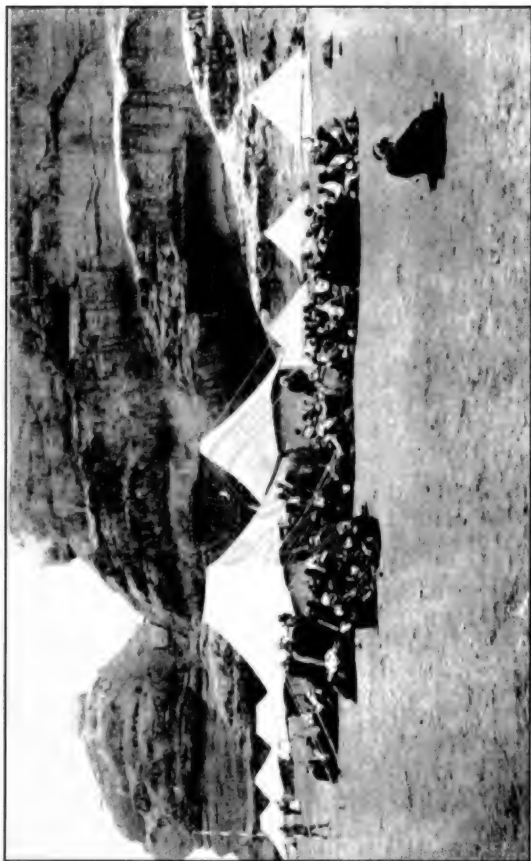
مجلس حرب في الصحراء.

الشيخ عودة أبو تايه (إلى اليسار) والشيخ محمد أبو تايه (إلى اليمين).

لورنس في ثياب عربية.

شاطئ على خليج العقبة.

لورنس الحالم الذي أصبحت أحلامه حقيقة.

من عالم آثار إلى بطل عالمي في تدمير القطارات التركية.
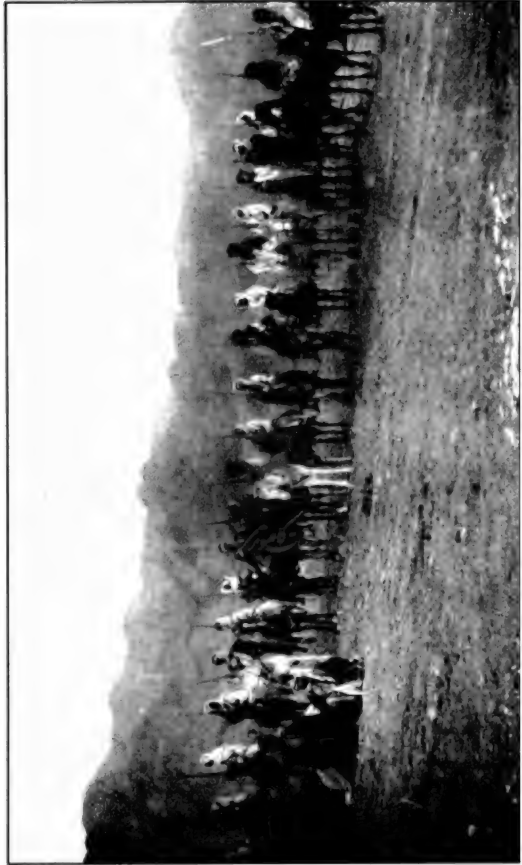
قوات بدوية غير نظامية تستعد لشن غارة على الترك.

البدو كانوا مغرمون بالمسدسات وساعات اليد والمناظير الميدانية.
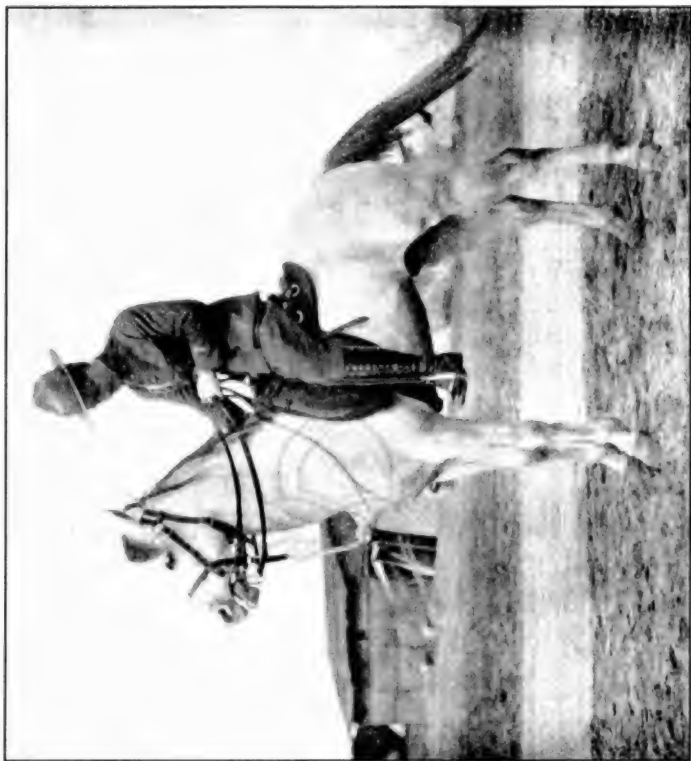
جواد عربي أصيل.

مشهد بالقرب من «المدينة المفقودة» البتراء.
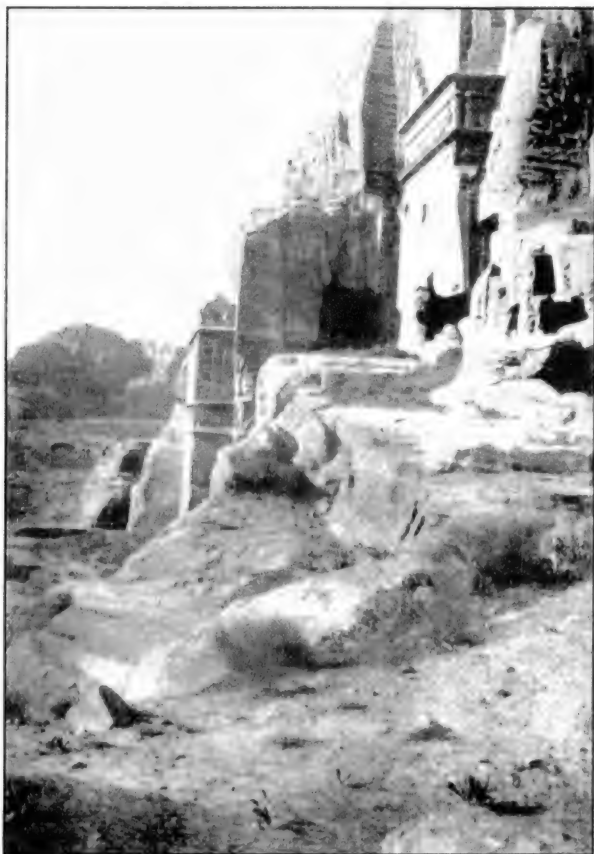
مشهد لمدينة البتراء الصخرية.

مشهد الخزنة لمدينة البتراء الوردية الصخرية.
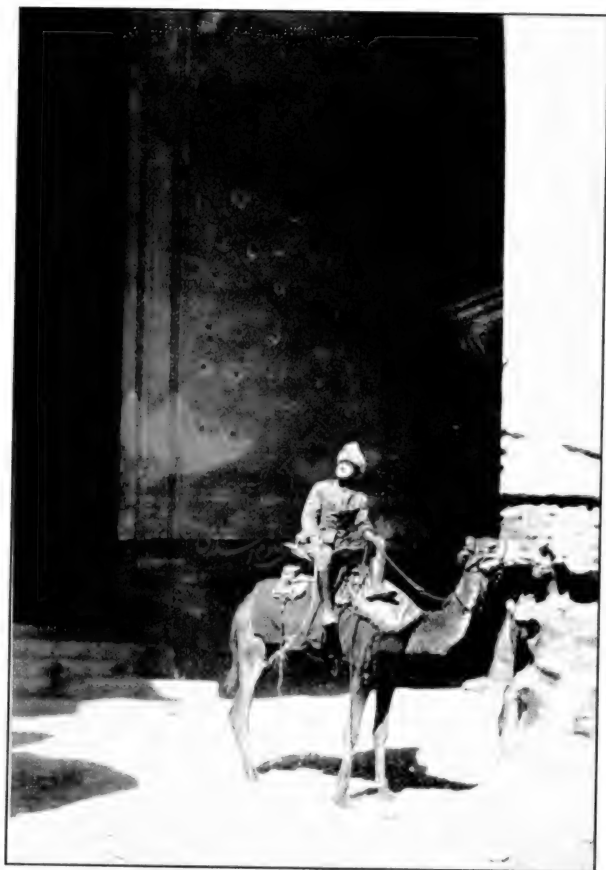
المؤلف في مدينة البتراء الأثرية.
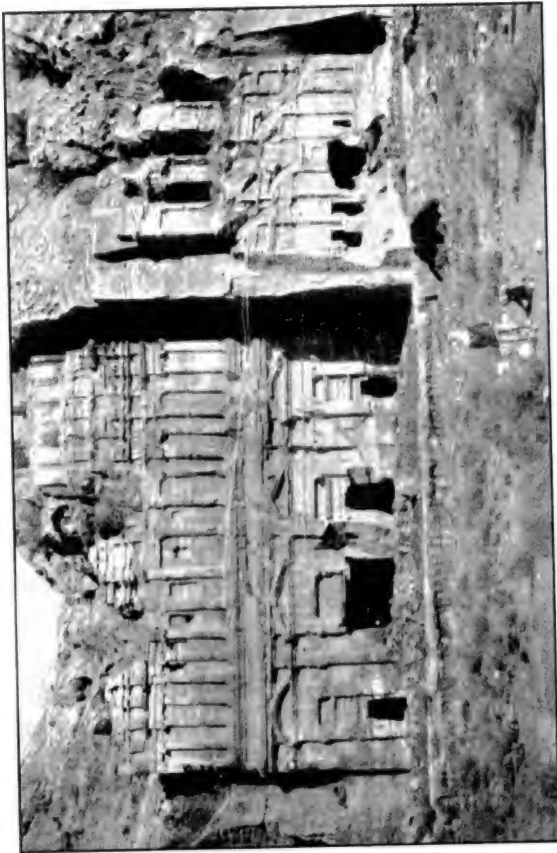
آثار المعبد المؤلف من ثلاث طوابق.

المدينة العجيبة البتراء المخفية في الصحراء.

امرأة عربية في زيها العربي القديم.

لورنس متخفياً في لباس امرأة غجرية سورية ليقوم بالتجسس خلف خطوط العدو.
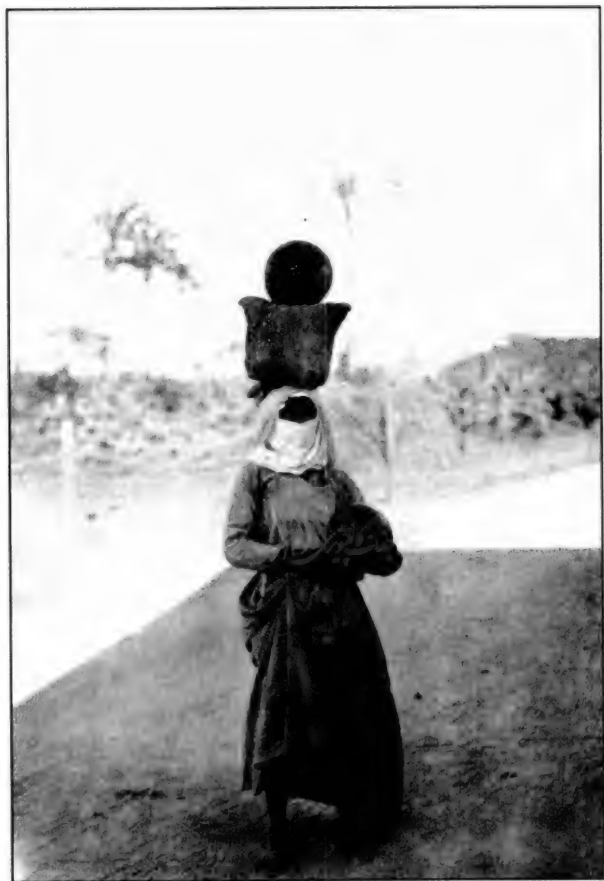
امرأة سورية ريفية في أوائل القرن العشرين.

امرأة مصرية ترتدي اليشمك أو الحجاب وهو زي الحريم في ذلك الحين.
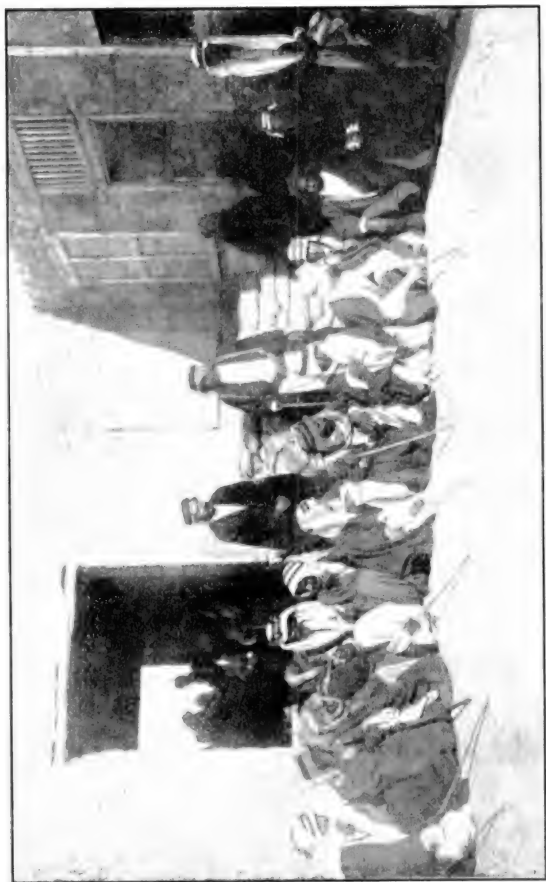
الأمير فيصل ولورنس يتشاوران مع شيوخ البدو.

الأمير فيصل ممتطياً جواده.

القائد البحري هوغارت كان له دوراً في الثورة العربية.

الكولونيل داوناي من سلاح الخيالة البريطاني.

الكولونيل جويس قائد القوات النظامية العربية حينذاك.

عربات مدرعة في الصحراء العربية.

مدافع صحراء تقوم بالقصف.
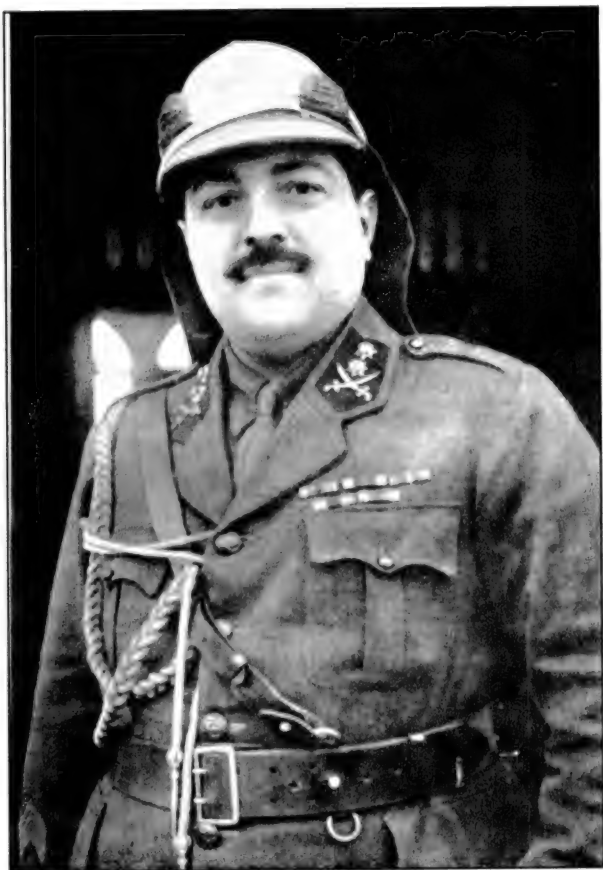
الفريق جعفر العسكري من العراق.
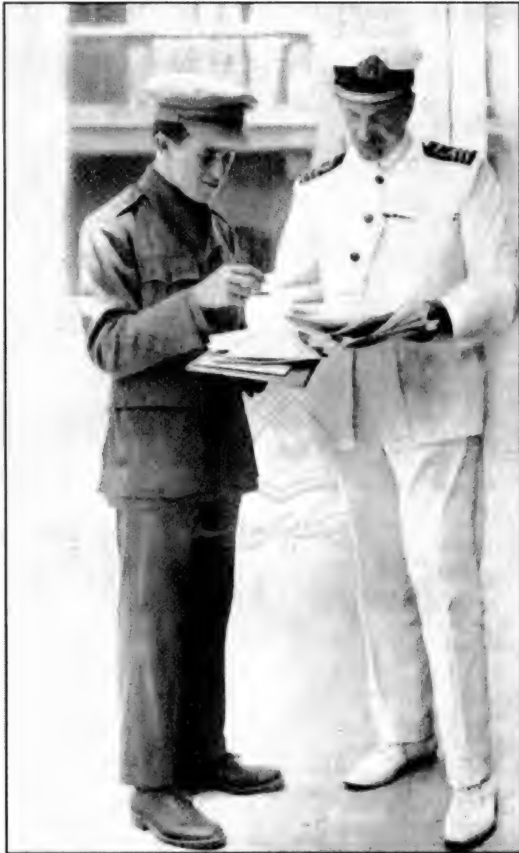
الكولونيل لورنس يتباحث مع أحد مستشاريه في المكتب العربي البريطاني بالقاهرة.

الكولونيل جويس.

فيصل ملك العراق.

الأمير فيصل في مؤتمر السلام بباريس وخلفه عن اليمين الجنرال نوري السعيد ثم لورنس ثم الرائد بيزاني قائد الكتيبة الفرنسية العربية في الجزيرة.

محارب عربي بدوي حينذاك.

صورة رسم لمؤلف الكتاب.

لورنس في ثيابه العربية الأسطورية.

بدوي من جبال العرب

لورنس عندما حاز على لقب شريف.
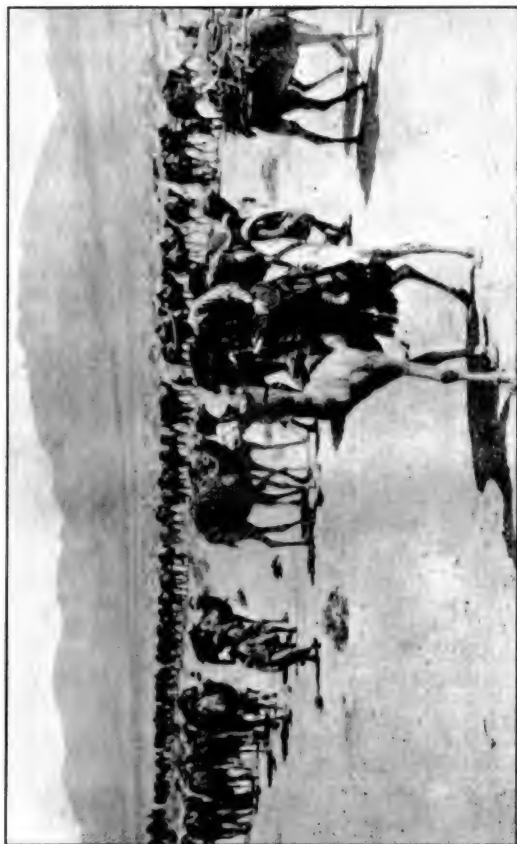
قافلة جمال في وادي عربة.

الملك فيصل الأول، ملك العراق والفلد مارشال فيسكونت اللنبي.

الفيلد مارشال فيكونت اللنبي.
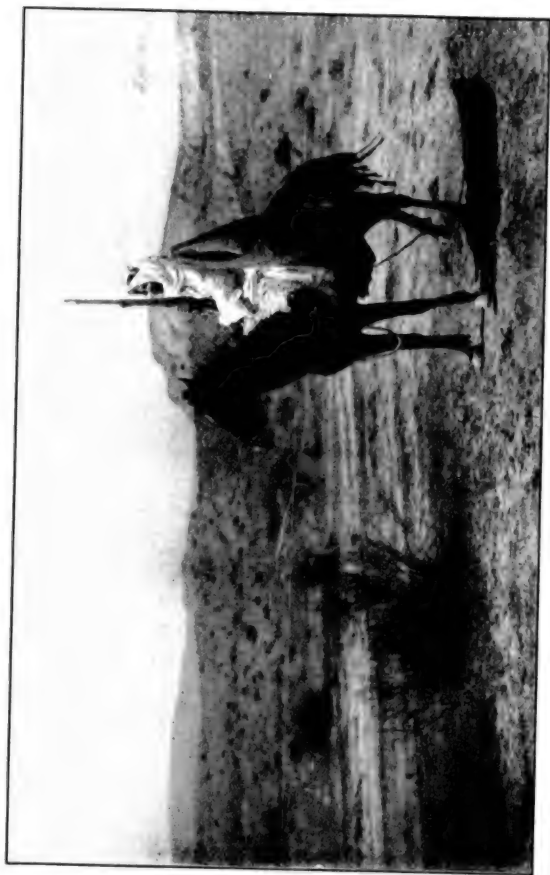
الشيخ طلال الحريدين من قرية طفس السورية.

قروي سوري في ذلك الحين.

الكولونيل لورنس في زي عربي آخر .

الجنرال التركي فخري باشا قائد حامية المدينة التركية.

لورنس يتباحث مع زعماء قوميين من دمشق وبغداد.

لورنس الأسطورة.

فهرس